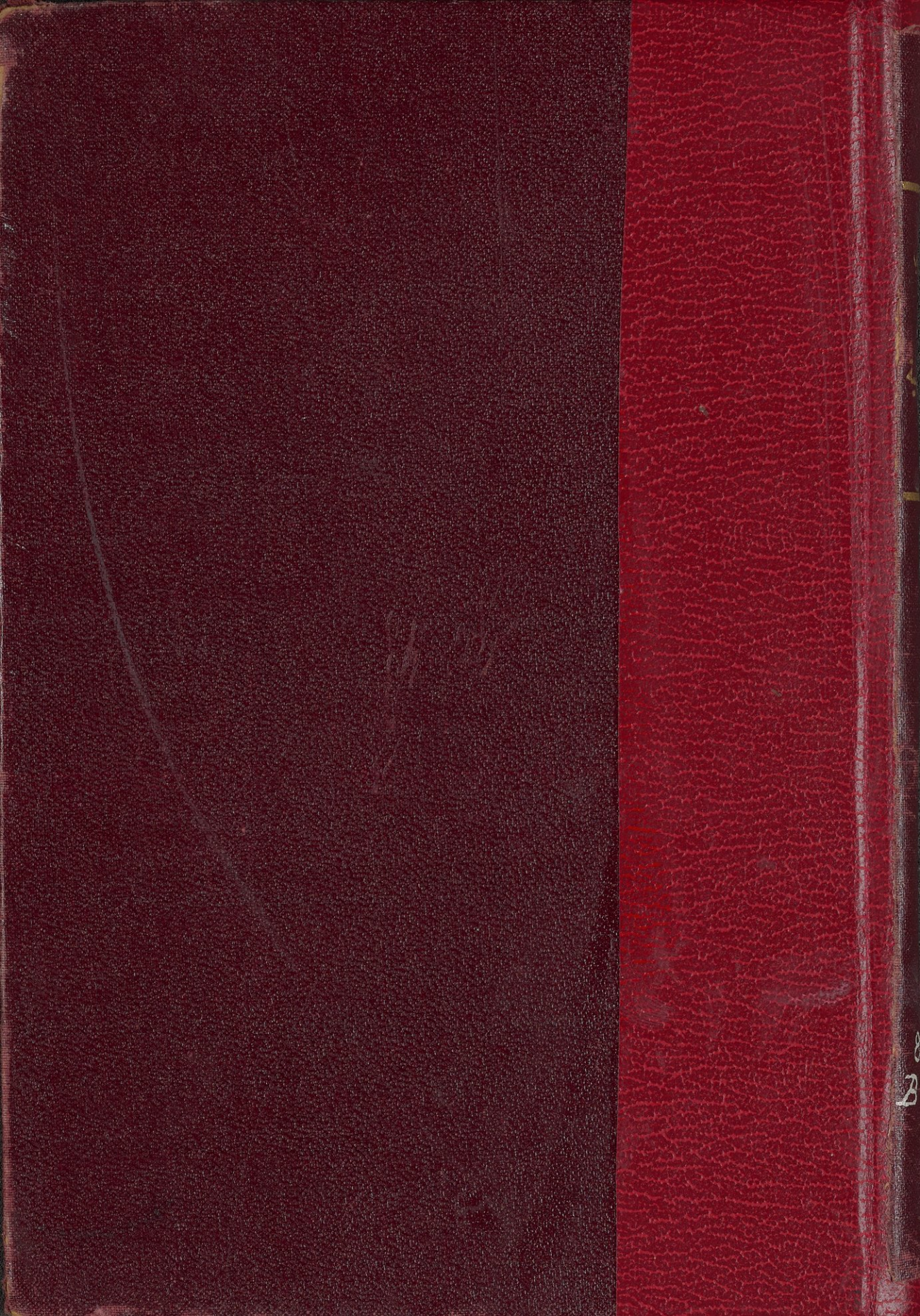




A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY

٥٧
الأنبياء والعصاة

في

الأعصر العباسية

مبانيهم آثارهم نقدناهم

تأليف

بطرس البستاني

— الطبعة الثالثة منقحة —

67992

مكتبة صادر

بيروت

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مقدمة

١٧٣٤

هذا الكتاب الثاني من ادباء العرب ، يشتمل على خصائص آداب العباسيين
علمهم ، وميزات شعرائهم وكتائبهم ، مع استفادة في النقد والتحليل ، لان
العصر ، عصر حضارة العرب لما يُتاح له بعد بحث شامل يجلو حقائقه ،
يكشف عن كنوزه .

واضطارنا الى الامعان في البحث ، جعلنا نجترى بطائفة معدودة من الشعراء
الكتاب . وقد سائرنا في اختيارهم نظام البكالوريا ، وهم ، وان كانوا فيحول الشعر
النثر ، لا يستقرون في المنزلة العليا وحدهم ، بل يشركهم فيها جماعة آخرون لم نجد
من اغفلهم ، لان الإحاطة بهم جميعاً غير ميسورة في كتاب معد للتدريس .
ورأينا ان لا نخلط الادب الاندلسي بالادب الشرقي ، فعل من تقدمنا من مؤرخي
ادب ، لان العوامل التي اثرت فيه غير العوامل التي اثرت في ذاك . وان له ميزات
صحة تجعله مستقلاً ، منفصلاً عن ادب العباسيين . فأثرنا ان نرجئه الى الكتاب الثالث
نخصه ببحث منفرد ، ونضم اليه عصر الانبعاث ، وكلاهما يفتقر الى درس صحيح ،
هما لا يزالان في عزلة تامة عن اقلام النقاد . واما عصر الانحطاط فسنلهم به الماماً ،
بين ميزته السياسية والادبية ليطرد لنا الحديث الى عصر الانبعاث ، والله ولي
الفيق .

بطرس البستاني

بيروت في ١٧ شباط ١٩٣٤

العصر العباسي الاول

(٧٥٠ - ٨٤٦ م و ١٣٢ - ٢٣٢ هـ)

« يتبدئ بقيام الدولة العباسية »

« وينتهي بخلافة المتوكل على الله »

ملحة تاريخية

اسباب سقوط الامويين

الاحزاب السياسية . الشعوبية . ترف الامويين واهمالهم . شقاق البيت المالک . الدعوة العلوية . الدعوة العباسية . ميزة العصر

١ الاحزاب السياسية

عرفنا في كلامنا على صدر الاسلام ان الدولة الاموية قامت على كره من الانصار، ومن القرشيين انسابها . فناوؤها جميعاً، ولا سيما بعد ان نبذت الشورى في الخلافة، وجعلتها ملكاً عضوضاً .

ثم نشأت الاحزاب السياسية ، فكانت بعض الاسباب القوية التي اودت بملك بني امية فتركته اثرأ بعد عين . فان قيام الزيبريين في الحجاز، والحوارج في الجزيرة، والشيعة في العراق ، فت في ساعد الامويين ، وجعل مملكتهم دريئة للشورات والدسائس حتي اذا تبين الضعف عليها، طمع فيها الخصوم، فقاموا يكيدون لها في السر والعلانية .

ولم يكن زوال الحزب الزبيري ليرد الراحة على بني أمية . والشيعيون والخوارج ايقاظ لا تنام لهم عين . والشعبوية يدسون للعروش ، ويتحينون الفرص لدكه من اساساته .

٢ الشعوبية

حمل الفتح الاسلامي للعرب شعوباً كثيرة دانت لهم فبسطوا سلطانهم عليها ، واثقلوا كواهلها جزية وخراجاً . واستاقوا منها الاسرى والسبايا ، فاستعبدوهم واذلواهم . ثم اطلقوا على من اعتق منهم لقب الموالي^١ .

على ان هذه الشعوب المتوترة لم تكن لتنام على الضيم طويلاً . وفيها امم عربية في حضارتها ، عادية في استقلالها ، تأبى الخنوع لقوم غزاة خرجوا من صدر البادية حفاة عراة ، فاكثسحوا الشرق والغرب بسنابك خيولهم . وافادوا من فتوحاتهم مالا وفراً ، فأيسروا بعد فقر ، وأترفوا بعد شظف وخسونة .

فاسلم كثير من هذه الشعوب المغلوبة رجاء ان يجدوا في اسلامهم نصفاً ومساواة . ولكن العرب الفاتحين اسكرتهم نشوة النصر ، واخذتهم غرة السلطان . ولا سيما بعد ان خضعوا مملكة فارس ، واقتطعوا جزءاً كبيراً من بلاد الروم فباتوا ينظرون الى كل عجمي نظرة ازدراء واحتقار . وحق لهم ان يعتزوا ببطشهم ، فقد كان العالم يومئذ مشطوراً بين كسرى وقيصر ، فجمعوا اليهم شطريه . فزلزل الايوان ، وتقلص ظل الروم .

فلذلك لم يجد الدين اسلموا من الاعاجم ما كانوا يرجون من كرامة وانصاف . مع ان فيهم من حسن اسلامهم . وفيهم من اتقنوا اللغة العربية ، وبرعوا فيها ، فخرج منهم الكتّاب والشعراء . وتبحروا في العلوم الدينية ، فكان منهم الفقهاء والمحدثون . وتولى بعضهم المناصب العالية كالقضاء والحجابة^٢ . فامضهم ان يهونوا على العربي

١ الموالي جمع المولى وهو كل عجمي يسترق ثم يعتق فينسب الى اسرة معتقه او الى قبيلته . ولكن لا يحق له ان يتزوج قرشية او عربية .

٢ الحجابة هي التي يتولى صاحبها الاذن للناس في الدخول على الملك او السلطان

فيأنف ان يزوجهم بناته، وهو لا يتورع من التسري والاستمتاع بنسائهم . وساء هم
 ان يروا من خلفاء بني امية ايثاراً للعرب، وتعصباً على العجم . فقد كان المولى يساق
 الى الحرب ماشياً، لا يعطى غنيمة ولا فيئاً . فلا غرو ان يتولد في نفسه كره شديد
 للعربي، ويتمنى زوال ملكه، ويكيد للعرش الاموي تحلصاً من جورده واستبداده
 فمن هنا نشأ حزب الشعوبية يضم اليه ابناء الامم المقهورة، متحدين على بغض
 العرب والتقص منهم، وذكر مثالهم، وتفضيل العجم عليهم . ولكنهم كانوا
 ضعافاً في شباب الدولة الاموية فلم يرتفع لهم صوت حتى آانسوا الضعف في جسمها،
 والانحلال في أعضائها، فعضدوا العباسيين على امل ان يكونوا لهم خيراً من الامويين
 وابقى .

٣ ترف الامويين واهمالهم

كان العهد الاموي عهد ثورات وحروب، فلم يبت خلفاؤه ليلة الا على عصيان
 يتأهبون لقمعه، او على مكيدة يحاولون ردها . وكان لهم في بدء امرهم من القوة
 والسلطان ما مكنتهم من فحور اعدائهم . ولكن لم يلبثوا ان تسلل الضعف اليهم
 لتتفاقم الثورات من جهة، ثم لانغماسهم في الترف من جهة اخرى . فانهم انصرفوا
 الى اللهو والخمر والمجون . واصبحوا لا يهتمون بتأييد سلطانهم ولا يُعنون بانتقاء
 عمالهم فان هشام بن عبد الملك ولى نصر بن سيار اعمال خراسان، وهو يعلم ان عصبية
 فيها ضعيفة، وان خراسان لا يضطلع بامرها الا من كان قوي العشرة . فكانت
 ولايته عليها شؤماً ووبالاً، فقد اجتمعت عليه افناء اليمن وربيعة، وحاربتة لانهجازه
 الى المضرية .

وربما ولى العامل عملاً باشارة جارية، او مكافأة على هدية، فعلى هشام بالجنيدي
 ابن عبد الرحمن . وكان الجنيدي قد اهدى لامرأة هشام قلادة من جوهر، فاعجبت
 هشاماً، فاهدى اليه الجنيدي قلادة اخرى، فولاه هشام خراسان .
 وراى العمال من الخلفاء غفلة واهمالاً، فاصبحوا لاهم لهم الا حشد الاموال،

والاستكثار من الصنائع^١ والموالي. ورأى الناس الانحلال يدب في هيكل الدولة ،
فاخذوا يشقون عليها عصا الطاعة . وهم انما كانوا خاضعين كرهاً لا رغبة .

٤ سَفَاوِ الْبَيْتِ الْمَالِكِ

قيل لبعض الامويين : « ما كان سبب زوال ملككم ؟ » قال : « اختلاف
فيما بيننا واجتماع المختلفين علينا . » ومن يتتبع الحوادث التي تقدمت سقوط بني امية
يتبين له صحة هذا القول . فان الاحزاب السياسية على اختلافها في المذاهب والعقائد
كانت تسعى جميعاً لقلب العرش الاموي . فاجتمع على ذلك الخارجي والزييري
والعلوي والعباسي والشعوبي . فشرع كل واحد منهم يرمي الى هدفه من الناحية
التي ينتمي اليها . فتكاثر وقع السهام على هيكل الدولة حتى انهك بناؤه فانهار انهياراً .

وساعد اعداء الامويين على نيل ما ربههم انشقاق امية على نفسها ، فان امراءها
اخذ بعضهم يكيد لبعض ، فاضغفوا شأنهم واطمعوا الناس فيهم . ويعود سبب هذا
الانشقاق الى نظام ولاية العهد ، فانه كان يثير الضغائن بين الاخ و اخيه ، فضلاً عن
القريب وقريبه . وحسبنا ان نلقي نظرة عجيلى على طلاب ولاية العهد في صدر
الاسلام وفي العصر العباسي لنعلم مبلغ ما جرت من الويلات على الخلفاء وابنائهم .
وفساد النظام في ولاية العهد قائم على تعددها فان الخليفة كان يعقد الولاية في
حياته لاثنيين او ثلاثة من اولاده ، او لولده و اخيه . فاذا استخلف ولي العهد الاول ،
استبد بالامر ، وحاول خلع الثاني لينقل الولاية الى بنيه . فهشام بن عبد الملك لم
يشتع على ابن اخيه الوليد بن يزيد ، ويرمه بالكفر والفسوق ، وينفر الناس عنه الا
لان ولاية العهد كانت له ، وهشام يريد لها لابنه من بعده .

ومات هشام ولم يستطع خلع الوليد ، ولكنه استطاع ان يسيء الى سمعته ،
فجعل في عيون الناس كافراً زنديقاً لا يشبع من الخمر والفسق والمجون .

١ الصنائع جميع الصنعة . تقول : هو صنيعة اي الذي اصطنعه لنفسه ، ورثته
وخرجه ، واخصصته بالصنع الجميل .

ولسنا نحاول ان ندفع هذه التهمة عن الوليد فانه لم يكن بريئاً من التهمة والشك . ولكننا نعتقد انه لم يكن شرّ بني قومه . ولولا ولاية العهد ، واضطهاد هشام له ثم انتقامه من ابني هشام بضربه احدهما ، وحبسه الآخر ، لما كره الناس حكمه وثاروا به وقتلوه . ولكن السياسة صورته لهم جباراً عنيداً ، يزق القرآن ، ويستهتر بالفجور ، ويغتسل بالخمور . وصورت ابني هشام ضحيتين بريئتين يطغى عليهما الفاسق بالجس والتعذيب .

وليس من غرضنا ان نتبسط في الكلام على الوليد وقتله ، وانما نريد ان نظهر ما جرّ نظام ولاية العهد من النكبات على بني امية ، فانه رمى بينهم الشقاق ، ففترقت كلمتهم . وكان مقتل الوليد شؤماً عليهم ، وسبباً قوياً لسقوطهم ، لان الناس طمعوا فيهم واجترأوا عليهم . فأخذوا يثيرون بعضهم على بعض ليزيدوهم ضعينة واختلافاً . فلم يقيم خليفة بعد الوليد الا خرج عليه بعض ابناء عمه ، وحاربوه ونازعوه الامامة . فاصبحت البلاد في اواخر العصر الاموي ميداناً للحروب والثورات .

فيتضح مما تقدم ان عدة اسباب تواطأت على اضعاف سلطان امية ، فمن امعان في اللهو والترف ، الى غفلة واهمال في اولي الامر ، الى شقاق واختلاف في الاسرة الاموية ، الى اتفاق الاحزاب المختلفة على ازالة هذا الملك الضخم . فاحوارج يرون ان الحكم لله لا للناس ، والشعوية يطلبون الخلاص من بني امية ، لعل في تغير السلطان راحة لهم وفرجاً . والعلويون يثيرون الدعوة لانفسهم . والعباسيون يسايرونهم في بشها ، ليستغلوها منهم بعد حين .

وقد رأيت ان قول الاموي في زوال ملكهم : « اختلاف فيما بيننا ، واجتماع المختلفين علينا » يكاد يختصر اسباب الضعف كلها في البيت المالك .

الدعوة العلوية

ذكرنا في الكتاب الاول ان الحسن بن علي نزل عن الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان نفوراً من الحرب وابتغاء حقن الدماء . غير ان هذا النزول لم يرق الشيعة

العلوية، فقابلته بالسخط . ولكن لم يكن لها قبل معاوية فصبرت كارهة على أمل ان يعود الامر من بعده الى اهل البيت . وشد ما كانت خيبتها لما اوصى معاوية بالملك الى ابنه يزيد ، جاعلاً الخلافة وراثية بعد ان كانت شورى .

وما استخلف يزيد حتى نشط العلويون في الكوفة وبايعوا الحسين بن علي . فجاربه يزيد وقتل في كربلاء . فاستفزع الناس مقتل ابن بنت الرسول . ونشأ على أثره الحزب الزيري يريد نزع السلطان من يد الامويين . وازداد الشيعة حماسة وتعصباً لـعلي وابنائهم، ونقمة على بني امية . ولكنهم انقسموا فرقاً فبايعت الشيعة الكيسانية محمد بن الحنفية وجعلته امامها . ثم توفي محمد بن الحنفية، فانقلت الامامة الى ابنه عبدالله ابي هاشم، وكان عالماً جليلاً. فوفد يوماً على سليمان بن عبد الملك وهو خليفة، فرأى منه سليمان فصاحة وقوة وعلماً وعقلاً، فخافه لعله بطمعه في الخلافة . فارسل اليه من يدس له السم في اثناء رجوعه الى المدينة . فلما شعر ابو هاشم بالسم وهو في بعض الطريق عرج على الحُمَيْمَةِ وفيها محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ، فنزل عنده ، واوصى اليه بالخلافة من بعده خوفاً من ان تضع البيعة وهو بعيد عن اهله . فلما مات ابو هاشم هب محمد بن علي ينشر دعوته واثقاً بالنجاح لاكتسابه الشيعة الكيسانية ولكن المنية عجلت عليه، فاوصى الى ابنه ابراهيم الامام، فارسل ابراهيم دعاته الى خراسان لان الفرس اشد الشعوب نقمة على بني امية ، ولان اكثر الشيعة الكيسانية في خراسان والعراق .

وكان الحزب الاعظم من الشيعة يناصر عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي .

١ الكيسانية : نسبة الى كيسان مولى علي بن ابي طالب . وقيل تلميذ ابنه محمد بن الحنفية ويعتقد اتباعه انه احاط بالعلوم كلها ، واقتبس من سيده الأمرار بحملتها . وترى الكيسانية ان الامامة بعد الحسن والحسين تحولت الى اخيهما محمد بن الحنفية وتحالف بذلك الشيعة الإمامية التي تحصر حق الامامة بولد فاطمة بنت النبي .

٢ محمد بن الحنفية : هو ابن علي بن ابي طالب والحنفية امه . وكانت أمة سوداء البني حنيفة ، فصارت الى علي، فولدت له محمداً فنسب اليها .

٣ الحُسيمَة : من اعمال البلقاء في الشام .

٤ عباس : عم الرسول وعلي وابنه ينسب العباسيون .

فختخوف العباسيون منه ، وحسبوا له حساباً . فرأوا ان يعقدوا مؤتمراً يجمع بني هاشم علويهم وعباسيهم للاتفاق على من يخلف الامويين من اهل البيت . فعقد المؤتمر في مكة ، وحضره من العباسيين اخوا ابراهيم الامام ابو العباس السفاح ، وابو جعفر المنصور وغيرهما . وحضره من العلويين عبدالله بن الحسن وولداه محمد و ابراهيم وغيرهم فتباحثوا في الامر ، فتشبت العلويون بحقهم في الامامة ؛ فلم يجد العباسيون بداً من مسايرتهم ريثما تنتهي لهم الاسباب ليستقلوا بالامر دونهم . فوافقوهم على مبايعة محمد ابن عبدالله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية .

ويرجح ان هذه البيعة جرت سراً لان العباسيين انكروها بعد ان قوي ساعدتهم . وحاول محمد بن عبدالله اعلانها ، فلم يصدقها احد الا الذين عرفوا دخيلة الامر وعدد هم قليل .

وجملة القول ان الدعوة العلوية كانت ضعيفة ضئيلة بالنسبة الى الدعوة العباسية . وتعود اسباب هذا الضعف الى انقسام الشيعة وتعدد فرقهم . ثم الى مبايعة ابي هاشم لمحمد بن علي بن عبدالله بن عباس والتفاف الشيعة الكيسانية عليه وعلى ابنه ابراهيم الامام من بعده . ثم الى مبايعة بعض العباسيين لمحمد بن عبدالله بن الحسن ، فان العلويين غرتهم هذه الظاهرة من ابناء عمهم ؛ فركنوا اليهم . ومن اسباب الضعف ان العلويين بالغوا في الخروج على بني امية . فكثرت فيهم التقتيل بفقلاً وضعفوا . اما العباسيون فلم يعمدوا الى العصيان ، ولم يقتلوا احداً منهم الا بعد ان اظهروا دعوتهم ، فكثروا وقووا .

الدعوة العباسية

ابتدأت الدعوة العباسية بالظهور سنة ١٠٠ هـ (٧١٨ م) في خلافة عمر بن عبد العزيز . فان محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بعد ان اخذ الوصاية من ابي هاشم ، انشأ يؤلف الجماعات السرية ، فاختار اثني عشر نقيباً لبث الدعوة . وجعل تحت ايديهم سبعين رجلاً يأتمرون أمرهم . و اوصاهم ان يولوا وجوههم شطراً خراسان لانها اصلح من غيرها لنشر الدعوة . ومما قاله في كتابه لهم : « عليكم بخراسان ، فان هناك

العدد الكثير ، والجسد الظاهر . وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تنقسمها
الاهواء . ولم يتوزعها الدغل . وهم جند لهم ابدان واجسام ، ومناكب وكواهل ،
ولحى وشوارب ، واصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من اجواف منكرة . وبعد فاني
اتفأل الى المشرق ، والى مطلع سراج الدنيا ، ومصباح الخلق ^١ . »

وقد أحسن محمد باختيار خراسان لان الامصار العربية كانت تشغلها الاحزاب ،
وكل حزب يسعى لنفسه . اما خراسان فان الفرس فيها يكرهون العرب وبني امية .
ولكنهم لا يطعمون في الخلافة . وهم شيعيون في كثرتهم ، ولكنهم لا ينفرون من
بني العباس لانهم هاشميون من اهل البيت .

فراح دعاة العباسيين ينتقلون في الامصار الاسلامية ، ويثثون الدعوة سرا
متظاهرين بالتجارة وطلب الرزق . وبقوا على هذه الحال حتى توفي محمد بن علي ، وصار
الامر الى ولده ابراهيم الامام . فكاتب ابراهيم مشايخ خراسان ودهاقينها ، وبعث
اليهم الدعوة . ثم ارسل ابا مسلم الخراساني ^٢ وكان كثير الدهاء شجاعاً مقداماً ،
شديد الاخلاص للعباسيين . فجاء خراسان سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ م) واقام في مرو
يدعو الناس الى مبايعة آل محمد من غير تعيين ، لتكون الدعوة مبهمة ، مشتركة بين
العباسيين والعاويين . وقد لجأ الى هذه الحيلة لئلا من معارضة الشيعيين في بلاد فارس .
فتبعه خلق كثير .

وكان على خراسان نصر بن سيار من قبل الامويين . فخاف عاقبة الامر ،
فارسل الى الخليفة مروان بن محمد يخبره بحال ابي مسلم وكثرة من معه . وفي ذلك
يقول :

أَرَى خَلَالَ الرَّمَادِ وَمِيزَ نَارٍ ، وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضَرَامُ

١ مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق : اي مطلع الشمس والقمر .

٢ نشأ ابو مسلم في الكوفة يتم الاب فتعهد تربيته عيسى بن مقل . وكان ان قدم
الكوفة جماعة من نقباء الامام محمد بن علي بن عبدالله العباسي مع عدة من الشيعة الخراسانية
فصادفوا ابا مسلم فاعجبهم عقله ومعرفته . ومال هو اليهم وعرف انهم دعاة للعباسيين فخرج
معه . وجاؤوا الى ابراهيم الامام بعد وفاة ابيه .

فَإِنْ لَمْ يُطْفِئْهَا عُقْلَاءُ قَوْمٍ ، يَكُونُ وَقُودَهَا جُثْثٌ وَهَامٌ
 فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تُذْكَى ، وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلَهَا كَلَامٌ
 فَقُلْتُ مَنْ أَلْتَعَجِبُ : « لَيْتَ شِعْرِي ! أَلْيَقَاطُ أُمِيَّةٌ أَمْ نِيَامٌ ؟ »

فتخاذل مروان عن انجاد نصر، وكتب اليه يقول « ان الحاضر يرى ما لا يرى
 الغائب ، فاحسب انك هذا الداء الذي قد ظهر عندك . »

واشتدت شوكة ابي مسلم ، فهرب نصر بن سيار فقصده العراق فمات في الطريق .
 وكان مروان قد تئبه في تلك الاثناء من غفلته ، فارسل الى الحميمة بعثاً ،
 واعتقل ابراهيم الامام . فلما قبض عليه اوصى بالخلافة الى اخيه ابي العباس السفاح .
 وامر اهله وانصاره بالمسير الى الكوفة ، لان فيها انصاره من الشيعة الكيسانية .
 وحبس ابراهيم في حران^١ حتى مات . واختلف في سبب موته فزعم بعضهم
 انه سقي سماً ، وقال آخرون : بل هدم عليه بيت فمات لا

فلما علم ابو مسلم بموته ، دعا اهل خراسان الى مبايعة ابي العباس السفاح ،
 فاجابوه ، ثم سار العساكر لقتال مروان . وكان السفاح قد ذهب باهله وانصاره الى
 الكوفة ، فاظهر دعوته هناك فبايعه اهلها في ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٢ هـ (٢٨ تشرين
 الثاني سنة ٧٤٩ م)

وتجهزت العساكر الخراسانية وغيرها من جهة السفاح لقتال مروان . ومقدمها
 عبدالله بن علي عم السفاح . وتقدم مروان بجيشه الى الزاب الاعلى^٢ فالتقته جيوش
 العباسيين وقاتلته ، فاندحر مكسوراً . واشتقت نفوس الفرس من العرب في ذاك
 اليوم بعد ان قهرها واذلها يوم القادسية .

١ لیت شعري : اي ليتني شعرت . وشعري اسم لیت والخبر مضمرة استغني عنه بالياء
 مفعول شعر ، وتقديره واقع .

٢ حرَّان : قال ياقوت : « هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أفوروهي قصبة
 مضر بينها وبين الرُّها يوم وبين الرقة يومان . وهي على طريق الموصل والشام والروم » .

٣ الزاب الاعلى : نهر بين الموصل واربيل ومخرجه من بلاد مشكهر وهو حد ما بين
 اذربيجان وبادغيش . ويفيض في درجلة . ويسمى بالزاب المجنون لشدة جريه .

وتعقب جيش السفاح مروان في هزيمة، حتى ادر كه في مصر صالح اخو عبد الله
ابن علي، فقتله واحتز رأسه، وارسله الى السفاح .

وبايع اهل مصر العباسيين فاستتب لهم الامر، وزالت الخلافة الاموية من الشرق
بعد مقتل مروان .

مبرة العصر

فقد رأيت ان الفضل في بنيان العرش العباسي للفرس عموماً، ولا بني مسلم خصوصاً .
فلا غرو ان تصطبغ المملكة العباسية باللون الفارسي، ويكون للفوس صوت بعيد
فيها، فيستأثروا بالخطط العالية، ويتولوا شؤون الدولة، ويديروا سياستها، ويتمتعوا
بجميع الحقوق التي كان العرب يتمتعون بها دونهم . فقد اعادت لهم موقعة الزاب
سابق عزهم، فغلب عنصرهم على العنصر العربي، وطبعوا العصر العباسي الاول
بطابعهم الخاص .

على اننا لا نرى اطلاق الكلام دون احتياط، فان بني العباس في عصرهم
الاول كانوا اصحاب حزم وقوة وتديروا . وقد علموا ان الفرس اهل سيادة وبطش،
ورأوا منهم اخلاصاً ومناصرة، فقرّبوهم، وقلدوهم مناصب الدولة . ولكنهم لم
يجمعوا عن الفتك بكل من يخشى شره منهم فابو جعفر المنصور قتل ابا مسلم
الخراساني لما داخلته الرية في اخلاصه، مع ان ابا مسلم هو الذي حمل اعباء الدعوة
العباسية على عاتقه . والرشيد نكب البرامكة على بكره ابيهم، لما استفحل
امرهم، وقويت شوكتهم، واحس منهم خطراً على سلطانه .

فخلفاء هذا العصر كانوا شديدي الخرص على ملكهم، يستحلون كل شيء في
سبيل تأييده . فقد تجدهم اعدل خلق الله واعظمه تسامحاً، ثم تجدهم اكثره جوراً

١ البرامكة : اسرة فارسية كان منها وزراء الدولة العباسية حتى نكبهم الرشيد .
وبرمك رتبة وراثية خاصة برئيس الكهان بعبد « نوجار » بياخ . وكان البرامكة قبل
اسلامهم يملكون الاراضي التابعة لهذا المعبد ويتولون فيه رئاسة كهان النار .

وتشدداً . وهذه الصفات على تناقضها تجتمع فيهم محافظة على العرش ، وذوداً عن حياضه . فاذا نظرت الى تساهلهم الديني ، واطلاقهم حرية الفكر ، فلا ينبغي ان تغفل عما كان يعانيه الافراد والجماعات من ضغط وتنكيل . فالحرية عندهم مكفولة ما دامت بعيدة من سياسة الاحزاب . والتساهل عندهم مباح ما دام لا يؤثر في الملك . ويجمل بنا ان نوضح هذه المسألة فنقول : ان الشعب العباسي لم يكن عربياً خالصاً بل خليط شعوب متعددة . فان المنصور لما بنى بغداد سنة ١٤٥هـ (٧٦٢م) وجعلها مقر الخلافة ، جمع بين العرب والفرس وامم اخرى عجمية كانت تسكن العراق ، وتدين بالنصرانية وغير النصرانية . ورأى الخلفاء ان العناصر التي تدين بغير الاسلام لم تبوح قوية ، وان عدداً غير قليل من الفرس المسلمين لم يكن لهم نصيب وافر من الايمان ، لحداته عهدهم بالاسلام ، ولتاثير الدين القديم في نفوسهم . فقضت عليهم مصالحة الدولة باطلاق حرية الدين ، فاطلقوها محافظة على الامن ، واسترضاء للعناصر الغريبة .

وكان اكثر هذه الشعوب التي اختلطت بالعرب على جانبي عظيم من العلم والحضارة . فرأى الخلفاء ان يستغلوا معارفهم ، ويستفيدوا منها . فاطلقوا لهم حرية الفكر والقلم ، فأكبوا على النقل والتأليف ، واتحفوا العربية بكنوز ثمينة كانت العون الاكبر في نهضة العلوم والآداب .

ولئن افادت حرية الدين والفكر من ناحية لقد اضررت من ناحية اخرى . فانها نشرت الخلاعة والسكر والمجون ، وولدت البدع في الاسلام ، وانتجت الهزء بالاديان ، فكثرت الشك وكثرت الزندقة .

واما الحرية السياسية فان الخلفاء رأوا من الحزم ان يخنقوها لئلا يعرضوا

١ بنى المنصور بغداد بعد موقعة الهاشمية لما ثار به اهل خراسان على اثر مقتل ابي مسلم . وكادوا يفتكون به . وكان اهل الكوفة وهم في كثيرهم شيعة ، يفسدون عليه جنده . فكره البقاء في الهاشمية . وهي غير امينة لقرىها من الكوفة . ثم اذنتاحها لبلاد الفرس . وبنى بغداد . وجعلها وسطاً بين العرب والعجم . ولم يكن بوسعه ان يعيد مقر الخلافة الى دمشق لانه لا يريد ان يتعد بنظره عن بلاد فارس .

ملكهم للشورات والفتن . فاصبح لا يحرو أمرؤ على الجهر برأيه ومذهبه ألا القى
بنفسه الى التهلكة . وكثرت الجواسيس والوشايات ، وكثر الحبس والاعتقال . قرب
وزير استمتع في يومه بعطف الخليفة وثقته ، فاذا هو في غده مردول او مقتول .
ورب شاعر كانت منه فلتة فلاقى في جزائها حبساً او ضرباً او قتلاً إلم يعاقب بها
جميعاً .

وحسبك ان تنظر الى فتك الخلفاء بالوزراء والقواد والعمال وسواهم . وفتك
هؤلاء ، بمن دونهم ، لمتبين ما كان في هذا العصر من عسف واضطهاد ووشايات
ودسائس .

وجماع القول ان العصر العباسي الاول يمتاز بالنفوذ الفارسي ، وحرية الفكر ،
والتساهل الديني . ولكن ينبغي ان نضع دون هذه الميزات مصلحة المملوكة ، فعندها
يقف كل نفوذ ، وكل حرية وتساهل .

الشعراء المولدون

العصر الاول

ميزة الشعر . التجدد اللفظي . التجدد المعنوي . الدفاع
عن القديم . اغراض الشعر وفنونه . منزلة الشاعر المولد

مقدمة الشعر

لم يكن انتقال الشعر من البداوة الى الحضارة مرهوناً بانتقال الخلافة من الامويين الى العباسيين . بل اخذ الشعر يتحضر في صدر الاسلام على اثر الفتوح الكثيرة ، وملابسة العرب للاعاجم ، وانتقال الخلافة الى دمشق ، وفيها القصور والجنان والانهار ، وفيها اثر كبير من حضارة البيزنطيين . ولكن العصر الاموي كان عصر حروب وفتن ، فلم يهدأ هادئه ، ولم يطل عهده ، فيبلى اهلوه غايتهم من الترف والعمران . اضف الى ذلك ان خلفاء بني امية كانوا على تحضرهم ، يتزعمون الى الحياة البدوية . ويؤثرون العرب الخالص على غيرهم من الشعوب . ويرتاحون الى اساليب الجاهليين وطرقهم . فما اتيح للشعر ان يبلغ الطور الذي بلغه بعد ان اديل العباسيون من الامويين . وبنيت بغداد وجعلت عاصمة الخلافة . واشتد اختلاط العرب بالاعاجم ، وساد النفوذ الفارسي ، وامتلاّت خزائن الدولة بما افاء الله على المسلمين من اموال الفرس والروم ، فانهل من فيضها على الناس ، فوفرت لهم اسباب الرزق ، فانبسطت حياتهم فاترفوا وامعنوا في الترف .

المولّدون : الذين جاؤوا بعد الاسلاميين ، ويقال لهم المحدثون . والمولد : المولود بين العرب . والمحدث : المتأخر . وقد اطلقنا لفظ المولدين على شعراء العصر العباسية الاربعة . واطلقنا لفظ المحدثين على من جاء بعدهم في عصري الانحطاط والانبعاث .

وكان للشعراء القسط الاوفر من هذا العيش الحضيض . فان الخلفاء بعد ان استتب لهم الامر ، ودانت لهم الاعداء ، وخضدوا شوكة الاحزاب ، انصرفوا الى الحياة يتذوقون نعيمها ، والشعر من نعيم الحياة فغربوا الشعراء وجعلوهم ندماءهم . فابسر الشعراء واتسعت ذات يدهم ، فرقهوا واسرفوا في اللذة . فرقت طباعهم ، ولانث نفوسهم . ورق شعرهم ، ولانث الفاظه وقل استعمال الغريب فيه . والشعر مراء النفس ، فاذا كانت النفس قاسية خشنة خرجت الالفاظ وحشية صلبة . واذا كانت لطيفة ناعمة خرجت الالفاظ سهلة لينة .

ولم يكن للشعراء الموالي حظ في صدر الاسلام ، فلم يرتفع شأنهم ولم يكثر عددهم . واما في هذا العصر فقد تكاثروا وغوا ، واشتد خطرهم ونبغت منهم طائفة تقلدت زعامه الشعر واعترف لها الشعراء .

وقد علمنا انهم يكرهون العرب ، فانفوا ان يتشبهوا بهم ، ويقلدوهم في االيهم وكان لهم من حضارتهم ومن عنصرهم العجمي ما يبعدهم من وحشي اللفظ وبدوي المعنى . فكان لهم الفضل في تجدد الالفاظ ، وفي تجدد المعاني .

التجديد اللفظي

فاما التجديد اللفظي فلم يقتصر على تسهيل الالفاظ وتليينها ، بل تعداهما الى ترينها وتنميقها . فقد عني الشاعر العباسي بتوشيتها كما عني بتوشية ثوبه وداره وماعونه . فاكثر من الاستعارات والتشاييه والتزمها التزاماً . وافتن في انواع البديع وتعمده تعمداً . واول من تكلفه وخرج به عن عفو الخاطر بشار بن برد ، فسلم بن الوليد ، فابو نواس ، فابو تمام .

والحياة العباسية كانت تدعو الى هذا الوشي والتنميق من جميع نواحيها . فمن انغماس في الرخاء والترف ، الى تخلق باخلاق فارسية يلائمها الفن والتصنع لبعدها من السذاجة والفطرة .

ودخل على لغة الشعر الفاظ غريبة دعت اليها الحاجة ، كالالفاظ العلمية والفلسفية ،

وغيرها مما يدل على اشياء حديثة العهد عند العرب . ودخل عليها ايضاً الفاظ استعيرت من صلب اللغة لمعان مستحدثة خلقتها الحضارة الجديدة .

واما اوزان الشعر وقوافيه فلم تتجدد تجدداً يذكّر . ولكن الشعراء اخذوا يعنون بالنظم على الاوزان الرشيقّة التي تصلح للغناء . واكثر ما كانوا يصطنعونها في الغزل والمجون والمحرميات .

واصبحوا يتحامون او يتحامى اكثرهم ما كان يستهدف اليه الاقدمون من اشباع ' وخرم ' وإقواء ' وإكفاء ' وغير ذلك من عيوب الوزن والقافية . وعلى الجملة فان التجدد اللفظي ظهر ظهوراً جلياً في شعر العباسيين ، ولم يكن دونه التجدد المعنوي .

التجديد المعنوي

كان من اثر اختلاط العرب بالاعاجم في السكنى والزواج ، ان نشأ جيل عباسي نه ثقافة وتفكير جديد . وله حضارة فارسية تميل به عن بداوة الاعراب ، لذلك اخذ الشعراء يتبعون عن المواضيع الجاهلية الى معانٍ طريفة يستمدونها من روح العصر ومشاهد البيئة . وقد تصرفوا في هذه المعاني تصرفاً لم يبلغه المتقدمون ، وابدعوا في التوليد والاختراع .

واتسع عليهم باب الخيال لاتساع سبل اللهو ، ووسائل العمران . فمن قصور

١ الاشباع في الوزن : تبليغ الحركة حتى يتولد منها حرف لين .

٢ الخرم : حذف اول الوند المجموع من اول البيت كحذف فاء فعولن في الطويل فيبقى عولن فينقل الى فعلن .

٣ الاقواء : اختلاف حركة الروي ، كأن تكون قافية البيت الواحد مكسورة ، وقافية الاخر مضمومة .

٤ الاكفاء : اختلاف حرف الروي . بحيث يقترب بما يقاربه في المخرج كأن يكون روي البيت الواحد نوناً وروي الاخر لاماً .

٥ التوليد : هو ان يولد الشاعر معنى جديداً من معنى مبتذل .

شواهد، وحدائق نواضر، الى نهور دوافق، وسفائن مواخر. فاصبحوا اذا عمدوا الى التشبيه استمدوا اكثره من البساتين والحلى والرياش والطيرب. فذاع عندهم تشبيه الخلد بالتفاح والورد والياسمين. والبنان بالعناب. والعيون بالترجس. والحمر بالياقوت والذهب. والكأس باللؤلؤ. وقوس السحاب باذيال مصبغة. والهلال بين الغيوم بزورق من فضة عليه حمولة من عنبر. وغير ذلك من الوان الحضارة الجديدة.

على ان هذا الخيال كان يرافقه العقل، فما يدعه ينطلق على هواه، كما كان ينطلق خيال الشاعر الجاهلي والاسلامي بل عني بتهذيبه وتنظيمه. فنشأ عن ذلك اتساق في الافكار، فاصبح الشاعر اذا تغزل واراد الانتقال الى المدح لايثب اليه وثباً، بل يد جسراً يعبر عليه، وهذا ما يسمونه حسن التخلص.

ولا ريب في ان نقل الفلسفة والمنطق كان أثره بليغاً في تنظيم افكار الشعراء ودقة خيالاتهم. وأثر فيهم نقل العلوم فاستعملوا المواضيع العلمية في شعرهم، ولم تكن معروفة من قبل. كقصيدة صفوان الانصاري التي يصف بها معادن الارض راداً على بشار بعد ان مدح بشار ابليس، وزعم ان النار خير من الارض. وحسبك ان تقرأ منها هذين البيتين لتعلم مبلغ تأثير العلوم الدخيلة في الشعر العباسي قال :

وَفِيهَا ضُرُوبُ الْقَارِ وَالشَّبِّ وَالْتَهَى ، وَأَصْنَافُ كِبَرِيَّتِ مُطَاوِلَةُ الْوَقْدِ^١
وَمِنْ إِثْمِدِ جَوْنٍ ، وَكِلْسٍ وَفُضَّةٍ ، وَمِنْ ثَوْتِيَاءَ فِي مَعَادِنِهِ هِنْدِي^٢

ولكن هذا التجدد في اللفظ والمعنى لم يشمل ابناء العصر كلهم بل كان هناك جماعة المحافظين على القديم، يدافعون عنه دفاع المستميت، ويناهضون الجديد بجميع قواهم. حتى ان الشعراء المجددين كانوا يتكلمون الاساليب القديمة بعض الاحيان ارضاءً لهؤلاء.

١ وفيها : الضمير يعود على الارض. ضروب : جمع ضرب وهو النوع. القار : الزفت. الشب : ملح معدني يعرف عند العامة بالشببة. التهي : الزجاج. مطاولة الوقد : معاطلة في الاشتعال.

٢ اثمِد جَوْن : كحل اسود. الثوتياء : حجر يكتحل به.

الدفاع عن القديم

وغير طبيعي ان يحدث شيء جديد مكان شيء قديم، دون ان يدافع هذا القديم عن نفسه : سنة تنازع البقاء . ويستوي في ذلك الممالك والقبائل والاديان والمعايش والاخلاق والعادات والازياء والعلم والادب : شعره ونثره . فقد اغار الادب الجديد على الادب القديم في العصر العباسي الاول . فثبت له هذا ، واعد ما لديه من قوى الدفاع ليرد عنه غائلة غازيه .

ومن المعقول ان يكون للادب القديم انصار واتباع ، يقاومون دعاة المذهب الجديد . فان جماعة العلماء والرواة وذوي السطان كانوا يستغربون هذا الجديد ، وينعون على اصحابه ، وربما انف الرواة من روايته ، والاستشهاد به ، ولو جاء آية في الابداع .

وقد اخذ يظهر كره الجديد والدفاع عن القديم في الصدر الثاني للاسلام . فان بعض الرواة كانوا يعدون شعراء بني امية مولدين ، بالاضافة الى شعراء الجاهلية والصدر الاول ، ويرفضون الاحتجاج باقوالهم . واقدم اصحاب هذا المذهب ابو عمرو ابن العلاء ، وكان لا يرى خيراً الا في الشعر الجاهلي والمخضرم . فاذا سئل عن المولدين قال : « ما كان من حسن فقد سبقوا اليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم . » وربما اعجبه شعر جرير والفرزدق فيقول : « لقد حسن هذا المولد حتى هممت ان امر صبياننا بروايته . »

فيستدل من ذلك ان العلماء كانوا لا ينكرون الجمال على الشعر المولد ، ولكن يعتقدون انه مستمد من الشعر القديم ، ويأبون الاستشهاد به لقلة ثقتهم بلغة المولدين من اهل عصرهم .

وقد يستشهد بعضهم مكرهاً بشعر مولد كما فعل سيديويه والاختش ، فانهما لم يحتجا بشعر بشار الا بعد ان هددهما بالهجاء .

ولاي نواس مداعبات كثيرة مع انصار القديم . فقد كان يستهزئ منهم ، وهم

ينكرون عليه شذوذه عن مذهبهم .

ولطالما تعرض الشعراء المجددون للضرب والطرْد والحبس ، لان الخلفاء العباسيين كانوا يؤثرون مساندة المحافظين على القديم ، لما يتعلق بهذا القديم من تقاليد دينية ، وروابط عصبية . وربما اتهم الشاعر المجدد بالزندقة فلا ينجو من العقاب . لذلك كان يعتمصم بالتقية بعض الاحيان فيتحدى مذهب الاقدمين ولاسيا في المدح والثناء . فيقف على الطول ويبكي الدمن ، ويصف ناقته ، ويكثر من الغريب ، ليرضي ممدوحه او اهل مرتبة ، وليظهر لاصحاب اللغة انه خالط العرب الصرخاء ، واخذ عنهم لغاتهم واصطلاحاتهم حتى استوى لسانه وسلم من العثار .

فاذا انت درست شعر هذا العصر ، رأيت يختلف في تجرده ، ومحافظته ، باختلاف فنونه واغراضه . واكثر ما يظهر لك الجديد من الشعر في الغزل ، والمجون ، والخمر واللهو ، ووصف القصور والحدائق ، والطبيعة والرياض . لان الشعراء كانوا يصورون في هذه الفنون عواطفهم واخلاقهم ، ويصورون عادات عصرهم واخلاق ابنائه ، وما فيه من ترف وخلاعة ، وما تقع عليه عيونهم من جمال مطبوع وجمال مصنوع . واما في وصفهم القفار والطول والابل فيصورون عصراً يختلف كثيراً عن عصرهم . فهم في تجردهم صادقون ينطقون بما يرون ويحسون . وهم في تقليدهم كاذبون مسيئون .

اغراض الشعر وفنونه

تعددت اغراض الشعر في هذا العصر وتنوعت بتنوع اسباب الحضارة ، ولكنها لم تكن كلها في مستوى واحد . فمنها ما كان قوياً فضعف ، ومنها ما كان ضعيفاً فقوي . واهمل بعض الفنون ، وبقي بعضها على حاله . واستحدثت فنون اخرى لم تكن معروفة في الشعر القديم . ولضعف هذه الاغراض وقوتها واهمالها واستنباطها اسباب تأتي على ذكرها :

١ الشعر السياسي

شاع هذا الفن في الصدر الاول للاسلام بين شعراء النبي وشعراء المشركين . ثم

ازدهر في الصدر الثاني يوم كانت الاحزاب السياسية تتطاحن، وبنو أمية يصطنعون الشعراء للدفاع عن حقوقهم . ولكنه لم يلبث ان اخذ يتضائل بعد قيام الدولة العباسية، واعتمدها على السيف في قهر اعدائها . فتفككت عرى الاحزاب، فتلاشي بعضها، وضعف خطر البعض الآخر منها، كالعلويين والخوارج لانقسامهم، وكثرة ما نالهم من التقتيل .

وكان اكثر الشعراء النابيين من الموالي . وهؤلاء لا عصبية لهم في القبائل العربية فيكون لشعرهم السياسي تأثير بليغ كتأثير شعراء الجاهلية والاسلام . لان اولئك كان لهم منزلة رفيعة في نفوس القبائل التي ينتسبون اليها ، وفي نفوس القبائل التي تناصبهم العدا . فبنو أمية لم يصطنعوا الا خطل شاعراً سياسياً الا لان بني تغلب كانت تقوم وتقعده لشعره، ولان القبائل المعادية كانت تتصور من هجائه المقذع الاليم . فهيئات ان يكون لشاعر من الموالي مثل هذا التأثير . مهما علا قدره في دولة القويض . ولولا ملاحظات الشعوية والعرب ، وبقيمة نضال بين العباسيين والطالبيين لاضمحل الشعر السياسي . ولكنه على ضعف خطره لم يخل من شر واقذاع . وخصوصاً ما كان من الشعراء الموالي بعد ان قويت شوكة الشعويين، فانهم اخذوا يعيرون العرب وينشرون مثالبهم . وفي شعر ابي نواس ابلغ شاهد على ذلك . ثم ما كان من شعراء الشيعة، فان بعضهم اسرف في هجاء بني العباس ، وافحش القول في خلفائهم . على حين ان شعراء العباسيين كانوا يتورعون من هجاء العلويين ، ذلك بانهم ابناؤ بنت الرسول . واشهر شعراء البلاط العباسي : مروان بن ابي حفصة ، وابو العتاهية ، وابو نواس ، وابو تمام . واشهر شعراء الشيعة : السيد الحميري ، ودعبل وديك الجن .

٢ الغزل والمجمر

رأينا في الكتاب الاول كيف نهض الغزل في صدر الاسلام بنوعيه البدوي

العفيف، والحضري المتهتك. فاما الاول فلم يبق له حظ كبير في هذا العصر لشيوع الخلاعة والفسق في جميع الحواضر والامصار. ولان شعراء البادية كانوا يتهافون على بغداد متكسبين، فتستهويهم حضارتها، ورخاء عيشها، فتطيب لهم السكنى فيها، فما يلبثون ان يدب فيهم الفساد، فيتخلقوا باخلاق اهلها.

واما الثاني فقد ازداد شيوعاً وكثر اتباعه، وولدوا منه نوعاً جديداً صوروا به مبلغ ما انتهى اليه الفساد عندهم، وهذا النوع هو الذي يسمونه غزل المذكر. وكان سبب ظهوره اختلاط العرب بالاعاجم المترفين وكثرة الرقيق من غلمان الترك والديلم والروم. وربما اصطنع الشعراء غزل المذكر في الاناث تلطفاً وتكنية او مجازاة للوزن والقافية. وكان للمرأة العجمية نصيب من الرق، وكانت على جانب من العلم والادب، تقوض الشعر وتحسن الغناء، ولا تتحرج من مجالسة الرجال ومناذمتهم فتحول الغزل اليها بعد ان كان في المرأة العربية. وكثرت مجالس اللهو، فكانت تعقد في دور الخلفاء والامراء كما تعقد في الحوانيت والمنازل الخاصة.

وافرط الشعراء في المجون لاتساع رزقهم، وفرة اسباب لهوهم فخلعوا رداء الحياء. وارادوا التغزل فتعبروا، واسرفوا في تعبرهم، فكان شعرهم صورة لتلك البيئة المريضة الاخلاق.

وكان الغزل في الجاهلية والاسلام تمازجه الانفة والرصانة، فاكتمس في العباسيين ثوب العبودية والمذلة. فصار الشاعر لا يطيب له الا ان يفرش خدوده موطئاً لاقدام حبيبه، والا ان يدعوه مولاه ويديه ومالك رقه. والاسراف في اللذة يولد الذل والعبودية في نفس طالبها، لان التزول بالحلب من الدرج الاعلى الى الدرك الاسفل يمت الانفة، ويبعث الخنوع. ولا نرى حاجة الى التبسط في الكلام على الغزل الذي كانوا يوطئون به قصائد المدح، فالتكلف ظاهر على اكثره، لان اصحابه كانوا ينظمونه ترميماً للقدمين، لا اندفاعاً مع الشعور الصادق.

٣ الشعر الحمري

ولا غرو ان يكون للخمرة سهم وافر من هذه الحياة الاثيمة، وهي آلة الإيثم،

فتذيع بين الناس ويذيع معها الشعر الحمري ، بعد ان كاد يتلاشى في صدر الاسلام
لولا الاخطل والوليد بن يزيد .

وزاد الناس اقبالا عليها إقدام بعض الخلفاء على شربها ، فقد كانوا يقيمون
مجالس اللهو في قصورهم ، فتغني القيان لهم ، ويدور الغلمان عليهم بالكؤوس ،
فيشربون ويلهون ويعبثون . وكانت بغداد وما جاورها من القرى حافلة بالخوانيت
والدساكر فكان الشعراء يقصدونها للسكر واللهو ، فافتنوا في وصف الحمرة
وكؤوسها ، وتأثيرها في نفس شاربها . ووصف السكرارى وعربدتهم ، والساقى
والساقية والقيمة والنديم ، فابعدوا في هذا الفن اياما ابداح واحداثا فيه اشياء جديدة
لم يسبقوا اليها . ونستطيع القول ان الشعر الحمري بلغ غاية الجمال في هذا العصر لو
لم يشبه شيئا كثيرا من التعهر والمجون .

٤ المدح

كانت بغداد مورداً عذبا لطوائف الشعراء ، فاقبلوا عليها ينهلون من فيضها ، فما
ينضب معينه ولا يرتوون . فتكاثر عددهم ، وراحوا يتنافسون في مدح الخلفاء
والامراء مستدرين اكفهم ، مباغين في مدحهم ، والزلفى اليهم . فاصبح الغلو ميزة
خاصة لهذا النوع من الشعر ، لانه جعل آلة للتكسب . ولان اولى الامر تبذلت
اذواقهم بتبديل البيئة ، فخرجوا عن السذاجة الفطرية التي كان يتحلى بها الاوائل ،
واستهوتهم ابهة الملك وعزة السلطان ، وهزتهم الحضارة الفارسية بما فيها من صور والوان .
فاصبحوا وفي نفوسهم من الكبر والعنوة ، ما يجلب اليهم مغالاة الشعراء في مدحهم .
وصاروا يرتاحون الى كاذب الاقوال ، كما كان اسلافهم يطعمون الى صادقها .
ولم يربأ الشعراء بانفسهم عن الكذب والتملق فماتت انفتهم ، وارقوا مسا
وجوهم ، وعفروا جباههم على الاعتاب . وقل من صان نفسه عن الزلفى والتذلل .

٥ الرجز

ظل الهجاء على ما كان عليه في صدر الاسلام من فحش واقذاع . وكثرت

هم اجابة الشعراء بعضهم لبعض . ولم يتنكبوا عن هجاء الخلفاء فعل بشار ودعبل . وجعلوا
المجور كالمدح آلة للتكسب ، يهددون به من يمدحونه ، اذا اخلفهم غيظه ، او اقل دره .
فعرضوا بانفسهم للحبس والضرب والنفي ، وللموت احياناً .

٦ الرثاء

اكتسب الرثاء العاطفي رقة وسهولة ، فزاد تأثيره في النفوس . واما الرثاء
المتكلف فكان كالمدح مشحوناً بالغلو والكذب . ومما ينبغي ذكره ان الشعراء
اكثروا من توطئة مراتبهم بالزهد والمواعظ ، وذم الدنيا ، والتذمر على الدهر .

٧ الفخر والحماسة

من المعقول ان يضعف هذا النوع بعد ان انصرف الشاعر الى اللهو والمجون
والتزلف ، وبعد ان فقد عصبية وسيادته ونخوته وفروسيته . وخصوصاً ان اكثر
الشعراء من الموالي . وهم في جملتهم فرسان قصف لا فرسان حروب .

٨ الزهد

لم يعرف الزهد على حقيقته الا في هذا العصر بعد ان ترجمت الحكمة الفارسية
الهندية ، واطلع عليها الكتاب والشعراء . وكان ابو العتاهية اول شاعر تأثر بها
فاظهرها في شعره . وافتن في الزهد فابدى بعد حياة قضاها بالعبث والمجون . وجاراه
كثير من الشعراء فاجادوا ، ولكنهم لم يبلغوا غايته .

٩ الحكم

والحكم ايضاً كان لها شأن يذكروا ، ولا سيما بعد نقل الفلسفة اليونانية ، فاصطنعها
الشعراء ومنهم من اكثر منها ، وطبع بها شعره كالبي قاسم .
وتختلف الحكم في هذا العصر عنها في الجاهلية والاسلام انها اصبحت قائمة

على مذاهب فلسفية وادلة عقلية ، وتفكير صحيح ولم تبق محصورة في ما توحيه للشعراء تجارب الايام وحوادثها .

واليك مطلع قصيدة انشدها محمد بن عبد الملك في حضرة المأمون ، يحرضه على قتل ابراهيم بن المهدي حين ظفر به ، فتجد الفلسفة اليونانية ظاهرة كل الظهور :
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّيْءَ لِلشَّيْءِ عِلَّةٌ ، يَكُونُ لَهُ كَأَلْتَارِ تُقَدِّحُ بِالزَّوْدِ ؟

١٠ الطردبات

وعني الشعراء بوصف الصيد والكلاب والجوارح ، واتخذوا لذلك بحر الرجز لسهولة ولينه وحسن مؤاتاته في الوصف . وكان هذا الفن قد ضعف في صدر الاسلام لاشتغال الناس بالحروب عن الصيد واللهو . فلما قامت الدولة العباسية وتوطدت اركانها ، واطمأن الخلفاء الى ملكهم ، ووفرت لهم اسباب اللهو والترف ، اولعوا بالصيد ، فصرفوا لهوقاً غير قليل من حياتهم الخاصة . واولع الناس به اقتداء بملوكهم فاولع الشعراء بوصفه . فاستعاد هذا الفن سابق عزه في الجاهلية . ولكن الشعراء العباسيين كانوا متأثرين بمحضارة الفرس وما فيها من جديد فامعنوا في وصف الكلاب والجوارح والديك والفهد بخلاف الشاعر الجاهلي فانه كان يجعل همهته في وصف جواده الذي ينطلق به في اثر الحمور الوحشية .

١١ الفن التعليمي

من تجد في هذا الشعر ما يروقك لانه غث بارد ، اصطنعه اصحابه لنظم انواع شتى من العلوم ، تسهيلاً لحفظها بعد ان اصبح الاقبال على العلم عظيماً . والناظم في هذا الفن لا يسمو بنفسه الى الخلق والابداع ، فالافكار ماثلة امامه ، فما عليه الا ان يجمعها في كلام موزون مقفى ، خالٍ من الروعة والرونق ، وليس في هذا كبير امر على من يحسن النظم .

١ ابراهيم بن المهدي هو عم المأمون ، ادعى الخلافة وخرج على ابن اخيه ، فطارده المأمون حتى ظفر به فمعا عنه .

واول من طلب هذا الفن ، ابو الفضل سهل بن نوبخت من خـدم المنصور
والمهدي فانه نظم كتاب كلية ودمنة . ثم تلاه أبان بن عبد الحميد الاحقي شاعر
البرامكة ، فنظم فنوناً مختلفة من العلوم ، منها كتاب كلية ودمنة ، قدمه لآل برمك
ليحفظوه ، فاعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار . واعطاه الفضل بن يحيى خمسة
الاف دينار . ولم يعطه جعفر شيئاً وقال له : « يكفيك ان احفظه فاكون راويك »
قال في مستهله :

هَذَا كِتَابُ كَذِبٍ وَمِجَنَّةٌ ، وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيَّةً دِمْنَةً
فِيهِ دَلَالَاتٌ وَفِيهِ رُشْدٌ ، وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعَتْهُ أَلْهِنْدُ
فَوَصَّفُوا آدَابَ كُلِّ عَالِمٍ ، حِكَايَةً عَنِ أَلْسُنِ الْبَهَائِمِ
فَأَلْحَكَمَاءُ يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ ، وَالسُّخَفَاءُ يَشْتَهُونَ هَزْلَهُ

.....

وعلى الجملة فقد تعددت اغراض الشعر المولد ، وخصبت الافكار بالمعاني الطريفة ،
واتسع باب الوصف وتعددت سبله . فبالغ الشعراء في التشبيب ووصف الحمرة
والصيد والاخلاق والحُصَال والعادات . وهم ، وان اقتصدوا في وصف القفار والطلول
والابل والوحش ، بعامل التطور الاجتماعي ، لقد استعاضوا عنها وصف القصور
وزخرفها ، والبساتين ومياها ، والطبيعة ورياضها .

ومما ينبغي ذكره ان هذا الشعر على تعدد اغراضه لم يجاوز النوع الغنائي .
ونصرف النظر عن الفن التعليمي لانه خارج عن صفة الشعر الحقيقية ، فما نعد نظم
كليلة ودمنة وغيرها من النوع القصصي لضعف الميزة الادبية فيها ، وخلوها من الروعة
والطلاوة . ولا نعد الحوادث الصغيرة التي يرويها الشاعر بقالب قصصي ، لاننا نريد
الملاحم الطويلة التامة كاللياذة والاوديسه وسواهما .

ونرى ان خلو الشعر من هذا النوع يرجع اولاً الى جهل العرب الادب اليوناني
لانهم لم ينقلوه كما نقلوا العلوم والفلسفة . ثانياً الى ان الشعراء لم يهتموا بنظم قصص
طويلة ، لانصرافهم الى التمسك من اقرب الطرق والملاحم تقضي وقتاً طويلاً ،

وربما كان كسبها قليلاً . لان الامراء تعودوا الا يجيزوا الشعراء الا على المدح .

وكذلك النوع التمثيلي ظل مفقوداً بتأثير هذين العاملين ثم لان المجتمع الاسلامي في العصر العباسي ، على تمتعه بحرية الفكر والدين ، ما كان يسمح للمرأة بان تمثل مع الرجل في ملائمة من الناس ، والمرأة عضو لا غنى عنه لانتشار هذا الفن . اصف الى ذلك ان التمثيل لا يظهر الا بعد ان ينضج النوع الغنائي ، وتتقدم الفلسفة والعلوم ، وتوضع النظم السياسية والاجتماعية . وهو ينتشر غالباً في الحكومات الديموقراطية اكثر مما ينتشر في حكومة الفرد ، التي تبسط يدها عليه وتقيده بمشيتها المطلقة ، لانه يتناول العبر التاريخية والمسائل الاجتماعية ، ويبين مغبة الاثم ونتيجة الحير ، مما لا يخلو من اذاعة ذوي السلطان المستبدين باموال الشعب واعناقهم . ولو قدر له الظهور في بني العباس ، لما كان الحكم الاسلامي المصطبغ بالدين ، يرضى عنه ، وهو عندهم تصوير وتزوير للاشخاص .

منزلة الشاعر المولد

لم تكن للشاعر المولد تلك المنزلة التي تبوأها زميله في الجاهلية وصدر الاسلام يوم كان يدافع عن قبيلته ، وينشر مخازي اعدائها . او يخفض ببيت من الشعر شأن قبيلة ناهية ، ويرفع ببيت قدر قبيلة خاملة . او يؤيد حزبه السياسي بالرد على خصومه . وكان السبب في تجرده من هذه الخصائص ضعف العصبية في القبائل لنفوذ الموالي ، واختلاط العرب بهم ، ونشوء شعب جديد غير صافي العروبة ، وتلاشي الاحزاب وانحلالها . ثم ان الخلفاء العباسيين اعتمدوا في تأييد سلطانهم على السيف دون الشعر .

على ان الشاعر المولد استبدل من المنزلة السابقة منزلة اخرى ، وهي انه صار نديم الخليفة على طعامه وشرابه ، وسيمره في ليااليه الساهرة ، ورفيقه في ملاحيه ومتزهاته . فاصبح الشعر للتفكهة واللذة ، يرغب فيه اولو الامر كلفاً بالادب او حباً للهو والعبث .

لذلك انحطت منزلة الشعراء عن ذي قبل ، وفقدوا سيادتهم ، وشيئاً كثيراً من

نفوذهم وتأثيرهم . واصبحوا كاداة اللهو ، يقبل عليها المتلهي مدة ، ثم يضجر منها ، فيهملها او يحطمها . فرب شاعر كان ذا حظوة عند الخليفة ، ثم امسى طريداً مجفوفاً . او شاعر بات ليلته يسامر الامير ، فما طلع عليه الصباح الا كان السجن مأواه . واكن بقي للشعراء دالة على الملوك اكثر من غيرهم ، لما للشعر من التأثير في النفوس ، ثم لما للمدح خصوصاً من سحر يفتن أبواب الامراء .

على ان اجمل شيء كان الشعراء يتمتعون به هو الثروة ، فان الخلفاء والامراء بسطوا لهم الاكف ، واعطوهم بغير حساب ، حتى لقد تبلغ جائزة الشاعر مائة الف درهم^١ وربما وهبوه الضياع ، والجواري ، والعلمان ، وما الى ذلك من متاع .

وليس في هذه الهبات السنوية ما يحملنا على الشك في صحتها ، لان خزائن المملكة كانت تغص باموال الفيء والخراج . ويخبرنا ابن خلدون في تاريخه ان جباية الخراج السنوية بلغت عهد المأمون ٣٩٠,٨٥٥,٠٠٠ درهم^٢ لذلك استطاع الشعراء ان يعيشوا ناعمين مترفين ، وجمع بعضهم اموالاً طائلة . ذكروا ان سلماً الخاسر^٣ ترك ثروة مقدارها خمسون الف دينار ، ومليون وخمس مائة الف درهم ، ما عدا الضياع . فغير عجيب ان يكثر عددهم ، ما دام الشعر يدر لهم هذا الدر الغزير !

ونحن نشرع الان بدرس اشهرهم مبتدئين بالخصرمين منهم ، وهم الذين ادركوا الدولتين : الاموية والعباسية . ثم نتقل الى من جاء بعدهم . ونفتتح الكلام ببشار .

١ اي نحو ثلاثة الاف وثلاث مائة جنيه مصري ذهباً . على تديمل ان الدينار يساوي خمسة عشر درهماً ؛ او نصف جنيه مصري من الذهب .

٢ اي نحو ١٣٤,٠٢٨,٥٠٠ جنيه مصري ذهباً .

٣ شاعر ماجن تلمذ لبشار وروى له ، واخذ عنه . توفي سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) .

بشار بن برد

٧١٤ - ٧٨٤ م و ٩٦ - ١٦٨ هـ (؟)

حياته : بشار في صباه . في العصر الاموي . في العصر العباسي . بشار والمهدي . صفاته واخلاقه . علومه . آثاره .

ميزته : الطبع والفن . الهجاء . المدح : مدحه وتحديد . الغزل الخمر . الفخر والحاسة . فلسفته وادائه . حشوه وتخليطه . منزلته . صلة بين العصرين

مبانه

هو بشار بن برد بن يَرْجُوح ، فارسي الاصل ، ينتهي نسبه الى يُسْتَنْسَب بن لُهرْاسف الملك . وكان يَرْجُوح من طَخْارُسْتَان ' فسباه المَهْلَب بن ابي صُفْرَة ' ، وجاء به الى البصرة ، وجعله من قن امرأته خيرة القُشَيْرِيَّة فولد عندها ابنه برداً . فلما كبر برد ، زوجته خيرة ، ووهبته لامرأة من بني عُقَيْل من قيس عيلان ، كانت متصلة بها ، فولدت له امرأته بشاراً ، فاعتقته العقيلية ، فانتسب الى بني عقيل بالولاء .

وكان يكنى ابا مُعَاذٍ وَيُلَقَّبُ بالمرَعث ° لانه كان في اذنه وهو صغير رِعاث . شأن غلمان الفرس ، وهي عادة قديمة عندهم .

١ هكذا ضبطها ابن خلكان ، وهي ناحية كبيرة مشتملة على بلدان وراء نهر بلخ على جيحون .

٢ عامل لبني امية حارب عنهم الخوارج . ثم تولى خراسان من قبل الحجاج وظل عليها حتى توفي سنة ٨٣ هـ (٧٠٢ م) .

٣ الولاء : الملك ومنه المولى اي المملوك .

٤ المعاذ : المدعو له بالحفظ من اعاذ الصبي دعا له بالحفظ ورقاه .

٥ المرعث : المحلى بالرعاث وهي الحلى التي تعلق بالاذان . واحدها رعثة .

بشار في صباه



نشأ بشار في بني عقيل نشأة عربية خالصة، فاستوى لسانه على الكلام الفصيح، لا تشوبه اكنة، ولا طمطمانية، ولما ايفع ابدى فسلم من الخطأ .
وكان برد والده طيئناً، وولد بشار مكفوفاً، فكان برد يقول: « ما رأيت مولوداً اعظم بركة منه . ولقد ولدي وما عندي درهم، فما حال الحول حتى جمعت مائتي درهم . »

وقال بشار الشعر وهو ابن عشر سنين . وتزعت نفسه الى الهجاء، فلقي الناس منه شراً، ولم يُحججهم عن التعرض لجرير، فاستصغره جرير ولم يرد عليه .
وكان اذا هجا قوماً، جاؤوا الى ابيه فشكوه، فيضربه ضرباً شديداً، فكانت امه تقول: « كم تضرب هذا الصبي الضرير، اما ترجمه ! ... » فيقول « بلى والله اني لارحمه، ولكنني يتعرض للناس فيشكونه الي . » فسمعه بشار فطمع فيه، فقال له: « يا ابت ان هذا الذي يشكونه مني اليك هو قول الشعر . واني ان الممت عليه، أغنيئك وسائر اهلي، فان شكوني اليك، فقل لهم: « ليس الله يقول: ليس على الاعمى حرج . » فلما عاودوه شكواه، قال لهم برد ما قاله بشار، فانصرفوا وهم يقولون: « فقه برد أغيط لنا من شعر بشار . »

فيتبين لنا من ذلك ان بشاراً طبع على الشعر منذ حداثته، وطبع معه على الهجاء والشر وحب التكسب والسخر بالدين والناس . فقد عرف بذكائه الفطري ان والده ساذج جاهل . فعبث به لينجو من عقابه . ولم يتحوب من العبث بأية القرآن، فاوّلها الى غير معناها، وجعل الاعمى بريئاً من الاثم اذا اقترفه . والآية لا تقصد الا اعفاءه من التكاليف التي لا قبل له بها كالجهاد .

بشار في العصر الاموي

ادرك بشار بني امية وبني العباس، فهو من مخضرمي شعراء الدولتين . ويقول

صاحب الاغاني: « انه شهر في العصرين، ومدح وهجا، واخذ سني الجوائز. » ولكن لم يصل اليها من شعره ما يدلنا على اتصاله بالخلفاء الامويين، ولو اتصل بهم ومدحهم لذكر ذلك ابو الفرج، وغيره من مؤرخي الادب الاقدمين. ولا تخالهم يُغفلون هذا الامر، وقد عُنوا بتدوين اتفه الاخبار عنه .

وروي ان الوليد بن يزيد كان يطرب لشعر قاله بشار متغزلاً، ويرويهِ ويبيكي . وهو الذي اوله : « ايها الساقيان ضباً شرابي . » ولكن بشاراً لم يتصل بالوليد بل لبث في البصرة لا يبرحها .

واعل اول رحلة تجشمها كانت الى حرّان ، فوفد الى سليمان بن هشام بن عبد الملك، فمدحه بقصيدة بائنة . وكان سليمان بخيلاً، فلم يعطه شيئاً، وقيل بل اعطاه خمسة آلاف درهم . فاستقلها، وردّها عليه . وخرج من عنده ساخطاً وهجاء . وربما كانت له وفادة على مروان بن محمد، فلم يعطه . او ان مروان وعده بشيء، واخلف وعده . فهجاء بآيات لم يصل اليها منها غير بيت واحد يقول فيه :

لَمَرَوَانَ مَوَاعِدُ كَاذِبَاتٌ ، كَمَا بَرَقَ الْحَيَاءُ وَمَا اسْتَهْلًا ١

وجملة القول ان بشاراً لم يحظ عند خلفاء بني امية، ولم يحشم نفسه دلج السرى اليهم ، وانما لبث في البصرة يمدح الولاة والقواد، ويشبب بالنساء . وله فيهن عدة صواحب اشهرهن عبدة او عبيدة .

وكان الى ذلك شديد الاتصال برجال العلم والدين . وكانت البصرة حافلة بهم في ذلك العهد . فصاحب واصل بن عطاء شيخ المعتزلة، وهالج بن عبد القدوس وعمرو بن عبيد وغيرهم من اصحاب الكلام، ولكن واصلاً لم يلبث ان جافاه وهتف به ٢ لما بلغه من إلحاده، وحرض الناس على قتله . فهجاء بقوله :

١ الحياء : المطر . استهل : امطر .

٢ هتف به : فضحه وشهره في المجتمع

مَا لِي أَشَاعِي غَزَالًا لَهُ عُتُقٌ ، كَنَقِيقِ الدَّوَّانِ وَلَّى وَإِنْ مَثَلًا
عُتُقَ الزَّرَافَةِ مَا بَالِي وَبِالْكُمِ ، أَتَكْفُرُونَ رِجَالًا كَفَرُوا رُجُلًا ١

وجافاه ايضاً عمرو بن عبيد، فناصر واصلاً على الهتف به والتشجيع عليه. وشد
ازرها جلة من علماء الدين كالحسن البصري قاضي البصرة وكبير فقهاءها. ومالك بن
دينار العالم الزاهد. فزالوا حتى نفوه من البصرة حوالي سنة ١٢٧ هـ (٧٤٤ م)
فقصد الى مدينة حرّان وافداً على سليمان بن هشام بن عبد الملك، ولكنه انصرف
من عنده مغاضباً كما مر بنا. فاستدعاه امير العراقيين يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري
فاقام في الكوفة يمدحه؛ ويمدح قيس عيلان حتى سقطت الدولة الاموية، وقتل يزيد
بواسط سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) فرجع الى البصرة، وقد مات واصل بن عطاء. على
ان عمرو بن عبيد لم يتركه يطمئن في ارضه بل سعى في نفيه ثانية. فظل يتنقل من
بلد الى بلد حتى توفي عمرو بن عبيد سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) فافرخ روعه ٢ وأُنست
به البصرة زمناً. فاقام بها يمدح ولايتها حتى ارتحل الى بغداد واتصل بالعباسيين.

بشار في العصر العباسي

كان بشار مبعداً عن البصرة لما انتقلت الخلافة الى بني العباس. ومات السفاح
ولم يتصل به شاعرنا، ولا تمكن من العودة الى البصرة. وما كاد يُستخلف ابو جعفر
المنصور حتى هب الحزب العلوي من رقدته يطالب بالإمامة بعد ان رضي بالصمت على
عهد السفاح لان السفاح قرب الطالبين، وانعم عليهم، واحسن مصانعتهم. واما ابو
جعفر فكان نجياً لا يدرّ دره، وعاتياً ظلاماً يضطهدهم ويسى معاملتهم. فخرج

١ اشاع : أوالي . غزالاً : لقب واصل بن عطاء سمي به لكثرة جلوسه في سوق
الغزالين . النقيق : الظليم وهو ذكر النعام . الدوّ : الفلاة . وكان واصل طويل العنق .
وقوله : ان ولّى وان مثلاً اي ان ادبر او اقبل .

٢ ما بالي وبالكم : اي ماشأني وشأنكم واحد . وقوله انكفرون رجالاً : خطاب
لواصل الذي كان يكفر الخوارج لتكفيرهم علي بن ابي طالب .

٣ الروع : القلب . وافرخ روعه : ذهب فرعه وسكن جأشه .

عليه الاخوان محمد و ابراهيم ابنا عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي ، فثار محمد في المدينة ، فبايعه اهلها ، وافتي بصحة البيعة الايمام مالك بن أنس . وثار ابراهيم بالبصرة ، وكان بشار منفياً عنها . فارسل اليه من الكوفة بقصيدته الميمية الشهيرة ، يحرضه بها على المنصور ، ويمدحه ويشير عليه . ولكن الاخوين لم يوفقا بشورتها ، وظفر بهما المنصور وقتلهما .

وابى الله ان تصل قصيدة الشاعر الضير الى ابراهيم ، او انها وصلت اليه وضاعت ، فلم يروها راوية . لان المنصور لم يطلع عليها الا بعد ان قلبها بشار وجعل التحريض فيها على ابي مسلم الخراساني ، والمدح والنصح للمنصور . ولو رويت لابي جعفر على حالها الاول لما سلمت عتق بشار . ولعل هذه القصيدة بعد تغييرها ، كانت السبب في اتصال الشاعر بالمنصور والحظوة عنده ، على اننا لا نعتقد انه عاش منعماً في كنفه ، او انه اكثر من مدحه . وقد عرف هذا الخليفة ببخله وجفاف يده حتى لقب بالدوانيقي^١ لالخافه في محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق .

بشار والمهري

ولما ولي المهدي الخلافة اتصل به بشار اتصالاً وثيقاً ، واخذ يفد اليه وياخذ جوائزه . وكان شعره قد طار وتناقله الناس . وكان المهدي شديد الحب للنساء ، غيوراً عليهن . فبلغته ابيات لبشار فيها مجون وتعهر . فلما قدم عليه استنشده الشعر ، فانشده اياه . فغضب الخليفة وقال : « ويلك أتخض الناس على الفجور ، وتقذف المحصنات المخبات . والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في نسيب لآتين على روحك » . فلما ألح على بشار في ترك الغزل ، شرع يمدحه ويقول انه قد ترك الغزل ، وودع الغواني . ثم يأخذ في قص حوادثه الماضية ، فيتأسف عليها ، ويصف النساء اللواتي صاحبهن فلا يخلو كلامه من الغزل . ولم يكن خبثه في هذا الاسلوب ليخفى على المهدي ، فظهر له جفوة ، وحبس عنه عطاياه . فكان يمدحه فلا يحظى منه بشيء ، ولو جعل مدحه بغير تشبيب .

١ الدوانيقي : نسبة الى الدوانيق جمع الدانق وهو سدس الدرهم بوزن الحبة من الحنطة .

وحاول ان يتقرب من وزيره يعقوب بن داود فلم يحفل به ولا اذن له ، ولا اعطاه . فرحل الى البصرة غاضباً واخذ يهجو المهدي ووزيره ، ويوجع فيهما فكان طول لسانه سبباً في هلاكه . لان الخليفة سخط عليه ، واراد اذيتة . فاتفق ان رآه مرة في البصرة يؤذن وهو سكران في غير وقت صلاة ، فنسبه الى الزندقة ، وامر بضربه ف ضرب سبعين سوطاً حتى مات . ولما نعي الى اهل البصرة ، تباشروا وتصدقوا لما كانوا منوا به من لسانه . وجاء في معاهد التنصيص انه دفن مع حماد عجرد الشاعر الخليل . فكان الاقدار شاءت ان تجمع هذين الشاعرين في قبر واحد ، بعد ان تنافرا شطراً من حياتهما وتقارضا اقدع الهجاء .

صفاته واخلاقه

قال الاصمعي : « كان بشار ضخماً عظيم الخلق والوجه مجدوراً ، طويلاً جاحظ المقلتين ، قد تعشاهما لحم احمر . فكان اقبح الناس عموً وافظعه منظرأ . وكان اذا اراد ان ينشد صفق بيديه ، وتنحنج وبصق عن يمينه وشماله . وكان اشد الناس تهرماً بالناس . وكان يقول : « الحمد لله الذي ذهب ببصري لئلا أرى من أبغض . » اه وكان فاسقاً شديداً التعهر محب اللهو ، مدمناً الخمر ، يلتمس اللذة ويجدد في

روى ابو الفرج : « ان بشارا مات سنة ثمان وستين ومائة وقد بلغ نيفاً وسبعين سنة . » وذكر في معاهد التنصيص ووفيات الاعيان انه نيف على التسعين . ونحن نرجح رواية صاحب الاغانى مستندين الى ما رواه ابو عبيدة من ان بشارا هجا جريراً وهو حدث فاستغفره جرير ، ولم يجبه . وليس هناك رواية تدلنا على انه ادرك جريراً وهو كبير . ولو اخذنا برواية ابن خلكان ، وصاحب معاهد التنصيص لاصبح مولد بشار حوالي السنة السادسة والسبعين للهجرة ، ولكان بوسعه ان يعاصر جريراً وهو يناهز الاربعين من عمره . ولما كان جرير ان يستغفره ، ويستخف به فلا يجيبه على هجائه . وكان بشار يقول : « هجوت جريراً فاعرض عني واستغفرني ، ولو اجابني لكنت اشعر الناس . » ثم اذا نقصينا ما وصل اليها من اخبار بشار واشعاره لا نرى له خبراً او شعراً ابعد من خلافة الوليد بن يزيد اي من سنة ١٢٥ - ١٢٦ هـ و ٧٢٢ - ٧٢٣ م . وهذا ما يرجح ان ولادته لم تقدم خلافة سليمان بن عبد الملك اي قبل وفاة جرير بنحو ثمانى عشرة سنة . وخلافة سليمان من سنة ٩٦ - ٩٩ هـ و ٧١٦ - ٧١٧ م .

طلبها ، ويهوى النساء لاجلها ، لا شغفاً بالجمال وهو لا يراه . ولم يخلص في حبه لامرأة
لان عاطفته الحيوانية كانت تجمله على الاسراف في الاستمتاع ، وطلب الجديد منه
فيستخدم شعره في افساد النساء ، وحضهن على الفحش ، ليتاح له التنقل من صاحبة
الى صاحبة .

وكان متكبراً كثير الاعتداد بنفسه ، لا يرى فوقه شاعراً ولا عالماً . وتكبره
جعله شديد الافتخار بنسبه حتى لا يجد له معادلاً غير قريش وكسرى . وجعله
يشبب بجمال صورته على ما فيها من دمامة وقبح فيقول :

وَإِنِّي لِأَغْنِي مَقَامَ الْفَتَى ، وَأَصْبِي الْفَتَاةَ ، فَمَا تَعْتَصِمُ ١

ويرد على ابي دلامة الشاعر عندما عيره القبح ، فيقول في وصف نفسه : « اني
لطويل القامة ، عظيم الهامة ، تامّ الاالواح ، اسجج ٢ الخدين . »

وهذا الكبر والد فيه احتقاراً للناس ، كما ولد فيه العمى كرهاً لهم . فكان
شديد النعمة عليهم لتمتعهم بالنظر دونه وهو يرى انه خيرهم . وكل ذي عاهة
جبار . وبغضه للناس واحتقاره لهم جعلاه كثير التهم بهم ، قليل الادب في مجالستهم .
والسخوية صفة لازمة لبشار فانه يستهزئ بكل شيء ويستخف من كل شيء .

وتهمكمه جارح مؤلم وقد يبلغ به حد القحة فما يستحي ان يتنادر على خال الخليفة ،
وهو في حضرته . قال ابو الفرج : « دخل يزيد بن منصور الحميري على المهدي ،
وبشار بين يديه ينشده قصيدة امتدحه بها . فلما فرغ منها اقبل عليه يزيد بن منصور
الحميري ، وكانت فيه غفلة ، فقال له : « يا شيخ ما صناعتك ؟ » فقال : « اتقب
اللؤلؤ . » فضحك المهدي ثم قال لبشار : « اعزُب ويملك ! اتنادر على خالي ! » فقال
له : « وما اصنع به ، يرى شيخاً اعمى ينشد الخليفة شعراً ، ويسأله عن صناعته ! »
فهذا التهمكم وان يكن مضحكاً فهو حاد جارح لما فيه من لؤم ونكاية ، ولا
يخلو من وقاحة لصدوره عن شاعر جاء يدح الخليفة متكسباً فشرع يهزأ بخاله في حضرته

١ اغني مقام الفتى : اي اقوم مقامه وافعل فعله . الفتى : السخي الكريم . اصبي :
افتن . تعتصم : تمتنع .
٢ سَجِج الخد : لان وسهل .

وكان اعجابه بنفسه يدفعه الى ان يربأ بها عن مهاجمة سفلة الناس لئلا يجعل منزله في منزلتهم ، وكثيراً ما اعرض عن جواب لئيم تحرش به . وكان يقطع لسان الي الشَّمَقَ الشَّاعر بماثي درهم في كل سنة مخافة ان يهجوّه . وهو لا يستطيع الرد عليه لانه شاعر سخيّف يروي شعره الصبيان .

وكان كريماً متلاًفاً يكسب كثيراً وينفق كثيراً . شديد الفخر بكرمه فما يأنف ان يشكو ضيق ذات يده لكثرة الانفاق . واذا شكاً وسأل الح في المسألة ، ولكن على كبر وعتو وتهديد .

وهو على بغضه للناس يحب ابناؤه ويرأف بهم . وقد مات له ولد فجزع عليه جزعاً شديداً . ويحب اخوته ويعطف عليهم . وكان له اخوان قصّابان ، احدهما يقال له بشر والآخر بشير . فكانا يستعيّران ثيابه فيوسخّانها ، وينتنان ريحها . فاراد منعها فلم يمتنع ، فاذا اعياه الامر خرج الى الناس في تلك الثياب على نثنها ووسخها فيقال له : « ما هذا يا ابا معاذ ؟ » فيقول : « هذه ثمرة صلة الرحم . »

ويحب اصدقاءه الخلاء ويرأفهم ، ويحفظ لهم الوداد بعد موتهم فيرثيهم ، ويتلف عليهم . ولعله لم يخلص في حبه الا لابنائه واخوته وندمائه .

وكان الى ذلك حادّ الذهن شديد الذكاء ، نير البصيرة ، سريع التنبه ، دقيق الحس ، ذرب اللسان ، حاضر البديهة .

فلونه في نسيم

كان بشار شعوبياً متعصباً للفرس ، ينكر الولاء ويتبرأ منه ، ويحضّ الموالي على رفضه . ولكنه كان مع ذلك يفتخر ببني عَقيِل وبقيس عيلان ويدافع عنهم ويهجو اعداءهم . فاذا انتسب الى الفرس جعل اسرته في مستوى اسرة كسرى :

وَرُبَّ ذِي تَاجٍ كَرِيمٍ أَجَدَّ كَالِ كِسْرَى أَوْ كَالِ بُرْدِ

واذا انتسب الى عَقيِل جعل اصله في الرأس منهم :

إِنِّي مِنْ بَنِي عُقَيْلِ بْنِ كَعْبٍ مَوْضِعَ السَّيْفِ مِنْ طُلَى الْأَعْنَاقِ^١
 وسأله المهدي يوماً : « فيمن تعتدُّ يا بشار ؟ » فقال : « أما اللسان والزبي
 فغير بيان ، وأما الأصل فعجمي . » وانشد :

أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِي جَاهِدًا ، لِيَعْرِفَنِي ، أَنَا أَنفُ الْكَوَمِ^٢
 نَسْتُ فِي الْكَوَامِ بَنِي عَامِرٍ فُرُوعِي ، وَأَصْلِي قُرَيْشُ الْعَجَمِ^٣

علموه

كان بشار عالماً فقيهاً متكلماً ، ولولا زندقته لعد من كبار أئمة الدين : وعرف
 بطول بابه في معرفة الغريب والوقوف على أساليب العرب الصرخاء . وبنقد الشعر
 وتمييز صحيحه من منحوه ، وصدق ظنه في تقدير جوائزه . فقد كان يزنه بعميار تأثيره
 في نفس المحدث ، وموقعه من سياسته وهواه .

أما

قيل : ان أكثر الناس شعراً في الجاهلية والاسلام ثلاثة : بشار وابو العتاهية
 والسيد الحميري . وتحدث بشار عن نفسه فقال : « ان لي اثني عشر ألف قصيدة . »
 ولكن لم يبق لنا من هذا القدر الكبير الا تر يسير ، متفرق في كتب الادب .
 وظل شعر بشار متداولاً الى عهد ابن خلكان فقد جاء في كتابه وفيات الاعيان
 في الكلام على بشار : « وشعر بشار كثير سائر فنقتصر منه على هذا القدر . »
 واورد بعض مقطعات منه .

على ان هذا الشعر لم يُتبع له من يجمعه إبان انتشاره فضاع على افواه الرواة .
 ولولا صاحب الاغاني ، وما دون من اشعار بشار واخباره لما وصل اليها منها ما
 يستحق الذكر .

-
- ١ الطلى : اصول الاعناق واحداثها طلية او طلاة . يقول : ان اصله ثابت فيهم ،
 وقائم منهم موضع الرأس من الجسد .
 ٢ جاهداً : اي جاداً مجتهداً .
 ٣ يقول : ان اسرته اشرف اسر الفرس فهي بمثابة قريش في العرب .

وفي سنة ١٩٣٤ عثر محمد بدر الدين العلوي احد معلمي اللغة العربية في الجامعة الاسلامية بعلبك في الهند على مخطوط قديم في المكتبة الاصفية بجيدر اباد من كتاب « المختار من شعر بشار » للخالدين شاعري سيف الدولة وخازني دار كتبه ، وشرحه لاسماعيل بن احمد التجيبي من ادباء القرن الخامس للهجرة . فغني بنسخه وتصحيحه ، وطبعه . على ان هذا المختار لا يشتمل على كثير من شعر بشار لما فيه من المقارنات بين كلامه وكلام القدماء والمحدثين . وانما فيه ابيات للشاعر لا توجد في غيره من الكتب .

مبصرته

اتيح لبشار ان يملك الشعر من ناحيتيه العبقورية والفن . فهو من حيث الاولى شاعر قوي الطبع متوقد النفس يدعو القوافي فتنصاع اليه سلسلة القياد . ومن حيث الثانية شاعر مرهف الاحساس بالجمال الفني يتصرف في الالفاظ والتعابير فيأتي بها طريقة دقيقة المدلول مزدانة منتقاة .

وسنحاول ان ندرس في هذا البحث خصائصه في مختلف الانواع الشعرية على قدر ما تبيح لنا اثاره الباقية .

الرجاء

لم يكن في اخلاق بشار وصفاته ما يجلب الناس اليه ، فيصون لسانه عن تلبهم وتشهيرهم . ولا بدّ لمثله ان يكون بغيضاً مقيماً ، وان يكثر اعداؤه فيتناولوه بالستهم ، وان يقوم فيهم شعراء يقارضونه الهجاء .

وغير عجيب ان يكون هذا الهجاء فاحشاً مقذعاً ، فان اخلاق بشار لا تستنكره ، واخلاق عصره لا تتأبه . وقد ترك جرير والفرزدق من إقذاعها إرثاً عظيماً لمن جاء بعدهما من الشعراء فانفقوا منه عن سعة .

وكان بشار شديد الاعجاب بجرير فلا بدع ان يتعهر مثله في الهجاء ، ويزيد عليه تفنناً في استنباط المعاني الفاحشة ، يستمدها من الحضارة الجديدة وتبدل المكان والزمان على ان غاية جرير من الهجاء تختلف عن غاية بشار . فجرير كان يصطنعه ليرد

على خصومه الشعراء . واما بشار فانه مال اليه بطبعه الفاسق الفاجر ، ثم بكرهه للناس واحتقاره اياهم ، ثم بجبه للتكسب فعل الخطيئة قبله .

وهو في هجوه صادق لا يتكلفه تكلفاً ، وان تاجر به وتكسب ، فعاطفة البغض مسيطرة عليه في كل حال . وقد سئل : « انك لكثير الهجاء . » ا . فقال : « اني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع ' الشاعر من المديح الرائع . ومن اراد من الشعراء ان يُكْرَم في دهر اللثام على المديح فليستعد للفقر ، والا فايبالغ في الهجاء ليخاف فيُعطي . »

وكان يصب هجاءه على كرام الناس الذين يضمنون باعراضهم ان تحرق ، فيشترونها منه بالمال . فيسكت عنهم او يمدحهم اذا اجزلوا له العطاء .

وكان اشد الهجاء لذعاً بينه وبين حماد عجرد . وسبب تهاجيها ان حماداً كان نديماً لنافع بن عتبة الأزدي والي البصرة . فسأله بشار تنجيز حاجة له من نافع ، فابطأ حماد عنها فغمره بشار في شعره فغضب حماد واخبر نافعاً فمنع صلاته عن بشار . فلحجم الهجاء بينهما نحواً من خمس عشرة سنة حتى مات حماد .

على ان حماداً لم يستطع ان يسقط بشاراً بشعره ، ولكنه هتكه بالزندقة . واما بشار فقد اسقط حماداً ببلاغته وفضحه ، ولم يُقَصِّر في رميهِ بالثنوية ^١ والكفر . قيل اجمع علماء البصرة انه ليس في هجاء حماد عجرد لبشار الا اربعون بيتاً معدودة ، ولبشار فيه من الهجاء اكثر من الف بيت . ولكن لم يصل اليها من تهاجيها الا شيء قليل لا يعتد به .

ونحن نكتفي من هجاء بشار بما لا نرى حرجاً في روايته . وهو على نزارته يبين لنا شيئاً من اسلوب الشاعر في هذا الفن ، وما فيه من كبرياء ومضاضة وايلام . فبشار

١ الضبع : العضد .

٢ الثنوية : مذهب المانوية نسبة الى مؤسسه ماني وهو مذهب فارسي اتى مصدقاً لما بين يديه من المذهب الزرادشتي متفقاً معه على ان في الكون الهين اثنين احدهما اله النور والخير وهو النهار والثاني اله الظلام والشر وهو الليل .

إذا هجا رمى خصمه بالكفر والزندقة ، مع انه كان في طليعة الزناديق . فقد كفر
حماد عجرد والمهدي وواصل بن عطاء وسواهم ، وهو الى ذلك لا يعف عن الاعراض
بل يشتمها شتماً قبيحاً ، وربما استخدم شعره للتكسب الادبي فان سيبيويه عاب
قوله في وصف السفينة : «تلاعبُ نينان البحار» وانكر جمع نون على نينان .
فغضب بشار ، وهجا سيبيويه ، فتوقاه سيبيويه بعد ذلك ، وصار اذا سئل عن شيء
فاجاب عنه ، ووجد له شاهداً من شعر بشار احتج به استكفافاً لشره .

وكذلك الأخفش الاوسط^٢ عاب عليه جمع النون على نينان ، واستعمال الواو على
والغزل موضع الواو والغزل ، فهدده بالهجاء فجزع وصار يحتج بشعره في كتبه .
وهجاء بشار يجري بين الجزالة والسهولة وافخمه ما جاء في الامراء والقبائل .
وفيه من وضوح الالفاظ والتعابير ما يجعله يسير بين الناس هين الحفظ ؛ فيتم للشاعر
ما يريد من تشهير المهجو وترك اسمه مضغة في الافواه

المدح

كان بشار يتخذ المدح آلة للتكسب ، لا شغفاً بمناقب الممدوح او كلفاً به . فلم
تكن مناقب الناس ، مهما حسنت ، لتملك عاطفته او لتبهز فؤاده ، وهو يبغض الناس
ويرى نفسه فوقهم جميعاً . لذلك لم يخلص في مدحه لاحد ، وانما كان يتقرب غيث
ممدوحه ، فاذا اخلف او ابطأ استمطره بالهجاء . فقد مدح سليمان بن هشام فلما
استقل عطائه هجاء . ومدح المهدي فلما اعرض عنه لم يحجم عن هجوه والقول
فيه : «كذب املي لانني كذبت في قولي» . فهو يعترف بانه مدحه كاذباً .

١ ورد هذا الجمع في كتب اللغة ، فقد جاء في لسان العرب والقاموس وغيرها :
النون : الخوت والجمع انوان ونينان . وسيبيويه نفسه ذكر في كتابه ان النون يجمع على
نينان . فلعله يوم انتقد بشارا كان شاكاً في جمع النون على نينان ، ثم عثر عليه في اقوال
العرب فصحيح خطأه وذكره في كتابه . وقد غير بشار البيت بعد ان عابه سيبيويه فقال :
قلاعب تيار البحار .

٢ الاخفش الاوسط احد ائمة اللغة . اخذ النحو عن سيبيويه مع انه كان اكبر منه .
وهو الذي زاد في العروض بحر الخبب

وتظاهر بالتشيع للعلويين شأن أبناء الفرس، فلما ثار ابراهيم بن الحسن على المنصور ارسل اليه قصيدة يمدحه بها ويهدد الخليفة . فلما علم ان ابراهيم قتل لم يأنف من انكار تشيعه فغَيَّر القصيدة ، وجعلها في مدح المنصور وتهديد ابي مسلم .
وله اسلوب في المدح يطلعنا على حقيقة نفسه الطمّاعة المتعجرفة ، فهو يمدح الشخص ويهدده إَلَمْ يُحَسِّنْ صلاته .

وقد يتوسل بالوعظ والارشاد ولا يخلو ممدحه من قحة السؤال على تدمير لقلة العطاء فيحض ممدوحه على الجود والسخاء .
ومدح بشار عُقبة بن سَلَم أمير البصرة فأحسن عطاءه فزاده مدحاً حتى قيل ان مدائحه فيه فوق كل مدائحه . وحدث ان وكيل عقبة أَمَّرَ الجائزة عن بشار ثلاثة ايام ، فأمر بشار غلامه بان يكتب على باب عقبة ابياتاً فيها يقول : « ان لم تُرد حمدي فراقب ذمي . » فخاف عُقبة وضاعف الجائزة وعجل بارسالها اليه .

ففي هذا كله ما يدلنا على كذب بشار وعدم اخلاصه لممدوحيه ، ولكنه كان يجيد المدح كما يجيد الهجاء ، فهو شاعر مبدع صادق الشعور الفني وان لم يكن صادق العاطفة . واسلوبه في المدح عليه مسحة البداوة في استهلالاته وتعابيره ، ولكنه يخليه بالمعاني الدقيقة الطريفة، ويرصعه بالاستعارات السائغة اللطيفة، فيخرج به عن خشونة البدو الى نعومة الحضر . فاذا هو بين يديه وعليه جدّة رَيِّقة زاهية .

الغزل

لم يعرف بشار للحب معنى صحيحاً ، ولا اختلج فؤاده لمراى الجمال وهو لا يراه . وانما كان في نفسه حس دقيق ضاعف العمى قوته ، فاذا به شديد الولوج باللذة، يسعى اليها ويتطلبها بالخاف . وكائن ' ثارت نفسه لحديث ممعه ، او كف لمسها ، او طيب استنشقه . فهو فاسق القلب ، اباحي الحب ، لا يفهم منه غير اللذة الحيوانية ، ولا غرو ان يخرج شعره صورة لنفسه الفاجرة فيظهر حافلاً بالفحش والتعهر .

وقد اجاد بشار الغزل كما اجاد غيره من الفنون . وكأنه شعر بعجزه عن تصي
النساء بحاله وحسن روائه ، فاتخذ من براعة فنه وسيلة لاغوائهن ، فنظم فيهن الغزل
الرقيق الناعم فاقبلن عليه يزرنه في منزله ، ويجالسنه في البردان او الرقيق^١ ليستمعن
الى شعره . حتى لم تبق غزلة في البصرة الا كانت له راوية .

وغزل بشار شديد الخطر على العفاف ، لان صاحبه تعمد فيه اغواء النساء ،
وحضهن على الفجور ، فكان ذلك سبباً لحمل المهدي على منعه من التشبيب . وقد
جعل الحبث غزله بلغة سهلة لينّة ، واوزان خفيفة رشيقة ، ليهون حفظه وفهمه على
النساء ، ولا سيما الجواري العجميات واكثره فيهن ، فلا يستصعبن روايته . واعتمد
على الصراحة ، فروى حوادثه معهن بقال قصصي . وقد يعنى بتذليل الصعاب للمرأة
التي تتجنب الفضيحة وتخشاها .

وهو الى ذلك يصنع مثلاً يصنع الشعراء المتيمنون ، فيكثر من الانين واللوعة ،
ووصف سقامه وسهره وحزنه . فيخيل اليك انك تقرأ شعر رجل اضر به الحب
حتى ادنقه . مع انه لم يقف قلبه على امرأة واحدة ليتألم ويسقم اذا ابتعد عنها ونزى
انه لم يصدق في وصف حبه الا من تلك الناحية التي ذكر بها اللذة وتهالكه على
طلبها ، وان أثر عبدة واحبها اكثر من غيرها .

وقد اكثر شاعرنا من وصف نحوه على ضخامة جثته حتى اخذ الناس يضحكون
منه . ويعابشونه نكارية له . قيل مرّ به بعض اهل الكوفة ، وهو منبطح في دهليزه
كانه جاموس . فقال : « يا ابا معاذ من القائل ؟ » :

فِي حُلَّتِي جِسْمٌ فَتَى نَاحِلٍ ، لَوْ هَبَتِ الرِّيحُ بِهِ طَاحًا^٢

١ البردان والرقيق : حجرقان في منزل بشار . وكان البردان مجلس الصباح ،
والرقيق مجلس العشاء .

٢ حلتي : ثوبي . طاح : ذهب وهلك .

قال : « انا » قال : « ما حملك على هذا الكذب ؟ والله اني لأرى ان لو بعث الله الرياح اتى اهاكت الامم الحالية ما حركتك من موضعك ! . »
 وسنحت لبشار معان يرجع الفضل بها الى عماء كقوله :
 يا قوم اذني لبغض الحبي عايشة ، والأذن تغشق قبل العين أحياناً
 وكان اذا غتمه القيان في مجالس لهوه ، وصف مجلسه وتغزل وضمن الابيات التي
 غتمه القيان بها . وقد شاعت هذه الطريقة بين شعراء عصره لكثرة مجالس اللهو
 والطرب .

الخمر

لم يبق لنا من خمریات بشار الا نثر يسير ليس فيه غناء . ولا ريب ان الشاعر
 وصف الخمر في اوقات لهوه ، واكثر من وصفها ، ولكن لم يشهر بها كما شهر ابونواس
 بعده ، ولا تفنن في معانيها تفننه . وان ما وصل اليها من شعره الخمرى يكاد لا يخرج
 عن الدائرة التي طوّف فيها الأعشى ثم الاخطل . فهو يتوكل عليهما في النعوت التي
 نعتا بها الخمرة ، والوصاف التي وصفها بها السكران .
 ومهما يكن من شيء فإن بشاراً تغزل بالخمرة ، واحسن التشبيب بها . ولكنه
 لم يطبع اوصافها بطابعه الخاص . وانما جاء مقلداً لسواه . على انه لو وصل اليها من
 خمرياته شيء يذكرك لكان بوسعنا ان نحكم عليه حكماً اصح واعدل .

الفخر والمجاسة

عرفنا ان ولاء بشار في بني عَقيـل ، وعقيل من عامر ، وعامر من قيس عيلان بن
 مضر ، فكان بشار يتعصب لبني عقيل خاصة ، وللقيسية او المضرية عامة . وكان
 يفتخر بهم كما يفتخر بالفرس اجداده الاول ، وقد استحق لقب شاعر قيس في دفاعه
 عنهم ، ومهاجاته خصومهم .

وله قصيدة قالها في ابن ابي هُبَيْرَة عامل العراق عند مسيره الى محاربة الخوارج ،
 فانارها الحماسة في صدور الرجال . وقد استهلها بالغزل على الطريقة القديمة ، واخرجها
 جزلة الالفاظ قوية التعبير على تصوير بليغ لزحف الجيش ، ووقع السيوف ،
 وانكسار العدو . وحسبك منها تشبيه السيوف تحت الغبار بالشهب
 الساقطة في الظلام . ثم ذلك التقسيم البديع في تصوير الجيش المنهزم ، فقد جمع فيسه
 ما يلقاه المغلوب من نتائج الحرب ، ووخيم مغباتها : « فريق في الإِسار ، ومثله قتيل ،
 ومثلٌ لا ذ بالبحر هاربه . » ويحمل بنا ان لا نغفل عن حسن الصنعة في استعارته العتاب
 للقتال في قوله : « مشينا اليه بالسيوف نعاتبه . » وكان بوسعه ان يقول نضاربه او
 نحاربه . ولكن الاستعارة هنا ابلغ وواقع في النفس . وفيها من دقة المعنى ، وبراعة
 المدلول شيء كثير . واي عتاب اشد من عتاب تنتضي فيه الصوارم بدلاً من اللسنة

الرثاء

لم يصل الينا من رثاء بشار الا شيء قليل . ونحسب ان الشاعر لم يحفل بهذا الفن
 لقلة الانتفاع به . فهو انما كان يعني بارضاء ممدوحه حياً ليكتسب منه . ولم يكن
 يهجمه ان يدحه ميتاً لَمْ يتوقع خيراً من بعد ذلك .
 وكان بغضه للناس امات فيه عاطفة الحزن واللوعة ، فما كان يجزع على فقيد حتى
 يرثيه رثاء صادقاً ، فنفس بشار اصلب من ان ترثي لمصائب الناس . وقد رثى عمرو بن
 حفص العتكي^١ وكان محسناً اليه ، فوفق بعض التوفيق . واصيب بولده ، فجزع
 لموته ، ولكن نفسه ابت عليه التفجع والارثان ، فلم يستطع رثاءه باحسن مما رثى به
 العتكي .

١ قائد شجاع قاتل الخوارج من قبل المنصور في (تقيير وان فقتلوه سنة ١٥٤هـ) (٢٧٠م)

وكان له عصبة من الاصدقاء الخلقاء يصاحبونه في مجالس لهوه . فلما نزلت
صروف الدهر ، شعر بفراغ حوله ، فشجاه فراقهم ، فرثاهم بقصيدة يقول فيها :

كَيْفَ يَصْفُو لِي النَّعِيمَ وَحِيداً ، وَالْأَخْلَاءَ فِي الْمَقَابِرِ هَاماً^١

ارؤه وعقائده

كانت لبشار اراء وعقائد اورثه اياها اصله الفارسي ، وعصره الذي تفشت به
المذاهب والبدع ، بعد ان خرج العرب من جمودهم العقلي ، واخلدوا الى التأمل والتفكير .
ولعل الحياة اظهر شيء في اراء بشار ، فتراه على شعوبيته ، وكرهه للعرب لا
يستنكف عن الافتخار بمصريته . وعلى تفقهه بالدين ، وتضلعه من علم الكلام لا
يصلي ولا يأبه للفروض والانفال . وقد يدين بالجبرية^٢ ثم لا يلبث ان ينقضها
فيقرر بالبعث والحساب

وربما حن الى اصله المجوسي^٣ ففضل النار على جميع العناصر ، وفضل ابليس
على آدم وبنيه :

الْأَرْضُ مُظْلِمَةٌ ، وَالنَّارُ مُشْرِقَةٌ ، وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مِذْ كَانَتْ النَّارُ

وكان سيئ الظن بالناس لا يركن الى صداقتهم ، وانما يراهم جميعاً مخادعين
غيايين على انه يوصي بمدارة الصديق والتغاضي عن هفواته ، والاقتصاد في معاتبته .

مؤوه وتخطئه

وبشار على جلالته لم يخل شعره من الخشو والتخليط ، فروي له شيء غث لا
يليق بشاعريته . وهذا ما جعل اسحق الموصلي لا يعتد به ، ويفضل عليه مروان بن

١ هام : اموات ، يقال : اصبح فلان هامة اي مات ، وهذا هامة اليوم او غد اي
مشف على الموت .

٢ الجبرية : مذهب طائفة تقول بان الانسان مسير غير مختير مجبور على كل ما يفعله
بقوة خفية قاهرة فلا يصح عقابه .

٣ المجوسي : نسبة الى المجوسية وهي عبادة النار وها كان يدين الفرس قبل اسلامهم .

ابي حَفْصَة . وكان يقول فيه : « هو كثير التخليط في شعره ، واسعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً . أليس هو القائل :

إِنَّمَا عَظُمُ سُلَيْمَى حَبَّتِي قَصَبُ الشُّكْرِ لَا عَظْمُ الْجَمَلِ ١ ،
وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا ، غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ
لو قال كل شيء جيد ثم اضيف الى هذا الزيفه . »

على انه مهما يكن من تخليط بشار فان اسحق الموصلي قد جار بحكمه عليه .
فقد يسف الشاعر الفحل ، ويروى له الغث البارد ، ولكن ذلك لا يحط من قدره ،
ولا يضير شاعريته ، ولا يضيع ماله من الحسنات . وبشار نفسه كان يعتذر عن هذا
التخليط بقوله : « هذه اشياء . كنا نعبث بها في الحداثة » .

وقد يخلط بشار متعمداً لحاجة في النفس ، او مراعاة لمقتضى الحال فيسف غيره
حافل بالتعبير ، كما في قوله لجاريته ربابة :

رَبَابَةٌ رَبَّةٌ أَلْبَيْتِ ، تَصُبُّ الْحَلَّ فِي الزَّيْتِ ،
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ ، وَدِيكَ حَسَنُ الصَّوْتِ

وقد سئل عن ذلك فقال : « لكل وجه وموضع . وهذا قلته في ربابة
جاريتي ، وانا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهي تجمع
لي البيض ، وهذا عندها احسن من « قفا نيك » عندك . »

ومن عبث بشار قوله على لسان حمار له مات ، وزعم انه رآه في النوم فقال له :
« لم مت ؟ ألم اكن أحسن اليك ! » فقال الحمار :

سَيِّدِي خُذْ بِي أَتَانًا عِنْدَ بَابِ الْأَصْبَهَانِي ٢ ،
تَيِّمَنِي بِنَّانٍ ، وَبَدَلْ قَدْ شَجَانِي ٣ ،

١ حَبَّتِي : حببتي .

٢ خذ بي : اي طالب بدمي . الاثنان : اثني الحمار

٣ تيممني : استعبدتني بحبها البنان : الاصابع مفردها بنانة . الدل : اجتراء وتيه
بفتح . شجاني : احزنني .

تَيْمَنِي يَوْمَ رُحْنَا ، بَشَائِهَا الْحِسَانِ ،^١
وَبُغْنِجٍ وَدَلَالٍ ، سَلَّ جِسْمِي وَبَرَّانِي^٢
وَلَهَا خَدُّ أَسِيلٍ^٣ مِثْلُ خَدِّ الشَّيْفَرَانِ^٤
فَلِذَا مِتُّ وَلَوْ عِشْتُ إِذَا طَالَ هَوَانِي

فقال له احدهم : « ما الشيفران ؟ » قال : « وما يُدْرِينِي ! هذا من غويب
الحمار ، فاذا لقيته فاسأله . »

مترانه

اجمع الرواة ، او كادوا ، على ان بشاراً زعيم الشعراء المُحدثين . وكان الاصمعي
شديد الإعجاب به ، فاذا سئل عنه قال : « بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا ان ايامه
تأخرت لفضلته على كثير منهم . » وقد فهم بشار عقلية النقاد في عصره فقال :
« ازرى بشعري الأذان . »

وقال ابن شرف القيرواني : « شعره ينفق عند ربّات الحِجَال^٥ ، وعند فحول
الرجال ، فهو يلين حتى يستعطف ، ويقوى حتى يستنكف^٦ . »
وسئل بشار : « بم فقت اهل دهرك ، وسبقت رجال عصرك ؟ » . فقال :
« لاني لم اقبل كل ما تورده علي قريحتي ، وينا جيني به طبعي . »

ولكنه على عنايته بتنخل شعره لم يخرج به عن طبعه ، وانما اضاف اليه براعة الفن
فصقله وهذبه وتصرف فيه تصرف المالك في ملكه . فجذَّ وهزل ، ورُصن وخفَّ ،

١ الثنايا : اربع اسنان في مقدم الفم ثنتان من فوق ، وثنتان من تحت ، واحدهما
الشمسية .

٢ سل جسمي : اي افتزع صحتي . براني : اهزلني .

٣ أسيل : لين طويل .

٤ الحجال : جمع حجلة وهي موضع كالقبة يزين للعروس بالثياب والاسرة والستور
وربات الحجال ، كناية عن النساء .

٥ يستنكف : يستكبر .

فاذا هو على حالته دقيق المعاني يحسن توليدها ، طلي الالفاظ بحيد انتقاءها . وكان
لاصله الفارسي اثر في شاعريته فغنت له اغراض لم تحظر لشعراء العرب الخالص .
ولعماء تأثير عظيم ، لا بد ، في اذكاء قريحته ، وتقوية حسه ، الا انه اضعف
صوره والوانه فكان يتوكأ بها على غيره متفنناً في تأليفها واخراجها كقوله :
كَأَنَّ مُشَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْسَ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ
وجملة القول ان بشاراً شاعر ساحر ، لعوب بالمعاني والالفاظ ، يحسن البديع
والاستعارة والتشبيه ، ويتفنن في جميع ابواب الشعر . وهو الى ذلك شاعر مطبوع ، غزير
المادة ، لا يتكلف النظم تكلفاً . ويعد خيرة صلة بين العصرين الاموي والعباسي .
فقد خلع الفن على شعره روعة القديم وجلاله ، ورقة الجديد وجماله . وغير عجيب ان
يتبوأ كرسي الرئاسة ويستقر عليه سعيداً الى ان يخليه بعد موته لابي نواس .

ابو نواس

٧٦٢ — ٨١٣ م و ١٤٥ — ١٩٩ هـ (؟)

حياته : نسبه . ابو نواس في صباه . في بغداد . في مصر . اتصاله بالاميين .
توبته وموته . صفاته و اخلاقه . تلونه في نسبه . اسانذته وعلومه .
نظمه الشعر . اثره .

ميزته : ينفرد بالخمر والمجون . يجاري غيره في المدح والهجو والطرده والزهد .
يقصر في الرثاء والغزل البري ، ولا سيما غزل الموءنث . الخمر والمجون .
خروجيه على القديم . شعوبيته . تجددته . اراءه وعقائده . غزله .
مدحه . هجوه . طرده . زهده . ما ادرك عليه . مترلته : قتيله عصره .

حياته

ليس في ما جاءنا عن نسب ابي نواس ما يصح الاقتناع به والاطمئنان اليه ؛
فالاقوال فيه متضاربة ، والاختلاف غير قليل . على ان المشهور عنه انه الحسن بن

هانيء بن عبد الاول بن الصباح ؛ وان جده كان مولى الجراح بن عبدالله الحكمي^١
والي خراسان ، فنسب اليه . وان اياه كان من جند مروان بن محمد ، وهو من اهل
الشام . وان امه فارسية من الاهواز ، واسمها جُلْبَان^٢ .

وكان يكنى في اول امره ابا علي ثم تكنى بابي نواس^٣ لذؤابتين^٤ كانتا
تنوسان على عاتقه وهو صبي . وقيل ان استاذة خلفاً الاحمر كان له ولان في اليمن ،
فقال له يوماً : « انت من اليمن فتكن باسم ملك من ملوكهم الاذواء^٥ » فاختر
ذا نواس ، فكناه ابا نواس بحذف صدره ، فغلبت عليه .

وكانت ولادته في الاهواز من فارس ، ذلك ان اياه هائناً انتقل اليها مع الجيش
للرباط ، فتزوج فيها جُلْبَان ، فولدت له عدة اولاد منهم الحسن . ومات ابيه وهو
طفل ، فانقلت به امه الى البصرة وله من العمر سنتان . فنشأ هناك ، ولما شب اسلمته
الى عطار يبري عود البخور .

ابو نواس في صباه

ولكن نفسه ما كانت لترضى هذه الصنعة ، وبها نزوع شديد الى الادب ، فكان
لا يفتقر عن مخالطة اهل المسجد ، والادباء المجان ، واخذ يتردد على باب ابي عمرو بن
العلاء . وكان الرواة والشعراء يجتمعون عنده ، فاتصل بهم ، وهو في العقد الاول من
عمره ، فاكتسب منهم ادباً وعلماً ، ولكنهم اضروا باخلاقه ، فتهتك صبيّاً .
ولم يكن له من بسطة العيش ما يقيه الحاجة فيصون ماء وجهه . فكان اصحاب

١ الحكمي : نسبة الى الحكم وهي قبيلة كبيرة في اليمن .

٢ جُلْبَان : كلمة فارسية . ذكر ابن منظور في اخبار ابي نواس ان معناها وردة
على اذن . وجاء في هامش الكتاب بقلم المصحح : « لعلها وردة على غصن » وقد راجعنا
بعض المصادر الفارسية فوجدنا ان الكلمة مركبة من جُلْ وهو الورد . وبان وهو
البستان الصغير فيكون معناها وردة البستان .

٣ النواس : اسم من ناس الشيء ينوس اذا تدلى وتحرك . واسم جبل لاهد ملوك
حمير المعروف بذي نواس .

٤ الذؤابة : الضفيرة من الشعر اذا كانت غير ملوثة . واذا التوت فهي عقصة .
٥ ملوك حمير يعرفون بالاذواء . لانهم يلقبون بذي يَزَن وذي نواس وهلم جرا .

المجون اذا ارادوا الخروج الى نزهة ، استأجروه بدينار ، فيحمل لهم ادواتهم ويبقى معهم حتى يعودوا .

وكان الاقدار ابت الا ان تذيقه كأس الادناس حتى الثالثة ، فارسلت اليه والبة ابن الجباب الاسدي الشاعر الكوفي الخليل . فلقبه عند العطار يهري العود ، فافتن به ، واعجبه ذكاؤه وادبه . فحمله الى الكوفة ، وعني بتخريجيه في الشعر ، فادبه بادبه ، وخلقه باخلاقه ، وعرفه اصحابه المجان . فاصبح لا يطيب له الا الاجتماع بهم ، وفيهم امثال مطيع بن اياس ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد ، وحسبك بهم من عصابة سوء .

ولم يشأ ابو نواس ان يعرف بالشعر قبل ان يخاطب العرب الخلف ، ويأخذ عنهم الغريب ، ويستوي لسانه على الكلام الفصيح ، شأن كل شاعر يريد ان ينه في ذاك العصر . فسأل استاذه والبة ان يسمح له بالخروج الى البادية مع وفد بني اسد ، فاخوجه مع قوم منهم . فاقام في البادية سنة ؛ ثم قدم الكوفة ، فلبث فيها مدة قليلة ، ثم فارق والبة ورجع الى البصرة ، فاختلف الى كبار ائمتها ، فاخذ عنهم شيئاً كثيراً ثم شخص الى بغداد .

في بغداد

قدم ابو نواس بغداد وسنه اربت على الثلاثين ، ومقاليد الخلافة في يدي هارون الرشيد . فاتيح له ان يتصل به ، فقربه الرشيد ، واحبه وانعم عليه . وتغاضى عن فسقه وسكره واستهزائه باحكام الدين . وعفا عنه مراراً واطلقه من سجنه ، على انه لم يخصه بذاته . فلقد كان الرشيد شديد الحرص على وقار الخلافة ، شديد الحفاظ على تقاليد الدين ، ولاسيا امام الرعية ، فلم ير من الحكمة ان يجعل الشاعر الخليل مختصاً ببلاطه . لذلك لم يحظ ابو نواس الحظوة التي كان يأملها عند الرشيد ، فتفرغ لمصاحبة المجان ، فكانوا يجتمعون على الصراة^١ او في سوق الكرخ او في روضة او في منزل ، فيتذاكرون الشعر ويشربون الخمر ، ويستمتعون بانواع المذات التي الفتها

اذواقهم ، فما يتركون محرماً الا اتفقوا على اتيانه غير متورعين ولا مستحيين . واشهر
اصدقائه الخلعةاء في بغداد : داود بن رزين الواسطي ، والحسين بن الضحّاك الاشقر
الخليع ، والفضل الرقاشي ، وعمرو الورّاق والحسين الحميّاط ، وعنان جارية الناطني ،
واسماعيل القراطيسي ، ورزين الكاتب اخو دعبل . وربما تولى احدهم دعوة رفاقه ،
فيهيه لهم مجلساً في بيته او في غير بيته ، فيكونون في ضيافته . وقد تكون هذه
الدعوات بان يقول كل واحد منهم شعراً يصف به ما عنده من اسباب اللهو والملذات ،
فمن افتن فيها اكثر من غيره قبلوا دعوته وصاروا اليه . فهذه الحياة المباحنة المسرقة
كانت تدفع شاعرنا الى التبذير في نفقاته وهو مشهور بسخائه ، فلم تكفه عطايا الرشيد
على جزالتها . فكان يشكو ويتذمر حتى اضطر الى ان يقصده صر ويمدح الخصيب
اميها ، ولولا حاجته لما ترك بغداد وما فيها من اصحاب وملاة وحانات .

في مصر

انتجع الشاعر مصر صفر اليمين متألماً من كساد سوقه . وفي ذلك يقول :
إِنِّي لَا أُمَلُّ يَا خَصِيبُ عَلَيَّ يَدِيكَ أَلْيَسَارَةَ آخِرَ الدَّهْرِ
وَكَذَلِكَ نَعْمَ السُّوقُ أَنْتَ لِحَنٍ كَسَدَتْ عَلَيْهِ تِجَارَةُ الشَّعْرِ
ومدح الخصيب بعدة قصائد جياذ ، فاحسن الخصيب صلاته ، واخذ ابو نواس
يناديه على الشراب ويلهو واياه ، ويعبثان معاً حتى اصبحت للشاعر دالة عليه ، ويسرت
حاله بعد عسر ، فتفرغ للهو والمجون فعله في بغداد .
على ان عطايا الخصيب لم تكن لتغني ابا نواس او تنسيه ملاهي بغداد وقصر
الخليفة العباسي . فنوابغ الشعراء لم يكن لهم غير دار السلام حاضرة تستثير قرائحهم ،
وتذكي عبقريتهم ، وتشبع مطامعهم . ولعل الخصيب ضاق ذرعاً برغائب الشاعر فان
بعض الرواة يتحدثون بانه بعد ان أعطاه ثلاث جوائز كل جائزة بالف دينار قال له :
« ارتحل فما لك مقام عندنا . » ويؤيد هذه الرواية ما نعلمه من ان ابا نواس ترك
الخصيب غير راض عنه وعن عطايه . فكان اذا سئل : « كم وهب لك الخصيب مع
مدائحك فيه ، وقصدك من العراق اليه ؟ » قال : « لا والله ، لم يهب لي الا مائة دينار ،

والناس يُكثرون في ذلك . « وقد هجاه بعد مفارقتها اياه ورماه بالتقتير على بنيه .
ولكنه لم يوفق في الرجوع الى بغداد ، فانه شرع يهجو القبائل النزارية لما
اشتدت صولة الشعوبيين ، ولم يعف عن قريش وفيها الخلافة وقبلها النبوة ، فحبس
وطال حبسه حتى مات الرشيد واستخلف الامين .

اتصاله بالامين

عرف ابو نواس اولاد الخلفاء منذ قدومه بغداد وهو شاب . فنادم اولاً ولد
المهدي ولازمهم ، فلم يُلق مع احد من الناس غيرهم . ثم نادم القاسم بن الرشيد ،
ولكنه لم يلبث ان فارقه ، وتقرب من اخيه الامين ، وكان يومئذ صبيّاً يدرس النحو
واللغة على الكسائي . وزاده اتصالاً بولي العهد ان الرشيد امر الكسائي ان يحضر
ابا نواس لينشد الامين الشعر النادر ، ويعلمه الغريب . فلزمه شاعرنا ولم يفارقه ، وراقت
الامين صحبة ابي نواس ، فاتخذة نديماً ، وشاطره اللهو والمجون ، فانحطت اخلاقه في
صباه وكان انغماسه في العبث والفسوق من الاسباب التي اضاعت ملكه .

ولما بويغ بالخلافة بعد ابيه ، جعل الشاعر في بطانته ، فكان الزم له من ظله .
ولا ريب ان خلافة الامين كانت اسعد ايام ابي نواس ، وان لم يطل عهدها اكثر من
خمس سنوات . وخمس سنوات شيء يذكر في عمر الشاعر المتنعم . على انها لم تخل
بعض الاحيان من تنغيص اذ كان الخليفة يضطر الى حبسه على اعين الناس حين
يتهم لديه بالكفر والفجور والمجاهرة بشرب الخمر .

وأحلف عليه بالتشديد يوم اعصوب الشر على الخلافة بينه وبين اخيه المأمون .
وكان ذو الرئاسةين^١ في خراسان يُخطب بمساوى الامين ، وقد اعد رجلاً يحفظ
شعر ابي نواس . فاذا انعقد المجلس قام فذكر الامين وقال : « ومن جلسائه رجل
ماجن ، كافر مستهزئ ، متهمكم يقول كذا وكذا » . وينشد من قبائح شعوره .
ويذكر اهل العراق فيقول : « اهل فسق وفجور ، وخمر وماخور . » ويلعنهم من

١ ذو الرئاسةين : هو الفضل بن سهل وزير المأمون في خراسان . ولقب بذي الرئاسةين
لانه تقلد الوزارة والسيف .

يخضر من اهل خراسان .

وكان للامين عيون في خراسان ، فكتبوا اليه يخبرونه بالامر . فجنزع له وتوعد ابا نواس ، وحرم عليه شرب الخمر ، وذكروها في شعره . فكان صاحبنا يتألم لهذا المنع ، فيطيع مكرهاً ، لاخوفاً من غضب الامين وبطشه ، وانما حباً له وحفاظاً على سمعته . وربما موت به ساعات فما يستلبيع عن الخمر صبراً ، فيشربها غير مبال ، ويسب الامين ويهزأ به ، والامين يتغاضى عنه ، ولا يطيق ان يؤذيه . ورمي مرة بالشنوية وشهد عليه عدة نفر ، فامر به الامين الى السجن ، فتذمر ابو نواس وشكا واستنجد بالمأمون اذ يقول :

أَمَّا الْأَمِينُ فَلَسْتُ أَرْجُو دَفْعَهُ عَنِّي ، فَحَنِّ لِي الْيَوْمَ بِالْمَأْمُونِ ! .

وكان المأمون يود ان يرى عنده شاعراً كأبي نواس فلما بلغه استنجاده به قال : « والله لئن لحقته لا غنيته غني لا يؤمله . » على ان الشاعر لم يشأ ان يترك الامين مع ما لقي منه في آخر عهده . وكان من حقه ان يناصر المأمون لو جارى نزعة الشعبوية ، وميله الى الفرس . والشعبوية والفرس منهم ، يظاهرون المأمون . ولكنه أثر البقاء مع الامين لاسباب منها انه كان يحبه وتلد له معاشرته ومناذمته ، فلا طاقة له بالابتعاد عنه . ومنها ان له من الدالة عليه ما لا يأمل ان ينال مثله عند المأمون . ومنها ان اهل خراسان شيعيون يشددون في امر الغفران كاصحاب الاعتزال . وكان ابو نواس عظيم الاتسكال على عفو الله ، ففضل عليهم اهل السنة لانهم لا يحظرون العفو على مسلم ارتكب الكبيرة ، اذا خرج من الدنيا على غير توبة . بل يجعلون حكمه عند الله ، فاما ان يغفر له برحمته . واما ان يشفع به النبي اذ قال : « شفاعتي لاهل الكبائر من امتي . » واما ان يعذبه بمقدار جرمه ثم يدخله الجنة برحمته . ولا يجوز ان يخلد في النار مع الكفار .

فهذه الاسباب كانت تدفع الشاعر الى ايثار الامين على اخيه ، مع ما رأى فيه من ضعف وخمول وتقلب اراء .

توبته وموته

ولما قتل الامين وظفر المأمون بالخلافة، اصاب ابا نواس شيء من الجنون والقنوط، وتنكر له الدهر فتهجم بالحياة وسثم ملاذها وغرورها، وابتى ان يتقرب من المأمون او يدحه . وكان المأمون قد جعل مقر الخلافة في خراسان ، ولبت هناك نحواً من ست سنوات حتى استتب له الامر في بغداد فانتقل اليها .

وكان بوسع الشاعر ان يتصل به ويستميله بالمديح، ولكن اليأس الذي ساوره بعد مقتل الامين، جعله يزهد في الحياة الدنيا . وتراى له شبح الموت فراءه، واحس ان قواه تحطمت من كثرة فسوقه واستهتاره ، ففرغ الى ربه يستغفره . واقلع عن المجون وشرب الخمر وتنسك حتى هلك وهو على اشد ما يكون من الندم . وكانت وفاته في بغداد وله من العمر نحو من اربع وخمسين سنة، ودفن في مقابر الشونيزي .

صفاته وأخلاقه

وصفه ابن منظور فقال : « كان حسن الوجه ، رقيق اللون ، حلو الشائل ، ناعم الجسم ، عظيم الرأس . شعره منسدل على وجهه وقفاه دائماً . وكان الشغ بالراء يجعلها غيناً . وكان نحيفاً وفي حلقه نبرة لا تفارقه . » اهـ

وكان الى ذلك رقيق الطبع ، ظريف النكتة ، خفيف الظل ، شديد السخر والاستهزاء ، ماجناً لا يبالي ما يقول وما يفعل . وقد يتزيا بزي الزهاد ليتوصل الى فاحشة يرتكبها ، او معصية يقتربها . وكان يؤثر المجاهرة بفجوره وسكره، ويكره التستر والمتسترين، وصراحته جعلته لا يحفل باقوال الناس فيه، ولا ينجل من التحدث عن تعبه .

وكان كريماً متلاًفاً لا يذخر للغد ما يكسبه في يومه :
وَأَشْرَبُ وَجُدْ بِلَذِي تَخْوِي يَدَاكَ لَهَا ، لَا تَذْخُرِ أَلْيَوْمَ شَيْئاً خَوْفَ فَقْرٍ غَدٍ
وكان يحترق الاغنياء الذين يستعبدون الناس باموالهم ، فاذا ضمه واياهم مجلس

١ الشائل : جمع الشمال وهو الخلق والطبع .

٢ لها : اي للخمرة .

تكبر عليهم . وكان يكره الالحاح في المسألة ، ويرعى عهد اصحابه فما يغتابهم ، ويريد منهم ان يحفظوا مغيبه .

على انه لم تسلم طباعه من التبرم بالناس ، والياس من صدق مودتهم . ويبدو ذلك منه عند ضيقه في حبسه او افلاسه . وكثيراً ما لازم الافلاس شاعرونا لعظم سخائه ، فتراه متشامخاً ، شاكياً متبرماً يقول :

عَلَيْكَ يَا أَيُّسَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ الْغِنَى وَيَحْكُ فِي أَلْيَاسِ

فهذا الشاعر السمع الطروب ، السادر في فتكه وغلوائه لم يخل عيشه من ساعات سود تجده فيها عابساً قنوطاً .

فلونه في نسبه

سأله الحُصَيْب في مصر عن نسبه فاجاب : « اغناني ادبي عن نسي . » وقيل انه كان ينجل به فيخفيه ، ويخفي اسم امه لئلا يهجي . وقيل ايضاً انه كان يجهل . فذلك كثر تالونه فيه ، وتنقله في القبائل . فزعم في اول دعوته انه من ولد عبيد الله ابن زياد بن ظبيان من تيم اللات من بكر وائل . فقيل له : « ان الرجل الذي تدعي اليه لا عقب له ، لانه فُلج ومات ولا ولد له فلو انك قلت انك من ولد أبان ابن زياد اخي عبيد الله قلنا معك . » فاستحى ابو نواس وهرب من تيم اللات ، وادعى انه تميمي من ولد الفرزدق ، وتكنى بابي فراس وهي كنية الفرزدق . واخذ يتعصب للزارية ، ويهجو اليمن حتى وقع بينه وبين الحكم بن قنبر التميمي ملاحاة فهجاه الحكم ودفعه عن تيم ، وعيره نسبه وذكر بربه العود ، فافتضح ابو نواس . فانقلب على الزارية وادعى اليمنية ، وانتسب الى قبيلتي حاء وحكم . فزجره يزيد ابن منصور الحميري خال المهدي ، وقال له : « انت خوزي فمالك وحاء وحكم . » فقال : « انا ولي لهم . » فتركتهم اليمانية ، وقال بعضهم لبعض : « انه لطريف اللسان ، غزير العلوم فدعوه ، وبهذا الولاء يتعصب لنا ، ويكايده عنا ويهجو الزارية . » فكان كما قالوا ، فانقلب الى اليمن ، وعدل عن كنيته بابي فراس ، واكتفى بابي نواس . وتندم

على هجاء اليمن ، وكان قد هجا معها هاشم بن حُدَيْج ، فاعتذر له ومدح اليمن .
 فيَتَبين من ذلك ان شاعرنا لم يكن ذا عصبية عربية ، وانما انتسب الى نزار ليعتز
 بها . فلما دفعته نزار ، وهجاه احد ابنائها ، لجأ الى اليمن . ومع ان اليمن رَضِيت به
 مولى لها ، فقد كان يؤثر التعاجم ، ويفضل الفرس على العرب ، ويشايع الشعوبية . وقد
 افضى به تعاجمه الى السجن ، كما مر بنا .

اسائره وعلومه

رغب ابو نواس في العلم والادب منذ صباه ، فقرأ القرآن على يعقوب الحضرمي ،
 حتى حذقه . فقال له يعقوب : « اذهب فانت اقراً اهل البصرة . » وجلس الى
 الناسخ الراوية فقرأ عليه شعر ذي الرمة .

واختلف الى كثير من العلماء والادباء ، وكان والبة بن الحباب اكثر استاذيه
 تحريجاً له . وجلس في البصرة بعد تبديه الى ابي عبيدة يأخذ عنه اخبار العرب وايامها .
 والى خلف الاحمر يسأله عن الشعر ومعانيه . والى ابي زيد الانصاري يكتب عنه
 الغريب من الالفاظ . ثم نظر في نحو سيبويه . ثم طلب الحديث ، فاخذه عن عبد
 الواحد بن زياد العبدي ، ويحيى القطان ، وأزهر السَّمان ، وغيرهم من كبار محدثي
 البصرة . ولم يتخلف عن احد منهم حتى برع في كل علم طلبه . فاذا هو راوية للشعر
 واسع الرواية ، يحفظ الاحاديث بالاسناد ، محكم القول ، عالم باللغة لا يخطئ ، مطلع
 على الحكمة الهندية واليونانية ، حتى قال فيه بعض من شاهده : « كان اقل ما في
 ابي نواس قول الشعر . » يريدون بذلك تفوقه في علوم عصره .

قال اسماعيل بن نُوبَخْت : « ما رأيت اوسع علماً من ابي نواس ولا احفظ منه
 مع قلة كتبه . ولقد فتشنا منزله بعد موته فما وجدنا له الا قِطْرًا فيه كتاب
 مشتمل على نحو وغريب لا غير . »

ظهرت النجابة على ابي نواس ، وهو صغير السن طري العود ، لم يطر شاربه بعد .
فنظم الشعر ، وعرف بفصاحة اللسان . واشهر شعره في صباه قوله :
حَامِلُ الْهَوَى تَعِبُ ، يَسْتَحْفُهُ الطَّرَبُ

وقيل له : « كيف عملك حين تريد ان تصنع الشعر ؟ » قال : « اشرب حتى
اذا كنت اطيب ما اكون نفساً بين الصاحي والسكران ، صنعت الشعر وقد داخلني
النشاط ، وهزنتي الاريجية ^١ . »
وقال ايضاً : « لا اكاد اقول شعراً جيداً حتى تكون نفسي طيبة ، واكون في
بستان مَونِق ^٢ ، وعلى حال ارتضيتها من صلة او صل بها ، او وعد بصلة . وقد قلت
وانا على غير هذه الحال اشعاراً لا ارضاها . »

وكان يعمل القصيدة ثم يتركها اياماً ، ثم يعرضها على نفسه ، فيسقط كثيراً منها ،
ويترك صافيها ، ولا يسره كل ما يقذف به خاطره . ولكن هذا التخل لم يتناول
جميع شعره ، فروي له شيء من الساقط المردول . وكان يهجم الشعر في الخمر ، فلا
يعمله الا في وقت نشاطه . ولم يكن في النظم بالبطي . ولا بالسريع ، بل كان في
منزلة وسطى .

اماره

ديوان شعر مختلف لاختلاف جامعيه ، فانه عني بجمعه رهط من الادباء منهم
ابو بكر الصولي ، وعلي بن حمزة الاصبهاني . وطبع غير مرة في فينا ومصر وبيروت .
وفي صدر الطبعة المصرية فصل لجامعه الاصبهاني في منزلة شعر ابي نواس ونقده .
وهذه المجموعة تتضمن اكثر من ثلاثة عشر الف بيت ، رتبت على اثني عشر باباً :

١ الاريجية : الارتياح للمعروف .

٢ مَونِق : معجب .

فالأول في نقائضه مع الشعراء ، واخباره معهم ومع القيسان . والثاني في المديح .
 والثالث في المراثي . والرابع في العتاب . والخامس في الهجاء . والسادس في الزهد .
 والسابع في الطرد . والثامن في الخمر . والتاسع في ما جاء بين الخمر والمجون .
 والعاشر في غزل المؤنث . والحادي عشر في غزل المذكر . والثاني عشر في المجون .
 وقد أهمل الناشر ' الباب الاخير ، فلم يثبتته في الطبعة لانه رأى فيه ما يصم الاداب ،
 وحسناً فعل . ولكننا لا ندرى باي عين نظر الى الباب التاسع فان فيه من التهور ما
 لا يقل عما ورد في الباب الثاني عشر .

وجمع ابن منظور صاحب لسان العرب تاريخ ابي نواس ونوادره وشعره ومجونه
 في كتاب سماه اخبار ابي نواس . وقد طبع الجزء الاول منه في مصر سنة ١٩٢٤
 مضبوطاً بالشكل ، مشروحاً بعض الشرح ، ولكن الحكومة المصرية منعت متابعه
 نشره لما فيه من فحش مضر بالاخلاق .

وكتب الادب حافلة باخبار ابي نواس واشعاره ، لشدة اهتمام الناس برواية شعره
 فانهم كانوا يتفكحون به ، ويؤثرونه على اشعار القدماء . فسارع على الافواه كل مسير
 فروي له في مصر اشعار لم يعرفها اهل العراق . وضاعت له قصائد لم يبق منها شيء ،
 او بقي بيت او بيتان . ونُجِّل شعراً كثيراً لم ينحل مثله احد ، ذلك انه سلك طريقاً
 جديداً في الشعر ، فان اكثر اشعاره في اللهو والتشبيب والمجون . وكان في عصره
 طائفة من المجان يذهبون مذهبه ، وليس لهم حظ من الشاعرية والشهرة مثله . فاصبح
 الناس يلحقون به كل شعر في الخمر والمجون لم يعرف صاحبه ، ولم يُعن الرواة بشعره
 واضيف اليه من النوادر والاخبار كما اضيف اليه من الاشعار فقد وضع عليه
 ابن الداية ، وكان مشهوراً بصحبه روايات لا صحة لها . وفي اخبار ابي نواس لابن
 منظور المصري نوادر اشبه بحكايات الف ليلة وليلة . مما يدل على ان اهل مصر
 شغفوا بالشاعر كاهل العراق ، فراحوا يتقنون في اصطناع الاخبار الغريبة عنه ، فحملوه
 احمالاً ثقيلة زادت سمعته تشويهاً . ونحن ، وان كنا لا نخامرنا ريب في خلاعته

وحوادثه المجونية لا يسعنا الا ان نشك في بعض نوادره التي يظهر عليها التفنن وحب
التفككة والاغراب . وسنعمد في درس شعره على المشهور منه الذي لا يشك في
نسبته اليه .

مصر

ما ترك ابو نواس غرضاً من الشعر الا خاض فيه ، ونال قسطاً منه . فقد اوتي
شاعرية جواده يفيض بها الطبع السمع الطرب ، ويثقفها الفن الدقيق البارع . فاذا هي
تنطق بشعر كالماء سلاسة وعدوبة وكالرياض قطعاً والواناً ، تختلف باختلاف اشكالها
وانواعها . فمنها ما ينفرد به صاحبنا فما يجاريه متقدم ولا متأخر ، وذلك في الحمز والعبث
والمجون . ومنها ما يحيد به ولا يقصر به ، وذلك في المدح والهجو والطرود والزهد .
ومنها ما يقصر به ولا يحيد به ، وذلك في الرثاء والغزل البري ، ولا سيما الملوّنث منه .
فشعر ابي نواس كما يظهر لنا ، على ثلاثة اقسام : قسم يطبعه بطابعه الخاص ،
ويحتكره احتكاراً لا ينازعه فيه احد . وقسم يشارك فيه غيره من الشعراء . وقسم
يجري به وراء المجالين فما يشق لهم غباراً . وسنحاول تحليل هذه الاقسام الثلاثة لنظهر
ميزتها واضحة فيبدو ما لشاعرنا من خصائص جعلته مثالا صادقاً لعصره من ناحيتي
الجد والعبث ، وبواته مترلة لا يسمو الى مثلها غير عباقره الشعراء .

ونشرع اولاً في درس خمرياته وما يتبعها من لهو ومجون وآراء وعقائد . ثم ندرس
غزله ، فمدحه ، فرثاءه ، فهجوه ، فطرده ، فزهده حتى نتمين ذاتيته ، ومزله وما كان له
من اثر بليغ في عصره .

الحمز والمجون

اذا اردت ان تغوص في اعماق نفس ابي نواس ، وتبين حقيقة ما تستطيع ذلك
في شعره الجدي ، وانما تستطيعه في عبثه ولهوه ، في خمرياته ومجونه . فهي مرآة صافية
تنعكس عليها ذاتية الشاعر الماحن .

وابو نواس يشرب الخمر ويتعبدها ، فاذا .

تشبيهه بأحب الناس إليه . وقد سنحت له معان في وصفها لم يفتضها سواه ، فعُرف بها ، وعُرفت به ، وجعلته في هذا الفن نسيج وحده .

✧ واذا وصف الخمر صورها احسن الصور ، واحاطها بالطف التشابيه والاستعارات . ووصف معها الكؤوس والنديم والساقى والخمار ومجلس لهوه . وقص اخباره الفاحشة

لا متكتماً ولا مستحياً . فهو صريح يؤثر المجاهرة ، ويكره التستر ، ويود ان يستوعب اللذة من جميع نواحيها ، لئلا يفوته طرف منها . فتسمعه يقول :

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي : هِيَ الْخَمْرُ ! وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكْنَ الْجَهْرُ

فكانه اراد ان يلتذ سمعه بذكرها ، كما التذت العين برويتها ، واليد بامسها ، والفم بذوقها ، والانف بشمها . او لعله اراد المجاهرة بذكرها ، فامر الساقى ان ينادي باسمها .

فاشعاره تطلعنا على صراحته ، فنراه مجاهراً بتعبده للخمر وسكوره المتواصل ، مجاهراً بفتكه ومجونه . وقد يستوقفنا قوله :

فَعِيشُ الْفَتَى فِي سَكْرَةٍ بَعْدَ سَكْرَةٍ فَإِنْ طَالَ هَذَا عِنْدَهُ قَصُرَ الدَّهْرُ

فكانه يريد ان يقصر ايام حياته بالسكرات المتواصلة ، لايعقبها صحو . وهذا شأن رجل لا يخلو عيشه من شقاء ويأس وحب انتحار . وابو نواس لم يكن بنجوة من مرارة العيش ، فقد ذاق طعم الحاجة ، وحبس وقهر مراراً وانتقص من قدره احياناً . وكانت علمته ترافقه وهو في ميعة شبابه . فلا غرو ان يبدو عليه شيء من التطير والقنوط ، فيؤثر ساعة السكر على ساعة الصحو الكي لا يشعر بشقاء نفسه .

وقد يظل في شرب متواصل حتى يفلس فيهن ثيابه او يبيعها ليشرب بها :

فَعِثْتُ قَيْصًا سَابِرِيًّا وَجَبَةً ، وَبِعْتُ إِزَارًا مُعْلَمَ الطَّرْفَيْنِ

ويؤثر اصطباحها عند صباح الديك ولذلك كثر اسراؤه ليلاً الى بيوت الخمارين ^{سويها} .

الى سابور . وهي كورة في فارس ونسبته شاذة .
لذهب .

وشعره اوعب معجم لاسماء الخانات والملاهي في بغداد وغير بغداد ، فلا يترك موضعاً تنسب اليه الخمر الطيبة الا ذكره ووصف خمرته .

فاذا تم له خمرة يصطبجها في احد هذه المواضع ، فتملك لذّة العيش عنده . كيف
لا والخمرة شقيقة نفسه ، يتعبد لها ويؤثرها على الصلاة ، ويسميها احسن الاسماء ،
ويصفها الطف الاوصاف ، ويبكي عليها لان القرآن حرّمها وهو يريد تحليلها .
ولكنه يشربها وان حرّمت :

وَلَكِنِّي اُبْكِي عَلَى الرَّاحِ اَنَّهَا حَرَامٌ عَلَيْنَا فِي الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ ،
سَأْشْرُبُهَا صَرَفًا ، وَإِنْ هِيَ حُرِّمَتْ ، فَقَدْ طَالَمَا وَاَقَعْتُ غَيْرَ مُحَلَّلٍ

ولذلك يؤثرها مطبوخة بالشمس لا بالنار لئلا تصير نيذاً محلاً :

فَأَطْبَخَ الرَّاحَ بِشَّمْسٍ ، فَكَفَى بِالشَّمْسِ نَارًا ،

وما ينتهي من التشيب بها الا ليصف مجالس لهو ، ويتحدث عما يأتي به من
الاعمال الشائنة . فيشتد حينئذ مجونه ، ويكثر فحشه واستهزؤه ، وتبدو اخلاقه بما
فيها من مرض وفساد . واحسن المجالس عنده في الرياض والبساتين ، بين الازهار
والرياحين ولا سيما اذا جاء فصل الربيع . ويطيب له الشراب على آلات الطرب
 واصوات المغنين ، يحف به الساقى والنديم . وتراه شديد الاهتمام بهما ، يصفهما وصفاً
دقيقاً ، وقد يفضاهما على الخمرة التي يتعبد لها . واكثر ما يكون ساقيه من الغلمان ،
فاذا وصفه شبهه ببناء الخلفاء والملوك من عباسيين وغساسنة . وربما دارت عليه
بالكأس جارية ، ولكنها تكون غالباً غلامية مطحومة الشعر .

واذا وصف النديم لمست في شعره عاطفة الاعظام له ، والعطف عليه ، والعناية
بمصاحبه ومداراته . فيتحدث عن ادبه معه ، ثم عن خير الندامى عنده ، وعن اداب
المنادمة عموماً ، فيضع لاصحاب اللهو والشراب قوانين ليسيروا عليها .
وعنايته باختيار النديم ثم اعظامه للخمر جعله يحرم شربها على اللئام ، وعلى

الذين ليسوا بكفأها .

ولا يغفل عن وصف الكؤوس ، فيقف ازاءها موقف مصور بارع ، فيرسم ما عليها من التصاوير والخطوط . فيعطينا فوائد جليلة عن حسن صناعتها عند الشعوب التي خالطت العرب ، وما كان ينقش عليها من الصور التاريخية .

تورته على القبريم

وخبرياته تطلعنا على تجده وثورته على القديم . فهو كما عرفنا ، شعوبي النزعة يؤثر الفرس على العرب ، وينفر خصوصاً من الحياة البدوية ، ولا يأنس بأساليب الاعراب ، من وقوف على الاطلال ، وبكاء على الدمن . ولا يلذ له وصف النوق والشيء ، والوحش والفقار . وانما يطيب له ان يصف ملاحيه ومجالس لذته . فراح يهزأ بالشعراء الذين يقفون على الديار ، ويبكون الاطلال البالية ، ويستنطقون اثارها ، ويسألونها عن ليلى وهند وسواهما من عرائس الشعر . ويدعوهم الى اتباع مذهبه :

لَا تَبْكُ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبُ إِلَى هِنْدٍ ، وَأَشْرَبَ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ خَمْرَاءِ كَالْوَرْدِ

ارأوه وعقائده

لم يكن اشاعرنا مذهب يعتمد عليه الا اللذة ، فعليها وحدها بنى اراءه وعقائده . وفي خبرياته ومجونه يظهر لنا مذهبه هذا ، مستخراً له احكام الدين وشرائعه ، قانعاً من دنياه بكأس وحبيب :

رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِكَأْسٍ وَشَادِنٍ ، تَحْيَرُ فِي تَفْصِيلِهِ فُطْنُ الْفَكْرِ
واذا لامه في ذلك لا ثم صاح به :

يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى خَمْرَاءٍ صَافِيَةٍ ، صِرْ فِي الْجَنَانِ وَدَعْنِي أَسْكُنَ النَّارَ
وابونواس مسلم يؤمن بالله وبالرسول . ولكنه مستهزئ . اباحي ، حريص على لذته ، فاذا عرضت له تناوله من ايقناحية بدت ، ولو خالف فيها شرائع الاسلام .

واذا طلب اليه ان يحج ، ويتوب الى ربه قال :

وَقَاتِلْ : هَلْ تُرِيدُ الْحَجَّ ؟ قُلْتُ لَهُ : نَعَمْ إِذَا فَنَيْتُ لَدَاتُ بَغْدَادِ

١ . بغداد : لغة في بغداد .

وحجّ لما حجت صاحبتَه جنان ولولاها لما حجّ . وكان يضمن بوقته ان يضيعه
في الصلاة وهو على شرابه ، فاذا سمع نداء المؤذن قال لساقيه :

عَاطِنِي كَأْسَ سَلْوَةٍ ، عَنِ أَذَانِ الْمُؤَذِّنِ

ويصوم رمضان مكرهاً ، فما يفتأ يتذمر عليه . فاذا ضاق به ذرعاً هجاه وافطر
وشرب وتعهر . وكان شديد الاتكال على عفو الله ، وله في ذلك نظر فلسفي :

خُلِقَ الْغُفْرَانُ إِلَّا لِأَمْرِي فِي النَّاسِ خَاطِي ؟^١

ويريد انه لولا الخطيئة لما كان الغفران ، والغفران بلا خطيئة لا معنى له . وقد
يلتمس العفو بطريقة مجوزية ظريفة . فيقول :

وَضَعَ الزَّقَّ جَانِباً ، وَمَعَ الزَّقِّ مَصْحَفاً ،

وَأَحْسُ مِنْ ذَا ثَلَاثَةٍ ، وَأَتْلُ مِنْ ذَاكَ أَحْرُفًا^٢

خَيْرُ هَذَا وَشَرُّ ذَا ، فَإِذَا اللَّهُ قَدْ عَفَا ،

فَلَقَدْ فَازَ مَنْ مَحَا ذَا بَدَأَ عَنْهُ ، وَأَكْتَفَى

واتكاله على عفو الله جعله ينكسر على النظام شيخ المعتزلة تشدده في امر الغفران ،
ويرميه بالكفر ، والازراء بالدين . فيقول :

قُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلَسَفَةٌ : حَفِظْتَ شَيْئاً ، وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ !

وجملة ما يقال في ابي نواس والخمر انه احبها حتى العيادة . فافتن في وصفها
افتناناً لم يحاره احد فيه ، حتى قيل : « لقد وصف ابو نواس الخمر وصفاً لو سمعه
الحسنان^٣ لهاجرا اليه ، ولعكفا عليه . » وحتى ان اصحابه سجدوا لشعره عندما
انشدهم : لَا تَبْكُ لَيْلَى ، وَلَا تَطْرَبُ إِلَى هِنْدِ .

وخبرياته اصدق صورة لنفسه الخالعة الرسن ، وللروح البغدادية الماحنة في عصره .

١ خلق : اي اُخْلِقَ . حذف أداة الاستفهام .

٢ احس : اشرب . ثلاثة : ثلاثة ابطال .

٣ الحسنان : الحسن البصري وابن سيرين .

لاي نواس غزل كثير ، فيه من المجون والصراحة ما يصور حقيقة هذا الشاعر المهتمك ، وكان اصدق عاطفة في غزل المذكر منه في غزل المؤنث لقلة اعتداده بالنساء . وقد حاول بعض اهله ان يزوجه ليردوه عن غوايته فابى . وقيل انه تزوج جارية من اهل بيته ، ولكنه ما امسى حتى طلقها . ومن كانت هذه حاله ، فلا بدع ان تضعف فيه عاطفة الغزل في النساء .

ولكنه عاشر بعض الاماء ، وشبب بهن لالانه احب واحدة منهن حباً صادقاً ، بل لانهن كن غير مصونات لا يتخرجن من محالسة الخلماء على الشراب . وكن الى ذلك يصلحن للمنادمة ، لبراعتهم في الشعر والرواية والغناء . فابى نواس لم يعرف من الحب غير اشباع شهواته ، فصدف عن الحرائر المتحصنات ، وقنع منهن بالمتبذلات . وكان يؤثر الغلاميات على غيرهن ، وهن الجواري اللواتي كن يتزين بزي الغلمان ، وكثيراً ما ذكرهن في شعره ، ووصف اشكالهن وازياءهن .

وقيل انه احب جنان جارية آل عبد الوهاب الثقفي . وكانت جميلة المنظر ، اديبة ظريفة ، تعرف الاخبار ، وتروي الاشعار . ولما حبت حجب معها ليجمعه وايها المسير . واشتهر شعره بها ، فعرفت مولاتها فبعثت اليه : « ان اردت وهبتها لك . » فأخبرت جنان بذلك ، فرضيت ، ولكنها اشتطت عليه ان يقلع عن فجوره وقبح سيرته ، فابى ولم يضمن لها هذا الشرط . فحرم محبتها كما حرم محبة عنان جارية الناطفي وغيرهما من ظرائف الاماء . وهذا يدلنا على ان حبه لجنان لم يكن صادقاً وقوياً كما تصوره بعض الرواة ، وانما كان يؤثرها على غيرها من الولائد ، حتى اذا هجرته لم يؤلمه هجرها . ورجت منه مرة ان ينقطع عن زيارتها لتكف السنة الناس عنها ، فعمد الى نكايته وتشهيرها فقال :

يَا مَعْشَرَ النَّاسِ فَاسْمَعُوهُ وَعُوا : إِنَّ جَنَانًا صَدِيقَةُ الْحَسَنِ

وروى صاحب الاغانى ان ابا نواس رآها مرة في ديار تقيف فجهته بما كره فغضب وهجرها مدة ، فارسلت اليه رسولا تصالحه فردده ولم يصالحها . فلو صدق

حبه لها لما تأبى مصاحتها واعرض عنها .

وروا انه رآها مرة في مأتم تندب وتلطم فقال :

لَا زَالَ مَوْتًا دَابُّ أَصْحَابِهِ ، وَذَاكَ أَنْ أَبْصَرَهُ دَايِي '

فلو كان يحبها حقيقة لما تقي تتابع الوفيات في اهلها واصحابها ، ليراها ابداسافرة لا طمة نادبة . فهذا حب وحشي يجعل صاحبه يتلذذ بالم محبوبة ، ولم يكن ابو نواس كذلك مع من يحب .

وفي الاغاني رواية عن بعض آل ثقيف يكذب فيها حب ابي نواس لجنان فيقول :
« ان ذلك لم يكن الا عبثاً خرج منه . » وهذا ما نعتقه ، فان الشاعر لم يخلص في حبه لجارية ثقيف ، لان نفسه الفاسقة صرفته عن الحب الصحيح . ولم يصاحب الاماء والجواري الا للهو والعبث ، فلم يحظ عندهن لعلمهن بامرهم . وقد تغزل بهن كثيراً ، فكان هذا الغزل ضعيف العاطفة متكلفاً في اكثره ، ولا سيما العفيف منه .
والغزل العفيف قليل في شعر ابي نواس ، وبعضه جميل ، لبراعة فنه وبعضه الآخر ضعيف ظاهر التكلف .

ص ١٠٠

لاي نواس في المدح لغة غير اللغة التي يتحدث بها الى العلماء والاماء في الخمر والمجون والغزل . فاذا رأيت الطبع والسهولة والركة في تلك ، فستلقى الرصانة وتخيرو الالفاظ ، وتكلف الغريب في هذه . فهو في عبثه يحادث الطبقة العامة على الاخص ، فيفرغ معانيه في قالب لطيف لا يعسر فهمه ، فيحفظه الناس ، ويتغنى به القيان والمغنون . واما في مدحه فيتحدث الى طبقة خاصة تتألف من الخلفاء والامراء وهؤلاء يؤثرون اللغة الشريفة بلفظها الرصين ، واسلوبها القديم . فكان شاعرنا يجاري اهواءهم ، ويعتتم من ذلك فرصة ليري اصحاب اللغة براعته في معرفة الغريب ، واطلاعه على مذاهب العرب العرباء . فاذا هو كالشاعر الجاهلي ، يقف على الديار ،

ويذكر الاحبة، ويصف ناقته حتى يتخلص الى ممدوحه فيسبغ عليه حلل الثناء .
 فاذا انت قرأت هذا الشعر ، ورأيت ما فيه من جزالة وشدة أسر ، انكرت
 ان يكون ابو نواس صاحبه بعد ان عرفت الرقة والسهولة في خمرياته وغزله فابو
 نواس في مدحه محافظ اكثر منه مجدداً . متكلف مقلد على كره منه ، مغال
 احياناً حتى يبلغ حد الاحالة . وتكاد شخصيته لا تبين في بعض مدائحه لولا
 خاطرات منثورة يلجها الناقد البصير .

ولعل شخصيته تدوب في اكثرها عندما يمدح الرشيد والبرامكة لان الرشيد
 كان مهيباً ، فيترصن في مدحه اكثر مما يترصن في مدح غيره من الاعراء الذين تقرب
 اليهم ونادهم فاصبح له دالة عليهم . وهكذا كان شأنه في مدح البرامكة لان
 هؤلاء لم يقربوه كثيراً ، فتوسل اليهم بالمديح خشية منهم ، وطمعاً في نوالهم .

وكان في مدح الامين اصدق عاطفة منه في مدح غيره . ولا غرو فانه احب
 الامين ، وكان له خللاً ونديماً . واكثر ما ينعته بالشباب والجمال ، وشرف الاخلاق ،
 وسخاء الكف ، وحسن التدبير ، وغير ذلك من النعوت الحسنة . وله قصيدة قالها
 في العباس بن عبيد الله بن ابي جعفر المنصور هي من اطيب شعره واروعه ، تمثل ابلغ
 تمثيل لغة الشاعر واسلوبه في المدح . وقد استهلها بن خطاب صاحب له ، خانه في
 مودته ، ومال الى غيره ، فتخلى ابو نواس منه ، وطرده عنه ، وافتخر عليه
 باصحابه ووفائه لهم ، وبسعة صدره وطول اناته في مداراة الخـلان ، وان كانوا
 ينطوون على حقد وبغضاء .

ثم ينتقل انتقالاً بديعاً الى وصف بعيده الذي قطع به القفار الى ممدوحه
 فيتخلص بذلك الى المدح

فهذه القصيدة من ابلغ شعره الجدي واشرفه لفظاً ومعنى ، وواقعه رنة ونغماً .
 فقد ارتفع بها الشاعر ارتفاعاً ادهش الرواة وعلماء اللغة ، ففضلها ابو عبيدة على قصيدة
 امرئ القيس التي اولها : رُبَّ رَامٍ مِنْ بَنِي ثَعْلٍ

ولما سمعها ابن الاعرابي قال : « احسن والله ، لو تقدم هذا الشعر في صدر
 الاسلام ، لكان في صدر الامثال السائرة . » وكان ابو نواس يقول : « اذا اردت

الجِدَّ قات مثل قولي : ايها المنيب عن عُفْرِهِ . «

رثاءه

ليس في رثاء ابي نواس كبير غناء ، فكان نفسه في طلبها السرور ، ونفورها من الاشجان ، ابت عليه ان يعرف الحزن الصحيح فيجيد الرثاء ، ولم يكن له اسرة يهيم امرها فيحزن اذا اصاب احدها بمكروه .

وروي له بيتان في رثاء ابن له ، ولان ندرى كيف جاءه هذا الولد ، لان رواة اخباره يؤكدون انه اعرض عن عرسه وطلقها يوم زواجه بها ، فلم تبت ليلة عنده ، ومنهم من يزعم انه لم يتزوجها . وهبه رزق ولداً منها او من غيرها ، فليس في رثائه لهذا الولد شيء . من الحنو الابوي . واليك ما يقول فيه :

لَعَمْرُكَ مَا أَتَبَقَى لَنَا أَلَمَوْتُ بَاقِيًا نَقَرُ بِهِ عَيْنًا عَدَاةَ نَوُوبٍ^١
كَأَنِّي وَتَرْتُ أَلَمَوْتُ بِأَبْنٍ أَفَادَهُ ، عَلَى حِينِ حَانَتْ كِبَرُهُ وَمَشِيبُ^٢

وكان كثير الاصدقاء ، واكثرهم من المجان ، ولكن ليس له في رثاء احدهم شيء يعتد به . فقد كان يريد لهم اللهو والعبث لا للحزن والبكاء . ورثى استاذته والبة ، فجاء رثاؤه ضعيف العاطفة ، مع ما كان بينهما من مودة قديمة . ولا عجب فالمودات لا يطول لها عمر بل تخف وتزول بالافتراق والتباعد ، وكرور الايام والسنين . ومات الرشيد فلم يجزع عليه لانه لم يدحه عن حب واخلاص ، ولم يستطع رثاءه باكثر من بيتين جافين باردتين .

ولعل نفسه لم تشعر بفراغ حولها الا يوم مصرع الامين فقد استولى على ابي نواس يأس وقنوط ، وآلمه فقد خيل له ، ومورده العذب ، واحس الحسارة الجسيمة التي لا تعوض ، فبكى صديقه ورثاه . وكان صادق البكاء ، عاطفي الرثاء ، ومع ذلك فقد ضاقت ذراعه عن رثائه باكثر من بضع مقطعات لا تريد واحدها على اربعة ابيات منها قوله :

١ نووب : نرجع اي نرجع الى بيتنا او الى اسرتنا .

٢ وترت : اصيبت بهوتر اي ثار اي قتلت جميعاً له . افاده : اخذه . يقول :
كأنني قتلت للموت ابناً فاخذ ثاره وقتل ابني .

طَوَى أَلَمُوتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ، وَأَيْسَ لِمَا تَطْوِي أَلَنِيَّةُ نَاشِرُ ،
 فَلَا وَصَلَ إِلَّا عَبْرَةٌ تَسْتَدِيمُهَا أَحَادِيثُ نَفْسٍ ، مَا لَهَا أَلَدَهْرَ ذَاكِرُ^١
 وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ أَلَمُوتٍ وَحْدَهُ ، فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحْذَرُ^٢
 لَنْ عَمَرْتُ دُورٌ بَيْنَ لَا أَوْدَهُ ، لَقَدْ عَمَرْتُ بَيْنَ أَحِبِّ أَلْمَقَائِرِ^٣

وكان صاحبنا يشعر بعجزه في هذا الفن، فاذا رثى احداً وتعهد الاطالة، ستر عجزه بوصف الطيور والوحوش. فيذكر مناعتها في الجو والاكام والجبال. ثم يستفيض في اظهار قوتها، ونشاطها وشدة فتكها، ليستخلص من جميع ذلك حكمة ساذجة وهي ان هذه السباع المنيعة لا تنجو من الموت، ولو نجا حي من الموت لكانت اولى من غيرها بالنجاة. ثم ينتقل الى مرثيه فيزوده ببضعة ابيات ليس فيها ما يشجيك او يرضيك.

وفي هذا النوع يكثر تكلفه وغريبه بحيث تشعر انه يتعمد الاغراب تعمد ليستر ضعفه وقصر يده. ولنا في رثائه لاستاذه خلف الاحمر اصدق شاهد على ذلك، فقد جاء به وحشي الالفاظ غليظاً، يشغل القسم الاكبر منه ذكر الجوارح والوحوش.

هجو

الهجو في شعر ابي نواس على ثلاثة اقسام : سياسي شعوي قبلي ، وتكسيي ، وشخصي ومنه العبشي . فالسياسي ما ظهرت به شعوبيته في هجو القبائل العربية ولا سيما الزارية بعد انتسابه الى اليمن ، وان تكن حياته الماجنة لم تجعل منه شعوبياً جدياً . وكان هجاؤه شديد الوطأة فاحشاً مؤلماً ، فلم يدع قبيلة الا مزق اعراضها ، حتى انه لم يعف عن قریش بل تهكم بها ، وعيها التجارة . ولكنه كان ارفق بها من غيرها لان النبوة والخلافة فيها .

١ عبرة : دعة . يقول : لم يبق لي بعد موته الا البكاء تديعه ذكريات نفسي للايام الماضية ، ولكنها تبقى مكتومة في سري فليس لها ذاكر ابد الدهر .
 ٢ عمرت : سكنت وأهات .

وكان شديد الإعجاب بمجير ، وبهارته في الهجاء ، فلذلك يحذو حذوه في الذع والتعير ، ثم في رصانة العبارة ، وجزالة اللفظ . فكأنه اراد ان يجعل هجاءه لقبا للاعراب صورة عن الهجو الذي تعودوه من شعراء صدر الاسلام فخطبهم باللغة التي يألفون . ويبدو لنا في هذا القسم من الهجاء اطلاع الشاعر على احوال العرب وعاداتهم واخبارهم ، ومثالبهم واياهم .

واما هجاؤه التكمسي فلم يكن يصطنعه للالاحاح في المسألة ، او لتهديد الممدوح ان لم يحسن صلاته فعل بشار . فابو نواس لم يكن على شيء من هذه الغلاظة ، وانما كان معجبا بشاعريته ، عارفاً قدر نفسه ، شديد الحرص على منزلته الادبية ، فاذا انجسه احد حقه نقم عليه وهجاه . وكان الى ذلك شديد التبذير لا يغميه القليل من العطاء ، فاذا قتر عليه الممدوح او ظهرت له منه جفوة ، رحل عنه وهجاه . فقد حقد على الهرامكة وهجاهم اخبث هجاء لانهم استهانوا بمكانته ، وقدموا عليه ابا بن عبد الحميد اللاحقي ، وما كان ابا بن عبد الحميد هذه التقدمة . وهجا الخصيب بعد ان مدحه ، لانه لم يلق منه ما كان يتوقعه ، او لان الخصيب ضاق ذرعاً بتبذيره ، فطلب منه ان يرحل عنه . وهجا الهيثم بن عدي لان الهيثم لم يقرب مجلسه لما دخل عليه ، وكان لا يعرفه . وهجا ابا بن عبد الحميد لان ابا بن حسده فلم يضعه في المرتبة التي يستحقها لما عهد اليه الهرامكة في تفريق الجوائز على الشعراء .

واما هجاؤه الشخصي العبي فكان يتناول به العلماء والشعراء ، والبخلاء والثقلاء وسواهم . فمنه ما يقصد به الى المنافسة ، ومنه ما يقصد به الى الدعاب ، واكثره خال من الضغينة والكراهة . ولكنه حافل بالفحش والرذيلة كهجائه النظام و ابا عبيدة وعنان والرقاشي وغيرهم .

ومما ينبغي ذكره ان لغته في هجوه السياسي اجزل واحكم من لغته في سائر هجائه ، ولا سيما ما كان منه دعاباً فانه لا يخلو من لين واسفاف وتكلف الصنعة .

طرد

يكاد ابو نواس يعني بطردياته عنايته بنحزمياته ، فان الصيد كان من اسباب

ملاهيته ، وملاهي الامراء الذين نادهم ، فوصفه وصفاً دقيقاً ، واجاد في بعضه كل الاجادة . واكثر طردياته اراجيز ، فقد ذكر الرواة انه لم يقل في الطرد الا تسعاً وعشرين ارجوزة ، واربع قصائد ، فما كان زائداً على ذلك فهو منحول .

واراجيزه تعتمد على قافية واحدة . ولغته في وصف الصيد شديدة الاسر كثيرة الغريب كلغته في مدائحه . فهذا الفن وان يكن من ملاهي الشاعر ، فان صاحبنا حباه من قوة الإحكام بشي . كثير . ولا يخفى ان الغريب من ميزات الارجيز ، فلم يشأ ابو نواس ان يجاوز هذا التقليد الموروث ، فسار على خطة رؤبة بن العجاج واييه . ولكنه وشى شعره بالصناعة الجميلة وحلاه بالمعاني الحضرية الجديدة .

واكثر طردياته في وصف الكلاب ، واقلها في الفهد والبازي والصقر والفرس والديك الهندي وسواها . واذا نعت الكلب وصف لونه واذنيه وقوائمه ، وضافه وذنبه وقده . ووصف حركاته ونشاطه ، ووثباته عندما يقوده الكلاب . ثم انطلقه وراء الصيد وغير ذلك حتى يصوره تصويراً دقيقاً متناهيًا .

ويبدأ ارجوزته على الغالب بقوله : « انعت كلباً ، . . . انعت ديكاً . » او يستعملها ذاكراً هبوبة في الصباح وايقاظه الكلب للصيد .

زهده

لم يكن ابو نواس زنديقاً ملحدًا ، وانما كان مستهزئًا ، مسرفاً في الخلعة والمجون ، شديد الاتكال على عفو الله . فغير عجيب ان يتزهد في اخر حياته ، بعد ان شبعت نفسه من المعاصي ، وبرى الداء جسمه برياً ، فاذا انت قرات زهدياته لمست فيها ندامة صادقة ، وايماناً بالله كبيراً . وقد قال بعضها في شبابه يوم كان راكباً رأسه ، مخياً لعنان شهواته . فكانه كانت تمر به ساعات خوف وندم ، فتخرج من صدره أحراً التأوهات والزفريات .

العجاج وابنه رؤبة ارجزان شهيران في صدر الاسلام وادرك رؤبة بني العباس . وكانا يكثران من غريب الالفاظ ووحشيها .

روي لابي نواس شعر ساقط لا يليق بجلالة قدره في دولة القريض، ولعل ذلك مما تحلوه اياه، او مما قاله في حال سكره . فانه كان يكثر الارتجال والتعابث حين يسكر، فيجوز ما لا يجوز، ولم يكن ليرضاه في صحوه . وربما عبث باللغة نكاية بالعلماء المتشددين، فيشدّ عن القواعد اللغوية غير مبال . وهذا ما يقع له غالباً في شعره المجوني، واذ وقع له في شعره الجدّي دافع عنه واخرجه على وجه يرضاه العلماء، كما اخرج قوله : « ككمون النار في حجره . » ومما يؤخذ عليه قوله :

رَشَاءُ تَوَاصِينِ الْقَيَّانِ بِهِ ، حَتَّى عَقَدْنَ بِأُذُنِهِ شُنْفَا

فقد جعل فاعلين لفعل واحد وهذا مكرره، وقال شُنْفَا والصواب شُنْفَا . وقوله :

رَأَيْتُ كُلَّ مَنْ كَانَ أَحْمَقًا مَعْتُوهَا ، فِي ذَا الزَّمَانِ صَارَ الْمَقْدَمَ الْوَجِيهَا ،

يَا رَبِّ نَذَلِ وَضِيعَ نَوَهْتُهُ تَنْوِيهَا ، هَجَوْتُهُ كَيْمَا أَزِيدُهُ تَشْوِيهَا

فهذان البيتان لا يستقيمان على بحر من البحور المعروفة . وشغف ابونواس باوجه

البيان والبديع فجد في طلبها حتى افراط احياناً وتبعض كقوله :

لَمَّا بَدَأَ تَعَلَّبُ الصُّدُودِ لَنَا ، أُرْسِلْتُ كَلْبَ الْوَصَالِ فِي طَلْبِهِ

فقيح ان تدخل الثعالب والكلاب في غزل يشكوبه الحب هجر حبيب .

وأدرك عليه سرقات تو كاً فيها على معان سبق اليها ولكنه كساها حلا جميلة ،

فسارت بين الناس وعرفت له . واكثر ما عيب عليه تصرفه في قواعد الصرف والنحو

والعروض، وجنوحه الى الغلو حتى الاحالة كقوله في مدح الرشيد :

حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحِمِ لَمْ يَكُ صُورَةً ، لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ

فهذا محال لان ما لا صورة له لا وجود له، فكيف يشعر بالخوف من لا وجود

١ رَشَاءُ : ولد الظبية . وهو هنا مستعار . القيان : المغنيات . الشنف : القُرط الاعلى

وهي حلي يعلق في شحمة الاذن .

٢ نَوَهْتُهُ : رفعت ذكره ومدحته . يقول : انه هجوه في مدحه ليزيده تشويهاً .

له ، وكيف يكون له فؤاد ؟

مصرته

قال ابو عبيدة : « ابو نواس في المحدثين مثل امرئ القيس في المتقدمين . فتح لهم هذه الفطن ، ودلهم على المعاني ، وارشدهم الى طريق الادب ، والتصرف في فنونه . » وقال ابن عائشة : « من طلب الادب ، فلم يرو شعر ابي نواس ، فليس بتمام الادب . » وقال ابو حاتم : « كانت المعاني مدفونة حتى اثارها ابو نواس . » وقال ابو عمر الشيباني : « لولا ما اخذ فيه ابو نواس من الأرفاث^١ لاحتججنا بشعره ، لانه كان يحكم القول ولا يخلطه . »

فيتضح من هذه الاقوال على تباين نزعاتها ما كان لشاعرنا من المنزلة السامية عند الادباء الاقدمين . وكان اشدهم محافظة على القديم كابن الاعرابي وابي عبيدة والاصمعي يقبلون على رواية شعره ، ولا سيما الحمري مع ما فيه من مجون وارفات وخروج على القديم . وما ذلك الا لانهم كانوا يشعرون بلذة هذا الجديد ، وما فيه من لطف وظرف ، وان كانوا يقدسون القديم ويتزهونه .

وقد اوتي ابو نواس من سيورة الشعر ما جعله يغير على معاني غيره ، فيأخذها ويحسنها فتروى له ولا تروى لاصحابها . واقبل الناس على رواية شعره لسهولة وجدته معانيه والفاظه . ثم لانهم رأوا فيه صورة صادقة لعصرهم ، وراقهم ما به من ظرف ومجون فاحبوه وحفظوه .

وابو نواس في تصويره عصره يتناول^٢ ناحيتي الجد والعبث . فيجمع بشعره ما في عصره من خلاعة وفتك ومجون ، وما فيه من ثقافة وعلم وفنون . فشعره يحمل لغة الجوارى والعلمان بتخنيشها وظرفها . ولغة الحمارين والمجان واخبارهم ومعابثاتهم . وكثيراً من الالفاظ المولدة التي لم يعرفها المتقدمون ، كاستعمال باس بمعنى قبل ، ونعت الحبيب بالمولى والسيد . ويصور مشاهد الحضارة الجديدة بصناعاتها وفنونها ، وحدائقها

١ الأرفاث : اي بذية القول ودنسه .

وملاهيها ، ومواخيرها وحوانيتها ، وازياتها وأشكالها . وفيه نتعرف الزي الغلامي الذي شاع في صدر الدولة العباسية ، حين اخذ الجواري يقصن شعورهن تشبهاً بالغلام الرومي او التركي او الديلمي ، فاطلق ابونواس وعصبة لفظة الغلامية على كل جارية مقصورة الشعر . وهذه اللفظة تناسب لفظة (La garçonne) التي يطلقها الفرنجة اليوم على الفتيات المتشبهات بالغلمان .

وابونواس يطلعنا في شعره على مبلغ ما وصل اليه مجتمعه من استهتار بالمعاصي ، واستهزاء من الدين بسبب انتشار البدع . وفي اعتاده على الله يطاعنا على اختلاف اراء السنة والمعتزلة في شأن الغفران . وفي هجائه العرب وتفضيله الحضارة الفارسية ، يمثل الى حد ما تلك الجماعة الشعبية التي كانت تكره العرب وتناوئهم . وفي عبثه ومجونه يرفع لواء التجديد والمجددين ، وفي جده ورصانته يصور طبقة المحافظين خير تصوير .

ويرينا من علوم عصره واختلاط الثقافات فيه ، لغة العرب ومذاهب الكلام عندهم ، وحضارة الفرس واوصافهم ، ومنطق اليونان ودقة معانيهم ، واصطلاحات اصحاب الكلام في مجادلاتهم . فن اي ناحية اتيته تجده شاعر الشخصية وشاعر العصر معاً .

وكان اثره بليغاً في الاداب لانه بث روح التجدد في الشعراء ، وفتح لهم كنوز المعاني الحديثة ، فاقترفوا معاملة ، واتحداه بعضهم في انكار القديم ، واستكراه اساليب الاعراب . وحضهم بمجونه وصراحته على الاسترسال في العبث والتهتك فاسترسلوا وراءه ، وعبثوا وتهتكوا ، وفتحوا باب الخلعة على مصراعيه .

ابو تمام

٧٨٨ — ٨٢٥ م و ١٧٢ — ٢٣١ هـ (؟)

حياته : نسبته . اتصاله بالامراء . موته . صفاته واخلاقه . اثاره .
ميزته : مدحه . رثاؤه . عتابه . وصفه . غزله . فخره . الوعظ واזהد .
هجوه . حكمه واراؤه . ما ادرك عليه . مترلته . انقسام الناس
فيه . جعل الشعر صنعة . نظمه الحكمة . تعقد شعره . توحش الفاظه .
اشتهار جیده . اول شاعر مؤلف .

حياته

هو حبيب بن أنس الطائي ، منسوب الى طيء ، النبيلة العربية المشهورة وكنيته
ابو تمام وبها عرف . ومنهم من يدفع نسبته الى طيء ، ويزعم ان والده نصراني من
اهل جاسم يقال له تدؤس العطار فلما اسلم غير اسمه فصار اوساً .
ولد ابو تمام في القرية المذكورة ، فحمله والده الى مصر وهو طفل ، فنشأ فيها
حتى اذا ترعرع اخذ يسقي الماء في الجامع . وقيل بل كان يخدم حائكاً ، ويعمل عنده .
ثم اختلف الى مجالس الادباء واهل العلم ، فاخذ عنهم . وكان ذكياً فظناً يحب
الشعر ، فلم يزل يعانيه حتى برع فيه ونبه ذكره ، فاتصل بالامراء ، ومدحهم فاجازوه
ورفعوا قدره .

ويتبين من شعره انه وفد على المأمون في خلافته فمدحه ، ولكنه لم يتصل به كما
اتصل باخيه المعتصم من بعده . فان المعتصم اعجب بشعره ، وقدمه على شعراء زمانه .
فبعد صيته ، واتسعت ذات يده ، وكان ولوعاً بالسفار ، ففطق يتنقل في الولايات
ويمدح امرأها ، وهؤلاء يسبغون عليه نعمهم . ولما مات المعتصم واستخلف بعده ابنه

١ جاسم : قرية من قرى الجيدور وهو اقليم من دمشق .

٢ تدوس : اي تيودوس

الواثق ، مدحه ابو تمام ولكنه لم يتصل به اتصاله بابيه ، لذلك قلت مداحه فيه .
 وكان الحسن بن وهب قد ولاه بريد الموصل ، فاقام اقل من سنتين ومات
 بها . فبنى عليه ابو نهشل بن حميد الطوسي قبة خارج باب الميدان على حافة الخندق ،
 واراد بذلك ان يبالغ في اكرامه بعد وفاته لما له من المراثي البليغة في ابيه .

صفاته واخلاقه

كان مديداً ، اسمر اللون ، يتمم اذا تكلم لحبسة في لسانه ، ولا يحسن الانشاد .
 فكان غلامه الفتاح ، ينشد شعره عنه . وكان قوي الحافظة . قيل انه حفظ اربعة
 عشر الف ارجوزة للعرب غير المقاطيع والقصائد .

١ . اختلف في تاريخ وفاته ، فجعلها بعضهم تراوح بين سنة ٢٣٠ وسنة ٢٥٠ هـ . وهذه
 مسافة طويلة لا ينبغي لنا المرور بها دون ان نحاول تقصيرها . فرائنا ان نرجح سنة ٢٣١ هـ
 اي اواخر خلافة الواثق ، لان اكثر المؤرخين خصوها بالنقدمة على سواها . ثم لان الشاعر
 لم يمدح خليفة بعد الواثق ، ولو ادرك المتوكل لما توانى عن مدحه ، والواثق مات سنة ٢٣٢ هـ .
 وذكر ابن خلكان وغيره ان الوزير ابن الزيات وديك الجن شاعر الشيعة ، ثريا باتمام .
 وابن الزيات قتله المتوكل سنة ٢٣٣ هـ ، وديك الجن لم تمتد حياته الى ابعد من سنة ٢٣٥ هـ ،
 فبوسعنا اذا ان نحد وفاة الشاعر بين سنة ٢٣٠ وسنة ٢٣٢ هـ والذهاب الى ابعد من ذلك ليس
 له من مسوغ .

ولم يكن الخلاف على وفاته باكثر من الخلاف على ولادته ، فقد جعلها بعضهم سنة ١٧٢ هـ ،
 وجعلها غيرهم سنة ١٨٨ هـ ، وجعلها آخرون سنة ١٩٢ هـ ، على ان اكثر المؤرخين رجحوا سنة
 ١٩٠ هـ ، وقالوا انه ولد في اواخر خلافة الرشيد ولكن لم نطمئن الى هذا الترجيح لان في
 ديوان الشاعر قصيدتين يمدح بها الحسن بن سهل ، ويذكر في احدهما انه كان في السادسة
 والعشرين من عمره . قال :

سِتُّ وَعِشْرُونَ تَدْعُونِي ، فَأَتَّبِعُهَا ، الى المشيب ، ولم تظلم ، ولم تحب

فاذا كان مدح الحسن وهو وزير عند المأمون في خراسان ، اي من سنة ٢٠٢ الى سنة
 ٢٠٣ هـ . فان ميلاده يقع حوالي سنة ١٧٦ هـ هذا على اعتبار انه كان في السادسة والعشرين يوم
 مدح الحسن . ولكن ليس في القصيدتين اللتين مدحه بهما ما يدل على انه قالها فيه وهو وزير .
 لذلك نرجح انه اتصل به ومدحه قبل ان يتولى الوزارة . وهذا ما يجعلنا نرجح رواية من
 جعلوا ولادته سنة ١٧٢ هـ . ولا مجال للظن انه مدحه بعد ان ترك الوزارة لان الحسن لم يطلع
 عنها الا وقد غلبت عليه السوداء ، وتغير عقله ، فشذ في الحديد . وحبس في بيت حتى مات .

ومما يروى عنه انه كان يوماً في مجلس ابي سعيد الطائي^١ . فدخل البحري وهو فتي وامتدح ابا سعيد بقصيدة . فحفظ ابو تمام اكثرها وادعاهما وقال ان البحري انتحلها . فصدق ابو سعيد كلامه لمكانته في الشعر ، ووبخ البحري لمدحه اياه بشعر مسروق ، فنجعل البحري . فلما رأى ابو تمام ذلك قال : « الشعر لك يا بني ، والله ما قلته قط ، ولا سمعت به الا منك . ولكنني ظننت انك تهاونت بموضعي ، فاقدمت على الانشاد بحضرتي ، من غير معرفة كانت بيننا ، تريد مضاهاتي ، ومكاثرتي . حتى عرفني الامير نسبك ، وموضعك ، ولوددت ان لا تلد طائفة الا مثلك^٢ . »

وهذه الرواية لا تقتصر على اظهار قوة الحافظة في الشاعر ، بل تظهر ايضاً عصبيته في بني طي . واعتداده بشاعريته . وهذا الاعتداد جعله يتحاشى عن الدنيا ، ويأبى التذلل اذا مدح . ويحدثنا صاحب الاغاني ان ابا تمام مدح عبد الله بن طاهر وهو على خراسان فنثر عليه الف دينار ، فلم يمسسها بيده ترفعاً عنها ، فالتقطها الغلمان . وكان فطناً حاضراً البديهة ، كريم الاخلاق كثير المروءة . ولطالما استخدم نفوذه وشعره لمساعدة من يلوذ به ، ويعتمد عليه .

وعاش في بيئة رفيعة ، فلم يصحب غير الخلفاء والامراء . لذلك قل تبذله واستتر في معاصيه ، ولم يعم في شرب الخمرة . على انه تسرى بالغلمان كغيره من اهل عصره ، وشبب بهم ، واسرف في طلب اللذة ، ولكنه لم يتهم في شعره كابي نواس ، بل صانه عن المجون ، فلم يرو له من فاحش القول غير شيء قليل .

وكان الى ذلك حسن الاسلام ، قوي عاطفة الدين ، وان لم يحافظ جد المحافظة على شرائعه واحكامه .

أما

لم يجمع شعر ابي تمام حتى جاء الصولي فرتبه على الحروف . ثم رتبه علي بن حمزة

١ هو محمد بن يوسف الثغري الطائي من مشاهير قواد المعتصم توفي في خلافة المتوكل سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ م) .

٢ لان البحري طائي .

الاصبها في على الانواع . وشرحه الصولي وغيره ، ولكنهم لم يتوسعوا في شرحه ،
فبقي اكثره غامضاً ، فقلّ الاقبال عليه . وطبع ديوانه في بيروت سنة ١٨٨٩ مؤلفاً
من ٦٣ صفحة قطعها متوسط ، مرتباً على ثمانية ابواب اولها في المدح ، ويستغرق ثلثي
الديوان . والثاني في الرثاء . والثالث في المعاتبات . والرابع في الاوصاف . والخامس في
الغزل . والسادس في الفخر . والسابع في الوعظ والزهد . والثامن في الهجاء .

وابو تمام اول شاعر عني بالتأليف ، فاشتهر باختياراته ، منها مختار كتاب الحماسة
وهو اشهر مختاراته ، وقد وصل اليها ويعرف بحماسة ابي تمام تميزاً له من حماسة
البحري . وفيه اشياء من الشعراء المقلين ، والشعراء المعجورين غير المشهورين . بوبه
عشرة ابواب : الاول في الحماسة ، وهو اطول الابواب ، لذلك سمى الكتاب به من
باب تسمية الكل باسم الجزء . والثاني في المراثي . والثالث في الادب . والرابع
في النسب . والخامس في الهجاء . والسادس في الاضياف والمديح . والسابع في
الصفات . والثامن في السير والنعاس . والتاسع في المُلح . والعاشر في مذمة النساء .
وقد شرحه كثيرون وطبع غير مرة . ومنها نقائض جرير والاخطل ، صدرها بكلمة
في حرب قيس وتغاب . ونشرت في بيروت نشرها الاب صالحاني اليسوعي .

مسيرته

لم يترك ابو تمام باباً من الشعر الا ولجه ، وكان له حظ فيه . ولكن شهرته قامت
على مدحه وراثته ، فرأينا ان نخصهما بالدرس والتحليل لنتبين فيهما ميزته . على ان
فلم بعد ذلك بسائر الابواب المأماً فنحيط بشعره من جميع اطرافه ، ونستجلي خصائص
هذا الشاعر الذي شغل الناس في عصره ، وبعد عصره زمناً طويلاً .

مصرعه

وقف ابو تمام معظم شعره على المدح ، فلم يدع خليفة ولا اميراً عاصره الا رحل
اليه ومدحه وتكسب منه واتصل به . ولكنه قلما تذلل في استجدائه بل تغاب
عليه الانفة والرصانة ، واكثر مدائحه فخمة جميلة . منها في الخلفاء كالمأمون والمعتصم

والوائق . ومنها في الامراء ، والقواد والوزراء ، كنسبيته ابي سعيد الطائي ، وابي دلف العجلي من قواد المأمون والمعتمد ، ومالك بن طوق التغلبي صاحب الجزيرة ، والوزير ابن الزيات ، وآل وهب من وزراء الدولة ، والقاضي احمد بن ابي دؤاد الايادي وسواهم .

ومدائح ابي تمام على ثلاثة انواع من حيث الاستهلال ، فمنها ما يتحدى به الاقدمين ، فيبتدئ بوصف الديار الحالية ، وذكر الاحبة ، والنياق والقفار ، ثم ينتقل الى المدح وربما كان انتقاله اقتضاباً فعل الشاعر الجاهلي . ومنها ما يبتدئ فيه بالحكم ، او بوصف الطبيعة ، او بوصف الحُر ، وفيه يكثر حسن تخلصه لانه يبتعد به عن الاسلوب القديم . ومنها ما يتناول به الغرض ابتداءً دون توطئة واستطراد .

ويمتاز مدحه بفترة فوائده التاريخية ، فانه يحمل اليها فيه اخبار الحروب التي جرت بين المسلمين واعدائهم ، ولا سيما بينهم وبين الروم . او بينهم وبين الخرمية ويصف انتصارات العرب ، وهزائم العداة ، وخراب ديارهم . ويذكر اسماء القواد والفرسان ، واسماء الاماكن التي جرت فيها الحروب . وقد يطلعنا على عادات اهل العصر ، واخلاقهم واعتقاداتهم . وتغمر العاطفة الدينية مدائحه وخصوصاً ما كان منها في المعتمد . فانه يحسن كل عمل يأتيه ، ويجعله من الله ، ولو نتج عن هذا العمل خراب بلد بأسره .

ومن ميزاته الغلو ، وهو ميزة عصره ، ولكنه قليل الافراط فيه ، واذا افراط جعل الشرط مانعاً مثل قوله :

لَوْ أَنَّ طُولَ قَنَاتِهِ يَوْمَ الْوَعَى مِثْلُ إِذَا نَظَّمَ الْفَوَارِسَ مِثْلًا

ويمتاز ايضاً بما في مدحه من منطق واتساق افكار ، وحكم وامثال سائرة ، مبثوثة في تضاعيف ابياته . وبما فيه من عصبية عربية تحمله على الاسراف في ذكر مناقب العرب ، وتزيين الحياة البدوية ، ومساكن الاعراب ، وقبائلهم وشعرائهم .

وكان اصدق لهجة في مدح انسابه منه في غيرهم . ولعل مدحه للخلفاء اضعف عاطفة من غيره الا ما كان منه في ذكر حروب الروم ، وبطش المسلمين بهم . ويعود ذلك على ان الشاعر كان يتشيع للعلويين مع تقربه من العباسيين . واكثر الناس في ذاك العهد كانوا يعطفون على ابناء علي ، ويحبونهم ويؤثرونهم على سواهم ، ويرون فيهم ضحايا بريئة على مذابح السياسة . ولكن فيهم فئة معتدلة لم تر الخروج على السلطان ، ولم تستنكر الامر في العباسيين ، لانهم هاشميون لهم الحق في الخلافة كالطالبيين . ومن هذه الفئة كان شاعرنا ، فانه لم يستنكف من مدح العباسيين وموالاتهم ، والدفاع عن حقوقهم في الخلافة . غير انه لم يستطع كتمان حبه لابناء فاطمة فمدحهم معرضاً بن ناوهم واضطهدهم ، ونكل بهم :

فَعَلَّمْتُ رِبَاءَ بَنَاءِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ ، أَفَاعِيلَ ، أَدْنَاهَا الْخِيَانَةُ وَالْعَذْرُ
ثم يقول :

جَعَلْتُ هَوَايَ الْفَاطِمِيَّاتِ زُلْفَةً إِلَى خَالِقِي ، مَا دُمْتُ ، أَوْ دَامَ لِي غَمْرُ
وهذا التعريض يتناول العباسيين والامويين على السواء ، ولكنه لم يحمل خلفاء بني العباس على اقضاء الشاعر والانتقام منه . لانه خصهم باحسن مدائحه ، ودافع عن حقهم في الخلافة خير دفاع .

وينبغي ان نعلم ان ابا تمام لم يدح العلويين الا يوم كان فتى دون السابعة عشر من عمره ، يدل على ذلك قوله في الرائية نفسها :

وَإِنَّ الَّذِي أَحْذَانِي الشَّيْبَ الَّذِي رَأَيْتِ ، وَلَمْ تَكْمُلِي لِي السَّبْعُ وَالْعَشْرُ
وكان يومئذ في مصر كما يستفاد من قصيدته هذه . فلما اتصل بالعباسيين افاض عليهم مدائحه ، واعتصم بالثقية ، فسكت عن مدح العلويين ، فلم يحقد عليه بنو العباس .

١ ادناها : اي اقلها واحقرها .

٢ احذاني : اعطاني . الخطاب لامرأة تلومه على مغامرته سعيّاً للعلوي والمال . يقول : ان الذي رأيت في من مساع ومقالبات لحوادث الدهر هو الذي اعطاني الشيب وانا دون السابعة عشرة من عمري .

وابو تمام شديد الاعجاب بشعره ، فاذا تم له ما اراد من اطراء ممدوحه ، وذكر
 آثاره ، ووصف غاراته وانتصاراته ، استطرد على الغالب فختم قصيدته باهدائها الى
 ممدوحه كما تهدى العروس الى خاطبها . فيصف فضائلها ، وما فيها من جدة وحسن
 لا تبليهما الايام ، ويغلب استطراده بقوله : خذها ، او ما اشبه ذلك :

خُذْهَا ابْنَةُ الْفِكْرِ الْمُهَذَّبِ فِي الدَّجَى ، وَاللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ الْجِلْبَابِ ،
 بَكَرًا تُورَثُ فِي الْحَيَاةِ وَتَنْشِي فِي السَّلَامِ ، وَهِيَ كَثِيرَةُ الْأَسْلَابِ ،
 وَيَزِيدُهَا مَرُّ اللَّيَالِي جِدَّةً ، وَتَقَادُمُ الْأَيَّامِ حُسْنَ شَبَابٍ .

ومن اروع شعره بائيته التي مدح بها المعتصم بعد فتحه عمورية سنة ٢٢٣ هـ
 (٨٣٧ م) وكان الشاعر في صحبته ، وشهد الواقعة بنفسه ، فوصفها ابداع وصف .
 وقد استلها بتكذيب المنجمين الذين زعموا ان الزمان غير موافق للفتح ، فندد بهم
 وبكتهم وفي ذلك يقول :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ ، فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ .

رأوه

شموس كاسفة ، ونجوم غائرة ، وظلام يطبق الآفاق .

١ الجلباب : الثوب الواسع . يقول : انه سهر على قصيدته هذه الليالي المظلمة الطويلة حتى
 احسن نظمها وتهذيبها .

٢ بكرًا : بدل من ابنة شبه قصيدته بابنة بكر زوجها بممدوحه ، وهذه البكر
 تستحق ان يورثها زوجها في حياة لما دي عليه من الجلال الساحر . واذا كانت الاسلاب لا
 تؤخذ الا في الحروب ، فهذه البكر تعود في السلم ويدها مملوءة بالاسلاب . ويريد بالارث
 والاسلاب الجوائز والهبات التي ستلها قصيدته من الممدوح .

٣ الجدة : حالة الشيء الجديد .

٤ عمورية : مدينة من اعظم بلاد الروم في اسيا الصغرى .

٥ أنباء : اخبارا . الكتب : السحر والعرافة . حده : اي حد السيف
 وهو مقطعه . الحد : الحاجز بين الشيئين . الجد : ضد الهزل ، وقد ذهب الصدر مثلاً .

عيون ذارفة ، ونفوس حائرة ، وغصص آخذة بالحناق .

خطب ينتظم العالم بشجنه ، وعالم متفجع بطوله وعرضه .

الفضل لف في كفيه ، والبأس غيب في ارضه .

تلك اظهر خصائص الطائي في الرثاء . متلهف كثير التفجع ، حياش العاطفة صادق

اللمهجة ولا سيما رثاؤه لانسابائه ؛ فان فيه الشعور القوي بالحسارة ، والمباهاة بالميت ،

والمغالاة في ذكر صفاته . هو رثاء مدح وفخر وتعظيم واكبار للخطب الشامل ، لا

رثاء ضعف عاطفي ، وبكاء اليم . وليس له رثاء تظهر فيه نفسه متألمة حزينة ضعيفة

الا ما قاله في اخيه وابنه . وعلى الجملة فان احسن مرثيته ما جاء في اهله واقربائه ،

فجعل له منزلة تعادل منزلته في مدحه على قلة مرثيته ، وفرة مدائحه .

ومع اتصاله بالعباسيين لم يحسن رثاء واحد منهم ، فقد مدح المأمون ولم يرثه .

وبالغ في مدح المعتصم يوم كان متصلاً به ، فلما مات المعتصم لم يخصه بمرثية بل جعل

رثاءه في قصيدة هنا فيها الواثق بالخلافة . فعلمت عليها صفة المدح ، لان الشاعر لم يقصد

الى الرثاء الا على سبيل تعزية الابن بابيه ، او لياخذ بنوع طريف من البديع وهو

الافتنان ، اي ان يوثق بفنّين متضادين في قصيدة واحدة ، كالتهنئة والتعزية ، او

كالمدح والهجاء .

ومن ذلك نفهم ان الشاعر لم يكن شديد الاخلاص لبني العباس ، وانما توسل اليهم

بمدائحه ليفيد منهم ، ولا ينبغي ان ننسى تشيعه ، وان كان في تشيعه معتدلاً حكيماً .

واكثر ما يستهل مرثيته بنعي الميت الى احياء العرب ، او بشكوى الدهر ، او

بدعوة الناس الى العويل . واذا جاشت عاطفته ، واندفعت في حماسها تضائل عندها

العقل فما تجدد منه واعظاً او حكيماً ، بل ملتهع متفجع ، وقد يرسل المثل السائر ،

ولكنه مثل عاطفي اكثر مما هو عقلي كقوله في نسيه محمد بن حميد الطوسي

الطائي

١ ولي محمد بن حميد الموصل في عهد المأمون ، فلما ظهر بابك الخرمي واستفحل امره

قصده محمد بجيش ، فخرجت عليهم الكهائن في الجبل ، فانهم رجال محمد ، وثبت محمد وبعض

انصاره حتى اذا لم يبق معه الا رجل واحد ، اراد النجاة فادركه بابك وقتله سنة ٢١٤هـ (٨٢٩م) .

هَيْهَاتِ ، لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلٌ

فعمل العقل في رثاء ابي تمام وسط ، وما العمل الاكبر الا اللاندفاع العاطفي
واحسن مراتبه في محمد بن حميد هذا ثم في خالد بن يزيد الشيباني^١

عتابه

كان ابوقام يضمن بشعره ان يذهب ضياعاً فما ينال به جائزة . فكان اذا ابطأ
عليه ممدوحه ، عاتبه متلطفاً ، وذكره القصائد التي مدحه بها ، ولكنه لا يلحف
في عتابه ولا يهدد بل يؤنب ممدوحه تأنيباً لطيفاً ، ويظهر له منزلة شعره في شيء من
الترفع والاباء . ويطعن في شعر غيره فيجعله خسيباً مردولاً .

وصفه

الوصف في شعر الطائي منه مستقل بقصائد وارجيز ومقطعات ، ومنه مبثوث في
مدائحه وسواها من الاغراض . وقد وصف شاعرنا الحرب والحيل والابل والنساء
والغلمان ، والشيب ، واحتضار الميت ، والطبيعة والشراب ، فافاض في ذكرها جميعاً .
ولكن وصفه يبدو عليه احياناً شيء من الجحود والانقباض ، فما تدفعك صورته الى
الانجذاب معها في الخيال الفسيح . ويعود ذلك على ان الشاعر يغوص في عباب معقوله
اكثر مما يطير في سماوات خيلته . ويسرف على الغالب في استعمال الغريب واوجه
البديع ، حتى تجف صورته وتجفو ، وتفقد كل حركة وحياة .

غزله

قد يطول تعبك ، ويعز طلبك اذا حاولت ان تلتمس العاطفة الصادقة في الغزل
الذي كان ابوقام يوطئ به مدائحه وتهانيه . فهذا الغزل لم يأت به الشاعر تلبية
لهمسات فؤاده ، وانما جاء به ارضاء لترعات نفسه الى التقليد . فاذا هو يقف على

١ تولى خالد بن يزيد الموصل وديار ربيعة كلها من قبل المؤمنين ، ولما انتقض امر ارمينية
في ايام الواثق جهز اليها خالد بن يزيد المذكور في جيش عظيم ، فاعتقل في الطريق ومات
سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م)

الطاول ، ويسلم على الديار ، ويسكي على الرسوم ، ويستنطق الآثار ويذكر عرائس
الشعر اللائي شيب بهن المتقدمون .

وهذا الغزل جاف في اكثره ، جاف في معانيه . واذا عثرت فيه على تشبيب
حسن يرضيك ، فما تعثر على شعور رقيق يشجيك . وقد تلفي فيه صنعة على غرابة
لفظه وبدعوة معانيه ، ولكنك لا تبين نفسية صاحبه في قوافيه . فهو غزل كاذب
لا يصور عاطفة العاشق المحب . بل يمثل كلف الشاعر بتقليد المتقدمين ، واعجابه
بمذاهب اهل الخيام ، وعرائس الشعر عندهم .

على ان لابي تمام غزلاً غير هذا يصور عاطفته اصدق تصوير ، وهو الذي تجده في
ديوانه مقطعات صغيرة ، منها بيتان ومنها اربعة ، وقلما زادت كبرها على ستة . فهذه
المقطعات ان هي الا زفرات مشتعلة تنقد بها نفس الشاعر المستهام ، فترى منه محباً
شديد الغيرة على محبوبه ، يتلظى غيظاً اذا زاحمه فيه مزاحم .

وفي هذا النوع من الشعر ترق الفاظه ، وتلطف معانيه ، ويقل تكلفه لاقتصاده
في طلب الصنعة .

ولم يتعمر في هذا الغزل الا قليلاً . ذلك بان اخلاق الطائي تأبى المجاهرة
بالخلاعة وتؤثر الترضن والوقار . غير انه لم يشذ عن خطه معاصريه في التذلل
للمحبيب ، واطهار العبودية له .

واضيفت اليه ابيات رويت لابي نواس ، ومن الصعب تحقيق نسبتها الى احدهما .
على ان في بعضها من النكتة والظرف ما يدفعنا الى ان نرده على شاعر الامين .

فخره

كان ابو تمام عربياً في نزعته ينتمي الى طيء بالولاء على الارجح فافتخر بعروبته ،
وافتخر بقومه . وذكر اجوادهم وفرسانهم ، وفيهم امثال حاتم وزيد الخليل .
وكان شديد الاعجاب بشعره ، فافتخر به وافتخر الشعراء . ونزل المشيب برأسه ،
وهو في السابعة عشرة من عمره ، فجعل منه موضوعاً لفخره . كيف لا والشيب
عنده عنوان الكمال .

الوعظ الزهد

لم يتنسك ابوقام، كما تنسك غيره من الشعراء، ولا عرف الزهد الى نفسه سبيلاً بل ظل يحني من الحياة احلى ثمارها، ويستنشق اطيب ازهارها . لا يتورع من اثم يرتكبه، ومحرم لا يجتنبه . فقد كان من طلاب اللذة ولكنه آثرها مستترة .

وكان ككل خاطئ ابتلي بالمعاصي، تمر به ساعات خوف وندم، فتتمثل له الآخرة وعذابها، فتطير نفسه شعاعاً، فيفرغ الى ربه مستغفراً متندماً، ويقف من نفسه موقف الواعظ الحكيم، فيؤنبها على استهتارها وغفلتها، ويدكرها الموت والفناء والعذاب .

وليس له شعر كثير في الزهد، لان هذا النوع لم يكن من طلباته، وانما كان يعرض له على كره منه . فينظمه خاضعاً لتأثير نفساني طارئ لا يلبث ان يزول . ويبدو هذا التأثير عظيماً عندما تسمعه يتمنى ان يصبح بعد موته رفاتاً محضاً، لا نفس له خالدة في نعيم او جحيم :

فَيَا لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ مَوْتِي وَمَبْعِي ، أَكُونُ رُفَاتًا لَا عَلَيَّ وَلَا لِيَا

ولكنه حسن الايمان بالله، شديد الاتكال عليه . فاذا الخوف والرجاء يعتلجان في صدره :

أَخَافُ إِلَهِي ثُمَّ أَرْجُو نَوَالَهُ ، وَلَكِنْ خَوْفِي قَاهِرٌ لِرَجَائِي^١

ويقول ايضاً :

وَإِن كُنْتُ لَمْ أَشْرِكْ بِذِي الْعَرْشِ ثَانِيًا ، وَإِنِّي جَدِيرٌ أَنْ أَخَافَ وَأَتَّقِي ،

وهذا البيت يظهر لنا الشاعر كبير الذنب، ولكنه صادق في عقيدته، مخلص لاسلامه .

لم يُعَنَّ أبو تمام بالهجو السياسي، لانه كان علوي النزعة، مقرباً من العباسيين، فلم يَتَأْتْ لَهُ ان يهجو الشيعة ولا بني العباس. وكان عظيم الخطوة عند الامراء واكثرهم من الموالي، فاقصر عن هجاء الشعوبية، والرد على شعرائها الذين افحشوا في تعيير العرب. واقتصر على هجاء الشعراء الذين تعرضوا له حسداً، فعابوا شعره ورموه بالسرقه والاتحال. واقتصر ايضاً على هجاء طائفة من الفتيان الذين صحبوه ثم ملأوا صحبته، فندد بهم ونشر مخازيهم وجاء هجوه لهم مفعماً بالغيرة الخائقة، وحب الاستثثار. وهجاؤه في جملة غير بريء من التعهر وانتهاك الحرمات. وهو الى ذلك سهل الالفاظ، قليل التكلف عاطفي يجري مع الطبع.

حكمه واراؤه

ليس لابي تمام شعر خاص بالحكمة، وانما كان يبت حكمه في شتي قصائده على اختلاف اغراضها. وكانت كتب الفلسفة والمنطق قد نقلت عن اليونانية، واطلع عليها الناس فشغفوا بها، فسبق أبو تمام الشعراء الى الاستفادة منها. فغاص على معانيها الدقيقة، واستخرجها من ابعده اغوارها. وجعل المنطق له إماماً، فاكثر من الاخذ بالادلة العقلية، وارسلها حكماً وامثالاً، حتى روي له منها ما يروى على مائتي بيت. فالحكمة في شعر ابي تمام لا تقتصر على اختباراته لحوادث الايام وتجاربها، شأن الشاعر الجاهلي بل تتعداها الى التفكير الصحيح، لانه كان يتطلبها بالخاف، ويتمدها اكثر مما يأتي بها عفواً.

وحكم الطائي في جملة قائمة على المواعظ الادبية، والنظر في اخلاق الناس وتعظيم العقل، وذم الزمان لانه يشقى به العاقل وينعم الجاهل. واذا شئت ان تستخلص لشاعرنا رأياً خاصاً بالحياة. فبوسعك ان تحصره في دائرة صغيرة الا وهي الصبر، ومصانعة الايام ومداورتها، والاغتراب طلباً للرزق، ومحاربة للفقر. فمن ذلك قوله :

مَا يَحْسِبُ الْعَقْلُ ، وَالذُّثْيَا تُسَاسُ بِهِ ، مَا يَحْسِبُ الصَّبْرُ فِي الْأَحْدَاثِ وَالنُّوبِ
الصَّبْرُ كَاسٌ ، وَبَطْنُ الْكَفِّ عَارِيَّةٌ وَالْعَقْلُ عَارٍ ، إِذَا لَمْ يُكْسَ بِالنَّشَبِ ١

وهذان البيتان يظهران اعتماد الشاعر على الصبر في مصانعة الايام ، ويظهران حبه
للمال وتعظيمه اياه . فانه على شدة اجلاله للعقل يراه عارياً ضائعاً إلهم يكسه المال
ويحفظه من الضياع . وحب المال جعل الشاعر يؤثر الاغتراب في طلبه ، فتنقل بين
الولايات ، وتكسب من مدح الامراء .

ما ادرك عليه

افرط ابو تمام في استعمال البديع ، فجره تعتمد التجنيس والطباق والارصاد الى
سقطات كان غنياً عنها . فمن ذلك قوله :

فَانْسَلَمَ سَلِمَتْ مِنْ أَلْفَاتٍ مَا سَلِمَتْ سِلَامٌ سَلَمَى ، وَمَهْمَا أَوْرَقَ السَّلْمُ ٢
فهذا على لغة الاميدي من كلام المبرسمين ٣ .

وافرط في استعمال الاستعارات ، فلم يسلم من العثار . ورويت له استعارات
مضحكة لا تليق بشاعريته كقوله :

فِي كَمَاةٍ يُكْسَوْنَ نَسِجَ السَّلَوقِي - وَتَعْدُو بِهِمْ كِلَابُ سَلُوقٍ ٤
فقد اراد التجنيس والارصاد بين السلوقي وسلوق فجعل خيول الفرسان كلاباً .
واسرافه في طلب هذه الاشياء ، ورطه في مضادات جملة لاصول الفصاحة ،

١ الشب : المال . يقول : الصبر يكسو المرء اذا كان فقيراً صفر الكف ، والعقل
تظهر عورته اذا لم يكس بالمال .

٢ السلام : الحجارة واحدها سَلَمَةٌ . سَلَمَى : اسم جبل . السلم : شجر يدبغ بورقه .

٣ المبرسمين : المصابين بالهرسام وهو التهاب بين الكبد والقلب ، ويريد بكلام
المبرسمين هذيان المحموم .

٤ الكماة : الشجعان . السلوقي : نسبة الى سلوق وهي قرية في اليمن او بطرف
الرمينية تنسب اليها الدروع والكلاب . او نسبة الى سَلَقِيَّة على غير قياس ، وهي مدينة في بلاد
الروم . وقوله نسج السلوقي : اي الدروع .

وجعل في شعره غموضاً لا تحل رموزه الا بشق النفس . وزاده ابهاماً ايثار الالفاظ
لحوشية بل الوحشية . مثال ذلك قوله :

أَهَيْسُ أَلَيْسُ لَجَاءُ إِلَى هَمِّ يُغْرِقُ الْأَسَدَ فِي آذِيهَا أَلَيْسَا

فالأهيس والأليس والليس ثقيلة على السماع، ثم استشنت لاجتماعها في بيت
واحد . وقد فصل الشاعر بين النعت والمنعوت بغريب في قوله : يغرق الاسد في
آذيها الليسا . واشبع حركة الياء في اهيس واليس تشبهاً بالمتقدمين مع ان المولدين
اخذوا يتحامون امثال هذا الزحاف بعد وضع العروض . والزحاف في شعر ابي تمام جد
كثير، قلما خلت منه قصيدة، وربما تواطأت عدة زحافات على بيت واحد فحطمته تحطياً .

ولم يقتصر على الاسراف في البديع، والافتئات على قواعد العروض بل استباح
قواعد النحوف لم يرع لها ذمة . وادركت عليه سرقات كثيرة جره اليها جمعه لاشعار
المتقدمين، وسعة روايته . فكان يسئل المعاني الحسان ويدخلها في شعره . ولكن
خصوصه بالغوا في تسريقه، فزعم دعبل ان ابا تمام اغار على قصيدة لمكتنف بن ابي
سلمى من ولد زهير بن ابي سلمى فسرق اكثرها، وادخله في قصيدته « كذا فليجل
لخطب . » وروى صاحب الاغاني ابياتاً منها جاء في اواخرها :

كَأَنَّ بَنِي أَلْقَعْقَاعِ يَوْمَ مُصَابِهِ نَجُومُ سَمَاءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِهَا أَلْبَدْرُ
تَوَفِّيَتْ أَلْأَمَالُ يَوْمَ وَفَاتِهِ ، وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفَرُ

وهذان البيتان تجدهما في رائية ابي تمام مع بعض التغيير . على اننا نشك في
صحة ما زعم دعبل لان الابيات التي ذكرها بينة التوليد لا تشبه اشعار المتقدمين .
والارجح ان دعبلاً نظمها ونحلها ابن ابي سلمى بغية اسقاط ابي تمام .

١ أهيس : الشجاع . الأليس : البطل الغاية في الشجاعة . لجاء : فعّال من لجأ .
آذيها : موجهها والضمير يعود على الهمم . الليس : جمع أليس ، وهي نعت للأسد .
يقول : ان مدوحه صاحب هم عظيمة كالبحار تغرق الاسد في امواجها مع ما في الاسد من
هم عالية مشهورة .

واورد الآمدي في موازنته بين الطائيين^١ طائفة كبيرة من سرقات ابي تمام ،
 وذكر معها الموارد التي استقى الشاعر منها . فاصاب في بعضها ، وخطأ في بعضها
 الآخر لانه لم يهراً من التحامل على ابي تمام والميل الى البحري . فقد روى له ابياتاً ،
 وزعم انها مسروقة ، مع ان السرقة فيها ضعيفة غير ظاهرة . وعاب عليه ابياتاً آخر
 دون ان يراعي معانيها الشائعة المشتركة التي لا ينفرد بها شاعر عن شاعر .

مصر له

شغل ابو تمام الناس بشعره ، فانقسموا حزبين حزباً يفرط في التعصب له ويقدمه
 على كل سالف ومحدث . وحزباً يفرط في التعصب عليه ، ويتعمد الرديء من شعره ،
 فينشره ويطوي محاسنه .

وغير عجيب ان يشتد الخلاف على هذا الشاعر ، فقد حمل الى الشعر اشياء غير
 مألوفة ، فلم تتفق جميع الاذواق على استياعها ، والارتياح اليها . فانه جعل الشعر
 صنعة ، وبعد به عن الطبع السمع ، لاسرافه في طلب التجنيس والطباق والاستعارات .
 قال الآمدي : « حتى صار كثير مما اتى به من المعاني لا يُعرف ولا يعلم غرضه الا
 مع الكد والفكر ، وطول التأمل . ومنه ما لا يعرف معناه الا بالظن والحدس . » اه
 وافرط في اتخاذ الادلة العقلية بعد اطلاعه على كتب يونان ، فازداد شعره ابهاماً
 وتعتدلاً ، واصبح لا يميل اليه الا من آثر الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص
 والفكرة . وكان لمختاراته التي جمع فيها اشعار العرب المتقدمين يد طولاً في تضليعه
 من غريب اللفظ ووحشية ، فشغف به وافرط في استعماله ، حتى تأبد اكثر شعره
 واخشوشن ، وسمج وقعه في الآذان ، فضاعت فيه معانيه الحسان فما تعثر على واحد
 منها الا كما تعثر على لؤلؤة وضأة في اكوام من الفحم . فاعرض سواد الرواة عن
 حفظه ، وكان ابن الاعرابي يقول : « ان كان هذا شعراً ، فكلام العرب باطل . »
 وابن الاعرابي من اولئك العلماء الذين وقفوا على لغات العرب ومذاهبهم ، وآثروا
 الاسلوب القديم والغريب من اللفظ ، على الاسلوب الجديد واللفظ الرقيق . ولكنه

انكرو على ابي تمام تأبده وغوضه ، وتعسفه في طلب البديع والادلة العقلية وبعده
عن الطبع . مع ان ابا تمام كان يحب الغريب مثله ، ويترسم البدو في اساليبهم ،
غير انه افسد شعره بكثرة التصنع والابهام .

وكان اذا قيل له : « لِمَ تقول ما لا يفهم ؟ » قال : « لِمَ لا تفهمون ما
يقال . » وفي هذا الجواب من المكابرة ما يدل على اعتداد الشاعر بنفسه ، وارتضائه
لجميع ما تفيض به قريحته ، حتى انه ليبخل بيت ظاهر عيبه فما يسقطه من قصيدته
وكان يرد على لائمه بقوله : « انا والله اعلم منه مثلاً تعلم ولكن مثل شعر الرجل
عنده مثل اولاده . فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حاو في نفسه ،
فهو وان احب الفاضل لم يبعض الناقص . وان هوي بقاء المتقدم لم يهزم المتأخر . »
واسراف ابي تمام في الصنعة والغريب ، ونجده بشعره ، من الاسباب التي كان لها
الاولية في الاكثار من رديئه ، فاشتهر جيده لقلته . والجيد في شعره ما اجتمع فيه
حسن اللفظ والمعنى ، فجاء آية في الابداع . لذلك كان البحثري يقول : « جيده
احسن من جيدي ووسطي ورديئي خير من وسطه ورديئه . »

ولو وفق ابوقام لتجميل ديباجته كما وفق في تصيد المعاني لما بلغ شأوه بالغ .
لانه أوتي من جودة القريحة وسعة الخيال ، وتنبه الذهن ما يجعل منه شاعراً لايحاري .
ولو عمل بوصيته للبحثري اذ قال له : « وتقاض المعاني ، واحذر المجهول منها ، واياك
ان تشين شعرك بالالفاظ الزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير
الاجسام . » لوقى شعره سقطات عديدة . ولكن جعل همته في الغوص على المعاني ولم يُعن
بتقويم الفاظه . فكان اذا لاح له المعنى اخرجه باي لفظ استوى من ضعيف او قوي ،
لا يعنيه منه الا ان يدخل فيه طباقاً او جناساً ، واستعارة او ارصاداً . فنتج عن ذلك
ان سقط معظم معانيه فجاء بعده من اخذها عنه ، وافرغها في قالب حسن فنسبت اليه .
وعلى الجملة فان ابا تمام شاعر عبقري يحاري احياناً الطبقة الاولى من الشعراء
المولدين ، ولكنه شاعر ضل طريقه فما يلبث ان يتقهقر فتخطئ منزلته عن منزلة
المهزين منهم ، ولولا تعسفه وصنعتة لما فضله مولد . وهو اول شاعر انكشفت له
الحكمة اليونانية فاغترف من بحرها ، ومهد السبيل من بعده للمثنوي واضرابه .

و اول شاعر عمد الى التأليف ، فسخر له اختياره لاشعار المتقدمين من المعاني ما لم يُسَخَّرَ
لسواه . ويمتاز شعره بطول النفس ، وفخامة الابتداء ، وبعد مرامي التفكير ، على
اندفاع عاطفي . وله المكانة العالية في ارناء ثم في المدح ، ويُعد من المجددين في
عصره من حيث التزام البديع ، ونظم الادلة المنطقية ، والاراء الفلسفية . وقد اغنى
اللغة بعمان لم تعرف قبله ، كما اغناها بانواع الاستعارة والتجنيس والطباق .

دعبل

٧٦٥ — ٨٦٠ م و ١٤٨ — ٢٤٦ هـ

حياته : تشطره . اتصاله بالرشيد . موته . صفاته واخلاقه . اثاره .
ميزته : هجوه وتكسبه . عصبية القحطانية . تشييعه للعلويين . منزلته .
رشاقة شعره . طلاوته . هجاء مسافه . شاعر قومي . محام حزبي .

حياته

هو دعبل بن علي بن رزّين الحُزاعي ينتهي نسبه الى قحطان . وكنيته ابو علي ،
وقيل ان دعبل لقب له ، وان اسمه الحسن او عبد الرحمن او محمد ، وكنيته ابو جعفر .
وذكر ابن خلكان ان جده رزينا كان مولى عبد الله بن خلف الحُزاعي ، ولم يذكر
ذلك غيره بل اتفقوا على صحة عروبه ، ونسبه في خزاعة .

وكانت ولادته في الكوفة ، وبها نشأ . فلما ترعرع جعله مُسلم بن الوليد في

١ الدعبل : البعير المسن والشيء القديم .

٢ مسلم بن الوليد ينتمي الى الانصار بالولاء ويقب بصرى الغواني ، مولده ومنشؤه
الكوفة ، شاعر محسن ماجن ، وهو اول من تكلف البديع بعد بشار ، ولكنه كان متصرفاً
في شعره لا يجري فيه على مذهب واحد بخلاف ابى تمام الذي التزم البديع التزاماً فاصبح له
مذهباً .

كنفه ، فتخرج عليه في الشعر . ولم يأذن له باظهار شعره الا بعد ان استوسقت ملكته وسمع منه قوله : « اين الشاب وأية سلكا . »

وكان دعبل في صباه يلقب بـمَيَّاس لتخبثه وسوء سيرته . ولما اشتدت قواه اخذ يصحب الشطار^١ والصعاليك ، فحبس وضرب وهو غلام لجناية جناها . ولكنه لم يرتدع بل ظل يَصْلُت^٢ على الناس في الليل حتى خرج مرة هو ورجل من اشجع^٣ فيما بين العشاء والعتمة ، فجلسا على طريق رجل من الصيارفة ، وكان يروح كل ليلة بكسبه الى منزله . فلما طلع مقبلاً اليهما ، وثبا اليه فيجرحاه ، واخذ ما في كفه ، فاذا هي ثلاث رمانات في خرقة ، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه . ومات الرجل مكانه ، واستتر دعبل وصاحبه . وجد اولياء الرجل في طلبهما ، وجد السلطان في ذلك . فطال على دعبل الاستتار ، فاضطر الى الهرب من الكوفة ، ولم يرجع اليها الا بعد ان علم انه لم يبق من اولياء الرجل احد .

واتصل الشاعر بالرشيد وهو شاب لم ينبه ذكره بعد . وسبب اتصاله به ان بعض المغنين غنى في قوله : « لا تعجبي يا سلم من رجل . » فغنى به بين يدي الرشيد ، فطرب له ، وسأل عن قائله . ف قيل له : « دعبل بن علي ، وهو غلام نشأ من خراقة . » فامر باحضاره ، وخاع عليه واجازته ، واجرى عليه رزقاً سنياً ، فكان اول من حرصه على قول الشعر حتى نبغ واشتهر اسمه .

ولم يتصل بعد موت الرشيد بغيره من الخلفاء ، لانه كان متعصباً للعلويين ؛ يريد الامامة فيهم ، ويؤلمه ما نالهم من التقتيل . فنقم على بني العباس ، وهجاهم ، واقدع فيهم القول . فبقي دهره كله خائفاً ، هارباً متوارياً . وكان يقول : « انا احمل خشبتي على كتفي منذ اربعين سنة^٤ . است اجد احداً يصلبني عليها . »

١ الشطار : جمع شاطر وهو العيَّار الذي اعيى اهله خبثاً .

٢ يَصْلُت : يأتي عليهم في حوائجه . ومنه قولهم : رجل صَلَّت ، اي ماض في الحوائج

٣ أشجع : اسم قبيلة .

٤ اي منذ هجا الرشيد وذلك سنة ٢٠٣ هـ يوم مات علي الرضا ، ودفن في طوس عند

وظل ينتقل من بلد الى آخر مستخفياً عن اعين الخلفاء حتى مات . وكان الشراة والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ، ويشاربونه ويبرونه . وكان اذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ، ودعاهم اليه ، ودعا بغلاميه نَنَفَنَفَ وشَعَفَ ، وكانا مغنيين ، فاقعهما يغنيان ، وسقاهاهم وشرب معهم ، وانشداهم .

موته

يحدثنا الرواة ان دعبلًا قصد مالك بن طوق امير الجزيرة ، ومدحه فلم يرض ثوابه ، فخرج عنه غاضباً ، وهجاه فافحش فيه القول . فطلبه مالك فهرب فاتى البصرة ، وعليها اسحق بن العباس بن محمد العباسي . وكان قد بلغه هجاء دعبل للزارية تعصباً للقحطانية . فقبض عليه ، ودعا بالنطع والسيف ليضرب عنقه . فحلف بالآيمان المخرجة انه لم يقلها ، وان عدوا له قائلها ونسبها اليه ليُعري بدمه . وجعل يتضرع اليه ، ويقبل الارض ويسكي بين يديه . فرق له وقال : « أما اذا اعفيتك من القتل ، فلا بد من ان أشهرك . » ثم دعا له بالعصي ، فضربه حتى سَلَحَ . وأمر به فألقي على قفاه ، وفتح فيه فردَّ سلحه فيه ، والمقارع تأخذ رجله ، فما رُفِعت عنه حتى بلع سلحه كله . ثم خلَّاه فهرب الى الأهواز .

وبعث مالك بن طوق رجلاً حصيفاً مقداماً ، وأعطاه سماً وأمره ان يغتاله كيف شاء ، وأعطاه عشرة الاف درهم . فلم يزل يطلبه حتى وجده في قرية من نواحي السوس ، فليغته في وقت من الاوقات بعد صلاة العتمة ، فضرب ظهر قدمه بعُكَّاز لها زُجٌ مسموم . فمات من الغد ، ودفن بتلك القرية ، وقيل بل حمل الى السوس فدفن فيها . وكانت وفاته في اواخر خلافة المتوكل .^٢

١ الشراة : الخوارج .

٢ الزُج : الحديدة التي في اسفل العكَّاز .

٣ خلافة المتوكل من سنة ٨٤٧ - ٨٦١ م و ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ

كان في صباه على شيء من الملاحاة والهيبة فلقب بيماس كما مر بنا . ولعله أصيب بالصمم بعد ان تقدمت سنه فاصبح أطرُوشاً . وكان في قفاه 'سَلْعَةٌ' وقيل بل في عنقه^٢ ربما حباه بها تشطره ولصوصيته .

ولم يكن على شيء من كرم الخلق فقد عُرف باللؤم، وخبت اللسان، والحسد والفدر، والصوصية والدناءة، وغطت النعمة، وكره الناس . وسمعه بعضهم يقول : « ما كانت لاحد قط عندي مِنَّةٌ الا تمنيت موته . » وله رأي في مصاحبة الناس ومخالقتهم، لا يختلف في شيء عن رأي بشار . فانه كان يقول لمن يلومه على كثرة هجائه للخلفاء والامراء : « ويحك ! اني تأملت ما تقول ، فوجدت اكثر الناس لا يُنتفع بهم الا على الرهبة، ولا يُبالى الشاعر، وان كان مُجيداً، اذا لم يُخَفْ شرُّه . وَلَمَنْ يَتَّقِكَ على عرضه اكثر ممن يرغب اليك في تشريفه . وعيوب الناس اكثر من محاسنهم، وليس كل من شرفته شرف، ولا كل من وصفته بالجلود والمجد والشجاعة، ولم يكن ذلك فيه، انتفع بقولك . فاذا رآك أوجعت عرض غيره ، وفضحته اتقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر . ويحك ! ان الهجاء المقذع آخذٌ بضبع^٤ الشاعر من المديح المضرع^٥ . »

فدعبل كبشار يكره الناس، ويجب التكسب ، ويؤثر ان يطلبه بالهجاء بدلاً من المديح . وهو كبشار سبى الظن في ابناء عصره، فعيوب الناس عنده اكثر من

١ قفاه : مؤخر رأسه .

٢ سَلْعَةٌ : شجرة .

٣ العَنْقَعة : ما نبت على الشفة السفلى من الشعر .

٤ الضبع : العضد .

٥ المضرع : المذل .

محاسنهم . غير انه يختلف عن بشار في انه صاحب عصبية عربية ، ويختلف عنه ايضاً في انه كان دونه انفة وكبراً . فقد ضرب بشار حتي مات ، ولم تذلل نفسه ، ولم يتضرع . وهدد دعبيل بالموت ، فبكى وتذلل ، ثم ضرب فسلح وبلع سلحه .

ولم يبر أحد الا ابناء علي ، فقد كان صادق التشيع لهم ، يرجو بهم الشفاعة في الآخرة . ولكن تشيعه لا يعني انه كان حسن التدين ، يحافظ على شعائر الاسلام . فدعبيل لم يتحوب من القتل والسلب ، وتقزيق الاعراض والتخنث والفجور ، وشرب الخمر . ولكنه كان اقل فجوراً وسكراً من بشار .

وعلى الجملة فليس في اخلاق دعبيل ما يستحق الحمد والثناء فهو عصارة الموم المصقى .

أما

لم يُشهر دعبيل في الشعر الا بعد ان اكتمل شبابه ، واتصل بالرشيد ، فاجازه وحرّضه على القول . واما الشعر الذي نظمه في صباه ، فان استاذة مسلم بن الوليد ، لم ير فيه خيراً ، فامره بكتمه ، فكتمه ولم يظهره .

ولكن دعبلاً عَمَّ طويلاً ، ونظم شعراً كثيراً . فقد روى الجاحظ انه سمعه يقول : « مكثت نحو ستين سنة ، ليس من يوم ذرّ شارقه إلا وانا قول فيه شعراً . » غير ان هذا الشعر ضاع ولم يبق منه الا بعض قصائد ومقطعات مبثوثة في كتب الادب ، واكثرها في الهجاء ، ومدح آل البيت . ولعل اقداعه في هجو الخلفاء العباسيين كان السبب في ضياع شعره ، واخمال ذكره . لان الناس اهملوه بعد موته تهيباً لبني العباس ، فلم يرووا شعره ولم يجمعوه .

ميرته

لا نبتغي دراسة عامة لشعر دعبيل وقد ضاع اكثره علي ان ما بقي منه كاف لان يظهر لنا الخصائص التي اشتهر بها هذا الشاعر الا وهي الهجاء المقذع والمناجر

به ، والعصبية القحطانية ، والتشيع لابناء علي .

هجو ونكسب

كان دعبل يحب التكسب كغيره من شعراء العصر العباسي . وأوتي من خبث اللسان ، ولؤم الطباع ما جعله عند الناس بغيضاً مقيتاً . فابتعدوا عنه ، ونفروا منه ، وتمنوا هلاكه ، حتى ان ممدوحيه كانوا يجيزونه قطعاً لسانه لا حباً له . فلم يسبغوا عليه وافر النعم ، ولا اغنوه من فقر ، فانقلب عليهم وهجاهم . وقدّر له ان يعيش هارباً خائفاً متوارياً لافراطه في هجاء الخلفاء والامراء ، فلم يطمئن به مضجع ، ولا رَحَب به مصر . فاشتدت نغمته على الناس ، وازداد كرهاً لهم . وابت نفسه الخبيثة ان تأنس برؤية من يصنع المعروف معها ، فتمنت هلاكه لئلا تُضطّر الى مجاملته والتودد اليه . ووافق هواها شتم الناس ، فرأت ان الهجاء المقذع آخذ بضبع الشاعر من المديح المضرع . وهذه النظرية سبق بشار اليها فاختطها دعبل من بعده . وكان مسلم بن الوليد يقول بها ، ولكنه لم يؤيدها كما أيدها تلميذه ، لانه لم يكن مثله لثيماً دنيئاً ، ولم يكن يكره الناس .

واعتماد دعبل على الهجاء في اكتسب جعله يهينه قبل ان يجد المهجو ، فاذا استحقه احد اتخفه به ، وذكر اسمه وشهره . واكثر الذين هجاهم من امراء ووزراء وقواد كابن الزيات ، ومالك بن طوق ، والفضل بن مروان ، وغيرهم كانوا من ممدوحيه ، فلم يرضه عطاؤهم فنقم عليهم .

ولم يسلم من شره انسابه واصدقاؤه ، والمتشيعون مثله . فقد هجا آل طاهر بن الحسين الخواري مع شدة ميله اليهم ، وكثرة افتخاره بهم . وقصد مصر ، فمدح اميرها المطلب بن عبد الله بن مالك ، وهو قريب له ، فاجازه ، وولاه اسوان . وحدث ان رجلاً من العلويين كان قد تحرك بطنجة ، واخذ يبيث دعائه الى مصر . فخافه المطلب ، فوكل بالابواب من يمنع الغرباء دخولها ، فجاء دعبل فمُنِع ، فاغلاظ الذي منعه ، فقنعه هذا بالسوط وحسبه . ثم عرف المطلب بالامر فاطلقه وخلع عليه . فقال له : « لا ارضى او تقتل الموكّل بالباب . » فقال له : « هذا لا يمكن لانه قائد من قواد

السلطان . « فغضب دعبل وهجاه جاحداً قرابته وفضله عليه .
 وبلغ المطلب هجاؤه اياه فغزله عن اسوان . فراح يفحش فيه القول ويوجع
 عرضه .

وبلغ به لؤمه ، وحبه للكسب ان مكر باستاذمه مسلم بن الوليد ، عندما ولاه
 الفضل بن سهل^١ البريد بجرجان^٢ فصار الى مَرَوْ قاعدة خراسان ، وكتب الى
 الفضل بيتين يحرضه بهما على اقضاء مسلم لانه لا يحفظ مودة . فبلغا مسلماً ، ابلغه
 اياهما الفضل ، فهجا دعبلاً ، وهجاه دعبل ، ثم تهاجرا فما التقيا .
 وحسبك من ذلك شاهد على لؤم دعبل ، وخبث لسانه ، ودناءته في طلب الرزق ،
 وغدره باقرب الناس اليه .

عصبية القحطانية

لازى بنا حاجة الى الاستفاضة في اسباب العداء المستحكم بين العدنانية
 والقحطانية ، فحسبك ان تعلم انه اثر باق من عصبية العرب في جاهليتهم ، وتنافس
 قبائلهم من نزارية وحميرية . وجاء الاسلام فزيدت قريش شرفاً بالنبوة ، ثم استقلت
 بالخلافة . فدلّت قبائل معد على قبائل اليمن ، فاشتدت الخصومة بينهم ، وعظم
 التنافس . فكانت شعراء نزار تهجو اليمانية ، وشعراء اليمن تهجو النزارية ، ولا
 تعف عن قريش .

وكان دعبل من خزاعة ، وخزاعة قبيلة قحطانية لها شرف عادي تكتنفها في
 الجاهلية والاسلام . فغير عجيب ان تبثور عصبيتها فتدفع شاعرها الى مفاخرة العدنانية
 ومنافستها . وبلغ التعصب بدعبل ان هجا الكُمَيْت بن زيد الاسدي^٣ وناقضه في
 قصيدته التي هجا بها قبائل اليمن ، واولها : « الْأُحْيَيْتِ عَنَّا يَا مَرِينَا^٤ » . وكان

١ هو ذو الرياستين ، الوزارة والسيف ، وهو الذي أيد بيعة المأمون في خراسان ،
 ثم اشتدت صولته في خراسان فخشى المأمون تشييعه فدس اليه من قتله وهو في الحام .

٢ من اعمال خراسان .

٣ الكُمَيْت : شاعر اسلامي متشيع

٤ مَرِينَا : اسم صاحبه

الكميت قد مات ، فلم يرع حرمة الميت فيه . وكان الكميت شيعياً مثله فلم يرع حرمة تشيعه . ولم يعف عن قريش في نقيضته بل هجاها بقوله :
 مِنْ أَيِّ ثَنِيَّةٍ طَلَعَتْ قُرَيْشٌ ، وَكَانُوا مَعْشَرًا مُتَنَبِّطِينَ^١
 وكان الشاعر خشي شر هذا البيت ، فكان اذا سئل عنه تبرأ منه ، وقال ان خصمه ابا سعد المخزومي دسه عليه في نقيضته .

وابو سعد هذا شاعر من موالي قريش اسمه عيسى بن خالد بن الوليد انبرى لدعبل يهاجيه ، وينقض اقواله بعد ان رد على الكميت وهجا الزارية . فاستطال عليه دعبل ، فخاف بنو مخزوم ان يعمهم الهجاء ، فنفوا ابا سعد عن نسبهم ، وكتبوا بذلك صكاً . فقال دعبل يهجوهم :

كُتِبُوا الصَّكَّ عَلَيْهِ ، فَهُوَ بَيْنَ النَّاسِ آيَةٌ
 فَإِذَا أَقْبَلَ يَوْمًا ، قِيلَ : قَدْ جَاءَ الثُّفَايَةُ^٢

ولحم الهجاء بينهما ، هجاء فاحش فاجر . وكان شعر دعبل اسير من شعر ابي سعد لسهولته وخفته ، فسار على افواه الصبيان ، وعابري السبيل . وكان ابو سعد يتصور منه ويقول : « ما اجتاز بموضع الا سمعته من سفلة يهدرون به » وقيل : ان دعبل كان اذا هجا ابا سعد دعا الصبيان ، واعطاهم جوزاً ليصيحوا بشعره . فدعبل كما ترى شاعر عصبية متحمس لقحطانيته .

تسبحة العلويين

اذا شئت أن تتبين مبلغ تعصب دعبل لابناء علي ، فعليك بشعره الذي هجا به الخلفاء العباسيين ، فهو اصدق شاهد على تشيع هذا الشاعر ، وكرهه لبني العباس الذين استأثروا بالملك دون ابناء عمهم من هاشم .

وكان الرشيد اول خليفة ساطع دعبل لسانه عليه ، ولكن بعد موته . ولم يهجه

١ الثنية : العقبة او الجبل . يقال فلان طلاع الثنايا اذا كان سامياً لمعالي الامور .
 فقوله : « من اي ثنية طلعت قريش » اي من اي اصل عال انت وهي مغموزة في نسبها العربي فتتجى الى النبط ، وهم جيل خليط من الاراميين والعرب .
 ٢ الثفاية من الشيء : رديته وبقيته .

في حياته لاسباب : منها ان الرشيد كان مرهوب الجانب . ومنها ان دعبلاً كان
محظوظاً عنده ، فاشفق من ان تزول عنه هذه النعمة فكظم تعصبه في صدره ، ورضي
بالصمت على امل ان تتبدل الاحوال بتبدل الازمان . ومات الرشيد ، واستخلف
الامين من بعده ، وشاعرنا لا ينبس ببنت شفة . ثم وقعت الفتنة بين الاخوين الامين
والمأمون ، فانتهصر الفرس للمأمون لان امه فارسية . وكان المأمون ذا دهاء ، فرأى
من الحكمة ان يتودد للعلويين استكفافاً لسخطهم ، واسترضاء للفرس انصاره ،
واشباعهم . فلما تم له الامر بعد مقتل اخيه ، عهد في الخلافة من بعده الى علي بن
موسى الرضا من ولد علي بن ابي طالب ، فاغتبطت الشيعة وارتضت . ولكن العباسيين
سخطوا فبايعوا ابراهيم بن المهدي في بغداد . فخشي المأمون ان يقات الامر من يده
بجروج العباسيين عليه ، وميلهم الى عمه ابراهيم ، فود لو يتخلص من هذه الورطة ليصفو
له الجو . فلم يلبث ان تحققت امنيته ، فتوفي علي الرضا فجأة ، وزعموا انه اكثر من
اكل العنب فمات ، وقال آخرون : بل دس المأمون له السم فقتل عليه . وكتب المأمون
الى اهل بغداد يعلمهم بموته ، فخلعوا ابراهيم ، ودعوا المأمون بالخلافة .

واثار موت علي الرضا بهذا الشكل ظنون العلويين ، فهاج بعصبيتهم ، وايقظ
النقمة في صدورهم . غير ان المأمون استطاع ان يخمد شوكتهم بدهائه ، فقربهم اليه ،
وشغلهم بالخطط العالية ، ولم يحجم عن اغتيال من يخشى شره منهم ، فعله بوزيره
الفضل بن سهل ، وبقائده طاهر بن الحسين .

وكان دعبل في جملة الناقين . وساء ان يعذر المأمون بعلي الرضا ، ثم يدفنه
عند قبر ابيه الرشيد في طوس ، فهجا الرشيد والعباسيين ، وبكى على العلويين ضحايا
ابناء عمهم . وفي ذلك يقول :

قَبْرَانِ فِي طُوسَ ، خَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، وَقَبْرُ شَرِّهِمْ ، هَذَا مِنْ أَلْبَرِ !
وبوسعنا ان نتبين هنا خطأ الرواية التي اثبتها ابو الفرج في اغانيه ، وتناقضتها
كتب الادب من بعده ، وهي قولهم : « ما بلغ دعبلاً ان الرشيد مات حتى كافأه

١ قوله : خير الناس : اي قبر خير الناس ، حذف المضاف واستغنى عنه بالمضاف اليه .
ويريد به قبر علي . قبر شرهم : اي قبر الرشيد .

على ما فعله من العطاء السني ، والغنى بعد الفقر ، والرفعة بعد الخمول باقبح مكافأة .
وقال فيه من قصيدة مدح بها اهل البيت ، عليهم السلام ، وهجا الرشيد . « ثم
يروون قوله : « قبران في طوس . » ولا يروون له غير ذلك في الرشيد .

فهذه القصيدة لم تنظم الا بعد وفاة علي الرضا اي سنة ٢٠٣ هـ (٨١٨ م)
والرشيد مات سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) . وقد اخطأ صاحب معاهد التنصيص في زعمه
ان الشاعر اراد في قوله : « إربع بطوس على القبر الزكي » قهر موسى الكاظم اي
والد علي الرضا . فموسى الكاظم لم يدفن في طوس بل في مقابر الشونيزي في بغداد .
فيتضح مما تقدم ان الشاعر بقي نحو عشر سنوات بعد الرشيد لم يقل هجراً في
العباسيين . وانقضت خلافة الامين دون ان يهجو احداً منهم . حتى مات علي الرضا ،
فاستيقظت عصبيته فهجا الرشيد ثم هجا المأمون و ابراهيم بن المهدي والمعتمد والوائق
والمستوكل .

وكان المأمون ارحبهم صدرأ في استماع هجائه ؛ ذلك انه كان يزن الامور بمقياس
فطنته ، فلم يجد بأساً على الخلافة من هجاء دعبل فلم يعبأ به . ولم يشأ ان يسيء الى
الشيعة بقتل محازبهم ، ولا ان يرزأ بني خزاعة بشاعرهم ، وهم انصاره في ثورته على اخيه .
وسأله ابو سعد الخزومي ان يأذن له بقتله فأبى وقال : « هذا رجل فخر علينا
فافخر عليه كما فخر علينا ، فأما قتله بلا حجة فلا . »

ولطالما حاول ان يقربه ويصطنعه ، فكان يأخذ عطايه ثم يعود الى هجائه ،
والمأمون يتحلم عنه وقد يجيزه اذا سمع منه هجاء في عمه ابراهيم ، لان ابراهيم طمع
في الخلافة ، وارادها لنفسه دونه ، فكان المأمون يعتمد نكايته ، والتشفي منه . قيل
انه لما سمع قول دعبل فيه :

إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُضْطَلَعًا بِهَا ، فَلْتَصْلَحَنَّ مِنْ بَعْدِهِ لِمُخَارِقِ ١

ضحك ، وقال : « قد صفيحتُ عن كل ما هجانا به اذ قرن ابراهيم بمخارق في

١ مضطلعاً بها : ناهضاً بعينها . لمخارق : احد المغنين في صدر الدولة العباسية ، وكان
ابراهيم بن المهدي مشهوراً في الغناء وضرب العود ، فالشاعر يهكم به ويقول : اذا صلحت
الخلافة له ، وهو مغن عواد ، فاجدر بها ان تصلح لغيره من المغنين فيكون لمخارق ولي عهده .

الخلافه ، « وولاه عهده .

مصرته

قال البحتري : « دعبل بن علي اشعر عندي من مسلم بن الوليد ، لان كلام دعبل ادخل في كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه اشبه بمذهبهم . » والبحتري ينظر في ذلك الى طبيعة دعبل ، وصناعة استاذه . فذهب مسلم في الشعر مختلف ، فحيناً يسهل فيسيل عنوبة وطبعاً ، وحيناً يحزن فيغرب ، ويتكلف البديع فيفسد شعره ، ويبعد به عن مذاهب الاعراب . وغريب ان دعبلاً لم يتأثر استاذه الا من الناحية السهلة المطبوعة فلغتهما فيها اشبه من الماء بالماء . واما الناحية الثانية فقلما سلك دعبل اليها ، ولا نعرف له فيها غير قصيدة مدح بها الفضل بن مروان وزير المعتصم ، والترم في جميع قوافيها لفظة الفضل فجاءت غير مألوفة . في عصرها وان يكن التكلف اخذ يفسو فيه . ودعبل نفسه استعربها ، فقال فيها :

وَلَمْ أَرَأَيْتَا مَنْ أَلْشِعْرَ قَبْلَهَا ، جَمِيعُ قَوَافِيهَا عَلَى الْفَضْلِ وَالْفَضْلِ
ولا غرو ان يتعد دعبل عن التصنع ، ويأنس بكلام العرب الخالص ، فهو عربي النبعة لا اعجميها كاستاذه ، بدوي النزعة لا حضريها . وقضى حياته هارباً من وجه السلطان ، مستخفياً في الجبال والقفار ، فلم تملك نفسه زخارف الحضارة ومباهجها ، فظل شعره اقرب الى الطبع من شعر مسلم ، وادخل منه في كلام العرب الصريح . ويمتاز شعره في رشاقته ، وحسن انسجامه ، وطلاوته ، ووقع انغامه . فهو لطيف على غير ضعف ، قوي على غير خشونة . ولولا امعانه في هجاء الخلفاء ، واسرافه في سفاساف القول ، لكان من اسير الشعراء شعراً ، لسهولة الفاظه ووضوح معانيه . ولكنه افسد هذا الشعر بالفحش والاقذاع ، وشتم الملوك والامراء ، فاهمله الرواة بعد موته واخلوا ذكره .

على انه كان في حياته من اعظم الشعراء خطراً ، واخوفهم جانباً . فكان الناس يخشون شره ، ويتحامون اغضابه ، ويقطعون لسانه بالصلات استكفافاً لبلائه . روى ابو الفرج ان ديكاً لدعبل طار من داره الى دار جار له ، فاصطاده جاره وطعمه .

فعرف دعبل فهجاه ، فذاع الهجاء ، فخاف الجار ، فلم يدع ديكا ولا دجاجة قدر
 عليه الا اشتراه ، وبعث به الى دعبل ليسكت عنه . وقيل لابن الكلبي : « لو
 اخبرت الناس ان دعبلاً ليس من خزاعة . » فقال : « يا هذا أمثل دعبل تنفيه خزاعة
 والله لو كان من غيرها لرغبت فيه حتى تدعيه . دعبل ، والله يا اخي ، خزاعة كلها . »
 فهذه الروايات على علاقتها تشهد لدعبل بما كان له من مكانة في عصره . فخبث
 لسانه ، وعصبيته القحطانية ، وتشيعه لاهل البيت ، جعل منه هجاء مسافهاً ، وشاعراً
 قومياً ، ومحامياً حزبياً . فنزلته اذاً قائمة على شعره الهجائي ، ولا سيما السياسي منه .
 وهو يشبه بشاراً باقذاعه وفحشه ، وسلاطته على الاعراض ، ولكنه يفوقه خطراً
 لنسبته في خزاعة ، ولشيعته في العلويين .

الكتاب المولدون

العصر الاول

- ميزة النثر : تجديد النثر لفظاً ومعنى . التزيين . تنويع العبارة . الابداع والاطناب .
الفارسية واليونانية .
- لغة التخاطب : دب فيها الفساد . ظهور اللهجات العامية .
- انواع النثر : تعدد اغراض الرسائل . ظهور الكتب المصنفة . ضعف الخطابة .
- انشاء المترسلين . الاخوانيات . انشاء المصنفين .

مبزة النثر

لم يكن اثر امتزاج العرب بالاعاجم مقصوراً على لغة الشعر وحدها ، بل تعداها الى لغة النثر ، فجدد في الفاظها ومعانيها ، ونوع في فنونها واغراضها ، وذلك اوضاعها لاجاث ليس لها عهد بها . فبلغ الانشاء العربي ارقى درجات الفن والبلاغة ، وامتاز في سهولة العبارة ، ووضوح المعنى ، وحسن تخيّر الالفاظ وتزيينها . وذاع التسجيع القصير الفقرات ، فتكلفه المترسلون تكلفاً ، وقصدوا اليه قصداً ، ولكنهم لم يلتزموه التزاماً ، ولا انزلوه منزل السُخف والاسفاف .

وليس تزيين اللفظ من مواليد هذا العصر ، بل هو خدن الاداب العربية من ابعده عصورها . ولنا في انشاء القرآن شاهد على ذلك ، والقرآن اصدق صورة نتعرف بها طراز الانشاء القديم . ولكن التزيين في القرآن ، وفي رسائل الاسلاميين وخطبهم ، خال من التصنع ، جارٍ مع الطبع . فقد تجد السجع والموازنة ، وضروب الاستعارات والتشاييه ، وانواع البديع دون ان تشعر بالتكلف لها ، والتعمل في اصطناعها . وانما تبدو لك نازلة في منازلها ، ملبية داعي الحاجة اليها ، لا مضطربة ولا متقلقة .

وعلى الجملة فان كتاب العصر الاول العباسي وما يليه كانوا جده مقتصدين في تنميق الفاظهم وتحسينها ، يتعمدون ولا يرون الى الاسراف فيه سبيلاً . وانما هم يريدون تأدية المعنى الجميل في القالب الجميل ، فاذا غرقوا ، فخدمة وايضاحاً للمعنى الذي يقصدون . لذلك لم تكن المحسنات اللفظية من لزومياتهم بل كانت اكثر شيوعاً في الشعر منها في النثر . فعرفوا بتنويع العبارة وتشكيلها فمنها المسجعة ، ومنها المرسلّة . ومنها الكاسية ، ومنها العارية . ومنها الطويلة ، ومنها القصيرة . ومنها المردفة ، ومنها المفردة . وغلب عليهم الاطناب . فامنعوا فيه ، ولم يسلموا من الاملال . وجعلوا اللانحاز مقاماً ، ولكنهم لم يسلموا من الاخلال .

واكثروا من استعمال الالفاظ الدخيلة فغلبت الفارسية على الاشياء المادية من اسباب العمران ، كادوات المنزل واثائه ، والملابس والرياش ، والحلى والاطعمة ، والاشجار والازهار ، والصيد والكنص ، والات الغناء والطرب وغير ذلك . وغلبت اليونانية على العلوم العقلية كالفلسفة والطب والرياضيات وعلم الفلك ونحوها .

لغة التخاطب

هذا في النثر الفني ، واما لغة التخاطب فانه اخذ يدب فيها الفساد منذ العصر الاموي ، بسبب اختلاط العرب بالاعاجم وتراوجهم ونشوء جيل جديد غير صافي العروبة . ففسد اللحن على افواه العامة ، وفسدت مخارج الحروف ، وذاعت اللكنة والرطانة ، فاصبح زياد ابن ابية ، وهو من علمت فصاحته ، يستمع الى مولى له يخاطبه بقوله : « أهدي الينا همار وهش » يريد همار وحش . ولم يقتصر فساد اللفظ على العامة بل تعداه الى الخاصة ، فابو عطاء السبدي كان من محبدي الشعراء ، ولكنه لا يحسن اخراج الحروف . فاذا سئل : « كيف بصرک باللغز يا ابا عطاء ؟ » قال « هسن . » واذا الغزوا له بجرادة وزج وشيطان ، حل الغازهم ، ولكنه يقول : « زرادة ، وزز ، وسيتان » . ورووا عن بشر بن مروان انه قال ، وعنده عمر بن العزيز ، لغلام له : « ادع لي صالحاً . » فقال الغلام : « يا صالحاً . » فقال له بشر « ألق منها ألف . » فقال له عمر « وانت زد في ألفك ألفاً » ورووا ان اول لحن

سمع بالبادية : « هذه عصاتي ^١ . » واول لحن سمع بالعراق : « حيّ على الفلاح ^٢ . »
 وكان الامويون يستذكرون اللحن ويهجنونه ، وينعونه على اصحابه . قال عبد
 الملك بن مروان : « اللحن في المنطق اقبح من اثار الجدرى في الوجه . »
 فلما جاء العصر العباسي ، طمأ سبيل الاعاجم واندس بهم العرب ، فازدادت لغة
 التخاطب فساداً ، وتفاقم فيها اللحن ، وظهرت اللهجات العامية خليطة من العربية
 المشوهة ، والاعجمية الدخيلة ، فغلبت على الكلام الفصيح . ولم يسلم منها الا اهل
 الحيام من جزيرة العرب ، فقد لبثوا يتخاطبون باللغة الفصحى الى اواسط القرن الرابع
 للهجرة . فكان اذا اراد كاتب او شاعر حضري تقويم اعوجاج لسانه ، تبدى
 وخالطهم مدة ، حتى يقف على اساليبهم ومذاهبهم في الكلام . ثم اجتاحتهم العامية
 كما اجتاحت سائر الممالك العربية . فاصبح لكل بلد لهجة خاصة يتعادثون بها ،
 ولكنهم ترفعوا عنها في كتاباتهم ، فلم يدونوا اثارهم الا باللسان الفصيح .

انواع الشعر

كان الانشاء في العصر الاسلامي مقصوراً على الخطب ورسائل الدواوين .
 واذا تعداها فالى بعض المصنفات ، ولكنها لم تصل إلينا . فلما قامت الدولة العباسية ،
 وقامت معها الحضارة الجديدة ، وانتشرت الكتابة والقراءة ، وارتقى المستوى العقلي
 في المسلمين ، تنوعت اساليب الانشاء بتنوع العلوم والفنون . فتعددت اغراض الرسائل
 وطرائقها ، وظهرت الكتب المصنفة على اجاث شتى من علم وادب . ولكن الخطابة
 استولى عليها الضعف شيئاً فشيئاً ، وما زالت تتضاءل حتى تلاشت في اواسط العصر الثاني .

اسباب ضعف الخطابة

عرفنا كيف ازدهرت الخطابة في صدر الاسلام ، وما كان لها من منزلة سامية ،
 ومقام رفيع . على ان العوامل التي وفرت يومئذ لتقدم هذا الفن لم تتوفر له في اعصر

١ صوابها عصاي .

٢ صوابها حيّ بالبناء على الفتح .

المولدين لان الشعب العباسي الحاميط لم يكن له ما كان للعرب العرباء من فصاحة فطرية ، وبراعة التصرف في ضروب الكلام . فشيوع اللحن واللهجات العامية بينهم ، جعل حظهم قليلاً من سهولة النطق بالكلام الفصيح . ثم ان العنصر العربي الخالص اخذ يعود الى موطنه الاولى بعد ما رأى من نفاذ العنصر الاعجمي وتسلطه عليه . وابتى ان يخضع لقواد من الفرس ، فنفر من التجند ، واصبح معظم الجيش من الموالي ، فاضمحلت الخطب العسكرية ، وبات الاقناع للسيف لا للسان .

ولم تكن الخطب السياسية اوفر حظاً من الخطب العسكرية ، لان الاحزاب اضعف شأنها ، وخضعت شوكتها بالحروب والتقتيل . وضرب العباسيون بايديهم على حرية الافراد والجماعات ، فجعلوا بينهم وبين سياسة العرش حداً مصوناً . وصار الولاة والامراء اذا عصاهم بلد ، او فتق بينهم خارجي ، اوقعوا به ولم يعتمدوا على البيان في قمع شره .

واما الخطب الدينية فلا غنية عنها في الجمع والاعياد ، ولكن قل فيها الارتجال . ثم جعل لها صور خاصة لا تتبدل ، فاصبحت تحفظ وتردد في كل موسم وحفل . على انه عرف في هذا العصر جماعة من الخطباء المحسنين ، واخطبهم مخضرمو الدولتين كخالد بن صفوان خطيب بني تميم ، وشبيب بن شنية المنقري خطيب البصرة ، واشتهر من الخلفاء المنصور والمأمون .

انساب المترسلين

كان عبد الحميد بن يحيى اول من وضع الرسائل اصولها ، وميز فصولها ، واطنب في بعض شؤونها واسهب ، واجمل في بعضها الآخر ، واوزر ، واطال التحميدات في صدورها . وجعل لها استهلالات ، يفتتحها بها ، وذيولاً يختمها بها . فترسم الكتاب خطاه ، واقتفروا معالمه . حتى اذا اطمان الملك في بني العباس ، وانشئت له الدواوين ووضعت له الانظمة ، تعددت اغراض الرسائل بتعدد الاعمال . وقامت معها الاخوانيات على انواع مختلفة فمن عتاب وشكوى . الى تهنئة وشكر . الى تغزية ورتاء . الى استغاثة واستعطاف . الى ذم ووعيد فافتن المترسلون فيها وابدعوا ، ونفقوا عباراتها

وزخرفوا ، واطالوا فيها واوجزوا . وغلب الاطناب عليهم في العهود السياسية ،
والمناظرات ، ووصف الانتصارات وغير ذلك مما ينبغي ايضاحه وتقريره في اذهان
العوام . ولك مثال على هذا عهد طاهر بن الحسين الى ابنه عبدالله ، ورسالة الحميس
من الخليفة المأمون الى مبايعيه اهل خراسان ، ففيهما من الاطناب شيء كثير . وغلب
الايجاز عليهم في الاخوانيات ، وبلغوا به حد السرف في التوقيعات^١ فوقعوا احياناً
في الغموض .

ويبدأون رسائلهم غالباً بقولهم : « الحمد لله . » او « اما بعد فالحمد لله . »
وهذه طريقة عبد الحميد . وربما ابتدأوا بالبسملة واددوها بالدعاء كقول سهل بن
هرون في رسالة البخل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اصلح الله امركم وجمع شملكم . »
ومن ابتداءاتهم قولهم : « اما بعد . » دون ان يعقبها دعاء او حمدلة . وقولهم :
« كتابي اليك . » ويتبعونها الدعاء او لا يتبعونها اياه .

واذا استهلوا بالحمدلة تابعوا التحميد ، فيطيلونه اذ يقصرونه . فمن تحميداتهم
قول المأمون في رسالة الحميس : « اما بعد فالحمد لله القادر القاهر ، الباعث الوارث ،
ذي العز والسلطان ، والنور والبرهان ، فاطر السموات والارض وما بينهما ، والمتقدم
بالمَن والطول على اهلها . قبل استحقاقهم لمثوبته . بالمحافظة على شرائع طاعته ،
الذي جعل ما اودع عبادته من نعمته ، دليلاً هادياً لهم الى معرفته الخ . »

ويكثر في رسائلهم ، الاستشهاد بآيات القرآن ، ثم بالاحاديث والامثال ، واقوال
الحكماء والعظماء . وربما تخللها الدعاء في جمل اعتراضية : كقول احمد بن يوسف وزير
المأمون : « ونحن نسأل الله عز وجل الذي جمع بامير المؤمنين -- مد الله في عمره --
ألفتنا . . . الخ »

ويختتمون غالباً بقولهم : « والسلام . » او « والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . »
او « ان شاء الله . » وقد يطول الدعاء في الختام اذا كان الكتاب الى خليفة او امير ،

١ هي ما يجيب به الخليفة او الامير على الكتب التي ترفع اليه ، فيكتبه في اسفلها بعبارة
موجزة تؤثر عنه ، والتواقيع تكون غالباً اقتباساً من آية او حديث او حكمة او مثل ،
وشاعت عند العرب في ايام الخلفاء الراشدين .

او من خليفة او امير الى رعيته . فلا يلتزم في نهايته ما يلتزم في غيره من السلام ، وربما ختم بآية كقول احمد بن يوسف : « ونحن نسأل الله عز وجل الذي جمع بأمر المؤمنين - مد الله في عمره - ألقنا ، وعلى طاعته اهواءنا وضماثرنا . وانا لنا من الغبطة في دولته وسلطانه ، ما لم تحو شيعه إمام ، ولا انصار خليفة ، ان يتم نور امير المؤمنين ، ويعلي كعبه ، ويعتقنا ببقائه ، حتى يبلغه سؤله وهمته في الاستكثار من البر وادخار الأجر ، واستيجاب الحمد والشكر . وان يلهم به الشعث ، ويرأب به الصدع ، ويصلح على يديه الفساد ، ويرتق به فتوق هذه الامة ، ويشخن بسياسته ونكايته في عدوها . ويتابع الفتوح في بلدانهم حتى يؤتية من نجح السعي ، ورغائب الحظ في الدنيا ، ما يجزل عليه ثوابه في الآخرة . وارشد نجبائه واصفياءه الذين يقول لهم : « فأتاهم لله ثواب الدنيا وحسن الآخرة ، والله يحب المحسنين . »

وقمتاز رسائلهم في حسن اتساقها ، وترتيب افكارها ، وشرف الفاظها ومعانيها ، وهي في اكثرها انشائية خطابية ، لا خبرية قصصية . والمتراسلون كثير عددهم ، منهم الملوك والامراء والوزراء والمتصلون بهم . فمن الملوك المنصور والمأمون و ابراهيم بن المهدي . ومن الامراء طاهر بن الحسين وابو دلف . ومن الوزراء يحيى البرمكي وابنه جعفر ، وذو الرئاستين الفضل بن سهل ، واحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة^١ وابن الزيات . ومن المتصلين بالامراء عبدالله بن المقفع . واليك مثالا من اخوانياتهم :

كتب عمرو بن مسعدة الى الحسن بن سهل يهنئه بمولود : « اما بعد ، فان هبة الله لك هبة لأمر المؤمنين ، وزيادته إياك في عدده ، لمحكك عنده ، ومكانك في دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين ان الله وهب لك علماً سرياً^٢ فبارك الله لك فيه ، وجعله باراً تقياً ، مباركاً سعيداً زكياً . »

وكتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية : « بارك الله لك في الابنة

١ كاتب يضرب به ويجعفر البرمكي المثل في الایجاز ، وكان وزيراً للمأمون .

٢ سرياً : سيداً شريفاً .

المستفادة، وجعلها لكم زينة، واجرى لكم بها خيراً. فلا تكرهها، فانهم الامهات والاخوات، والعمات والحالات، ومنهن الباقيات الصالحات. ورب غلام ساء اهله بعد مسرتهم. ورب جارية فرحت اهلهما بعد مسامتتهم. «
ودونك شيئاً من توقيعات الملوك والامراء :

رفع الى جعفر البرمكي غلمانه ورقة يستزيدونه في روايتهم^١. وكان عمرو ابن مسعدة يوقع بين يديه، فرمى بها اليه وقال : « اجب عنها . » فكتب : « قليل دائم خير من كثير منقطع . » فضرب جعفر على ظهر عمرو وقال : « اي وزير في جلدك . » وشكا اهل الكوفة الى ابي جعفر المنصور سوء معاملته عاملهم فوقع في كتابهم : « كما تكونون يؤمر عليكم . » ووقع هرون الرشيد الى عامل مصر في خراسان : « داو جرحك لا يتسع . » ووقع جعفر البرمكي في كتاب جاءه في شكوى بعض عماله : « لقد كثرت شاكوك . وقل شاكروك ، فاما اعتدلت ، واما اعتزلت . » ووقع الى محبوب يسأله العفو : « والكل اجل كتاب . »

انشاء المصنفين

ان هذا العصر ، لا جرم ، يعتبر مثلاً للنشاط الفكري . فقد عم فيه التدوين والتأليف والجمع والنقل ، فتكاثر الكتب المصنفة ، واختافت اساليبها باختلاف موضوعاتها . وكان انشاء الكتب الادبية على الاجمال بليغاً فنياً ، واضحاً طلياً . وكان انشاء الكتب العلمية والفلسفية عادياً لا يخلو من ضعف ، جافاً لا يخلو من غموض . وهذا لا نعول عليه في دراستنا للنثر العباسي ، وانما معولنا على الاول ذاك الذي ظهر فيه اسلوب ابن المقفع وسهل بن هرون^٢ والجاحظ .

- ١ روايتهم : وظائفهم وهي ما يتدبر من عمل وطعام ورزق مفردها راتب وراتبة .
- ٢ سهل بن هرون ، من ابناء الفرس ، وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) في عهد المأمون . ويقال ان طريقته في الكتابة طريقة علي بن ابي طالب لا يتكلف لكلامه ، فلا يشاهد فيه الناقذ اثر التعمل ، فهو وابن المقفع والجاحظ على غرار واحد . وعنده الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب ، والرسائل القصار والطوال ، والكتب الكبار

ونحن نجتزئ الان بدرس ابن المقفع لانه اقدم كاتب بليغ وصلت اليها مؤلفاته، فكانت في اسلوبها قدوة للمنشئين من بعده . وزجى دراسة الجاحظ الى العصر التالي مجارة لنظام البكالوريا اللبنانية، وان يكن عاش اكثر عمره في هذا العصر . واما سهل بن هرون فلم يصل اليها شي من كتبه التي اشتهر بها، فنستطيع الكلام عليه .

١١١

المجلدة ، والسير الحسن المولدة والاخبار المدونة . وذكره ابن النديم في البلغاء وقال : « انه شاعر مقل » وعده في الشعراء الكتاب ، وقال : « انه كان ممن يعمل الاسمار والخرافات على السنة الناس والطير والبهائم هو وعبد الله بن المقفع وعلي بن داود كاتب زبيدة . » وله اثار كثيرة بين شعر ونثر ، واهمها مؤلفاته النفيسة ككتاب ثعلمة وعفرة على مثال كتاب كليلة ودمنة ، قلده في ابوابه وامثاله . قال المسعودي : « انه يزيد على كتاب كليلة ودمنة بحسن نظمه . » وقد صنفه للمأمون . وله كتاب النمر والثعلب ، وكتاب اسد ابن اسد ، وكتاب سجرة العقل وكتاب اسباسيوس في اتخاذ الاخوان وكتاب البخلاء حسن فيه البخل وبين فوائده ، وكان سهل مبغلاً . وله غير ذلك من المصنفات المدهشة التي لم تبق لنا الايام منها الا اجماعها .

ابن المقفع

٧٢٤ - ٧٥٩ م و ١٠٦ - ١٤٢ هـ

- حياته : نشأته • اتصاله بالعباسيين • موته • صفاته و اخلاقه • زندقته • اسانذوه وعلومه • اثاره : كليمه ودمنه • الادب الصغير • الادب الكبير • فقر حكيمية ورسائل و تحميدات و شعر قليل .
- ميزته : كليمه ودمنه • ابوابه و اغراضه • دمنه • تهذيب النفس و الارشاد الى حسن السياسة • و حسن اختيار الاصحاب • الروح الاسلامية • اسلوبه الانشائي • سرد الحكايات على اقواء الحيوانات • ضرب الامثال • اقوال حكيمية و نصائح و مواعظ • الخاصة الرياضية الفيشاغورية • القياسات • الادب الصغير : دروس اخلاقية اجتماعية • الادب الكبير : قسمان ، الاول في الولاة و المتصلين بهم • الثاني في الصديق • منزلته : مسهب • السهل المتنوع • يجري مع الطمع • متنوع العبارة • قوي المنطق • اعجمي التفكير •

حياته

هو في مجوسيته رُوْزْبَةُ بن دَاوَوِيَه المَقْفَع، وكنيته ابو عمرو . وفي اسلامه عبد الله، وكنيته ابو محمد . ولقب والده بالمقفع لانه كان يتولى خراج فارس، فاختلس من مال الدولة، فضربه امير العراقيين^١ على يده حتى تقفعت^٢ يده .

والمقفع فارسي الاصل نشأ نشأة عربية في الاهواز^٣، ولكنه لم يُسلم بل مات

١ ذكر ابن النديم ان الامير الذي ولاه الخراج وعذبه هو الحجاج بن يوسف . وذكر ذلك ابن خلكان ثم قال : « قيل بل ولاه خالد بن عبد الله القسري، وعذبه يوسف بن عمر الثقفي لما تولى العراق بعد خالد » . وكلاهما توليا العراقيين من قبل هشام بن عبد الملك . وخلافته من سنة ١٠٥ - ١٢٥ هـ والحجاج توفي سنة ٩٥ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك .

٢ تقفعت : تشنجت

٣ الاهواز ويقال لها خُوْزِسْتَان : ولاية فارسية اقبل عليها العرب فاستوطنوها لخصب ارضها وقربها من البصرة، ولا تزال العناصر العربية غالبية على اهلها .

على مجوسيته ، وكان له ولاء في آل الاهتم ، وهم اهل فصاحة وبيان . ووُلِد ابنه رُوْزْبَة ، ونشأ في البصرة مجوسياً مستعرباً مثله . والبصرة يومئذ كعبة العلم والادب ، وفيها المِرْبَد عكاظ الاسلام . فلما مات المقفع اخذ الولد يتكسب بصناعة والده ، فكتب وهو في العشرين من سنه ، او نيّف عليها ، لداود بن هُبَيْرَة . وابو داود هو يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة والي العراقين من قبل مروان بن محمد آخر خلفاء امية . ولما انتقل الملك الى العباسيين ، اتصل ابن المقفع بسليمان وعيسى و اسماعيل ابناء علي بن عبدالله بن عباس ، و اعمام السّفاح والمنصور . فكتب لعيسى ايام ولايته على كِسْرَمَان وجعله اسماعيل والي الاهواز ثم الموصل مؤدباً لبعض بنيهِ . ثم كتب لسليمان وهو امير على البصرة ، وترجم المنصور في اثناء ذلك عدة كتب ، ولكنه لم يتصل به ، بل لبث منقطعاً الى اعمامه حتى مات .

صورته

كان عبدالله بن علي عم المنصور والياً على الشام ، فخرج علي ابن اخيه سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤ م) وطلب الخلافة لنفسه . فأرسل عليه المنصور جيشاً مقدّمه ابو مسلم الخراساني ، فانتصر ابو مسلم . وهرب عبدالله الى البصرة ، ونزل على اخيه سليمان ، واستتر عنده . ثم ان المنصور عزل سليمان عن البصرة سنة ١٣٩ هـ (٧٥٦ م) ، وولى مكانه سُفْيَان بن مُعَاوِيَة من آل المُهَلَّب .

ولبث عبدالله محتفياً عند اخويه سليمان وعيسى . فطلبه المنصور منها ، فايها تسليمه إلا بامان يُعْلِيَان شروطه ، فوُضِيَ المنصور بذلك . فمقدّم الى كاتبها ابن المقفع بان يكتب الامان ، ويبالغ فيه كي لا يغدر المنصور بعمه . فكتبه ابن المقفع ، وشدد فيه حتى قال في جملة فصوله : « ومتى غدر امير المؤمنين بعمه عبدالله بن علي ، فנסاؤه طوالتي ، ودوابه حُجَس ' ، وعبيده احرار ، والمسلمون في حلٍّ من بيعته . »

١ حبس : موقوفة في سبيل الله لا يحق له استعمالها لمنفته .

٢ لم يزل الامسان دون غدر المنصور بعمه ، فقد قتله شر قتلة . قيل جعله في بيت اساسه ملح واجرى عليه الماء فسقط عليه ومات .

فعظم ذلك على المنصور ، ولاسيا امر البيعة ، وغضب على ابن المقفع ، فاوعز بقتله الى سفيان بن معاوية والي البصرة .

وكان سفيان شديد الحنق على ابن المقفع ، لان كاتبنا غيظ من توليه البصرة مكان سليمان بن علي ، فراح يستخف به ، ويتنادر عليه ، وينال من امه . فقد سمعه مرة يقول : « ما ندمت على سكوتي قط » فقال له : « الحرس زين لك ، فكيف تندم عليه . » وكان انف سفيان كبيراً ، فكان ابن المقفع اذا دخل عليه قال : « السلام عليكما . » يعني سفيان وانفه .

فلما جاءه كتاب المنصور يامر بقتله تربص به حتى دخل عليه يوماً ، فامسكه وامر به فقتل . واختلف في طريقة قتله ف قيل انه التي في بئر ، وردمت عليه الحجارة . وقيل ادخل حماماً واغلق عليه بابه فاختنق . وقيل بل قطعت اطرافه عضواً عضواً ، ثم التي في تنور وأطبق عليه .

وكيف كان الامر فان ابن المقفع دخل دار سفيان ولم يخرج منها . فبلغ الخبر سليمان وعيسى ابني علي ، فخاصما سفيان الى المنصور ، واحضراه اليه مقيداً . وشهد اناس ان ابن المقفع دخل داره ولم يخرج منها ، فقال المنصور للشهود : « ارايتم ان قتل سفيان به . ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت (و اشار الى باب خلفه .) و خاطبكم ، ما تروني صانعاً بكم . افاقتلكم بسفيان ؟ » فخاف الشهود ورجعوا عن الشهادة ، واضرب عيسى وسليمان عن ذكره ، وعلموا انه قتل برضى المنصور .

وذكروا ان من اسباب قتله اتهمه بالزندقة ، ومعارضة القرآن ، وترجمة كتب الزنادقة . ومات وله من العمر ست وثلاثون سنة ، وخلف ولداً اسمه محمد .

صفاته واهله

وصفه الجاحظ فقال فيه : « كان جواداً فارساً جميلاً . » وعُرف بالرواة وكرم الخلق ، والوفاء للاصحاب . وكان يقول : « ابذل لصديقك دمك ومالك . » ولم يحجم عن تحقيق هذا القول يوم طلب صديقه عبد الحميد بن يحيى بعد مقتل مروان بن

محمد ، فاجأ اليه في البحرين . وفاجأهما الطلب وهما في بيت واحد ، فقال لهما الجند : « أيكما عبد الحميد ؟ » فقال ابن المقفع : « انا » مؤثراً صاحبه على نفسه . وهم الجند بالقبض عليه . فصاح عبد الحميد : « ترفقوا بنا ، فان كلاً منا له علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ، وليمض البعض الآخر ، ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم . » ففعلوا ، وأخذ عبد الحميد وقيل ، ونجا ابن المقفع على كره منه .

وعرف أيضاً بسهولة الطبع على رصانة ، وبالتعفف ، والابتعاد من الكذب والحسد . على ان حبه للادب والادباء وتزوجه للزندقة جعلاه لا يستنكف من مصاحبة جماعة من الخلفاء كمطيع بن اياس ، وحماد عجرد ، وبشار بن برد ، ووالبة بن الجباب واضرابهم . فكانوا يجتمعون على الشراب وقول الشعر ، وكلهم متهم في دينه . ولكنه اذا لها وشرب لم تكن الخمر لتقوده الى الاثم ، وتنزل به في المنازل الدنية . وفي ذلك يقول :

سَأَشْرَبُ ، مَا شَرَبْتُ عَلَى طَعَامِي ، ثَلَاثًا ، ثُمَّ أَتْرُكُهُ صَحِيحًا ،

فَلَسْتُ بِقَارِفٍ مِنْهُ إِنَّمَا ، وَلَسْتُ بِرَأِيبٍ مِنْهُ قَسِيحًا .

وكان يحب الغناء ، ويهتد للصوت الحسن . فقد غنته يوماً جارية وليس لديه دراهم ، فجاء بصك ضيعة له . وقال : « هذه عهدة ضيعتي خذيها ، فاما الدراهم فما عندي منها شيء . »

وكان على سهولة طبعه ورصانته حاد اللسان ، شديد السخر بمن لا يبالأ عينه فعله بسفيان بن معاوية .

زُندَرَقَةُ

اذا شئت ان تلمس زندقة ابن المقفع في ما خلف لنا من الآثار ، فانا انت تتعب على غير طائل . لان آثاره الباقية ليس فيها الاكل ما يتلأم مع الاسلام ، ولا ينافي

١ قوله : ثم اتركه اي اترك الشراب ، دل عليه قوله ساشرب . وقوله صحيحاً : اي صحيح العقل والعرض .

٢ قارف : مرفكب . الإثم والاثم واحد .

احكامه . ولكن ابن المقفع زنديق في حكم المؤرخين المتقدمين ، وهم يروون على ذلك اخباراً شتى ، منها انه يوم اراد ان يدين بالاسلام جاء الى عيسى بن علي وقال له : « قد دخل الاسلام في قلبي ، واريد ان اسلم على يدك . » فقال له عيسى : « ليكن ذلك بحضور من القواد ووجوه الناس ، فاذا كان الغد فاحضر . » ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم ، فجلس ابن المقفع يأكل وي زمزم^١ على عادة المجوس . فقال له عيسى : « اترزمز وانت على عزم الاسلام ؟ » فقال : « اكره ان ابيت على غير دين . » ومنها انه مر ببית نار للمجوس بعد ان اسلم ، فتمثل بقول الأَحْوَص :

يَا بَيْتَ عَاتِكَةِ الَّذِي أَتَعَزَّلُ ، حَذَرَ الْعِدَى ، وَبِكَ الْفَوَادُ مَوْكَلُ^٢
إِنِّي لَا مَنَحَكَ الصُّدُودَ ، وَإِنِّي ، قَسَمًا ، إِلَيْكَ ، مَعَ الصُّدُودِ ، لَا مَمِيلُ^٣
وروا ان سفيان لما قتله ومثله به ، قال : « ليس علي في هذه المثلة بك حرج لانك زنديق ، وقد افسدت الناس . » وان المهدي كان يقول : « ما وجدت كتاب زندقة الا واصله ابن المقفع . » وذكروا انه عارض القرآن وصاحب المتهمين في دينهم . فمن هنا يتضح ان زندقة ابن المقفع لا تقوم على دليل من آثاره ، وانما تقوم على اقوال الرواة والمؤرخين . على انه غير عجيب ان يكون ابن المقفع زنديقاً وهو حديث العهد بالاسلام ، لم يزل يحن الى ديانته الاولى ، تلك التي نشأ عليها ، وانتحلها معظم حياته . وهو لم يسلم الا حفاظاً على كرامته ، وطمعاً في الشهرة والجاه ، وتقرباً الى مواليه العباسيين .

غير ان اعداءه عجزوا عن اثبات زندقته ، لانه اعتصم بالتقية فلم يجاهر بكفره ، ولعله كان يتنصل من الكتب التي بث فيها اراء الزنادقة ، وطُمس فلم تصل اليها . ولو استطاعوا اثبات زندقته لما عمد المنصور الى اغتياله سرّاً بل كان مثله على رؤوس الاشهاد .

-
- ١ يززمز : يصلي صلاة المجوس على الطعام ، وهي ان يتراطنوا على اكلهم وهم صموت لا يستعملون لساناً ولا شفة ، ولكنه صوت يديرونه في خياشيمهم وحلقهم .
٢ اتعزّل : اتحنى عنه وابتعد . عاتكة : علم امرأة .
٣ المثلة : العقوبة والتنكيل .

لم يعرف من استاذي ابن المقفع الا واحد ذكره ابن النديم، وهو ابو الجاهلوس
ثور بن يزيد . وكان اعرابياً يفقد البصرة على آل سليمان بن علي ، وعنه اخذ ابن
المقفع الفصاحة .

ونشأ ابن المقفع في البصرة على ما ينشأ عليه ابناء اليسار ، فغني والده بتعليمه
وتقويم لسانه على الكلام الفصيح . فبرع في العربية والفارسية ، وتضلع من آدابهما .
واطلع على حكمة اليونان في الكتب التي ترجمت الى لغة الفرس زمن كسرى
انوشروان ، فجمع بين ثقافتي العرب والعجم .

« واولي ابن المقفع من الذكاء ما جعله واحد زمانه في بلاغته وعلمه ، وقد قال فيه
ابن سلام : « سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة اذكى من
الحليل بن احمد ولا اجمع . ولا كان في العجم اذكى من ابن المقفع ولا اجمع » .
وعده ابن النديم احد بلغاء الناس العشرة ، وذكره في مقدمتهم . وقرله الجاحظ
بالتقدم فقال : « ومن المعلمين ثم البلغاء المتقدمين عبدالله بن المقفع . كان مقدماً في بلاغة
اللسان والقلم والترجمة ، واختراع المعاني ، وابتداع السيرة . وكان اذا شاء ان يقول
الشعر قاله . »

اماره

كان عصر ابن المقفع عصر نقل في اكثره لرغبة اولي الامر في الاطلاع على علوم
الاعاجم والاستفادة منها . وكان ابن المقفع مالكا ناصيتي العربية والفارسية فاحب
ان يري العرب اداب قومه ، ويتقرب بها الى ذوي السلطان . فاكتب على النقل ،
فاتحفت العربية بطائفة من الكتب النفيسة ، ولم يصل اليها الا بعضها فكان اعظم
شاهد على جلالتها .

وليس لابن المقفع من الكتب الا ما هو منقول من الفارسية ، فله فيه فضل

اجمع : اي اجمع للعلوم .

المترجم البارع، لا فضل المؤلف المخترع . ولذلك كان الحليل بن احمد يقول فيه :
« علمه اكثر من عقله » .

على ان هذا القول لا يعني ان ابن المقفع كان ضعيف التوليد ، فهو كما علمت ،
اذ كى اعجمي عرفته العرب . ولكنه كان مفتوناً باداب قومه وعلومهم ، فصرف
همته الى نقلها ليمهر العرب بها . على انه لم يتقيد باصول الكتب التي ترجمها بل تصرف
فيها فزاد عليها اشياء وانقص منها اشياء . وكان الذي زاده من توليده واختراعه .
واثاره في الترجمة كثيرة نكتفي بذكر ما وصل الينا منها . وهي كليلة ودمنة .
والادب الصغير . والادب الكبير .

فاما كليلة ودمنة فانه اقدم كتاب عربي في الاخلاق وتهذيب النفس . وضعه
بيدبا الفيلسوف الهندي لبشليم ملك الهند منذ عشرين قرناً ونيقاً . وكان دبشليم قد
صعد الى العرش بعد فتح الاسكندر (٣٢٦ ق . م) ، فطغى على الرعية ، فاراد بيدبا
اصلاحه . فالف هذا الكتاب واستتمه في مدة سنة ، وجعل النصيح فيه على افواه البهايم
والطيور . ويرى جرجي زيدان ان الداعي الى ذلك هو ان البراهمة يعتقدون تناسخ
الارواح . هذا ، وان اصلاح الملوك البغاة على سبيل الحكايات والاشارات اسلم عقبي
من محاولة اصلاحهم باظهار هفواتهم ، ونهيبهم عن الوقوع بها . لان فيهم من الكبر
والعتو ما يأبى عليهم ان يُظهروا لهم احد خطاهم وينهاهم عنه .

وكتب بيدبا كليلة ودمنة باللغة الهندية السنسكريتية ، وبوبه اربعة عشر باباً .
اولها باب الاسد والثور .

فلما صار عرش الفرس الى كسرى انوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) بعث الطبيب
برزويه بن أزره الفارسي الى بلاد الهند ، فنقل الكتاب من السنسكريتية الى الفهلوية .
ومنها نقله عبدالله بن المقفع الى العربي . وصدر الاصل الهندي بمقدمات فارسية
وعربية ، والحقت به في بعض النسخ ابواب ليست منه .

وشغف العرب به عند ظهوره ، فقام منهم من نقله ثانية من الفارسية ، وهو

عبدالله بن هلال الاهوازي ، نقله ليحيى البرمكي في خلافة المهدي ولكن ترجمته ضاعت وعارضه سهل بن هرون احد كتاب المأمون بكتاب سماه ثعلة وعفوة وضاع ايضاً . وتصدى جماعة من الشعراء لنظمه ، اولهم ابو سهل الفضل بن ثوبخت من خدم المنصور والمهدي ، ثم أبان بن عبد الحميد اللاحقي نظمته للبرامكة . ثم علي بن داود كاتب زبيدة زوج الرشيد . ونظمه بشر بن المعتمد . وكل هذه المنظومات فقدت الا منظومة ابان فقد بقي منها قطعة حسنة في كتاب الاوراق للصولي .

ونظمه ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤هـ (١١١٠م) وسماه نتائج الفطنة في نظم كلىة ودمنة ، وهو مطبوع . ونظمه ابن ممتي المصري المتوفى سنة ٦٠٦هـ (١٢٠٩م) وضاع نظمته . ثم نظم منه اقساماً عبد المؤمن بن الحسن من رجال القرن السابع للهجرة . ونظمه جلال الدين النقاش من اهل القرن التاسع الهجري ، والنظامان غير مطبوعين . واما الادب الصغير والادب الكبير فكتابان في الحكمة والاخلاق والسياسة والاجتماع والنصائح ، وكلاهما مطبوع .

ومن اثار ابن المقفع الباقية فقر حكمية ، ورسائل متفرقة وتحميدات جمعها محمد كرد علي في كتابه رسائل البلغاء . وله شعر قليل .

مصرته

لم تقم ميزة ابن المقفع الا على كتابه الخالد كلىة ودمنة ، ففي هذا الكتاب يتجلى اسلوبه البديع الذي رفع به مستوى النثر العربي الى اعلى درجات الفن واشرفها . فعلى هذا الكتاب نعول في درس ابن المقفع ، واطهار اسلوبه . ولكن لا غنية لنا عن ان نلم بالادبين الصغير والكبير لنتبين خصائص الكتاب في شتى المواضيع ومختلف الاتجاهات .

كلىة ودمنة — ابوابه واغراضه

سمي هذا الكتاب كلىة ودمنة من باب تسمية الكل باسم الجزء . لان خبر طبع الادب الكبير خطأ باسم الدرة اليتيمة ؛ والدرة اليتيمة من اثار ابن المقفع ولكنها مفقودة .

كليفة ودمنة لا يتناول غير باين من ابوابه ، وهما باب الاسد والثور وباب الفحص عن امر دمنة .

وكليفة ودمنة اخوان من بنات آوى ، جعلت قصتهما مثلاً على المتحابين يقطع بينهما الكذب المحتال . ومدارها ان دمنة سعى بالفتنة بين الاسد ملك الوحوش ، والثور جليسه وصديقه . فافسد فيما بينهما ولم يصنع لنصائح اخيه كليفة . فقتل الاسد الثور ثم تبين له انه بريء مما اتهم به ، فقبض على دمنة وحبسه . وفي باب الفحص عن امر دمنة يمثل المتهم في حضرة القاضي ، ويرد على اقوال خصومه ، ويدافع عن نفسه رابط الجأش . ثم يثبت عليه الجرم بشهادة شاهدين فيقتل ويصلب على رؤوس الاشهاد . واما كليفة فانه يموت من حزنه في اثناء الفحص عن امر اخيه .

وترى في دمنة مثال الداهية المحتال ، والحسود الطماع الذي يستهين كل كبيرة لبلوغ ما يشتهي من الرفعة والمال . وترى في كليفة مثال المخلص الوفي للاصحاب ، والفتور الرضي الاخلاق ، والحكيم البصير بالامور ، الذي يحب السلامة ، ويخشى مصاحبة السلطان ويحاذر بطشه وصولته .

واما بقية الابواب فكل باب منها قائم بنفسه . ولكنها ترمي الى غاية واحدة وهي تهذيب النفس ، والارشاد الى حسن السياسة ، وحسن اختيار الاصحاب . فالباب الاول مقدمة الكتاب لبهنود بن سحوان المعروف بعلي بن الشاه الفارسي ، ذكر فيها السبب الذي من اجله وضع بيدبا هذا الكتاب لدبشليم الملك . والباب الثاني بعثة برزويه الى بلاد الهند لنقل الكتاب . والباب الثالث عرض الكتاب لابن المقفع وبه يشتد في تنبيه قارىء كتابه على « ان يديم النظر فيه من غير ضجر ، ويلتمس جواهر معانيه . ولا يظن ان نتيجته انما هي الاخبار عن حيلة بهيمتين ، او محاوره سبع لثور ، فينصرف بذلك عن الغرض المقصود . » فكان الكاتب ، وقد حمل الى العرب ادباً جديداً لم يتعودوه ، خشي ان يلهثوا بقشوره دون لبابه ، فلا يروا فيه غير التفكه باحاديث البهائم والطيور ، فحضرهم على تفهمه ، وادراك معانيه .

وفي هذا الباب يقسم الكتاب الى اربعة اغراض : « احدها ما قصد فيه الى وضعه

على السنة البهائم غير الناطقة من مسارعة اهل الهزل من الشبان الى قراءته ، فستال
 به قلوبهم ، لان هذا هو الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات . والثاني اظهار خيالات
 الحيوانات بصنوف الاصباغ والالوان ليكون أنساً لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم
 عليه اشد ، للزينة في تلك الصور . والثالث ان يكون على هذه الصفة فيتمتع الملوك
 والسوقة فيكثر بذلك انتساخه ، ولا يبطل فيخلق على مرور الايام . ولينتفع بذلك
 المصور والناسخ ابدأ . والغرض الرابع ، وهو الاقصى ، مخصوص بالفيلسوف خاصة .
 فيتبين من ذلك ان الكتاب كان ذا صور في الاصل ، وان ابن المقفع كان
 يروج خلوده في نوادره ، وصوره واصباغه والوانه ، ولم يخطر له يومئذ ان الخلود
 مكتوب على بلاغة انشائه .

واما الباب الرابع وهو برزويه الطيب ، لبزرجيه بن البختكان وزير
 كسرى ، فقد ذكر فيه فضل برزويه ، ونسبه وحسبه وصناعاته وادبه وكيف كان
 امره . وذكر بعثته الى الهند ، وجعله قبل باب الاسد والثور ، وجعل الكلام فيه على
 لسان برزويه الطيب . واكثر هذا الباب الجاث وتعاير طيبة ، وهو يدل على حكمة
 الطيب ، وبصره في الامور ، وخوفه من الدنيا ، وميله الى الزهد فيها . فهذه الابواب
 الاربعة هي المقدمات الفارسية والعربية للاصل الهندي . فيكون مجموع الابواب
 معها ثمانية عشر باباً تشتمل على كثير من الحكم والامثال والمواعظ ، ويمكن
 تلخيصها بانها تدعو الى النسك والزهد بما فيها من اخبار النساك والامثال عنهم .
 وتأمّر بالتقوى والنظر الى الآخرة اكثر من النظر الى الاولى . وتوصي بالمشورة وقلة
 الكلام ، ومداراة السلطان ونصحه وارشاده بضرب الامثال ، وتحديثه عن عيوب
 غيره فيعرف عيبه ، ولا يجد الى الغضب على مؤدبه سبيلاً . وتحث على الشهامة والجود
 والرحمة والعفو والحلم ، وتقري بالشجاعة والاقدام ، والصدقة والوفاء للاصحاب .
 وترين الحزم والصبر والقناعة ، وتنهي عن الحسد والاحتيال والنميمة ، والطمع
 والشراسة والظلم والبغي وكلام السوء . وتدعو الى الابتعاد عن جماع كلام الساعي
 والنمام . وتبين وخامة عاقبة الاشرار ، ومنافع الاصحاب ، ومضار الهمال والغفلة ،
 وآفة التعجيل وقلة الروية .

والروح الاسلامية مبثوثة في تضاعيف فصولها مما يدل على ان ابن المقفع تصرف في الاصل فجعله ملائماً لاهل عصره . وهذا الذي جعل بعضهم يشكون في ان الكتاب مترجم ، وزعموا انه من وضع ابن المقفع ، وان الكاتب ادعى ترجمته لما كان للنقل من الميزة الرفيعة في زمانه . وضاعف شكهم ما رأوا في الكتاب من وحدة التأليف بين الابواب الهندية والفارسية والعربية ، فرجعوا وحدة المؤلف .

ولكن ذلك لا يكفي للدلالة على ان الكتاب موضوع لامنقول ، فاثار الترجمة بين في انشائه ، والحكمة الهندية الفارسية ظاهرة فيه كل الظهور بآدابها وامثالها . فمن الراجح ان ابن المقفع نقله وهذبه وغير فيه وبديل ، وتصرف في جمع ابوابه فظهرت عليه وحدة التأليف . وقد جهد في ان يجعل روحه اسلامية كيما يصلح لتأديب الامراء المسلمين ، فوفق في غرضه ، غير انه ترك اسماء الاعلام فارسية او هندية . وبوسعك ان تتبين الروح الاسلامية في قوله على لسان برزويه : « واضموت في نفسي ان لا ابغي على احد ولا اكذب بالبعث ولا القيامة ، ولا الثواب ولا العقاب ، وان لا اله الا الله الفرد الصمد . »

فهذا الايمان وما فيه من التوحيد اسلامي محض لا ينطق به فارسي مجوسي كبرزويه . وقد رأيت ان دمنة لم يقتل الا بشهادة شاهدين ، لان شهادة الواحد لا توجب حكماً . زد على ذلك ما في الكتاب من اعتقاد عظيم بالقضاء والقدر .

كلمة ودمنة — اسلوبه الانساني

حمل ابن المقفع الى النثر العربي في كتابه هذا اسلوباً جديداً لم يعرف من قبل . وهو سرد الحكايات على افواه البهائم والسمك والطير ، تتخللها محاورات ادبية لذيذة فاذا هي تبدو في ظاهرها هزلاً وتسليية ، على حين ان باطنها جد وحكمة . ويزيد هذه الحكايات رونقاً ان اساسها قائم على ضرب الامثال ، والامثال ، كلام الانبياء ، فكل باب في مجموعه مثل مستقل ، ولكنه يشتمل على عدة امثال يتفرع بعضها من بعض .

واول الكتاب باب الاسد والثور ، يفتحه دبشليم بقوله لبديبا : « اضرب لي

مثلاً لمتحايين يقطع بينهما الكذب المحتمل حتي يحملها على العداوة والبغضاء . «
 فيورد بيدبا مثلاً ويفرّع منه امثالاً على السن الحيوانات التي ذكرها في هذا المثل .
 حتي اذا انتهى واراد الانتقال الى باب آخر قال الملك : « قد سمعتُ مثل المتحايين
 الخ ، فحدثني عن اخوان الصفاء كيف يبتدىء تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض ؟ »
 فيوطى الفيلسوف لغرضه بمقدمة تناسب المثل ، يراد منها النصيح او التحذير او ما
 شاكلها كقوله : « ان العاقل لا يعدل بالاخوان شيئاً ، فالاخوان هم الاعوان على
 الخير كله ، والمؤاسون عند ما ينوب من المكروه . ومن امثال ذلك الحماة المطوقة
 والجرد والظبي والغراب والسُّلحفاة . » فيقول له الملك : « وكيف كان ذلك ؟ »
 فيستهل المثل بقوله : « زعموا . »

ويختتم الباب غالباً بذكر ما ضرب المثل لاجله فيجعله نتيجة لما تقدم ، مثال ذلك :
 « فهذا مثل اخوان الصفاء واثلافهم في الصعبة . »

ويجهد للامثال المتفرعة كما يهد للمثل الاصلي ، ويختتمها على الغالب بقوله : « وانما
 ضربت لك هذا المثل لتعلم . »

والكتاب حافل بالاقتوال الحكمية والمواعظ والنصائح ، وربما استرسل الكاتب
 في فقر حكمية متساوقة حتي يخرج بها عن الموضوع الذي يتكلم عنها مثل ذلك لما اراد
 دمنة ان يغري الاسد بالثور . فاخذ يدعو الى قبول نصيحته بهذه الاقوال ، وفيها ما
 يلائم الموضوع وفيها ما لا يلائمه : « وخير الاخوان والاعوان ، اقلهم مداهنة في النصيحة ،
 وخير الاعمال احدها عاقبة ، وخير النساء الموافقة لبعلمها . وخير الشاء ما كان على افواه
 الاخيار ، وفضل الملوك من لا يخاطه بطر ، ولا يستكبر عن قبول النصيحة . »
 واذا كانت الحيوانات غير العاقلة عاقلة في كليملة ودمنة ، فالكتاب يتكلم على
 ذكورها بصيغة المذكر العاقل . فيقول مثلاً : « زعموا ان جماعة من القردة كانوا
 ساكنين . »

« ويمتاز اسلوبه بخاصته الرياضية التي اختصت بها فلسفة اليونان ، ولا سيما الفلسفة
 الفيثاغورية ' وما فيها من عدد وتقسيم . حتي ظن بعض المستشرقين ان لكليملة

ودمنة اصلاً يونانياً ، وان ابن المقفع كان عارفاً بلغة اليونان . على ان كلا الامرين لم يثبتا ، وانما الثابت ان ابن المقفع اطلع على حكمة اليونانيين في كتب الفرس التي نقلها ، فراض عقله على هذا الاسلوب المنطقي ، واتحف به لغة العرب ، وكانت لا تعرفه من قبل . ولا تنحصر خاصته هذه في كليله ودمنة بل تجدها في الادب الصغير والادب الكبير . ودونك مثلاً عليها قوله في باب الاسد والثور : « يا بني ان صاحب الدنيا يطلب ثلثة امور لن يدركها الا باربعة اشياء : اما الثلاثة التي يطلب ، فالسعة في الرزق ، والمثالة في الناس ، والزاد للآخرة . واما الاربعة التي يحتاج اليها في درك هذه الثلاثة ، فاكتساب المال من احسن وجه يكون . ثم حسن القيام على ما اكتسب منه . ثم استثماره . ثم انفاقه فيما يصلح المعيشة ، ويرضي الاهل والاخوان ، فيعود نفعه في الآخرة . »

ويكثر في هذا النوع من انشائه استعمال اُمَّا التفصيلية . وتراه حافلاً بالقياسات ، ومنها المدرجة المتسلسلة كقوله في باب الحمامة المطوقة : « وجدت من لا اخوان له لا اهل له . ومن لا ولد له لا ذكر له . ومن لا مال له لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة . لان من نزل به الفقر لا يجد بداً من ترك الحياء . ومن ذهب حياؤه ذهب سروره . ومن ذهب سروره مقت نفسه . ومن مقت نفسه كثر حزنه . ومن كثر حزنه قل عقله وارتبك في امره . ومن قل عقله كان اكثر قوله وعمله عليه لا له . ومن كان كذلك ، فأحذر به ان يكون انكد الناس حظاً في الدنيا والآخرة . »

ويتخرج الاسلوب القصصي بالاسلوب المنطقي في انشاء كليله ودمنة ، فيدمثه ويسهله ، ويزيل عنه الجفاف والتعقيد اللذين يعمان كتب المنطق والفلسفة . وتبدو عبارته واضحة كل الوضوح بريئة من الغموض ، تتناولها الافهام بخفة ، فما يصعب عليها تحصيل معانيها .

وعلى الجملة فان كليله ودمنة يمتاز بسهولة وانسجامه ووضوحه وسلاسته ، واتساق افكاره وتساق امثاله ، واسهابه واسترساله . وهو اخلد كتاب عرفته اللغة العربية فقد نيف على الالف من السنين ، والايدي تتداوله ، والمدارس حافلة به .

لم يكن ابن المقفع مخترعاً في الادب الصغير وانما هو ناقل متصرف في النقل فعله في كيلة ودمنة . ولا يرى غضاضة في ذلك بل يحسنه ويزينه اذ يقول : « ومن اخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلم به في موضعه على وجهه . فلا يُرين في ذلك عليه ضؤولة ، فانه من أعين على حفظ قول المصيين ، وهدى للاقتداء بالصالحين ، ووفق للاخذ عن الحكماء . فلا عليه ان لا يزداد فقد بلغ الغاية . » وهذا يدل على ان الكتاب يعتقد ان الذين تقدموه من الحكماء بلغوا الغاية ، فلم يتركوا زيادة لمستزيد ، ويوضح ذلك في قوله : « وُجل الادب بالمنطق ، وكل المنطق بالتعلم . ليس حرف من حروف معجمه ، ولا اسم من انواع اسمائه الا وهو مروي متعلم مأخوذ عن امام سابق من كلام او كتاب . وذلك دليل على ان الناس لم يبتدعوا اصولها ، ولم يأتهم علمها ، الا من قبل العليم الحكيم . اهـ » فهو يزين العلم ، ولا يشترط الاختراع ولذلك يقر بانه اخذ كتابه هذا عن غيره ، فيقول : « وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً ، فيها عون على عمارة القلوب ، وصقالها وتجليه ابصارها ، واحياء للتفكير ، وإقامة للتدبير . »

والادب الصغير عبارة عن دروس خلقية اجتماعية ، تحث على طلب العلم ، وتشترط على العالم التواضع وعدم الاعتداد بالنفس . وتدعو المرء الى تأديب نفسه ومحاسبتها وتحسن له الزهد والتصوف ، وهي مع ذلك تعظم شأن المال وتقدهس ، ولا تنهى عن جمعه و « ومن لا مال له ، فلا شيء له . والفقر داعية الى صاحبه مقت الناس . » على ان الكاتب ينهك عن الاغترار بالمال الكثير ، ويدعوك الى القناعة بالقليل منه . لانه يريد ان مانعاً للفقر ليس غير . وتراه اشتراكياً لا يجب الاحتكار والاستئثار : « لا تعد غنياً من لم يشارك في ماله . » ولا غرو ان يدعو الى الاشتراك وهو الذي يوصي الاخوان بالتعاون والتعاقد ، ويقدر المودة والوفاء للصديق .

واذا اوصى بالصديق لا يغفل عن العدو ، بل يحذرك منه ويرشدك الى سياسته ، وينهاك عن استصغار الامور : « لان من استصغر الصغير اوشك ان يجمع اليه صغيراً »

وصغيراً، فاذا الصغير كبير. « ولا يرى في المشورة غضاظة ، ولو كان الرأي الصائب من شخص حقير .

ويتكلم على سياسة الملوك والولاة . فيشير عليهم ان يتعهدوا عملهم : « حتى لا يخفى عليهم احسان محسن ، ولا اساءة مسي . »

وله في المرأة ظن سيئ . لا تحمده النساء عليه ، فانه يلح في النهي عن عشقهن ، والاطمئنان اليهن لان مودتهن لا تدوم .

وهو على نصائحه الاجتماعية والادبية لا يغفل عن المواعظ الدينية فيأمر بالتقوى ، والتعبد لله ومعرفة نعمه ، والشكر له لتزداد هذه النعم .

وجامع القول ان الادب الصغير رسالة نفيسة في سياسة الاجتماع ، وتهذيب النفس ، وترويضها على الاعمال الصالحة ، ومعرفة الخالق

واما انشاؤه فيختلف بعض الاختلاف عن انشاء كليلة ودمنة ، لان صاحبنا اتخذ فيه الاسلوب المنطقي الصرف ، فظهر عليه بعض الجفاف ، وتحلته جمل اعتراضية فلم يخل من التعقيد . وازدحمت فيه المعاني الفلسفية الدقيقة ، فصعب التماسها ، لانها افرغت في قالب انشائي مجت ، كله تحذير وتحضيض ، واقيسة واعداد وتقاسيم . فلم يتم لها الوضوح الذي تم لها في حكايات كليلة ودمنة .

وفي الادب الصغير اقوال واردة في كليلة ودمنة مجروفا . ولكنها مندجة هناك في القالب القصصي السهل ، وقائمة هنا بنفسها .

ولا يخلو الادب الصغير من ضرب المثل . ولكن امثاله قصيرة لا تشبه امثال كليلة ودمنة التي ساقها مساق النوادر والاقاصيص .

الادب الكبير

لا يتناول ابن المقفع موضوع كتابه الا بعد ان يذكر الاسلاف ، ويعظم ما تركوا للخلف من علوم . ويريد بهؤلاء الاسلاف الامم الاعجمية . واليهام يشير بقوله : « ان الرجل منهم كان يفتح له الباب من العلم ، والكلمة من الصواب ، وهو

بالبلد غير المأهول، فيكتبه على الصخور مبادرةً منه للاجل، وكراميةً لان يسقط ذلك على من بعده.» ثم يعترف انه اخذ لكتابته هذا من اقوال المتقدمين.

والادب الكبير قسماً، قسم يتكلم به على السلطان والمتصلين به، وقسم يتكلم به على الصديق. ويستهل القسم الاول بقوله: «وانا واعظك في اشياء من الاخلاق اللطيفة الخ.» ثم يأخذ في نصيح السلطان، فيوصيه وصايا حسنة تتناول سياسته للعمال والرعية، وما ينبغي له ان يتحلى به من الخصال الحميدة. فن جملة نصائحه له ان لا يزيد من ساعات شهوته ودعته، وينقص من ساعات عمله وتعبه. وان لا يعرف بحب المدح. وان يتحلى بثلاث خصال: رضى ربه، ورضى سلطانه ان كان فوقه سلطان، ورضى صالح من يني عليه. وان يتخذ بطانته من اهل الدين والمروءة. وان لا يأنف من المشورة لانه يطلب الرأي للانتفاع به لا للافتخار به.

ويوصيه ان لا يعاجل بالثواب ولا بالعقاب فان ذلك ادوم لحوف الخائف ورجاء الراجي. وان يصبر على اهل العقل والسن والمروءة دون غيرهم. وينهاه عن الحسد والغضب والخلف.

ويوصيه بتفقد فاقة الاحرار ليسدها، وطغيان السفلة ليقمعه. ويريد بذلك ان يكون الوالي يقظاً متنبهاً لجميع احوال رعيته.

ثم ينتقل الى الكلام على المتصلين بالسلطان فيعطيهم نصائح تتعلق بسياستهم معه. وفيها اشياء كثيرة اعتمد عليها بعده الفارابي وابن سينا في كلامهما على سياسة المرؤوس لرؤسائه. فمنها هرب المرؤوس من صحبة وال لا يريد صلاح رعيته لئلا يهلك في دينه اذا صحبه، وفي دنياه اذا صحب الرعية واغضبه. ومنها مداراة الوالي والنظر الى ما يجب وما يكره. ومنها تزيين رأي الولاية وقلة استقباح ما يصنعون. وغير ذلك من النصائح التي تختص بمصاحبة الملوك في زمن كان الملك فيه ظل الله على الارض. فلا بدع ان تصطبغ هذه النصائح بالوان العبودية والخنوع.

واما القسم الثاني فقد خصه بالصديق، وابن المقفع، كما علمت، المودة والوفاء للاصدقاء. ويستهله بقوله: «ابذل لصديقك دمك ومالك.» ومن وصاياه في

مخالفة الصديق ان لا ينتحل الانسان رأي صديقه لئلا يثير سخطة عليه . وان لا يشارك محدثاً في حديث يعرفه فان في ذلك خفة وسوء ادب وسخفاً . وان يحسن الاستماع ويخفض الصوت عند الكلام ، ولا يسبقه اقوال جلسائه . وان لا يذم من اسماً من الامماء لعله موافق هوى بعض خلطائه .

وابن المقفع في اثناء كلامه على الصديق ، ينهك عن اشياء لا يصح التخلق بها ، ويوصيك ان تحتز من سكر السلطة ، وسكر العلم ، وسكر المنزلة ، وسكر الشباب . وهو ابداً شديد الوطأة على المرأة فما ينفك عن التنفير من الولوع بها ، والتحذير من التهافت على الازدياد من النساء .

ويختتم كتابه بذكر الصفات الحسنة التي ينبغي للمرء ان يتحلى بها في حياته وهي خلاصة انجائه في الادب الكبير .

وانشاء الادب الكبير خطابي محض ، كله امر ونهي ، وقد خلا من الامثال ولم يغلب عليه الاسلوب المنطقي ، فقلت قياساته ، فجاءت عباراته اسهل من عبارة الادب الصغير ووضح .

مصراته

٢ اذا شئت ان تفسر البلاغة كما فسرناها بعضهم بقوله انها كلام قلت الفاظه وكثرت معانيه ، فقد ظلمت ابن المقفع واخرجته من طبقة البلغاء ، لانه كان يجنح الى الاسهاب اكثر منه الى الایجاز .

على ان هذا التفسير فيه نقص بين اذ لا يصح ان تحصر البلاغة في الكلام الموجز المفيد . وللأسهاب اذا خلا من الحشو والتطويل ، نصيب منها غير يسير . واحسن من هذا التفسير قول ابن المقفع : « البلاغة هي التي اذا سمعها الجاهل ظن انه يحسن مثلها . » والجاهل لا يتفهم الكلام الا اذا كان سهلاً واضحاً . فان فهمه طمعت نفسه في احتدائه ، غير عالم ان البليغ السهل صعب الرياضة بعيد المنال . ذلك ان تتبع الالفاظ الفصيحة المأنوسة ، واجتناب الالفاظ الغريبة يجعل نطاق اللغة ضيقاً ، ومادتها قليلة . ولأن يدخل الكتاب على البلاغة من طريقها الوعر ، ايسر له من ان

يسلك إليها السهل الممتنع لا وابن المقفع سلكه مطمئناً ، ثابت الاقدام ، فنال من معجزها ما لم ينله سواه . ولطالما اوصى الكتاب بترسم خطاه ، فقال : « اياك والتبعية لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة فان ذلك هو العيب الاكبر . »

وهو كغيره من المتقدمين لا يحفل بتسجيع الالفاظ وترويقها ولا يقصد اليه البتة الا ما جاء عفواً ، وقضت به الفصاحة في اثناء الكلام . ولم يؤثر اصله الفارسي في صحة طبعه ، مع ان الفرس اهل حضارة قديمة تميل بهم الى الزخرفة والتزيين . وسبب ذلك انه نشأ زمن بني امية نشأة عربية خالصة ، بعيدة من التصنع والتكلف ، نازعة الى البداوة والفطرة . ثم ان الفرس لم يكن لهم في ايامه الاثر البليغ الذي صار لهم فيما بعد . فانطبع انشاؤه على بلاغة العرب وفطرتهم ، وخلص من تمويه الحضارة الجديدة وترويقها ، فجاء متنوع العبارة ، يجري مع الطبع .

على ان بعد الكتاب من العمل لا يعني انه لم يكن يتخير الفاظه وينتقيها . فلقد كان كالصائغ الماهر كثرت جواهره ، فاحسن اختيار فرائدها . قال الراغب الاصبهاني : « كان ابن المقفع كثيراً ما يقف اذا كتب . ف قيل له في ذلك فقال : « ان الكلام يزدهم في صدري فاوقف لتخيره . »

وامتاز في حلاوة الفاظه ورصانتها ، وطول نفسه ، وبعده من الغلو . وفي اتساق افكاره وحسن تساوقها . واستيفاء القياس وقوة المنطق ، والغوص على المعنى الفلسفي الدقيق . قال فيه ابو العيناء : « كلامه صريح ، ولسانه فصيح ، وطبعه صحيح . كأن بيانه لؤلؤ منشور ، وروض ممطور . »

والاقوال فيه كثيرة ، وكلها تدل على منزلته الرفيعة في دولة النثر ، وتظهر ما كان لاسلوبه من الاثر الكبير في عصره مما جعل بلغاء الكتاب يضربون على غراره . وحسبك منهم سهل بن هارون .

وابن المقفع عجمي التفكير في جميع مؤلفاته ، ليس له من العرب الا اللغة وروح الاسلام ، وقلما استشهد باشعارهم واقوالهم . ولكن فضله على العربية عظيم فانه اول من ادخل اليها الحكمة الفارسية الهندية ، ومنطق اليونان ، والطريقة الفيشاغورية ، وعلم الاخلاق ، وسياسة الاجتماع . فذلّل اوضاعها لاجاث عقلية لا عهد لها بها ، ووطأ

السبيل للفارابي وابن سينا من بعده .

وهو اول كاتب عمد الى الترجمة والتأليف ووصل اليها بعض آثاره ، وكان من حظه الخلود . واول عالم مفكر تناول الابحاث العقلية باانشاء . رفع به لغة الادباء ، وبز به لغة العلماء ، تلك التي غلب عليها الغموض وركاكة التعبير . فحجب دراسة الحكمة بجمال اسلوبه ووضوحه ، ولاسيا اسلوب كليل ودمنة الذي افرغ فيه الجذ في قالب الهزل ، فارضى به الخاصة والعامة معاً . وكان اول كاتب عربي جعل الكلام على السن الحيوان ، وجعل تأديب الملوك بالحكايات والاشارات والامثال .

علوم اللغة

علوم اللغة : الصرف والنحو . البصرة والكوفة . البصريون . سيبويه . الكوفيون . الكسائي . مناظرات الكوفيين والبصريين . اللغة . الخليل : آثاره . منزله

الصرف والنحو

ذكرنا في الكتاب الاول ان اللحن اخذ يفشو في صدر الاسلام بسبب اختلاط العرب بالاعاجم ، وان ابا الاسود الدؤلي اول من اشتغل بالنحو ووضع بعض ابوابه . فلما استشرى الفساد في اللغة ايام الدولة العباسية انهى العلماء الى وضع قواعد الصرف والنحو ، وكانوا يومئذ علماء واحداً غير منقسم . ويرجع الفضل في ضبط الاصول واستقرائها الى البصرة ثم الى الكوفة .

البصرة والكوفة

البصرة والكوفة مدينتان بالعراق مُصرتا في خلافة عمر بن الخطاب ، فأهلتا بطوائف العرب والموالي . وحفلتا بالشعراء والعلماء . فكان بينهما تنافس في الشعر والرواية ، والنحو واللغة والفقه والحديث وعلم الكلام .

البصريون

وسبق البصريون اهل الكوفة الى الاشتغال بالنحو ولغات العرب^١ فان ابا الاسود الدؤلي بصري ، واخذ عنه من علماء البصرة يحيى بن يعمر ، وميمون الأقرن وعنبسة الفيل ، ونضر بن عاصم الليثي وغيرهم .

ثم كان من بعدهم عبدالله بن ابي اسحق الحَضْرَمِيّ ، وهو على رواية ابن سلام اول من مدّ القياس والعلل . وكان معه ابو عمرو بن العلاء . فشهروا ابن ابي اسحق بالنحو وتجريد القياس ، وشهروا ابو عمرو بمعرفة لغات العرب . واخذ يونس بن حبيب ، والحليل بن احمد عن ابي عمرو بن العلاء . واخذ عيسى بن عمرو الثَّقَفِيّ عن ابن ابي اسحق ، وعيسى هذا اول من ألف في النحو فقد ذكر له الحليل كتابي الجامع والإكمال ولكنها فقدت . ثم كان سَيَوِيّهِ .

سَيَوِيّهِ ٧٩٦ م و ١٨٠ هـ

هو ابو بشر عمرو بن عثمان ، مولى بني الحرث بن كعب ، ولقب بسَيَوِيّهِ الجمال وجهه ، ومعناها بالفارسية رائحة التفاح . وكانت ولادته بفارس ونشأته بالبصرة . واخذ النحو عن الحليل ويونس وعيسى بن عمرو . واخذ اللغة عن الاخفش الاكبر ، فاصبح شيخ البصريين غير مدافع .

^١ تنبيه : كان علماء اللغة المتقدمون يحيطون علماً باداب اللغة كلها ، فهم رواية يحفظون الاشعار والاخبار والانساب ، وهم نحويون يحسنون القياس والتعليل ، وهم لغويون بارعون في الغريب ومذاهب الكلام . ولكن تغلب على احدهم خاصة اكثر من اخرى فيشتهر بها .

وزعموا انه قدم بغداد وافداً على البرامكة، فوقع بينه وبين الكسائي مناظرة خذل فيها سيويوه، فخرج من بغداد حزيناً، وقصد الى بلاد فارس، وتوفي بالبيضاء من قري شيراز .

وترك من اثاره الكتاب في النحو، وهو مجلدان كبيران يحتويان على عشرين فصلاً وثماني مائة . وقد شرحه سعيد بن المَرْزبان، وله طبعات كثيرة، ونقل الى الالمانية . وكان اثره بليغاً في ايامه حتى انهم اطلقوا عليه اسم الكتاب اجلاً لاقدره . فاذا قيل بالبصرة : «قرأ فلان الكتاب» . علموا انه كتاب سيويوه . وكان المبرد شديد الإعجاب به، فاذا اراد مريد ان يقرأه عليه يقول له : «هل ركب البحر؟» تعظيماً للكتاب واستصعاباً لما فيه . ومن هذا البحر الفياض اغترف جميع النحاة من متقدمين ومتأخرين ، فكان له الفضل العميم .

الكوفيون

واقترف الكوفيون معالم اهل البصرة، واخذوا عنهم النحو، وانصرفوا الى تدارسه والنظر فيه . فبرع منهم 'معاذ الهراء' وهو اقدم نحاتهم و اول من وضع الصرف وبرع ايضاً ابن اخيه ابو جعفر الرؤاسي، وهو اول كوفي في الف في النحو، واسم كتابه الفیصل وقد ضاع . ثم كان الكسائي .

الكسائي ٨٠٤ م و ١٨٩ هـ

هو علي بن حمزة مولى بني اسد واصله من فارس . ولقب بالكسائي لانه دخل الكوفة او أحرم وهو ملتف بكساء، فنسب اليه . واخذ النحو عن 'معاذ الهراء' وابي جعفر الرؤاسي . ثم خرج الى البصرة ولقي الحليل واخذ عنه . ثم طاف بالبادية، واطلع على لغات العرب ومذاهبهم . فلما رجع الى الكوفة استقدمه المهدي الى بغداد، وجعله في حاشية ابنه الرشيد . وجعله الرشيد مؤدب ولده الامين ، فارتفع

١ توفي سنة ١٨٧ هـ (٨٠٢ م) ولقب بالهراء لانه كان يبيع الثياب الحرورية نسبة الى هراء بلدة بخراسان .

مقامه وظل وجيهاً مكرماً حتى مات. ودفن بالري^١ وهو شيخ الكوفيين وأحد
القرّاء السبعة، وله كتب كثيرة في النحو لم يبق منها سوى رسالة في لحن العامة .
وكان على بصره باللغة والنحو قليل البضاعة في الشعر حتى قيل : « ليس في علماء
العربية اجهل من الكسائي بالشعر » .

مناظرات البصريين والكوفيين

اخذ الكوفيون النحو عن البصريين، ولكنهم لم يلبثوا ان خالفوهم فيه ،
وجعلوا لانفسهم مذهباً غير مذهب اهل البصرة . فاشتد التنافس بين المذهبين ،
وكثرت مناظرات اصحابهما . وتعصب كل فريق لمذهبه فتشعبت الاراء ، وسادت
التمخّلات والتعليلات حتى كادوا لا يتفقون على وجه من الوجوه . فاذا قال البصريون :
« الفعل مشتق من المصدر . » قال الكوفيون : « المصدر مشتق من الفعل . » واذا
جوز البصريون تقديم الخبر على المبتدأ ، رفض الكوفيون تجويزه ، وجعلوا كل متقدم
هو المبتدأ ، الى غير ذلك من المناقضات العديدة التي اورثت المتأخرين طوائف من
الاراء لا يعدم معها من يلحن وجهاً للصحة يرد اليه كلامه . وجعلت دراسة النحو
صعبة المنال لا يضطلع بها الا كل ذي رغبة وجلد . زد على ذلك ما ادخلت على الشعر
من ابيات منحولة اصطنعها العلماء ، وجعلوا منها شواهد على مذاهبهم ، وحججاً
لمناظراتهم .

وكان الكوفيون شديدي التعصب للأعراب ، يريدون العصمة فيهم . فاذا سمعوا
قولاً من اقوالهم فيه تجوز يخالف القواعد المقررة ، جعلوه قاعدة غير معتدّين بالشذوذ .
واما البصريون ، فقد كانوا اصح استنباطاً من اهل الكوفة ، واكثر اعتدالاً ،
وأحفل بالرأي والقياس . غير ان الكوفيين ظهروا عليهم ، لانهم كانوا من انصار
العباسيين . فقربهم الخلفاء دون نحوي البصرة وجعلوهم مؤيدي اولادهم ، فنبه
ذكرهم ، ورجحت كفتهم ، وشهر منهم جماعة في بغداد كالفرّاء وابن الاعرابي ،
وابن السكيت وغيرهم . وقد يكون لفوز الكسائي على سيويوه اثر في ظهور حجة
الرّئي : كانت من حواضر فارس ، وبالقرب من اطلالها انشئت مدينة طهران .

الكوفة، واقبال طلاب العلم عليها. لان انتصار شيخها على شيخ البصرة 'عد انتصاراً
لمذهبها في ذلك الحين .

الملف

ولم يكن حرص العلماء على ضبط القواعد باشد من حرصهم على ضبط الفاظ
اللغة، وجمع شتاتها، والتمييز بين لهجاتها. فكانوا يطوفون بالبادية يأخذون الكلام
عن اهلها. وكان الاعراب يأتون امصار العراق فيسمع العلماء منهم، ويدونون ما
يحفظونه عنهم فألفوا في بدء الامر رسائل صغيرة في موضوعات خاصة كاسماء الوحوش
والابل، وخلق الانسان، والدارات، والنخل والكرم للاصمعي. واسماء البئر وصفاتها
والخيل وانسابها لابن الاعرابي. وغريب القرآن لمؤرّج السدوسي، والمثلثات لقُطْرُب.
فكانت هذه الرسائل نواة المعاجم اللغوية. على ان هناك كتاباً في اللغة ظهر
قبل هذه الرسائل كلها مرتباً على مخارج الحروف، واجاثته عامة لا خاصة، وهو
كتاب العين للخليل.

الخليل

٧١٨ — ٧٨٦ م ١٠٠ — ١٧٠ هـ ؟

حياته

هو ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي^١ الازدي. ولد في البصرة وبها
نشأ، وتخرج على ابي عمرو بن العلاء وغيره من ائمة زمانه. وتبدى غير مرة وخالف
الاعراب وسمع منهم، واخذ شيئاً كثيراً عنهم. فنبغ في اللغة والنحو. وكان له
١ الفراهيدي : نسبة الى الفراهيد وهي بطن من الازد، ويقال له ايضاً الفرهودي
نسبة الى الفرهود واحد الفراهيد.

براعة في تصحيح القياس ، واستخراج المسائل النحوية وتعليقها . وعنه اخذ سيبويه واستمد له كتابه الشهير في النحو . وتخرج عليه كثير غير سيبويه منهم مؤرخ السدوسي ، والنضر بن شميل ، والاصمعي .

وكان له معرفة بالنغم والحساب . وذكر بعضهم انه الم باليونانية الماماً تلاماً . ولعله اخذها عن تلميذه حنين بن اسحق العبادي ، فان حنيناً كان يحكم اللسان اليوناني . وقد لزم الحليل مدة حتى برع في لغة العرب ، فغير عجيب ان يتعلم الحليل منه اليونانية . وهو الذي عرف بحب العلم ونادر الذكاء . وظل في البصرة يشغل بالتأليف والتعليم حتى مات . وكان زاهداً متعقفاً ، حليماً وقوراً .

أما

وله من الآثار شيء كثير منها في اللغة ، ومنها في الانعام واشهرها كتاب العين في اللغة والنحو ، دون فيه ما جمعه من الالفاظ والقواعد ، ورتبه على حروف الهجاء ، وقدم الحلقية منها ، لانها ابعدا مخرجاً . وابتدأ بالعين لانه اعلم حروف الحلق وهي : « ع ح ه خ غ ق . » ثم الشجرية ' وهي : « ك ج ش . » ثم الصافرة وهي : « ص س ز . » ثم اللسانية وهي : « ض ط ذ ث ر ل ن . » ثم الشفهية وهي : « ف ب م . » ثم المعتلة وهي : « و ا ي . »

واطلق عليه اسم العين من باب تسمية الكل باسم الجزء . وتسمية الكتاب باسم الباب الاول منه عادة شاعت عند كثير من الامم . وقد رأينا ابا تمام يفعل مثل ذلك في مختاراته ، فيسميها باسم الباب الاول منها وهو باب الحماسة . وقيل ان الحليل جرى في ترتيب كتاب العين مجرى وضاع المعاجم السنسكريتية ، فان الهنود يبدؤون باحرف الحلق ، وينتهون بالاحرف الشفهية .

ويقول صاحب وفيات الاعيان : ان اكثر العلماء العارفين باللغة يقولون ان

١ الشجرية : نسبة الى الشجر وهو مفرج الفم .

كتاب العين ليس من تصنيف الخليل . وانما كان قد شرع فيه ، ورتب اوائله ، وسماه بالعين . ثم توفي فاكمله تلامذته النضر بن سُمَيْل ، ومن في طبقته كؤُرج السدوسي ، ونصر بن علي الجَهْضَمي وغيرهما . فما جاء عملهم مناسباً لما وضعه الخليل في الاول ، فلهذا وقع فيه خلل كثير يبعد وقوع الخليل في مثله .

والخلل الذي يشير اليه ابن خلكان ناتج في اكثره عما ورد في كتاب العين من شواهد النحو على المذهب الكوفي مع ان الخليل بصري . فقد ناقض فيه نفسه ، وخالف ما جاء في كتاب سيويوه مئارواه سيويوه عنه . ولا يدفع ذلك قولهم ان الخلاف بين البصرة والكوفة لم يقيم الا بعد الخليل . لان الكلام ليس على ذاك الخلاف وانما هو التناقض في اراء الخليل . وهذا ما نجله عنه كما نجل سيويوه عن الكذب في روايته عن استاذه . ولذلك نزجج ما رواه ابن خلكان من ان الخليل مات قبل ان يتم كتابه ، فعانت فيه ايدي تلاميذه ، ومنهم كوفيون ، فافسدوا فيه ، ووقعوا كثيراً من الخلل . فشك في بعض العلماء وانتقدوه ، منهم ابن دريد البصري ، وابن سلمة الكوفي ، والسيوطي في كتابه المزهر .

وظل كتاب العين معروفاً حتي القرن الرابع عشر للميلاد ثم ضاع . ولم يصل الينا منه سوى ما اخذه سيويوه لكتابه ، والسيوطي لمزهره . ويقول صاحب الفهرست انه كان في ثمانية واربعين جزءاً . وقد اختصره ابوبكر الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩هـ (٩٨٩م) فحفل الناس به ، وفضلوه على الاصل لان الزبيدي حذف منه الشواهد المختلفة ، والحروف المصحفة ، والابنية المختلفة . ومنه نسخ خطية في مكاتب برلين والاسكوريال ومدريد والاستانة .

ومن اثاره الخالدة علم العروض ، فهو الذي استنبطه وابتدعه ، وحصر اقسامه في خمس دوائر يُستخرج منها خمسة عشر مجزاً . وزاد فيه الاخفش الاوسط بمجر الخبب ، ويسمى المتدارك لانه تداركه . وحاول بعضهم ان يزيّدوا بحرين آخرين وهما المستطيل ، ووزنه : مفاعيلن فعولن ، مفاعيلن فعولن مرتين . والممتد ووزنه : فاعلن فاعلاتن ، فاعلن فاعلاتن مرتين . ولكنهما لم يرزقا الحياة بل وقفت البحور عند الستة عشر ، وحافظ الشعراء على اجزائها حتى في الموشحات .

ويرى جماعة ان معرفة الخليل بالانغام نبهته على وضع العروض، لان الموسيقى والشعر متقاربان في المأخذ. ويستدلون على ذلك من رواية الحمزة بن الحسن الاصبهاني ذكرها ابن خلكان، وهي ان الخليل فطن لوضع العروض من سماعه وقع مطارق الصقارين^١ على الطسوت بانتظام.

ويرى البستاني صاحب دائرة المعارف ان المام الخليل باللغة اليونانية نبهه الى ذلك لان علم العروض قديم عند اليونان، ولا رسطو فيه كتاب جليل. وهذا ما نرجحه نحن. ولا غضاضة فيه على الخليل، فانما له ابدأ فضل الواضع المبتكر.

مفرته

اعظم خاصة يمتاز بها الخليل هي انه كان ذا عقل مفكر مولد. وهذه الخاصة النادرة اشتقت له طريق الابتكار. فكان اول من ضبط البحور، ووضع اوزانها. واول من جمع الفاظ اللغة في كتاب، ومهد السبيل لتصنيف المعاجم، فاخذ عنه من جاء بعده. وله فضل المتقدم في ضبط اصول الغناء وفروعه وانغامه وآلاته^٢. وكان سبب موته انه دخل المسجد وهو يعمل فكره في اختراع نوع من الحساب تمضي به الجارية الى البياع فلا يمكنه ظلمها، فصدمة سارية^٣ وهو غافل عنها؛ فانقلب على ظهره وارتح دماغه، واعتل حتى مات. وروي انه اخترع للشطرنج جملين في طرفي الرقعة فاستعمل مدة ثم ترك.

فحسبك من هذه الاشياء وغيرها شواهد تنطق بفضل الخليل، ورجاحة عقله، وقوة استنباطه. وقد شهد له ابن المقفع في ذلك فقال: «عقله اكثر من علمه». وقال فيه ابن سلام: «سمعت اشياخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصحابة اذكى من الخليل ولا اجمع.»

١ الصقارين: الذين يصنعون الصقار وهو النحاس الاصفر.

٢ قيل ان يونس بن سليمان الفارسي المستعرب اخذ الغناء عن معبد وألف فيه كتاباً وضاع. وجاء بعده الخليل فألف في الانغام والآلات.

٣ سارية: عمود.

العلوم الدخيلة

العلوم الدخيلة : الترجمة . طريقة النقل . مصادر النقل . المترجمون والعلوم المنقولة .
العلوم الطبيعية . العلوم الرياضية . العلوم الفلسفية . العلوم التي لم تنقل .

الترجمة

ما انتظمت الممالك الاسلامية وامتدت اطرافها، وتم امتزاج العرب بغيرهم من
الاعاجم، حتى ادرك العرب ان عند الاعاجم علماً غير العلم الذي يعرفون . وانهم لا
قبل لهم بمنافسة الامم المتحضرة التي غلبوها على امرها، الا اذا اخذوا علومها، وجاروها
بالمدينة والعرفان . وذلك ما يقضي به الناموس الطبيعي على كل شعب بدوي يفتتح
بلاداً عريقة في الحضارة .

ورأوا ان لا سبيل الى ادراك بغيتهم الا بنقل العلوم الدخيلة الى العربية . لان
مدارسها باللسان الاعجمي تقضي الى انحطاط لغة الضاد، واعطاء السيادة للغة الاعاجم .
وما كانوا ليرضوا بذلك وهم جد حراس على لغة قرآنهم وشعرهم وآدابهم فعمدوا
الى الترجمة، وكان بدؤها في العصر الاموي غير انه لم يتعاضد خطرهما الا في بني العباس
لما استخلف ابو جعفر المنصور، فانه امر بنقل طائفة من كتب الطب والهيئة والهندسة .
ولكن حركة النقل فترت في عهد المهدي والهادي، ولم تستأنف سيرها الا زمن
الرشد فشت متباطئة حتى كان العصر الذهبي في خلافة المأمون، فسطعت مشاعل
العلوم في ارجاء المملكة العربية . وانشأ هذا الخليفة المحب للعلم يرسل ملوك الروم
في طلب الكتب وربما جعل اخراجها اليه من شروط الصلح . فكان الملوك يلبون
طلبه راضين او مكروهين . وارسل بعثة من العلماء الى البلاد الرومية، فعادوا بطائفة
من المصنفات في شتى العلوم . ونظم دواوين الترجمة، واستحضر لها مشاهير النقلة،
واقاض عليهم المال الوفير، واعطاهم حرية الفكر والقلم . فاكبوا على العمل المتواصل

لا يلهمهم نصب ولا سأم . فاخرجوا من نفائس الاسفار ما غص به بيت الحكمة .
واخذ المأمون يحرض الناس على قراءتها وتعليمها ، وحبب اليهم الفلسفة بعد ان احجم
اباؤه عنها . وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ، ويلتذ بمذاكراتهم .

طريقة النقل

سار المترجمون على طريقين مختلفين في النقل ، ذكرهما صاحب الكشكول عن
الصلاح الصفدي . وهذان الطريقتان هما المعول عليهما الى يومنا هذا . ودونك ما
جاء في الكشكول : « وللتجمة في النقل طريقتان احدهما طريق يوحنا بن البطريق
وابن الناعمة الحمصي وغيرهما . وهوان يُنظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية
وما تدل عليه من المعنى . فيأتي الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في
الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل الى الاخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد
تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين احدهما انه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات
تقابل جميع الكلمات اليونانية . ولهذا وقع في خلال التعريب كثير من الالفاظ اليونانية
على حالها . الثاني ان خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة
اخرى دائماً ، وايضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات .
الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن اسحق والجوهري وغيرهما . وهو ان
يأتي بالجملة فيحصل معناها في ذهنه ، ويعبر عنها من اللغة الاخرى بجملة تطابقها ،
سواء ساوت الالفاظ ام خالفتها . وهذا الطريق اجود ولهذا لم تحتج كتب حنين بن
اسحق الى تهذيب الا في العلوم الرياضية لانه لم يكن قيماً بها . بخلاف كتب الطب
والمنطق والطبيعي والالهي فان الذي عربّه منها لم يحتج الى اصلاح . » آه

مصادر النقل

للكتب المنقولة الى العربية عدة مصادر اقواها اربعة : اليوناني والسرياني والفارسي
والهندي . فاما اليوناني فاعظمها شأنًا وعنه أخذت اكثر العلوم لاعراقه في القدم ، ثم
لانتشاره في سوريا ومصر . فكانت مدرسة الاسكندرية تعلم الطب والفلسفة

وسائر العلوم اليونانية، ومثلها مدارس السريان والنساطرة في سوريا. واشهرها الرها وقنسرين ونصيبين، فالمصدر السرياني، كما يتبين، يوناني في اصله. وهكذا يصح القول في المصدر الفارسي. لان علوم الفرس لم تظهر الا زمن سابور بن اردشير (٢٤١ - ٢٧٢ م) فقد ذكر عنه ابو الفداء انه بعث الى بلاد اليونان واستجلب كتب الفلسفة، وامر بنقلها الى الفارسية. واختزنها في مدينته واخذ الناس في نسخها وتدارسها.

ولما اضطهد يوستينيانوس (٥٢٧-٥٦٥ م) قيصر الروم الفلاسفة الوثنيين، واقفل هياكلهم ومدارسهم، هاجر بعضهم فراراً من الضيم، ووفد سبعة منهم الى كسرى انوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) فرحب بهم، واتزلهم مكرومين بين ظهرائه فنقلوا الى الفارسية الفلسفة والمنطق والطب، والقوا فيها.

والتحق بهم مهاجرون من النساطرة أمضهم الاضطهاد فلبجأوا الى فارس واسسوا في جنديسابور مجتمعاً علمياً راقياً. ثم أنشأ كسرى في جنديسابور مدرسة ومستشفى يعرف بالبيارستان، فكانت علوم اليونان تدرس باللغة السريانية. ثم اترجت الثقافة الهندية بالثقافة اليونانية الفارسية لما نقل كسرى بعض علوم الهند وادابهم. وكان لمدرسة جنديسابور فضل كبير لانها اخرجت اطباء وفلاسفة للفرس والعراق وسوريا منهم الحارث بن كلدة الثقفي. ومنهم ابناء بختيشوع اطباء الخلفاء العباسيين. واما المصدر الهندي فقد تلقى العرب بعضه مع المصدر الفارسي، واخذوا بعضه الآخر من علماء الهند الذين استقدمهم خلفاء بني العباس.

الترجمون والعلوم المنقولة

كان النقلة من اهل سوريا والعراق وفارس ومعظمهم من السريان النساطرة ابراعتهم في اليونانية، واشهرهم ابناء بختيشوع، وحنين بن اسحق شيخ المترجمين، وولده اسحق، ويوحنا بن ماسويه، والحجاج بن مطر، ويوحنا بن البطريق وغيرهم. نقلوا من اليوناني الفلسفة والسياسة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم. واشتهر من نقلة الفرس عبدالله بن المقفع وآل نوبخت وغيرهم، ونقلوا من

الفارسي السير والادب والسياسة والحكم والتاريخ والنجوم .

واشتهر من تلمذة الهنود منكه الهندي وابن دهن وسواهما ، نقلوا من الهندي الطب والعقاقير والنجوم والموسيقى والحساب والارقام .

فالكتب التي نقلت في هذا العصر تشتمل في مجموعها على الطبيعيات والرياضيات والفلسفة .

العلوم الطبيعية

ومنها الكيمياء ، وكانت يومئذ شعوزة يبحث فيها اصحابها عن الحجر الفلسفي الذي يحول كل معدن ذهباً .

ومنها الطب وكان ساذجاً محصوراً ببعض الصفات حتى ترجمت كتب ابقراط وجالينوس ، فاعتمد الطب العربي عليهما ، يرفده الطب الهندي من ناحيته . ونبغ اطباء كثيرون اشهرهم من النصارى النساطرة كابناء بجثيشوع ، ويوحنا بن ماسويه ، وحنين ابن اسحق . وكان للاطباء عموماً ولهؤلاء خصوصاً منزلة عالية عند الخلفاء واصحاب الامور ، فقربوهم على نصرانيتهم ، واكرموا جانبهم ، وخصوهم بوافر النعم ، ليطمئنوا الى اخلاصهم في مداواة امراضهم ، وتخفيف اوجاعهم .

العلوم الرياضية

ومنها الجبر والحساب . فان العرب اخذوا الارقام عن الهنود ، ودعوها بالارقام الهندية . اخذها ابو عبيد الله محمد بن موسى الخوارزمي ، وكان في ايام المأمون ، وهو الذي ألّف كتاب الجبر والمقابلة . ويكاد هذا العلم يكون من وضعه لان الهنات التي استمدتها من الهند والفرس واليونان لا تقي بالمراد ، ولكنه استخرج منها علم الجبر الحقيقي .

ومنها الهندسة فقد ترجم الحجاج بن مطر اصول اقليدس على عهد الرشيد . ثم اشتهر ابناء شاكر واستخرجوا مسائل لم يصل اليها متقدموهم ، كقسمة الزاوية الى ثلاثة اقسام .

ومنها الفلك، ترجمت له كتب اليونان والفرس والهند والكلدان. ونقل الحجاج ابن مطر كتاب المجسطي لبطليموس. وكان العرب كاليونان يعتقدون ان الارض محور الكون، ولكنهم اعتقدوا باستدارتها. واشتهر منهم ابو معشر البلكي، وابناء شاكر، وهؤلاء بنوا مرصداً على جسر بغداد.

ومنها التنجيم، تفرع من علم الفلك، وقوامه، ادعاء معرفة الغيب بالدلالات النجومية، ومقتضى اوضاعها في الفلك، واثارها في العناصر. وهو قديم عند العرب، يرجع الى عهد جاهليتهم. ولكنه اصبح في العصر العباسي علماً متدارساً، فتمت له السيادة، ووقف الناس اعمالهم عليه. واصبح الخلفاء اذا ارادوا حرباً شاوروا المنجمين قبل مباشرتها، حتى الاطباء اناطوا اعطاء العلاجات بحركات الكواكب. قال ابن ابي أصيبعة: «ان بجثيشوع بن جبريل كان يأمر بالحقق والقمر متصل بالذئب فيحل القولنج من ساعته. ويأمر بشرب الدواء والقمر على مناظرة الزهرة فيصح العليل من يومه.»

ومنها الموسيقى، اخذوها عن اليونان والفرس والهنود لانها من لزوميات الغناء، والغناء قديم عند العرب. وكان على ثلاثة اوجه النصب والسناد والهنج. فاما النصب فغناء الركبان والفتيان، وهو الحذاء الرقيق ويقال له المراثي. واما السناد فالثقل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات. واما الهنج فالحفيف الذي يُرَقَص عليه ويمشي بالدُف والمزمار، فيطرب. قال اسحق الموصلي: «هذا كان غناء العرب حتى جاء الله بالاسلام، وفتحت العراق، وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم فغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية. وغنوا جميعاً بالعيدان والطنايير والمعازف والمزامير.» ولما ترجمت الكتب اليونانية، اخذوا يبحثون في الموسيقى بحثاً علمياً. فارتقى فيها ونبع جمهرة من المغنين المتفنين كابن جافع ومُحارق وابراهيم بن المهدي،

١ نقطة الذئب ابعد نقطة من فلك الى الشمس.

٢ يحل هنا بمعنى يذهب وتأتي حل بمعنى عدا.

٣ القولنج: مرض في المعدة مؤلم.

وابراهيم الموصلي وابنه اسحق وتلميذهما زرياب . وقد جمع الاصبهاني اخبارهم
واخبار من تقدمهم في اغانيه .

العلوم الفلسفية

اخذ المسلمون الفلسفة عن اليونان، واعتمدوا خصوصاً فلسفة ارسطو وافلاطون،
واضافوا اليها ما يتناول عقائدهم الدينية . واكثر الذين تعاطوها كانوا من الاطباء .
لان الطب كان يومئذ يلازم الحكمة ، ولهذا لقب الطبيب بالحكيم . ويعود فضل
النهضة الفلسفية على الاطباء النصارى كحنين بن اسحق مترجم جمهورية افلاطون
ومنطق ارسطو، ويوحنا بن البطريق مترجم سياسة ارسطو، ويوحنا بن ماسويه الذي
نقل كتباً عديدة في الفلسفة والطب .

العلوم التي لم تنقل

ونرى مما تقدم ان العرب نقلوا جميع العلوم اليونانية الا التاريخ والادب . مع
انهم نقلوا من الفارسية تواريخ الفرس واخبار ملوكهم ، ونقلوا في الادب كليلة
ودمنة وغيرها . وسبب ذلك انهم لما اصبحوا دولة منظمة تذهب كل مذهب في
الرقى والحضارة ، شعروا بحاجتهم الى ما ينقصهم من العلوم . فدعاهم نظام المملكة ،
وعمران البلاد، وترف العيش الى نقل الحساب والهندسة والطب والنجوم، والجغرافيا
والموسيقى . ووجدوا في عصر شاعت به البدع والمذاهب ، وكثر التمهيع في
الاديان، فاضطروا الى نقل الفلسفة والمنطق للدفاع عن عقائدهم ، والرد على اقوال
خصومهم . واما التاريخ فقد كان يهمهم ان يعلموا احوال جيرانهم من اهل الممالك
القديمة ، فكانوا يسمعون اخبارهم من القصاصين . ولكن الحاجة لم تدفعهم الى العناية
بنقل تواريخ الاعاجم ، لانهم كانوا وقتئذ منصرفين الى تحقيق انسابهم ، وتدوين
السيرة النبوية، واخبار فتوحهم . ولم يكن بين المترجمين من اللغة اليونانية اروام

فيندفعوا بعامل العصبية الى نقل تاريخ امتهم و اظهار مناقبها ليفاخروا العرب بها .
 كما اندفع الى ذلك المترجمون من اللغة الفارسية وهم من ابناء الفرس الاقحاح .
 واما الادب فان العرب لم يعباوا بنقله عن الاعاجم لاجابهم بشعرائهم و خطبائهم ،
 ولا اعتقادهم ان لا ادب فوق ادبهم . و كانوا في هذا العصر منصرفين الى جمع
 شعرهم ، و اخبار شعرائهم يتلقونها على افواه الرواة . اصف الى ذلك ان نقلة اليونانية
 لم يكونوا يحسنون العربية ليصطنعوا بها لغة الشعر و الادب بخلاف نقلة الفرس فانهم
 كانوا يحسنون لسان العرب كابنائهم ، و فيهم من بدأ ابناء بهراة الانشاء . ثم ان
 مدارس سوريا و العراق و مصر كانت همتها في تدريس العلوم اليونانية من فلسفة و طب
 و رياضيات و طبيعيات ، و لم تعن بالادب و التاريخ اليوناني ، لانهم لم يهاجروا الى البلاد
 التي تلعذ لها العرب كما هاجر الطب و الفلسفة و الهندسة . لذلك لا تجد بين مترجمي
 السريان و النساطرة الا كل فيلسوف و طبيب و رياضي ، و لا تجد بينهم شاعراً او كاتباً
 او مؤرخاً .

و رغب العرب عن اقتباس فنون التشريح و التصوير و نحت التماثيل لاعتقادهم ان
 الاسلام يحرمها . و لكنهم برعوا في البناء و الحفر ، و شادوا الابنية الجميلة على الطراز
 العربي المأخوذ من الطراز البيزنطي بما فيه من زخرف و نقوش . و كان اشهر البنائين
 من السوريين

العلوم الدينية

العلوم الدينية : التفسير . الحديث . الفقه . ابو حنيفة . مالك .
الشافعي . ابن حنبل . البدع . علم الكلام .

التفسير

شرع المسلمون منذ بداية عهدهم بالدين يعنون بدراسة القرآن ، وتفهم معانيه ،
واستنباط الاحكام منه . فنشأ عن ذلك علم التفسير ، وعُرف من المفسرين المتقدمين
عبدالله بن عباس^١ وابن سيرين والحسن البصري وغيرهم . على ان هذا العلم لم
يتم جمعه وتدوينه الا في الدولة العباسية . وشهر من المفسرين في هذا العصر سُفيان
ابن عُيينة ، وو كيع بن الجراح ، واسحق بن راهويه والقرّاء وغيرهم .

الحديث

هو علم تعرف به اقوال النبي وافعاله ، وليس منه وحي القرآن . ويكون اما
حديث رواية يبحث فيه عن الاسانيد المتصلة او المنفصلة حتى يُبلغ بها الى الرسول .
واما حديث دراية يبحث فيه عن المعنى المفهوم من الفاظه ، وعن المراد منها مبنياً على
قواعد العربية ، وضوابط الشريعة ، ومطابقاً لاحوال النبي . وللحديث اصول واحكام
وقواعد واصطلاحات ، ذكرها العلماء ، وشرحها المحدثون والفقهاء . منها العلم
بصفات الراوة واخلاقيهم ، وانسابهم واعمارهم ووقت وفاتهم . الى غير ذلك مما يصح
ان يتخذ مستنداً لقبول روايتهم ، والاطمئنان الى صحة الاحاديث المنقولة عنهم .
وقد احتاج المسلمون الى جمع الحديث ليستعينوا به على تفهم القرآن ، وتأويل

^١ هو ابن عم النبي والى والده ينتسب العباسيون .

ما بين ايديهم من آيات يتعذر عليهم ادراك معانيها . وليستندوا اليه في الاحكام والفتاوي التي ليس لها نص صريح في كتابهم . فلذلك كان المحدثون والفقهاء يعانون الرحلات الشاقة طلباً للاحاديث الصحيحة ، يتلقونها بالاسناد المتسلسل . ولكنهم لم ينهضوا لهذا الامر الا في المائة الثانية للهجرة ، بعد ان مات الصحابة والتابعون ، وهم الذين يرجع اليهم في نقل الحديث . فكان ان تفرقت الاحاديث وتخالفت ، واتسع مجال الوضع ، فروي من كاذبها مئات والوف ، وضعها الزنادقة وذوو المآرب تنفيذاً لغاياتهم ، وتأيداً لمذاهبهم . وربما وضع الحديث لغرض سياسي ، فاستند اليه في الافتاء .

وكان الامام مالك في طليعة من دونوا الاحاديث ، فانه جمع في كتابه الموطأ نحو ثلثمائة حديث . ثم جاء الامام ابن حنبل فالف كتابه المسند ، وضمنه نحو خمسين الف حديث . على ان هذا العلم لم ينضج الا عند البخاري ^١ حجة المحدثين وامامهم . فانه غني بجمع الاحاديث وتمحيصها ، وطوف بالافاق يسمع من محدثيها حتى استخرج كتابه صحيح البخاري من ستائة الف حديث في ست عشرة سنة ، جمع فيه تسعة الاف ومائتي حديث ، منها ثلاثة الاف مكررة بتكرار وجوهها .

وكان مسلم بن الحجاج القشيري ^٢ من معاصريه ، فحذا حذوه وألف كتابه الجامع الصحيح . ويعرف بصحيح مسلم ، وبثاني الصحيحين ، وبوبه على ابواب الفقه ، وحذف منه الاحاديث المكررة .

وجاء بعدهما من نهج نهجهما ، وزاد عليهما ، كابن ماجه ، وابي داود السجستاني ، وابي عيسى الترمذي ، وابي عبد الرحمن النسائي . ومؤلفات هؤلاء الستة هي اصح كتب الحديث ، واليها المرجع في هذا العلم ، وتعرف بالستة الصحاح ، وكل ما الف بعدها كان شرحاً او تلخيصاً لها . بيد ان الصحيحين الاولين هما خير ما الف في الحديث الى اليوم .

١ البخاري : مولده سنة ١٩٤ هـ . وموته سنة ٢٥٦ هـ (٨٠٩ - ٨٦٩ م) .

٢ مسلم : مولده سنة ٢٠٦ هـ . وموته سنة ٢٦١ هـ (٨٢١ - ٨٧٤ م) .

هو علم تعرف به الاحكام الشرعية في افعال المكلفين حلالها وحرامها . وكانوا يستخرجونها قديماً من الكتاب والسنة^١ . فلما عظمت امصار الاسلام ، واتسع سلطانه في الآفاق ، وتعددت الحوادث واختلفت باختلاف الزمان والمكان ، اضطروا الى الاجتهاد في الاستنباط ، فاستخرجوا علم الفقه . وسلكوا فيه طريقين : طريق اصحاب الرأي والقياس ، وهم العراقيون . وطريق اصحاب الحديث وهم الحجازيون . وكان اهل العراق ذوي علم وبصر ، لان أكثرهم من الاعاجم المعرّقين في الحضارة . فأتروا تحكيم آرائهم ، وضعفت ثقتهم بالاحاديث لما نالها من الاصطناع ، فلم يركنوا الى سوى القليل منها ، وصاحب هذا المذهب ابو حنيفة وهو فارسي الاصل . واما اهل الحجاز فان الحديث كان متوافراً عندهم ، لكثرة الصحابة في المدينة ومكة ، فاعتمدوا عليه في احكامهم ، ونبذوا الرأي والقياس لانهم اهل بدواة ليس لهم من العلم والثقافة ما لاهل العراق ، وصاحب هذا المذهب مالك بن أنس الاصبحي . واختص مذهباً بدليل آخر غير الكتاب والسنة وهو الاجماع . ويريد به ما اجمع عليه اهل المدينة من عمل او ترك باعتبار انهم تابعون لمن قبلهم حتى يبلغوا الى الجيل الذين عاصروا الرسول واخذوا عنه .

ونبذ القياس ايضاً طائفة من العلماء وهم الظاهرية ، وإمامهم داود بن علي الاصبهاني . وجعلوا محور مباحثهم ظاهر الكلام بمعزل عن كل تأويل . ولكن مذهبهم لم ينتشر ، ولم يُعدَّ من المذاهب المقررة في الاسلام ، وهي اربعة عند السنين : مذهب ابي حنيفة ، ومذهب مالك ، ومذهب الشافعي ، ومذهب ابن حنبل .

ابو حنيفة ٦٩٩ - ٧٦٧ م و ٨٠ - ١٥٠ هـ

هو الثعمان بن ثابت ، فارسي الاصل ، نشأ بالكوفة ، واخذ عن علمائها ، واستنبط

فقيه من القرآن، وما صح عنده من الحديث، وعدده قليل لا يجاوز السبعة عشر. وكان اعتماده في الغالب على الرأي والقياس، وتابعه في ذلك أكثر أئمة العراق. واستقدمه المنصور من الكوفة الى بغداد، لينافس به مالك بن أنس، بعد ان افق مالک بخلع بيعته، وتأييد دعوة محمد بن عبد الله العلوي.

وقضى ابو حنيفة حياته بالزهد والورع. وأريد على القضاء غير مرة، فرفض مخافة ان يصدر عنه خطأ يحمل وزره. وقيل ان المنصور حبسه لرفضه القضاء، وأذاه حتى مات. وقيل بل حبسه لانه رأى منه تشيعاً.

وكانت وفاته في بغداد، ولم يصل اليها شي. من آثاره في الفقه. واما وصل اليها كتب تلاميذه ولا سيما ابو يوسف الانصاري، ومحمد بن الحسن الشيباني، ويعرفان بالصاحبين اي صاحبي ابي حنيفة.

والمذهب الحنفي اعم المذاهب، وابعدها انتشاراً في بلاد الاسلام كالعراق وسوريا وتركيا والعجم والهند وغيرها. ذلك انه في اعتماده على الرأي والقياس، يقرب من التساهل ويتعد عن الضغط الشديد، فيلائم احوال الشعوب المتحضرة أكثر من سواه.

مالك ٧١٣ - ٧٩٥ م و ٩٥ - ١٧٩ هـ

هو مالك بن أنس الأصبحي، عربي الاصل ولد بالمدينة. واخذ الحديث عن علمائها، وبرع في علوم الدين. وكانوا يعملون عليه في الفتوى حتى قيل: «لا يُفتي ومالك بالمدينة». وقد استنبط مذهبه من الكتاب والسنة، ويختلف عن ابي حنيفة في كثرة اعتماده على الحديث، وهو اول من ألف فيه. وكان يتشيع للعلويين، حتى انه افق بخلع المنصور، فامر به والي المدينة، وكان يومئذ جعفر بن سليمان عم المنصور، فجرد من ثيابه، وضرب بالسياط، ومدت يده حتى انخاضت كتفه. على ان ذلك لم يضع من شأنه، بل زيد رفعة وعلاء. وكان الرشيد اذا قدم المدينة حضر مجلسه، وسمع منه.

وكانت وفاته بالمدينة . واشهر اثاره الباقية كتاب الموطأ في الحديث والفقه .
واختص بالمذهب المالكي اهل الحجاز والغرب والاندلس .

الشافعي ٧٦٧-٨١٩ م و ١٥٠-٢٠٤ هـ

هو ابو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي القرشي . ولد بمدينة غرة ، وحمل الى مكة وهو ابن سنتين ، فنشأ فيها فقيراً . وحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين . ثم رحل الى البادية ، وطلب الشعر واللغة ، فنال منهما قسطاً حسناً . ثم تفقه وحفظ موطأ مالك ، وافتي وهو ابن خمس عشرة سنة وجاء بغداد فلقني اصحاب ابي حنيفة فأخذ عنهم . ثم رحل الى مصر واقام بالفسطاط واملئ مذهبه في الفقه ، وهو وسط منج به طريقة اهل العراق بطريقة اهل الحجاز . وخالف مالكا في كثير من مذهبه ، ولكنه تشبث بالحديث .

وعرف الشافعي بالذكاء والحفظ وفصاحة اللسان ، وقوة الحجة . وعرف ايضاً بالعدل والامانة والزهد والعفاف والسخاء . وكانت وفاته في مصر فدفن بالعرفاء ومقامه معروف . وله من الآثار رسالة في اصول الفقه ، والمسند في الحديث . ومقلدو مذهبه هم اهل مصر . وفي سوريا ولبنان طائفة كبيرة من الشوافعة ولكن المذهب الحنفي هو المتبع في الحكم والافتاء ، انتقل بالإرث عن الاتراك وهم أحناف .

ابن حنبل ٧٨٠-٨٥٥ م و ١٦٤-٢٤١ هـ

هو ابو عبدالله احمد بن حنبل الشيباني ، ولد في بغداد ، وبها نشأ وتعلم . وكان من اصحاب الشافعي ، فلما خرج الشافعي الى مصر قال : « خرجت من بغداد ، وما خلفت بها اتقى ولا افقه من ابن حنبل . » وفي ايامه اشتد ساعد المعتزلة ، فدعي الى القول بخلق القرآن في مجلس المعتصم ، فلم يفعل . فضرب سبعة وعشرين سوطاً ، ضرباً موجعاً حتى سال منه الدم واغمي عليه ، ثم حبس وهو مصر على الامتناع .

وكان حسن الوجه ربعة يمتصب بالحناء ، خضباً ليس بالقاني . وكان اروى الناس

فقيه من القرآن، وما صح عنده من الحديث، وعدده قليل لا يجاوز السبعة عشر .
وكان اعتماده في الغالب على الرأي والقياس، وتابعه في ذلك اكثر ائمة العراق . واستقدمه
المنصور من الكوفة الى بغداد، لينافس به مالك بن أنس، بعد ان افق مالك بن جلعج
بيعته ، وتأييد دعوة محمد بن عبد الله العلوي .

وقضى ابو حنيفة حياته بالزهد والورع . وأريد على القضاء غير مرة، فرفض مخافة
ان يصدر عنه خطأ يحمل وزره . وقيل ان المنصور حبسه لرفضه القضاء، وآذاه حتى
مات . وقيل بل حبسه لانه رأى منه تشيعاً .

وكانت وفاته في بغداد، ولم يصل اليها شي . من آثاره في الفقه . واما وصل اليها
كتب تلاميذه ولا سيما ابو يوسف الانصاري، ومحمد بن الحسن الشيباني ، ويعرفان
بالصاحبين اي صاحبي ابي حنيفة .

والمذهب الحنفي اعم المذاهب ، وابعدها انتشاراً في بلاد الاسلام كالعراق
وسوريا وتركيا والعجم والهند وغيرها . ذلك انه في اعتماده على الرأي والقياس ،
يقرب من التساهل ويتعد عن الضغط الشديد، فيلائم احوال الشعوب المتحضرة اكثر
من سواه .

مالك ٧١٣ - ٧٩٥ م و ٩٥ - ١٧٩ هـ

هو مالك بن أنس الأصبحي ، عربي الاصل ولد بالمدينة . واخذ الحديث عن
علمائها ، وبرع في علوم الدين . وكانوا يعملون عليه في الفتوى حتى قيل : « لا يُفتي
ومالك بالمدينة . » وقد استنبط مذهبه من الكتاب والسنة ، ويختلف عن ابي حنيفة
في كثرة اعتماده على الحديث، وهو اول من ألف فيه . وكان يتشيع للعلويين ، حتى
انه افق بن جلعج المنصور ، فامر به والي المدينة ، وكان يومئذ جعفر بن سليمان عم
المنصور، فجرد من ثيابه، وضرب بالسياط، ومدت يده حتى انخلمت كتفه . على ان
ذلك لم يضع من شأنه ، بل زيد رفعة وعلاء . وكان الرشيد اذا قدم المدينة حضر
مجلسه ، وسمع منه .

وكانت وفاته بالمدينة . واشهر اثاره الباقية كتاب الموطأ في الحديث والفقه .
واختص بالمذهب المالكي اهل الحجاز والغرب والاندلس .

الشافعي ٧٦٧-٨١٩ م و ١٥٠-٢٠٤ هـ

هو ابو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي القرشي . ولد بمدينة غرة ، وحمل الى مكة وهو ابن سنتين ، فنشأ فيها فقيراً . وحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين . ثم رحل الى البادية ، وطلب الشعر واللغة ، فنال منهما قسطاً حسناً . ثم تفقه وحفظ موطأ مالك ، وافتي وهو ابن خمس عشرة سنة وجاء بغداد فلقي اصحاب ابي حنيفة فأخذ عنهم . ثم رحل الى مصر واقام بالفسطاط واملى مذهبه في الفقه ، وهو وسط منج به طريقة اهل العراق بطريقة اهل الحجاز . وخالف مالكاً في كثير من مذهبه ، ولكنه تشبث بالحديث .

وعرف الشافعي بالذكاء والحفظ وفصاحة اللسان ، وقوة الحجة . وعرف ايضاً بالعدل والامانة والزهد والعفاف والسخاء . وكانت وفاته في مصر فدفن بالعرافة ومقامه معروف . وله من الآثار رسالة في اصول الفقه ، والمسند في الحديث . ومقلدو مذهبه هم اهل مصر . وفي سوريا ولبنان طائفة كبيرة من الشوافعة ولكن المذهب الحنفي هو المتبع في الحكم والافتاء ، انتقل بالإرث عن الاتراك وهم أحناف .

ابن حنبل ٧٨٠-٨٥٥ م و ١٦٤-٢٤١ هـ

هو ابو عبدالله احمد بن حنبل الشيباني ، ولد في بغداد ، وبها نشأ وتعلم . وكان من اصحاب الشافعي ، فلما خرج الشافعي الى مصر قال : « خرجت من بغداد ، وما خلفت بها اتقى ولا افقه من ابن حنبل . » وفي ايامه اشتد ساعد المعتزلة ، فدعي الى القول بخلق القرآن في مجلس المعتصم ، فلم يفعل . فضرب سبعة وعشرين سوطاً ، ضرباً موجعاً حتى سال منه الدم واغمي عليه ، ثم حبس وهو مصر على الامتناع .

وكان حسن الوجه ربعة يحنض بالحناء ، خضباً ليس بالقاني . وكان اروى الناس

للحديث . قيل انه حفظ منه الف الف ومذهبه في الفقه بعيد من الاجتهاد يندى الراي والقياس ، ويتشبه بالاحاديث .

وكانت وفاته في بغداد ، وقبره مشهور بها . وذكروا انه شهد جنازته ثمان مئة الف من الرجال ، وستون الفا من النساء . وله من الاثار كتاب المسند ضمنه ما ينيف على اربعين الف حديث . واتباع المذهب الحنبلي قليل ، تجد منهم في بعض نواحي الشام والعراق ، وهم احفظ الناس للسنة .

وقد وقف التقليد في الاسلام عند اصحاب المذاهب الاربعة ، وسد باب الاجتهاد باعتبار الكمال فيها . غير ان الشيعة العلوية انفردت بمذهب وفقه خاص بها . وقامت اجتهادات علمائها على اساس سياسة الخلافة ، وما جرى من الخلاف عليها ، والاجتهاد عندهم مفتوح الابواب . وانفرد بمثل ذلك الخوارج ، وكانت الخلافة ايضاً اساس مذهبهم واجتهاداتهم .

البرع^١

اتيج للشرق ان يكون منبت الاديان ومهبط الوحي والالهام . ثم أتيح له ان يصبح اخصب مرتع للبدع وما فيها من مذاهب وطرائق . والبدع في الشرق وليدة العلم والتفكير ، وريية الفلسفة والمنطق . فقد انتشرت في النصرانية بعد ما استبحر ابناؤها في العلوم ، وهكذا كان حظ الاسلام منها فان العرب في بداوتهم وفطرتهم تلقوه باخبات وخضوع ، ولم يخطر لهم في بال ان يحصوه ، ويبحثوا في حقيقة واحكامه . وانما اكتفوا بالنظر الى اعراض المسائل الدينية من تفسير او تأويل . على ان ذلك الايمان الساذج اذا اقنع العرب في بدء امرهم فما كان ليقنع الشعوب العجيبة التي اختلطت بهم ، وتركت عقائدها القديمة ، ورضيت الاسلام ديناً ، ولها من العلم والحضارة ما يخرج بها عن الجود الفكري . ولكن لم يكن لها يومئذ من الحرية والقوة والنفوذ

١ البدع : جمع بدعة وهي كل عقيدة محدثة في الدين تخالف اصوله المقررة .

والعلم بلغة القرآن ما يكتنفها من الجدل في الدين . فلم يرتفع لها صوت حتى كان من اثر امتزاجها بالعرب ان نشأ جيل جديد لغته عربية وتفكيره عجمي . فنبغ منه جلة من العلماء والمفسرين ، والفقهاء والمحدثين . فانصرفوا الى تقصي معاني القرآن ، والاجتهاد في تفسيرها وتأويلها . فانكروا ما لا ينطبق على عقولهم ، وابتدعوا اقوالاً واراء لا عهد للمسلمين بها ، فتعددت فيهم المذاهب . فكان منها مذهب القدرية ، وهم الذين جحدوا القدر ، وقالوا بان الانسان خالق لفعله ، وان الكفر والمعاصي ليست بتقدير الله .

ومنها الجبرية وهم الذين يجعلون الانسان مسيراً في اعماله لا مخيراً ، وينكرون على الله جميع الصفات معتقدين انها ناقصة فيه تعالى كما هي في الانسان . ومنها المشبهة وهم الذين شبهوا الله بال مخلوقات ، وجعلوا له يداً وقدماً ، ووجهاً . ومنهم الصفاتية وهم الذين ذهبوا الى التشبيه في الصفات ، فاثبتوا لله الجهة والاستواء ، والتزول والصوت . وقد جرهم الى ذلك ما ورد في القرآن من آيات توهم التشبيه ففسروها على ظواهرها ، وغلبوها على ادلة التنزيه ، ولكنهم تخلصوا بقولهم : جسم لا كالأجسام وجهة لا كالجهات . ثم كانت المعتزلة وهي اعظم البدع في الاسلام ، واشدها خطراً ، نشأت في البصرة ، ومؤسسها واصل بن عطاء^١ . وكان يجلس الى الحسن البصري فلما ظهر الاختلاف ، وقالت الخوارج بتكفير متركب الكبائر . وقالت الجماعة بانه مؤمن وان فسق بالكبيرة ، خرج واصل بن عطاء عن الفريقين . وقال : « ان الفاسق من هذه الامة لا مؤمن ولا كافر : منزلة بين منزلتين^٢ . » فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه ، وجلس اليه عمرو بن عبيد فقبل لها ولا تباعاها معتزلة .

١ واصل بن عطاء من الموالي ولد بالمدينة سنة ٨٠ هـ وتوفي في البصرة سنة ١٣٠ هـ (٦٩٩-٧٢٨ م) .

٢ خالفت المعتزلة الخوارج وجماعة السنة في عقاب المؤمن اذا ارتكب الكبيرة ومات عن غير طاعة وتوبة ، فقضت بخلوده في النار ولكن جعلت عقابه اخف من عقاب الكفار . واما الخوارج فقضت بانه كافر لا خلاص له . واما جماعة اهل السنة فقالت بانه مؤمن لا يستحق الخلود في النار ، فاما يغفو الله عنه برحمته . او يعاقبه زمناً على قدر جرمه . او يشفع فيه النبي اذ قال : « شفاعتي لاهل الكبائر من امتي . »

وقد خالفت المعتزلة المشبهة في تجسيم الذات، ولكنها اسرفت في مذهبها، فقضت بتزيه الله عن صفات المعاني كالعلم والقدرة والارادة والكلام، زاعمة ان اثباتها يقضي بتعدد القديم والاشراك بالخالق الازلي. وقادها نفي الكلام عن الله الى مخالفة الجماعة في ازالة القرآن فقالت بانه مخلوق. وخالفت الجهرية فقالت بان الله منح الانسان القدرة، واعطاه الحرية في استخدامها، فاصبح الانسان خالقاً لاعماله خيراً وشرها. والله منزّه ان يضاف اليه شر او خير، لانه لو خلق الظلم كان ظالماً، كما لو خلق العدل كان عادلاً. ولما قامت الدولة العباسية ونقلت فلسفة اليونان، وعلم المنطق، اقبل المعتزلة على دراستها، واعتمدوا عليها في اجاثهم ومناظراتهم. فتوافرت ادلتهم واستحكمت حججهم، ورجحت كفتهم، وشالت كفة اهل السنة. لان العلماء السنيين حسبوا دراسة المنطق كفراً وزندقة، فنفروا منه وابوا ان يتخذوه معياراً لادلتهم العقلية. وكانوا يقولون: «من تمنطق شهراً، فقد ترندق دهرأ». فقصروا في مناظرة اصحاب الاعتزال، وافحشهم هؤلاء مجدهم وفلسفتهم. وازدادت المعتزلة صولة وانتشاراً في عهد المأمون والمعتصم والواثق لان هؤلاء الخلفاء آثروا الاعتزال، وجاهروا بنجاق القرآن، واضطهدوا جماعة السنة، واخفتوا اصوات علمائهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ولا سيما المأمون فانه كان اشدهم انتصاراً للفلسفة واصحابها، والمعتزلة وارانها. ولا ريب ان تغلب الفلسفة على السنة، والمعتزلة على الجماعة احدث اثاراً للجديد على القديم، وتغليباً للعنصر الفارسي على العنصر العربي.

وظل المعتزلة اصحاب الكلمة الراجحة حتى استتخلف المتوكل في العصر الثاني فاضطهدهم وقتل منهم، وانتصر للسنة، ورفع علماؤها رؤوسهم. ثم كان لها من ابي الحسن الاشعري ركن ركين، قاوم المعتزلة واطعن نفوذها الادبي في الملة بعد ان استفحل امرها.

١ ولد ابو الحسن الاشعري في البصرة سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) واخذ علم الكلام عن ابي علي الجبائي شيخ المعتزلة، وتبعه في الاعتزال اكثر من ثلاثين عاماً، ثم عاد الى السنة، ووضع طريقته الاشعرية في علم الكلام، وخالف فيها اكثر عقائد المعتزلة، فرد عليه اصحاب الاعتزال، فما زال يدحض حججهم حتى انقطعوا عن مناظراته، وتبعه فريق منهم، ومن غيرهم. وكانت وفاته سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م).

وليس من شأننا في هذا البحث ان نعدد جميع البدع التي تفشت في الاسلام على اثر نقل العلوم اليونانية . ولكن نختصر فنقول ان هذه العلوم وما صاحبها من حضارة جديدة ، وحرية وتساهل في الامور الدينية ، كان لها اثر عظيم في افكار المسلمين ، لانها جعلت الشك يتغلب على اليقين ، فضعف الايمان واجترأ الناس على الدين ، فراحوا يتفلسفون في تأويل شرائعه واحكامه ، فذهبوا فيه كل مذهب ، وابتعدوا كثيراً عن اسلافهم في فجر الاسلام . ولم تقم بدعة الا تفرع منها عدة مذاهب وطرائق ، فدخل على الاسلام اشياء كثيرة ليست منه .

على ان هذه البدع وان تكن اضرّت بالدين ، فانها افادت التفكير الاسلامي ، وأعدته اعداداً حسناً لاستنباط الفلسفة العربية .

علم الكلام

هو علم يتضمن الحجاج عن عقائد الدين بالادلة العقلية . وكان ظهوره بعد ان تفشت البدع في الاسلام ، واختلف اصحابها واهل السنة على تفصيل هذه العقائد ، فدعا ذلك الى الجدل والتناظر ، والاستدلال بالعقل . فعظمت الفتنة وتمسك كل ذي رأي برأيه ، واشتد الخصام على الاخص بين المعتزلة والسنة لان المعتزلة كانوا اشد المبتدعة خطراً ذلك بأن مذهبهم وليد التفكير والفلسفة . وليس كذلك الشيعة والحوارج ، فانهما قاما على اساس سياسة الخلافة ، وكان احتكامهما الى السيف اكثر منه الى اللسان . ولم يكن للمذاهب الاخرى شأن عظيم فيحتفل اهل السنة باصحابها ، لذلك انصرفوا الى مناظرة اهل الاعتزال فنهض علم الكلام على ايدي هاتين الفتنتين . ثم تم ازدهاره بعد ان نشأت الطريقة الاشعرية ، واقبل علماء السنة على المنطق يتدارسونه ، لانهم فرقوا بينه وبين الفلسفة ، وعرفوا انه علم القياس والتعليل والاستنتاج .

ولم يشتهر متكلمو السنة قبل الاشعري شهرة متكلمي المعتزلة . فان هؤلاء نبغ منهم جملة من الفضلاء الاعلام اشباه واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، وابي الهذيل العلاف ، والنظام ، والجاحظ ، وابي علي الجبائي وغيرهم .

الادب والرواة

الادب والرواة : ابو عبيدة . الاصمعي . محمد بن سلام . ابو زيد
القرشي .

شرع الرواة في العصر الاموي يجمعون اشعار العرب واقوالهم واخبارهم ، وما
اُطل العصر العباسي حتى بدأت تظهر المجموعات الادبية ، وتطور النقد بعض التطور ،
فاصبح اهل العلم ينظرون في صحيح الشعر ومنحوله . ويجعلون للشعراء طبقات متميزة ،
ويدركون عليهم سرقاتهم ، ومخالفاتهم للقواعد النحوية ، وسقطاتهم في الالفاظ
والمعاني . غير انهم لم يخرجوا في احكامهم عن دائرة من تقدمهم ، فكانوا يفضلون
الشاعر ببيت من الشعر ، ثم يفضلون غيره ببيت آخر . وهكذا كان يفعل اسلافهم ،
حين يقول : « فلان اشعر بني فلان ، او اشعر العرب او اشعر الناس . »
ويؤخذ عليهم افراطهم في تقديس القديم ، حتى ضل بهم المنطق في النقد .
فكانوا اذا اعجبهم شاعر اسلامي او موأد قالوا : « لو ادرك يوماً من الجاهلية لفضل
على كثير منهم ، او لما فضل عليه احد . »

واشتهر في هذا العصر طائفة كبيرة من الرواة نكتفي بذكر اربعة منهم ، وهم
ابو عبيدة ، والاصمعي ، ومحمد بن سلام ، وابو زيد القرشي .

ابو عبيدة

٧٢٨ — ٨٢٤ م و ١١٠ — ٢٠٩ هـ ؟

مبانه

هو مَعْمَر بن الْمُثَنَّى ينتسب الى تيمم قریش بالولاء . وكنيته ابو عبيدة ، وكان

جده يهودياً من اهل باجرؤان^١ . ونشأ ابو عبيدة في البصرة ، وبها درس على ابي عمرو بن العلاء . فلما هبت ريحه اقبل اليه طلاب العلم يتخرجون عليه . ثم استقدمه الفضل بن الربيع^٢ الى بغداد سنة ١٨٨ هـ فاقام فيها يؤلف ، ويفيد من يحضر مجلسه . وجرت بينه وبين الاصمعي مناظرات كثيرة . وكان شعوبياً شديداً التعصب على العرب ، فراح يطعن فيهم ، ويغزق اعراضهم ، وينشر مخازيهم في كتابه المثالب . فاوغر عليه صدور الناس ، فدس له بعضهم سمّاً في موز وهو في البصرة فمات . وكانت وفاته في خلافة المأمون ، ولم يحضر جنازته احد لانه لم يسلم من لسانه انسان شريف او غير شريف . وكان وسخ الثياب ، رث الهيئة ، سيئ المنظر ، غليظ الشفة ، الثغ ، مدخول النسب ، مدخول الدين ، يميل الى مذهب الخوارج ، شديد التعصب للشعوبية ، لا تقبل شهادته لفساد في اخلاقه .

وكان اذا تحدث او قرأ لحن عامداً . واذا انشد بيتاً لا يقيم وزنه . ومن قوله :
« النحو شؤم كله . »

اماره

تناهز مؤلفاته المائتين وهي في القرآن واللغة والامثال والفتوح ، والانساب والمثالب ، وبيوتات العرب واياهم ، والتراجم وغيرها . ولكن لم يبق منها الاقلها ، ككتاب نقائض جرير والفرزدق ، طبع في ليدن بمجلدين كبيرين . وكتاب طبقات الشعراء ، ويسميه الفهرست الشعر والشعراء .

مصرته

لاي عبيدة مقام سام في طبقات الادباء ، فانه كان اغزرهم مادة ، واوسعهم

- ١ قال ابن خلكان : « باجرؤان اسم لقرية من بلاد بلخ من اعمال الرقّة . واسم لمدينة بنواحي ارمينية ، وغالب ظني ان ابا عبيدة من هذه المدينة . »
- ٢ كان الفضل يومئذ وزيراً لهرون الرشيد لاوزيراً للامين كما ذكر جرجي زيدان في كتابه تاريخ ادب العرب .

رواية ، عالماً باخبار العرب و ايامهم ، و انسابهم و لغاتهم . يروي الشعر ، ولكنه قلما
عني بتفسيره و نقده . وله الفضل بانه مهد الطريق لغيره من جامعي الاخبار . فان
الاصمعي لما وضع اغانيه اعتمد على كتاب ايام العرب لابن عبيدة . و روى عنه كثيرون
كالقاسم بن سلام ، و ابي حاتم السجستاني ، و عمر بن شبة .

وهو اول من الف في علم البيان ، و تأليفه يعرف بمجاز القرآن . ولا نعي انه
اوضح طرق ذاك العلم في كتابه هذا ، فانه كان يكتفي بان يجمع الالفاظ التي
استعملت في غير معناها الحقيقي ، دون ان يفرق بين انواع المجاز ، ويفصل حدوده
واصوله .

واجمع اكثر العلماء على صحة روايته فقالوا انه لم يكن يحكي عن العرب الا
الشيء الصحيح ، ولا سيما كلامه على مفاخرهم ، فانه لم يبالغ بها فعل غيره من الرواة
المتعصبين للعرب بل نقلها على حقائقها . ويؤخذ عليه شيء من الضعف في عبارته .
و كان ابو نواس يتلذذ له ، فاذا سئل عنه قال : « اديم طوي على علم . » اي ان
ظاهر كلامه جاف ، وباطنه خصب . وفاضل بعضهم بينه وبين الاصمعي فقالوا :
« انه كان كثير الفوائد ، جم العلوم مع سوء عبارة ، و الاصمعي قليل الفائدة مع حسن
انشاء و زخرفة . » و ابو عبيدة اجمع الرواة بلا خلاف .

الاصمعي

٧٣٩ - ٨٣١ م و ١٢٢ - ٢١٦ هـ ؟

حياته

هو عبد الملك بن قُرَيْب ينتهي نسبه الى مضر . ويلقب بالاصمعي نسبة الى
احد جدوده اصمعي ، ويكنى ابا سعيد . ولد في البصرة ، ودرس على ابي عمرو بن

العلاء والحليل، وخلف الأحمر، وغيرهم من أئمة عصره. وأكثر الخروج إلى البادية، واختلط بالأعراب وساكنتهم، وأخذ عنهم، حتى اجتمع له من الأخبار والأشعار والنوادر والغريب شيء كثير. واتصل بالرشيد واختص به، فاجزل له العطاء. وبالغ في إكرامه، وكانت وفاته بالبصرة أيام المأمون. وعرف بالتقوى والتدين، وقوة الحافظة والظرف، ولكنه كان بخيلاً.

أناره

ذكر له ابن النديم نحو أربعين كتاباً أكثرها في اللغة، ثم في الشعر. ولم يصل إلينا إلا بعضها. منها في الشعر: الإصمعيّات وهي مجموعة اختارها من شعر الشعراء المتقدمين، وضمنها شيئاً من النقد. ورجز العجّاج وهو مجموع ما رواه الإصمعي للعجّاج من الأراجيز. ومنها في اللغة كتاب السماء والوحوش، وكتاب أسماء الأبل، وكتاب الحيل، وكتاب الدارات، وكتاب النبات والشجر، وكتاب النخل والكرم وغير ذلك.

مفرداته

للإصمعي منزلة جليلة في اللغة والرواية والأدب حتى أصبح اسمه بعد موته صفة تدل على سعة الإطلاع، فيقال هذا رجل إصمعي. وتعود هذه الشهرة في كثرتها على ما أسند إليه من أقاصيص وسير تداولها الناس كقصة عنتره وغيرها، فشر عند العامة فضلاً عن الخاصة.

وكانت تأليفه في اللغة مستنداً وثيقاً للمعاجم الكبرى. وامتاز الإصمعي في فصاحته وبيانه، وحسن إنشاده الشعر حتى ليضيع عنده الرديء والجيد. وقد فاضل أبو نواس بينه وبين أبي عبيدة فقال: «ان أبا عبيدة لو أمكنوه لقرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين، وأما الإصمعي فببلي يطربهم بنغماته.»

واشتهر بقوة الذاكرة؛ قيل أنه كان يحفظ اثني عشر ألف أرجوزة، منها ما يبلغ مائة بيت أو مائتين. وما يروى عن قوة ذاكرته خبر انتصاره على أبي عبيدة في حضرة

الفضل بن الربيع حينما وقف يسمي اعضاء الفرس عضواً عضواً وينشد ما قالت الشعراء فيه . ولم يستطع ذلك ابو عبيدة على سعة تأليفه في الخيل .
وعرف الاصمعي بمهارته في نقد الشعر ، اخذ ذلك عن استاذه خلف الاحمر . وله في الشعر والشعراء اراء يعول على كثير منها .

محمد بن سلام

٨٤٦ م و ٢٣٢ هـ^١

مات

ليس لدينا عن حياته شيء نذكره ، فكل ما نعلم عنه انه يكنى ابا عبد الله ، وان نسبه ينتهي الى بني جُمَح وهم بطن من قريش . وانه نشأ في البصرة ، واخذ عن الحليل وحماد بن سلمة وغيرهما . وروى عنه كثيرون منهم الامام احمد بن حنبل وثلعب وابو حاتم وسواهم . وكانت وفاته في السنة التي مات بها الواثق وبويع للعتوكل ابن المعتصم .

اماره

ذكر له صاحب الفهرست كتاباً في بيوتات العرب ، وآخر في مُلَح الشعر ولكنها مفقودان . ولم يصل اليها الا كتابه طبقات الشعراء ، صدره بمقدمة في نقد الشعر ، فتكلم اولاً على علماء البصرة ، وظهر النحو عندهم ، واول من وضعه منهم . وعدهم واحداً بعد واحد ، ذا كراً من اخذ منهم عن الآخر . وهو يستند اليهم في روايته ، ولا يرى من علماء الكوفة من يستحق الذكر الا المفضل الضبي . ولا غرو في ذلك

^١ جعل صاحب الوسيط وفياته سنة ٤٣١ هـ وهذا خطأ بين لان الاشخاص الذين روى عنهم والاشخاص الذين رووا عنه يتقدمون كثيراً هذا التاريخ .

فابن سلام بصري يتعصب لبلده . واكثر رواياته عن خلف الاحمر واي عمرو بن العلاء . ويونس واي عبيدة ، والاصمعي . وعلى الغالب يشاركه فيها نسيبه ابو خليفة الفضل ابن الحباب الجمحي ، فتسمعه يقول : « اخبرنا ابو خليفة اخبرنا ابن سلام . » او « انا ابو خليفة انا ابن سلام . »

وفي كلامه على الشعر واقوال العلماء فيه يشير الى ما ادخل الرواة من الشعر المصنوع ، ومن ذلك الاقوال التي اضافوها الى عاد وثمرود .

وجعل كتابه في جزئين فالجزء الاول يختص بالشعراء الجاهليين والمخضرمين . والجزء الثاني يختص بالشعراء الاسلاميين . وهو يستفيض في اخبار الاسلاميين واشعارهم اكثر مما يستفيض في اخبار الجاهليين . واذا ذكر الشاعر ذكر نسبه واقوال العلماء فيه ، واورد شيئاً من شعره واخباره . وربما ابدى رأيه الخاص وعارض به اراء غيره من العلماء والرواة .

وجعل الجاهليين والمخضرمين عشر طبقات ، في كل طبقة اربعة فحول . والحق بهم طبقة لاصحاب المراثي . ثم اضاف اليهم شعراء القرى وهي المدينة وكنافها ، ومكة والطائف والبحرين ، واما اليامة فلم يعرف بها شاعراً مشهوراً . وجعل الاسلاميين عشر طبقات ايضاً ، وفي كل طبقة اربعة شعراء .

الجاهليون والمخضرمون

الطبقة الاولى : امرؤ القيس ، ونابعة بني ذبيان ، وزهير بن ابي سلمى ، والاعشى .
الطبقة الثانية : سقط منها شاعران في النسخ ، وبقي كعب بن زهير ، والخطيئة . وهي متصلة بالطبقة الاولى كأنها منها اسقوط . مقدمتها مع سقوط خبر الشعراء اللذين ذكرهما قبل كعب والخطيئة .
الطبقة الثالثة : نابعة بني جعدة ، وابو ذؤيب الهذلي ، والشماخ بن ضرار ، ولبيد ابن ربيعة .

الطبقة الرابعة : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الابرص ، وعلقمة الفحل ، وعدي بن زيد .
الطبقة الخامسة : خدّاش بن زهير ، والاسود بن يعفر ، والمُجَبَّل بن ربيعة ، وقيم
بن مُقْبِل .

الطبقة السادسة : عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حِلْزَة ، وعنترة بن شداد ، وسويد
ابن ابي كاهل .

الطبقة السابعة : سلامة بن جندل ، والحُصَيْن بن الحِجَام المُرِّي ، والمتلبس ، والمسيب
ابن عَلس .

الطبقة الثامنة : عمرو بن قُمَيْثَة ، والنَّجَر بن تَوَلَّب ، وأوس بن غلفاء ، وعوف بن
عَطِيَّة .

الطبقة التاسعة : ضاري بن الحرث ، وسويد بن كُرَاع ، والخُوَيْدِرَة الذبياني ،
وسُحَيْم عبد بني الحَسْحَاس .

الطبقة العاشرة : أُمَيَّة بن حَرِثَان ، وحريث بن مُخَفَّض ، والسُّكْمَيْت بن معروف
الأسدي ، وعمرو بن شاس .

طبقة اصحاب المراتي : مُتَمِّم بن نُويْرَة ، والحَنَسَاء ، واعشى باهلة وكعب بن سعد
الغنوي .

شعراء القرى

المدينة : من الخُزَرج : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة .
ومن الاوس : قيس بن الخطيم ، وابوقيس بن الأسَدَت .

مكة : عبدالله بن الزُّبَيْر ، وابوطالب بن عبدالمُطَّلِب ، وابوسفیان بن الحارث ،
ومسافر بن ابي عمرو ، وضرار بن الحَطَّاب .

الطائف : ابو الصَّلْت بن ابي ربيعة ، وابنه أُمَيَّة بن ابي الصلت ، وابو مِخْجَن ،
وغيلان بن سَلَمَة ، وكِنانة بن عبد ياليل .

البحرين : المُثَقَّب العبدي ، والممزق العبدي ، والمفضل بن معشر .

المدينة واكنافها : السموأل بن عاديء ، والربيع بن ابي الحُقَيْق ، وكعب بن الاشرف ، وشُرَيْح بن عُمران ، وشُعْبة بن غريض ، وابو قيس بن رِفاعَة ، وابو الذِّئال ، ودرهم بن زيد .

الشُعراء الاسلاميون

الطبقة الاولى : الفرزدق ، وجريز ، والاخلط ، وراعي الابل .

الطبقة الثانية : البَعِيث ، والقَطامي ، وكَثِير ، وذو الرُّمَّة .

الطبقة الثالثة : كعب بن جُعيل ، وعمرو بن احمر ، وسُخَيْم بن وَثيل . وأوس بن مَعْرُوء .

الطبقة الرابعة : نَهْشَل بن حَري ، وحَمِيد بن ثور ، والأشهب بن رُمَيْلة ، وعمرو ابن لَجَأ التَّيْمِي .

الطبقة الخامسة : ابو زُبَيْد الطائي ، والعُجَير السلولي ، وعبدالله بن هَمَّام السلولي ونُفَيْع بن أَقِيط الاسدي .

الطبقة السادسة (حجازية) : عُيَيْدالله بن قيس الرُّقَيَّات ، والاحوص الانصاري ، وجميل بن مَعْمَر ، ونُصَيْب بن رِيَّاح .

الطبقة السابعة : المتوكل اللَّيْثي ، ويزيد بن ربيعة ، وزِياد الاعجم ، وعَدِي بن الرِّقَاع .

الطبقة الثامنة : عُقَيْل بن عُلْفَة المُرِّي ، وبَشامة بن الغدير ، وشَيْب بن البرصاء ، وُقْراد بن حَنْش^٢

١ رويت ايضاً نويغع ونافع .

٢ بشامة بن الغدير وقراد بن حنش شاعران جاهليان وذكر ذلك ابن سلام في كلامه عليها فوجودهما مع الشعراء الاسلاميين خطأ يبين .

الطبقة التاسعة (رَجَاز) : الاغلب العجلي ، وابو النجم العجلي ، والعجاج ، وابنه رؤبة .

الطبقة العاشرة : مزاحم بن الحارث العقيلي ، ويزيد بن الطَّشْرِيَّة ، وابو دؤاد الرؤاسي ، والقحيف بن سُلَيْم العقيلي .

مصرّله

يمتاز ابن سلام بانه اول من ألّف في طبقات الشعراء ، وقلده غيره ، فكان كتابه قدوة لسواه . وقد زاد في قيمته ان صاحبه لم يعتمد كل الاعتماد على اقوال الرواة في نقد الشعر والشعراء ، بل قابل بعضها ببعض ، وانتقدها وابدى رأيه فيها . وتكلم على صحيح الشعر ومنحوله ، و اشار الى تعصب العشائر في تفضيل الشعراء ، وانحى باللائمة على الرواة الذين افسدوا الشعر ، وخلطوا برواياتهم . فانكر رواية ابن اسحق في كثير من العنف ، وطعن على حماد وشهّره ، وما سلم منه خلف والمفضل . ولم تؤثر اساطير الاقدمين وخرافاتهم في صحة بصره في الشعر ، فرفض ان يكون ثمة شعر لعاد وثمود وسواهما من العرب البائدة . ولم يسخف كغيره فيروي شعراً للجن وادم وابليس والملائكة .

وقد راعى في تمييز طبقة الشاعر كثرة اثاره وقلتها . فجعل طرفه بن العبد ، وعبيد بن الابرص ، وعلقمة الفحل ، وعدي بن زيد في الطبقة الرابعة لقلة شعرهم على افواه الرواة . ولولا ذلك لوضعهم مع الاوائل .

وهو شديد الاحتياط في المفاضلة بين شعراء كل طبقة ، فتراه يذكّر الحجة لكل واحد منهم ، ثم يذكّر الحجة عليه . وحيناً يروى اقوال الرواة في تقديم الشاعر او تأخيره ، وحيناً يتركها على علاقتها ، فكأنه يجعل العهدة عليهم في ذلك . وقد استدرك في اول المقدمة ، فصرح بان ذكر الواحد قبل الآخر في كل طبقة لا يدل على الحكم له اذ لا بد من مبتدئ .

ويخلو نقده في الغالب من التعليل والفن ، وربما جرى غيره من الادباء الاقدمين

فحكم للشاعر بيت من الشعر ثم حكم لغيره بمثل ذلك .

واما لغة الكتاب فيغلب عليها الایجاز البلیغ ، ولكن لا تخلو بعض عباراتها من غموض واختلاط .

واما الاسلوب فانه خال من الروعة والفن ، ضعيف التنسيق والتأليف . يرينا صورة صادقة عن انشاء الكتب عند العرب في اول عهدهم بالتصنيف . وتظهر السداجة الفنية في جعل الشعراء طبقات ، في كل طبقة اربعة لهم منزلة واحدة . فمثل هذا الاتفاق في العدد لا يصح ان يعتمد عليه ، ولا يمكن التسليم بصحته لانه يضيق لمجال على الناقد الاديب ، وهيهات ان يسلم صاحبه من العثار .

على اننا لا نحاول ان نغمط فضل المؤلف فان كتابه كان قدوة صالحة لمن جاء بعده من مؤرخي الآداب ، فاستندوا اليه ، واثموا به . فقد رجع اليه صاحب الاغاني في ذكر طبقات الشعراء ، وكذلك فعل القالي والزجاج في اماليهما ، والسيوطي في كتابه المزهري .

ابو زيد القرشي

؟ . . .

حياته

هو محمد بن ابي الخطاب القرشي ، وكنيته ابو زيد . لم نقف له على ترجمة في الكتب التي بين ايدينا . وذكره جرجي زيدان في كتابه تاريخ اداب اللغة العربية ، وجعله من رجال القرن الثالث للهجرة اي العصر العباسي الثاني . وذكره سليمان البستاني في مقدمة الياذة ، وجعل وفاته سنة ١٧٠ للهجرة اي اواسط العصر الاول . ونحن نرى ان ابا زيد اولى بان يكون من اهل العصر الاول من ان يكون من اهل العصر الثاني لانه اورد في كتابه جمهرة اشعار العرب روايات سمعها من المفضل الضبي ، والمفضل توفي سنة ١٦٨ هـ . وهذا يدل على انه عاصره واخذ عنه .

لم يصل إلينا من آثاره سوى كتاب جُمهرة أشعار العرب ، جمع فيه ما اختاره العلماء من محاسن الشعر الجاهلي والإسلامي . وجعله في سبع طبقات في كل طبقة سبع قصائد ، واعتمد في هذا التقسيم على أبي عبيدة والمفضل .

الطبقة الأولى : أصحاب المعلقة وهم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابعة ، والاعشى ، ولييد ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة .

الطبقة الثانية : أصحاب المَجْمُهرات^١ وهم : عبيد بن الأبرص ، وعنترة ، وعدي بن زيد ، وبشر بن أبي خازم ، وأمّية بن أبي الصلت ، وخدّاش بن زهير ، والنمر بن تولب . ويظهر أن النساخ خالفوا في ترتيب الكتاب عمداً أو سهواً ، فجعلوا عنترة ثامن أصحاب المعلقة ، مع أن أبا زيد ذكره في مقدمته بين أصحاب المَجْمُهرات . فغير معقول أن يضعه في كتابه مع أصحاب المعلقة ، وهو لما ألزم تقسيم الطبقات سبعاً سبعاً ، وأعلن أسماء كل طبقة في المقدمة .

الطبقة الثالثة : أصحاب المنتقيات وهم : المسيّب بن علس ، والمُرْقِش الأصغر ، والمتلمس ، وعروة بن الورد ، والمهلل بن ربيعة ، ودريد بن الصّمة ، والمتنخل ابن عويمر الهذلي .

الطبقة الرابعة : أصحاب المَذَهَّبات وهم : حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، ومالك بن العجلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحينة بن الجلاح ، وأبو قيس بن الأسلت ، وعمرو بن أمية القيس . جميعهم من الأوس والخزرج .

الطبقة الخامسة : أصحاب المراثي وهم : أبو ذؤيب الهذلي ، وعلقمة بن ذي جَدَن الجُمَيْري^٢ ، ومحمد بن كعب الغنوي ، واعشى باهلة ، وأبو زبيد الطائي ، ومالك ابن الرّيب ، ومُتَمِّم بن نويرة^٣ .

١ المَجْمُهرات أي المحكمة السبك ، مأخوذة من الناقة المَجْمُهرة وهي المتداخلة الخلق كأنها جمهور الرمل .

٢ جعل علقمة في الكتاب الرابع بعد محمد بن كعب الغنوي ، واعشى باهلة .

٣ جعل منتم في الكتاب السادس أي قبل مالك بن الرّيب .

الطبقة السادسة : اصحاب المشوبات^١ وهم : نابغة بني جعدة ، وكعب بن زهير ،
والقطامي ، والخطيئة ، والشيخ ، وعمرو بن أحر ، وقيم بن ابي مقبل .
الطبقة السابعة : اصحاب الملححات^٢ وهم : الفرزدق ، وجريز ، والاخطل وعبيد
الراعي ، وذو الرمة ، والكميت ، والطرمح .

وصدّر ابو زيد هذا الكتاب بمقدمة انتقادية جعلها على ثلاثة اقسام . فقابل في
القسم الاول لغة الشعر بلغة القرآن ، ومجازه بمجازه ، وغريبه بغريبه . واطهر ان القرآن
لم يأت العرب بلغة جديدة ، فكل ما فيه من مجاز وغريب استعمله العرب في شعرهم
وقصدوا به الى المعنى الذي قصد اليه القرآن .

وتحدث في القسم الثاني عن اول من قال الشعر فروى اشعاراً للملائكة وابليس
وآدم والهمالة وعاد وثمود والجن . ثم انتقل الى رأي النبي واصحابه في الشعر ، فذكر
ان النبي كان يسمعه ويحيز عليه ، وانه لم يكن يستنكره كما زعم بعضهم . واورد
اشعاراً للخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة .

واما القسم الثالث فقد خصه بتعيين طبقات الشعراء وذكر امثالتهم . واورد طرفاً
من اخبارهم واقوال العلماء والرواة فيهم .

مخرجه

تقوم منزلة ابي زيد على كتابه جمهرة اشعار العرب ، فانه جمع فيه تسعاً واربعين
قصيدة من انفس الشعر الجاهلي والاسلامي . وقدم لها مقدمة حسنة في نقد الشعر
ومقابلة لغته بلغة القرآن ، وذكر اقوال الادباء في الشعراء وطبقاتهم . ولولا سخفه في
القسم الثاني من المقدمة ، لصان كتابه من الترهات . ولكن تعصبه الاعمى لدينه
ولغته جعله يقبل الاساطير والخرافات على علاقتها ، فجعل الشعر العربي يرجع الى عهد
آدم ، ويشترك في نظمه الانس والجن وسكان الارض والسماء وجهنم . فامتحننا اشعاراً

١ المشوبات : اي التي شأها الكفر والاسلام .

٢ اي الملحمة النظم .

لابليس وآدم والملائكة، وسمعنا أيضاً طائفة من الجن كانت تنتظر بعثة محمد فاسلمت
وقالت فيه شعراً قبل ان يظهر الاسلام .

ومن تعصبه انه انكر وجود الفاظ عجمية في القرآن مستنداً الى قول منسوب
الى ابن عباس وهو : « من زعم ان في القرآن غير العربية فقد افترى . » ولذلك جعل
كل لفظ دخيل في القرآن عربي الاصل ولكن له في اللغة العجمية اشباه تقاربه او
توافقه .

ويؤخذ عليه في نقد الشعر انه اورد اقوال غيره واستند اليها ، دون ان يعلمها
ويمحصها ، ويستخرج منها احكاماً يظهر فيها رأيه في الشعر والشعراء .

العصر العباسي الثاني

٨٤٦ — ٩٤٦ م و ٢٣٢ — ٣٣٥ هـ

«يبتدىء بخلافة المتوكل على الله، وينتهي»
«بقيام الدولة البويهية واستقلالها بالسلطان».

ملحة تاريخية

ضعف الخلافة العباسية

نفوذ الاتراك . نفوذ الخدم . نظام ولاية العهد . امهات الامراء . نظام الاقطاع . ثورات العلويين . ميزة العصر .

كانت خلافة المتوكل اشبه بهزخ عهت عليه الدولة العباسية من طور القوة والسلطان الى طور الضعف والاخلال . وقد اجتمعت اسباب شتى على ثل هذا العرش المورق الاعواد، فلم تزل به حتى قوضته تقويضاً . وهذه الاسباب ترجع في اكثرها الى نفوذ الاتراك والخدم . والى نظام ولاية العهد، واختلاف اجناس الجواري امهات الامراء . ثم الى اتساع المملكة العباسية ونظام الاقطاع فيها . ثم الى ثورات العلويين، ونفور العرب من بني العباس . واليك بيان ذلك :

١ نفوذ الاتراك

ابتدأ نفوذ الاتراك يذرت قرنه في خلافة المعتصم . فانه اخذ يقربهم ويعلي شأنهم بعد ان ضعفت ثقته باهل بغداد واهل فارس ، لان فيهم من كان يتشيع للعلويين .

وفيه من يريد الخلافة للعباس بن المأمون . وفيهم فئة عربية نائمة على العباسيين
لاعتادهم على الفرس دون العرب . وكانت ام المعتصم تركية ، فأثر الاتراك على
غيرهم من الموالي ، وبالع في اقتناء الغلمان منهم . فكانوا يركضون الدواب في الطرق ،
فيصدمون النساء والصبيان فيتأذى العامة ، ويتدمرون حتى اذا انفردوا بواحد منهم
اغتالوه . فرأى المعتصم ان الابتعاد عن بغداد خير له وابقى . فجعل مقر الخلافة
في سامراء^١ بعد ان جدد بناءها .

فاعتز الاتراك بنفوذهم ، وتولوا الخطط العالية . فكان منهم الوزراء والقواد
والولاة ، وظهر فيهم امثال وصيف وأشناس وابتاخ وُبغا الكبير والافشين وسواهم .
وبلغ من تقديم المعتصم لهم انه كان اذا ترك العاصمة استخلف أشناس ، واجلسه
على كرسي ، وتوجه وشحه . ولما مات المعتصم تولى اشناس تنويع الواثق من بعده .
وفعل الواثق فعل ابيه فتوج أشناس ، وألبسه وشاحين مجهرين . ومات اشناس
فتوج بعده وصيف وُشح ، ثم مات وصيف فانتقل التاج والوشاحان لبُغا^٢ .
ولما بويع المتوكل بعد الواثق توجه ابتاخ ووصيف . واراد استمالة الاتراك ،
فامر لهم برزق ثمانية اشهر ، ولم يأمر للمغاربة الا برزق ثلاثة فابوا قبولها . فتاه
الاتراك واستكبروا حتى تضايق المتوكل منهم ، وساء ان يزحم سلطانهم سلطانه .
وكان ابتاخ اكثرهم نفوذاً لان المتوكل ربي في حجره ، فولاه الحجابة والبريد والجيش
وبيت المال . فاستطال ابتاخ وغلب الخليفة على امره ، فسمي المتوكل في ابعاده ، فدرس
عليه من زين له الحج ، فاستأذن الخليفة في ذلك ، فأذن له وخلع عليه ، وجعله أمير
كل بلد يربو به . فسار ابتاخ وسار العسكر بين يديه ، وجعلت الحجابة الى وصيف .
ولما عاد ابتاخ ، قبض عليه المتوكل غيلة وحبس به ، ومنع عنه الماء حتى مات .

١ سامراء : مدينة آرامية صغيرة على دجلة ، شالي بغداد ، بينهما مسافة قليلة . اطلق عليها
العرب اسم سُر من رأى قظر فاً .

٢ كانت وفاة اشناس في خلافة الواثق . وقتل وصيف في خلافة المعتز ، قتله الجنيد
الاتراك لانه لم يعطهم ارزاقهم لاربعة اشهر معذراً بعدم المال . ثم اغتال المعتز بُغا خوفاً منه
حتى كان لا ينام الا بسلاحه .

ولم يشأ المتوكل ان يقدم الفرس على الاتراك مع ان امه فارسية ، لانهم كانوا
 يشايعون العلويين . وراعه ان يغلب نفوذ الاتراك على سلطانه ، وهو لا قبل له بهم
 لان الجند في ايديهم ، فآثر الابتعاد عنهم فبنى مدينة المتوكلية على بعد من سامراء ،
 ونقل اليها الخلافة . وراح يتوود الى السنين ، على امل ان يسترضي العرب بعد
 نفورهم من العباسيين لتقديمهم الموالي . فبالغ في التعصب للدين ، وشدد في اقامة
 احكام السنة . وجاهر العلويين بغض والعداء ، فاضطهدهم وجار عليهم ، وهدم
 قبر الحسين في كربلاء ، واذن للناس ان يلعنوا علياً في حضرته . واضطهد النصارى ،
 وهدم كنائسهم وقبورهم ، ومنعهم من الخروج بصلبانهم في اعيادهم ، وجعل على
 ابواب دورهم صور شياطين . ولكن هذا التعصب الممقوت لم يفده شيئاً لان الاتراك
 اثثروا به وقتلوه . وكان مقتله سبباً لتضاعف شوكتهم ، فازدادوا جراءة واستقلوا
 بشؤون الدولة ، فاصبحت حياة الخلفاء والامراء في ايديهم ، ينصبون من شاؤوا ،
 ويخلعون من شاؤوا ، ويقتلون او يجسسون من يخشى شره ولا يرون به خيراً لهم .
 فقتلوا المستعين ، والمعتر ، والمهتدي . وجسوا القاهر ، ومملوا عين المتقي ، والمستكفي .
 فسقطت هيبة العباسيين من النفوس ، ونشبت الثورات الداخلية ، واخذت الولايات
 البعيدة تستقل بعد ان رأت الضعف مستحكماً في قلب المملكة . وهي انما كانت
 تخضع كارهة ، ولا سيما الفرس الذين كان لهم ملك ضخم فاديل منه ، فما انفكوا عن
 الحنين اليه ، والتربص لاستعادة سابق عزه .

٢ نفوذ الخدم

وكان للخدم نفوذ في قصور الخلفاء ذلك بان الاتراك كانوا يجسسون ولاية العهد ،
 ويجعلونهم في عهدة الخدم لتضع نفوسهم بمعاشرة الخصيان . وكان الخلفاء يرتاحون
 الى عزلة اولادهم وانسابهم ، مخافة ان يواطئوا الاتراك عليهم . فكان ولي العهد
 اذا استخلف لا يجد غير الخدم اصدقاء له لانه صاحبهم مدة طويلة ، وتخلق باخلاقهم .
 فيكثر منهم في قصره ، ويجزل لهم العطاء ليردوا عنه كيد الاتراك اذا ثاروا به ،

وارادوا اغتياله . روي ان المقتدر بالله اتخذ نحواً من احد عشر الف خادم من الروم
والسودان وسواهم ، وولاهم قيادة الجند ، فاتيح له ان يحكم بهم خمساً وعشرين
سنة . وفي ايامه ظهر مؤنس الخادم ، فقبض على زمام المملكة ، وتصرف فيها على
هواه . وكانت له قيادة الجيش ، وامارة الامراء ، ووزارة بيت المال ، وحدث خلاف
بينه وبين المقتدر ، فما انتهى الامر الا والخليفة مقتول .

ولم يكن نفوذ الخدم في قصور الخلفاء الا ليزيد في انقاص هيبتهم ، وببالغ في
تنفير الناس من ولايتهم .

٣ نظام ولاية العهد

لم يكن نظام ولاية العهد في خلافة الامويين اشد تأثيراً منه في خلافة العباسيين .
فان فتنة الامين والمأمون من اجل الخلافة ، جعلت العرب يناصرون الامين لان امه
عربية . وجعلت الفرس يناصرون المأمون لان امه فارسية . فلما قتل الامين واستخلف
المأمون اعتز الفرس ، وازدادوا رفعة ونفوذاً . وهان العرب وتضاءل سوادهم ، وغلبوا
على امرهم . فنفروا من العباسيين ونقموا عليهم ، وابوا ان ينخرطوا في الجند لان
قواده من الفرس . فاصبح الجيش العباسي عجمياً ، ينضم اليه الفارسي والديلمي ،
والتركي والمغربي وهلم جراً . فباتت الدولة في استناده اليه تحت رحمة الاعاجم .
ولكن الفرس كانوا يشدون ازر المأمون ، وكان المأمون صلباً حزيناً ، داهية ذكياً ،
فقبض على الملك بيد فراسة ، فاقام عموده ، ووطد اركانه .

واتراًيضاً نظام ولاية العهد في خلافة المتوكل ، فان المتوكل ساء ظنه بالمنتصر
ابنه البكر ، واتهمه بانه يريد الامر لنفسه في حياته ، وكان يلقيه بالمستعجل والمتنظر .
فغرم على خلعه ونقل الوصية الى ابنه المعتز احد صغار اولاده . فحقدها عليه المنتصر ،
وواطأ الاثراك على قتله ، فما ان قتل حتي صار الامراء العباسيون يثور بعضهم على
بعض .

٤ امراء الامراء

وكان من اسراف الخلفاء في الاستمتاع ان بالغوا في اقتناء الجواري الاعجيبات والتسري بهن ، فنجلوا اولاداً من امهات مختلفات الاجناس . فرأينا الامين يعتمد على العرب لان امه عربية ، والمأمون على الفرس لان امه فارسية ، والمعتصم على الترك لان امه تركية . فنتج من ذلك ان اختلفت اجناس الجند في الدولة ، فحفل الجيش بخليط من العناصر ، اضعفها عنصر العرب .

واختلاف اجناس النساء في قصور الخلفاء جعل تلك القصور موطناً للدسائس والوشايات والمؤامرات ، يشترك فيها الملوك والامراء والقواد والحاشية رجالها ونساؤها . فانهى الامر الى ان شغب الجند على القادة ، وتنازع القادة السيادة فيما بينهم ، فسادت الفوضى ، وعمت النجاء المملكة .

٥ نظام الاقطاع

ولنظام الاقطاع اثر سيئ في وحدة الممالك العباسية . فان اتساع اراضي الدولة وترامي اطرافها جعل مسافات شاسعة بين العاصمة واكثر الولايات . ولكن الخلفاء في الصدر العباسي كانوا اشداء حزمه ، فاستطاعوا ان يلحوا شعث هذا السلطان الضخم . فلما غلبوا على امرهم ، وفسدت طاعة الجند ، شعر الولاة بضعف ملوكهم ، فاهملوا رعاية اعمالهم ، وانصرفوا الى المال يجمعونه . وحبسوا رزق العمال عن اصحابه ، فما يدفعون لهم الا بعد ان يقطعوا نصيباً يأخذونه . فضجت البلاد ، واشتد السخط ، فعمد الخلفاء الى اغتيال الولاة والكتاب استكفاً لشركهم . فكثرت العصيان والخروج ، واضطربت احوال المملكة ، وفقد الامن وقامت الثورات من كل ناحية ، فلا ترى حيث التفت الجماعة خارجة على السلطان .

٦ ثورات العلويين

واشد الثورات ما قام به العلويون ، فانهم لما رأوا بني العباس استقلوا بالامور

دونهم ، نفروا منهم كما نفروا من بني امية ، وراحوا ييثون دعوتهم ، على تعدد فرقهم . فظهر دعائهم في المغرب والعراق ، واستولوا على النواحي القاصية واسسوا لهم ممالك فيها . فكان منهم الادارسة في المغرب الاقصى ، والعبيديون بالقيروان ثم في مصر ، والقرامطة بالبحرين ، والدواعي بطبرستان ثم فيها من بعدهم الديلم والاطروش . فخروج العلويين المتواصل ، وانتشار دعائهم في جميع الامصار ، واقبال الناس على قبول دعوتهم ، مكن لهم في كثير من الولايات . فما جاء العصر العباسي الثالث الا والمملكة العباسية اجزاء مستقلة ، واعظم هذه الاجزاء يسيطر عليه دويلات العلويين .

عبرة العصر

فلا عجب ان يمتاز هذا العصر بالنفوذ التركي ، وقد رأيت ما كان للاتراك من تأثير في مجرى الخلافة العباسية ، اذ جعلوا المملكة العوبة في ايديهم . فكان عصرهم معقلاً للذعر والارهاب والاضطهاد ، وموطناً للتمثيل والتقتيل والاعتقال ، وملعباً للدسائس والرشى والاختلاسات .

واصبحت حرية الفكر والدين في الصميم ، فخرست السن الفلاسفة ، وعلماء الكلام من اهل الاعتزال ، ولا سيما في اوائل العصر . وحرم عليهم البحث في مسألة خلق القرآن ، ولم يساموا من الحبس والتنكيل . واضطهدت الشيعة العلوية ، واضطهد النصارى فكان الاستبداد والجور من اظهر ميزات العصر .

الشعراء المولدون

العصر الثاني

مبزة الشعر

لم يكن الاتراك اهل حضارة وعرفان ، ليحملوا الى العربية علومهم وآدابهم فيجعلوا فيها اثرأبيناً كما جعل الفرس من قبلهم . ولم يُعنوا بدراسة لغة العرب وادبهم عناية اهل فارس ، فيخرج منهم شعراء وكتاب يحدثون في الادب احداثاً طريفة بليغة . لذلك بقيت مبزة الشعر على حالها ولم يتغير شيء من تلك الحضارة الجديدة التي زفها الفرس والروم الى العرب . ولا عبرة في التبدل السياسي ، وقيام نفوذ الاتراك على انقراض نفوذ الفرس ، لان البحث يدور على التاريخ الادبي لا على التاريخ السياسي . والحوادث السياسية لا تكون دائماً سبباً فعالاً لتطور الاداب . ولكن الذين وضعوا نظام البكالوريا اللبنانية حاولوا ان يجدوا فرقاً بين العصر الاول والثاني ، فاختلط عليهم الامر ، فتكلموا للعصر الثاني خصائص تكاد لا تختلف عن خصائص العصر الاول . فجعلوا مبزة الشعر : « المدح والهجاء والوصف . » مع ان هذه الانواع اشترك فيها العصران فلم يختلف فيها احدهما عن الآخر . وليس في زعمهم ان في العصر الاول شعر القصور او الشعر المترف ، ما يدعو الى تمييز العصر الفارسي من العصر التركي . ففي شعر ابن المعتز والبحري وابن الرومي من الترف ومدح اصحاب القصور ما في شعر بشار وابي نواس وابي تمام .

لذلك نرى ان فصل العصر الثاني عن الاول لا مسوغ له . ونحن لم نجعلها عصرين الا مجازاً لنظام البكالوريا ، ثم لاننا افردنا لكل عصر لحظة تاريخية خاصة به .

البحتري

٨٢٠ — ٨٩٧ م و ٢٠٥ — ٢٨٤ هـ

حياته	:	عربي من طيء . ولد في بادية منبج . اتصاله بابي ققام . اتصاله بالمتوكل . صفاته واخلاقه . اثاره .
ميزته	:	الطبيعة والعمران . قوة الخيال ودقة الوصف والتصوير . مدحه : ديني اكثره : وصفه . وصف الايوان . غزله . رثاؤه . عتابه . فخره . حكمه . هجاؤه . ما ادرك عليه .
مترنه	:	دياجته . الطريقة الشامية *

حياته

هو الوليد بن عبيد عربي صريح ينتهي بابيه الى طيء ، وبامه الى شيان^٢ ، ويلقب بالبحتري نسبة الى بُحتر احد اجداده . ويكنى بابي عبادة وابي الحسن والاولى اشهر .

وكانت ولادته في بادية منبج^٣ وبها نشأ نشأة عربية خالصة . ونظم الشعر وهو حدث . وكان يمدح في اول امره اصحاب البصل والبادنجان . ثم احب علوة بنت زريقة الحلبية فشذب بها ، وشهرها بشعره .

١ هذه رواية الديوان وابن خلكان . واما رواية الاغانى فهي ان اسمه الوليد بن عبيد الله ، والاولى اشهر . وللبحتري قصيدة يفتخر فيها بابائه ويذكر معهم عبيداً ولا يذكر عبيد الله اذ يقول :

وعبيداً ، ومُسهرًا ، وجدياً ، وتدولاً وبُحترًا ، وعثودا

٢ يدل على ذلك قوله :

أعمر بن شيان ، وشيخانكم أبي ، اذا نسبت أُمي ، وعمركم عمري

٣ منبج : بلدة بين حلب والفرات . قال ابن خلكان : « ان كسرى بناها لما غلب

على الشام » وسأها منبه . فعرّبت فقل منبج . هـ

على ان نباهته لم تبتدىء الا بعد اتصاله بابي تمام ، وتخرجه عليه . واختلقت الروايات في حقيقة هذا الاتصال ف قيل ان البحري صار الى حبيب وهو بمجمص فعرض عليه شعره فاحتفل به ابو تمام ، وسأله عن حاله . فشكا اليه خلة^١ فكتب الى اهل معرفة النعمان يشهد له بالخذق ، ويوصيهم باكرامه . فاكرموه بكتابته ، ووظفوا^٢ له اربعة الاف درهم ، فكانت اول مال اصابه .

وقيل بل كان ابو تمام في مجلس ابي سعيد الطائي ، فدخل البحري وهو يومئذ حديث السن . فانشد قصيدة امتدح بها ابا سعيد ، فحفظ ابو تمام اكثرها وادعاها . فصدق ابوسعيد دعواه لمكانته في الشعر ، ووبخ البحري لمدحه اياه بشعر مسروق . فخرج البحري يحو رجله . ولكن ما ابعده حتى تبعه الغلمان وردوه . واقبل عليه ابو تمام ، وقال له : « الشعر لك يا بني . والله ما قلته قط . ولا سمعت به الا منك . ولكنني ظننت انك تهاونت بموضعي ، فاقدمت على الانشاد بحضرتي ، من غير معرفة كانت بيننا ، تريد مضاهاتي ، ومكاثرتي . حتى عرفني الامير نسبك وموضعك . ولوددت ان لا تلد طائفة الا مثلك . »

ورويت هذه الحادثة على وجه آخر لم يدع فيه ابو تمام القصيدة بل اهتز لها طرباً ، وقبل الغلام الشاعر بين عينيه ، وجعل له جائزته . ثم لزمه البحري واقتدى به واخذ عنه .

والبحري كغيره من الشعراء لا يرى مورداً عذباً لشاعريته الا دار الخلافة ببغداد كانت ام سر من رأى . لذلك قصد الى بغداد في خلافة^٣ الواثق وامتدح وزيره ابن الزيات بقصيدة يقول فيها :

دَقَّ فَهْمًا وَجَلَّ حِلْمًا فَأَرْضَى - اللَّهُ فِينَا ، وَالْوَأْتِقُ بْنُ الرَّشِيدِ

ومدح الحسن بن وهب ، واخذ منه الجوائز . وكان الحسن يتولى ديوان الرسائل من قبل ابن الزيات . وامتدح غيرهما من الامراء والقواد ولكنه لم يتصل بالواثق ،

١ الخلة : الحاجة والفقر .

٢ وظفوا له : عيّنوا له .

٣ الواثق بن المعتمد بن الرشيد خلفه من السنة ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ (٨٢١ - ٨٢٦ م) .

ولا اتخذ العراق له داراً الا بعد ان بويع للمتوكل^١، فاخص بخدمته وخدمة وزيره
الفتح بن خاقان، ولقي عندهما الحرمة حتى قتلا معاً على مشهد منه. فحزن عليهما،
واسودت العراق في عينيه، فعاد الى منبج. على انه كان يختلف الى بغداد وسر من
رأى يدح فيها الخلفاء والامراء، ولكنه لم يختص بواحد منهم، ولعله اتصل بالمعتز^٢
اكثر من سواه لان مدائحه فيه عديدة، غير انه لم يجعل العراق في عهده مقاماً له كما
جعلها في عهد المتوكل. ولم يستقدم اليها عائلته بل تركها في منبج، لذلك نراه يلتمس
من المعتز اذن شهرين ليرى صبيته، ويصلح خلة ضيعة يأمر له بها، قال :
هَلْ أَطْلَعَنَّ عَلَى الشَّامِ مُبَجَّلاً ، فِي عِزِّ دَوْلَتِكَ الْجَدِيدِ الْمُونِقِ^٣
فَارْمَ خَلَّةَ ضَيْعَةٍ تَصِفُ أَسْمَهَا ، وَالْمَ ثُمَّ بِصِيَّةٍ لِي دَرْدَقِ^٤
شَهْرَانِ إِنْ يَسَّرْتَ إِذْنِي فِيهِمَا ، كَفَلَا بِأَفْئَةِ شَمْلِي الْمَتَقَرِّقِ
ولبت البحري يتنقل بين العراق والشام حتى اواخر خلافة المعتمد^٥، وهو آخر
خليفة اتصل به ومدحه. ولم تستقر به منبج الا في خلافة المعتضد^٦ فاقام فيها لا
يروحها حتى مات وكانت وفاته بالسكنة

صفاته واهله

قال صاحب الاغانى : « كان البحري من اوسخ خلق الله ثوباً وآلة . وانجلمهم
على كل شيء . وكان له اخ و غلام معه في داره . فكان يقتلها جوعاً ، فاذا بلغ منهما
الجوع أتياه يبيكيان ، فيرمي اليهما بضمن اقواتها مضيقاً مقتراً . ويقول : « كُلا !
اجاع الله اكبادكما ، واطال جهادكما ! » اه
على انه لا يسعنا ان ننقل هذه الرواية الا في شيء من التحفظ لان دراستنا لشعر

١ المتوكل بن المعتصم خلافته من سنة ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ (٨٤٦ - ٨٦١ م) .

٢ المعتز بن المتوكل خلافته من سنة ٢٥٢ - ٢٥٥ هـ (٨٦٦ - ٨٦٨ م) .

٣ المونق : المعجب .

٤ فارم : فاصلح . الخلة : الثالثة . دردق : اطفال .

٥ المعتمد بن المتوكل خلافته من سنة ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ (٨٦٩ - ٨٩٢ م) .

٦ المعتضد بن الموفق بن المتوكل خلافته من سنة ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ (٨٩٢ - ٩٠٢ م) .

البحثري، اطعنا على ناحية بيّنة من حياته و اخلاقه ، فأرتنا فيه رجلاً حريصاً على التّكسب و جمع المال، حتى انه وقف شعره على المدح، و تاجر بغلام له فكان يبيعه ثم يشبب به و يمدح من اشتراه، فيستعيده بشعره . و مازال كذلك حتى مات الغلام و كنى الناس امره . وقد افاد البحثري ثروة حسنة من شعره ، فجزيت عليه الارزاق ، و امتلك الضياع فكان يتعهدها، و يرم خلاتها في كثير من الاعتناء . فلقد كان ممن يتبعون للمال، و لا يقع لهم فتور عن اكتنازه . ولكنه لم يكن يقتر على نفسه، و يبخل بالنفقة على ملاذه . وهو صاحب لهو و لذة، يشرب الخمر ، و يحضر مجالس الطرب ، و يعبت ويفتك و يعجن . على اننا لا نشك في ان البحثري كان بخيلاً على الناس ، و انه صحبهم ليأخذ منهم لا ليعطيهم :

صَحِبْتُ أَنَا سَأَ أَطْلُبُ أَمْمَالَ عِنْدَهُمْ ، فَكَيْفَ يَكُونُ أَمْمَالُ مُطْلَبًا عِنْدِي !

ولكنه لم يكن كسراً شحيحاً كما افروط بعض الرواة في وصفه . وربما أنست فيه اريحية و اهتزازاً للمعروف اذا علمت انه مدح طاهر بن محمد الهاشمي . و كان طاهر قد انفق ماله على الشعراء و الزوار ، و ركبته الديون فقعده في داره . فلما وصلت اليه مدحة البحثري، بكى و قام فباع داره بثلاثمائة دينار، و اخذ صرة و انفذه منها مائة الى البحثري . و كتب اليه معها رقعة فيها ابيات يعتذر فيها عن قلة العطاء بضيق ذات يده . فلما وصلت الرقعة و الدنانير الى البحثري ردها على صاحبها . و كتب اليه ابياتاً يقول فيها :

غَيْرَ أَنِّي رَدَدْتُ بَرَكَ إِذْ كَا نَ رَبِّاً مِنْكَ وَالرَّبِّ يَا لَا يَحِلُّ^١
وَإِذَا مَا جَزَيْتَ شِعْراً بِشِعْرٍ ، قُضِيَ الْحَقُّ ، وَالدَّانِيَرُ فَضْلُ^٢

فهذه عاطفة طيبة لا تدل على خساسة و دناءة .

ومن صفاته انه كان شديد الغرور بشعره ، كثير الاعتماد بنفسه حتى ليلتفض في انشاده زهواً و اعجاباً . فقد روي انه كان اذا انشد اخذ يتشادق، و يتراور في

١ هذه رواية ابن خلكان . وفي الديوان طاهر بن اسماعيل .

٢ برك : احسانك . الربا : ما يستحق للدائن على المدين من زيادة على ما يدينه اياه .

٣ فضل : زيادة .

٤ يتراور : يميل و ينحرف .

مشيته مرةً جانباً، ومرة القهقري . ويهز برأسه مرة، وبمنكبه أخرى . ويشير بكمه ،
ويقف عند كل بيت ويقول : « احسنتُ والله ! » ثم يقبل على المستمعين ، فيقول :
« ما لكم لا تقولون لي احسنت ! هذا والله ما لا يحسن احد ان يقول مثله ! » على
ان ذلك لا يعني ان البحري كان ثقیل الظل مقيماً ، فشعره يدل على خفة روح ،
ولطف ودعابة .

ويجمع الرواة في شاعرنا صفتين متناقضتين وهما الوفاء والخيانة، ومن الغريب
ان يجتمع النقيضان في واحد فيكون تارة برأ وفياً، وطوراً غداراً خووناً ، فبينما
نسمع المروزي يقول في موشحه انه لم ير اقل وفاء من البحري لانه هجا اربعين رئيساً
ممن مدحهم ، ونقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظهم عليها
الى مدح غيرهم ، وامات اسماء من مدحه اولاً ، نرى صاحب الاغاني يحدثنا عن وفائه
لاستاذه فاذا هو يرد على من يقول له انت اشعر من ابي تمام : « كلا والله ان ابا تمام
للرئيس والاستاذ . والله ما اكلت الخبز الا به » . ويحدثنا عن وفائه لابي سعيد
الطائي وابنه واختصاصه بها حتى انه رثاهما بعد مقتلها فكانت مراثيه فيها اجود
من مدائحه . ولنا ايضاً بيته على وفائه قصيدته التي رثى بها المتوكل وهجا المنتصر
وهده بالقتل فعرض نفسه لسخطة كادت تودي بحياته لو لم يشفع له احمد بن الحبيب
وزير المنتصر ويسترضي الخليفة الجديد ، فيعفو عنه ويجيزه على قصيدة مدحه بها
واوصلها اليه الوزير . ولكن البحري كافأ ابن الحبيب شر مكافأة يوم نكبه
المستمع^١ فانه حرّض الخليفة على قتله واستصفاء امواله وفي ذلك يقول :

وَالرَّأْيُ كُلُّ الرَّأْيِ فِي قَتْلِهِ بِالسَّيْفِ ، وَاسْتِصْفَاءُ أَمْوَالِهِ

فهذه الاخبار المتناقضة تجعلنا في حيرة من امر هذا الرجل فنقف موقف الشك
بين خيائته ووفائه ، لا نقطع بأنه خوون ، ولا نقطع بانه وفي . غير اننا نرجح الجانب

١ المنتصر بن المتوكل هو الذي واطأ الاتراك على قتل ابيه، خلافته ستة اشهر من سنة

٢٤٧-٢٤٨ هـ (٨٦١-٨٦٢ م)

٢ المستعين بن المعتصم خلافته من سنة ٢٤٨-٢٥٢ هـ (٨٦٢-٨٦٦ م)

الاول ذلك ان البحري لم يخلص للموكل والفتح بن خاقان ولم يذكرهما بخير بعد موتها الا لانه فقد بها جنته في الحياة الدنيا ، فقد كان يرتع في جنبائيهما في مجبوحة من العيش الخضيل . فلما هلكا واحس بنجم سعوده يغور في اثرهما صرخ صراخ اليائس المستميت ، وبكى على حظه في رثائه للموكل ، ولم يفظن الى انه قد عرض بنفسه الى التهلكة في شتمه المنتصر . ولكنه ما تاب الى رشده حتى صمت واعتصم بالثقية ، ثم سعى الى استرضاء الخليفة الجديد . غير انه لبث يذكر الموكل والفتح في كل ساحة وبارحة ، لانه لم يجد بعدهما خليفة ولا وزيراً يملأ الفراغ الذي احداثاه في نفسه . ومدح بعدهما طائفة من الحلفاء والامراء وتكسب منهم دون ان يخلص الولاء لاحدهم لانه كان يتوقع دائماً تبدل الولاة والملوك . فصاحبهم على دخل يدحهم في اعزهم ، ويتنكر لهم في نكبتهم ، وهو انما ياشي زمانه في ذلك . وقد وجد في زمن قل فيه الوفاء وكثر الغدر والرياء . والزمان كاهله واهله كما ترى . وليس وفاؤه لابي سعيد وابنه الا لانهما من طيء . وكانا يعطفان عليه ، ويحسنان صلته . فاحبها حب النسيب لنسيبه ، وحب المنتفع لمن ينتفع منه . فمدحها وتعصب لها ، ورثاها احسن رثاء . واما وفاؤه لابي تمام ، فوفاء التلميذ لاستاذه والقريب لقريبه . ولكن لا نجد له قصيدة في رثائه تظهر قيمة هذا الوفاء الا بعض ابيات رثى بها دعبلاً وذكره فيها معه .

وفي البحري خاصة ظاهرة في شعره وهي حب الوطن ، فانه كثيراً ما يحن الى منبج وحلب ، ويحسب نفسه غريباً في العراق ، مع ان شهرته لم تقم الا فيه ، وثروته لم تجمع الا هناك .

وكان يتعصب لليمن عموماً ولطيء خصوصاً ، ولكنه لم يكن مفراطاً في تعصبه ، وربما لمحت فيه شيئاً من التعاجم لانه كان مفتوناً بحضارة الفرس ، ولانه وجد في عصر كانت السيادة فيه للموالي لا للعرب . فضعفت فيه العصبية كما ضعفت في كثيرين من امثاله .

على انه كان شديد التعصب للاسلام ، وربما نزع الى التشيع فتسمعه يدح

الطالبين، ويهجو علي بن الجهم لتعرضه لهم بالهجاء . ولكنه كان يتحفظ ولا يسرف في اظهار تشيعه ، ولا سيما في عهد المتوكل . فانه لما جاء العراق اراد ان يتمكن باي الحسن بدلاً من ابي عباد ليتشبه بعلما الشيعه ، فوأي من المتوكل كرهاً شديداً للعلوين فعدل الى كنيته الاولى ، وكتب تشيعه ، وتركه ، ولكنه لم يقل هجراً في الطالبين .

اماره

ديوان شعر اكثره في المدح ، واقله في الهجاء والثناء . وفي مدحه غزل كثير ، ووصف مختلف الوجوه والانواع . وبقي شعر البحتري متفرقاً حتى جمعه ابو بكر الصولي ، ورتبه على الحروف ، وجمعه علي بن حمزة الأصفهاني ورتبه على الانواع . وشرحه ابو العلاء المعري ، وسماه عبث الوليد . وطبع هذا الديوان بالاستانة في جزئين كبيرين ، ثم طبع في بيروت مشكولاً ، ومشروحاً بعض الفاظه . وكلتا الطبعتين لا ترتيب فيهما . وليس لهما فهرست تعرف به القوافي ، وفيهما قصائد مكررة لم ينتبه اليها من جمعه .

وعني البحتري بالتأليف كاستاذ فجمع كتاب الحماسة معارضة لكتاب ابي تمام ، اختاره من اشعار العرب للفتح بن خاقان ، وجعله مائة واربعة وسبعين باباً ، ضمنها معظم المعاني الادبية التي تناولها الشعراء المتقدمون .

وهذه الابواب على كثرتها صغيرة لا يتجاوز بعضها الصفحة الواحدة . ولم يتقيد فيها البحتري بابواب الشعر المعروفة ، بل نظر فيها الى الاغراض والمعاني ، فجاءت جديدة في نوعها مثال ذلك : الباب الاول فيما قيل في حمل النفس على المكروه . الباب الخامس عشر : فيما قيل في استطابة الموت عند الحرب . الباب الثاني والستون : فيما قيل في ذم عاقبة البغي والظلم الخ . . وقد خلت جميعها من الغزل والفحش والمجون . وتشتمل حماسة البحتري على اقوال لنحو ستمائة شاعر من الجاهلية وصدر الاسلام ، وفيهم نفر ادر كوا بني العباس كيجي بن زياد ، وصالح بن عبد القدوس ، وبشار ،

ومطيع بن إياس . وقد طبعت حماسة البحتري في بيروت ومصر وله ايضاً كتاب
معاني الشعر لم يصل اليها .

صبرته

البحتري طائر غريد سبج بانغامه في افق علوي ، خصب الخيال ، متنوع الاصباغ .
فاشرف على جلال الطبيعة وجمالها ، وحوم فوق جبالها ، ومروجها ، وانهارها ، وغيطانها .
ورفرف على زخارف المدنية وعمرانها ، فعلقت جميع هذه الصور بقواده وخوافيه ،
فصبغتها بشتى الرسوم والتلاوين .

ولا تقوم شاعرية البحتري على المدح او الغزل او الرثاء وان برع في كثير منها ،
وانما تقوم على جمال الفن وانطلاق الخيال ، واتقان الوصف والتصوير . ونحن سنغنى
بدراسته من جميع نواحيه حتى تتكشف خصائصه التي يمتاز بها في انواع الشعر وفنونه .

مصر

وقف البحتري شعره على المدح لا يلتفت لفت غيره الا غواراً . فغير عجيب ان
يجيد هذا الفن ، ويبرع فيه . وله من أهبة شاعرية فياضة ، ونزوع شديد الى التكسب
والاستجداء .

وادرك البحتري عشرة خلفاء من المأمون الى المعتضد . ولكنه لم يدح غير ستة ،
وهم المتوكل بن المعتصم ، والمنصور بن المتوكل ، والمستعين بن المعتصم ، والمعتز بن
المتوكل ، والمهتدي بن الواثق ، والمعتمد بن المتوكل . واكثر مدائحه في المتوكل ثم
في ابنه المعتز .

ومدح من الامراء والوزراء طائفة كبيرة ، منهم الفتح بن خاقان وزير المتوكل ،
والحسن بن مخلد وزير المعتمد ، وابراهيم بن المدر من كبار رجال الدولة . وال
سهل . واسماعيل بن بلبل الشيباني . وانسابؤه ابو سعيد الشغري وابنه يوسف ، وآل
حميد الطوسي وسواهم . واحسن مدائحه ، واصدقها عاطفة ، ما قاله في المتوكل والفتح

والي سعيد . وهو اذا مدح المتوكل مدح خليفة في عز دولته ، وقوة سلطانه ، لا
سيطرة لهو الي عليه ، كسيطرتهم على من جاء بعده من الخلفاء . فترى الشاعر يعن
في وصف جلال الملك ووقاره . ويشبه المتوكل بالنبي ، ويستفيض بذكر تقواه ،
وتعزيزه للدين ، واقامته احكام السنة . ويجعل له زلفة عند الله ، فاذا احتبس المطر
استسقى المسلمين فينهل الغمام :

لَمَّا تَعَبَدَ مَجْلُ الْأَرْضِ وَاحْتَبَسَتْ غُرُ السَّحَابِ حَتَّى مَا نُزِجِيهَا
وَقُمْتَ مُسْتَسْقِيًا لِلْمُسْلِمِينَ جَرَتْ غُرُ الْغَمَامِ ، وَحَلَّتْ مِنْ غُرَالِيهَا

ويظهر ان المطر احتبس يومذاك فصلى المتوكل صلاة الغيث . ثم امطرت السماء
فجعلها البحر تري من عجائب ممدوحه . ويذكر له اعجوبة اخرى وهي طاعة الوحوش
له وسيرها في ركابه :

وَطَاعَةُ الْوَحْشِ إِذَا جَاءَتْكَ مِنْ خَرِيقٍ أَحْوَى ، وَأَذْمَانَةٍ كُحْلِ مَاقِيهَا
إِنْ رَسَرَتْ سَارَتْ ، وَإِنْ وَقَفَتْهَا وَقَفَتْ صُورًا إِلَيْكَ بِأَخَاطِرِ ثَوَالِيهَا

وقد يعرض لسياسة الخلافة في مدحه المتوكل ، فيؤيد حق العباسيين ، ولكنه
لا يهجو الطالبيين مع علمه بكره الخليفة لهم . لان هواه فيهم ، ولم يجاهر بميله اليهم
الا بعد مقتل المتوكل وقيام المنتصر . وكان المنتصر ينكر على والده اضطهاده
للعلويين ، واذنه للناس بلعن علي ، ولطالما عارضه في ذلك فلقى منه التحقير والطرده .
فلما مدحه البحر تري بعد ان ولي الخلافة ، ذكر عطفه على العلويين ، وجاهر بتفضيل
علي على عمر قال :

١ تعبد : صعب وامتنع .

٢ عزالي : جمع عزلاء ، وهي مصب الماء من القرية . يقال : انزلت السماء عزاليها اشارة الى شدة
وقع المطر على التشبيه بتروله من افواه القرب . وقوله : وحلت من عزاليها اي حلت
عقدتها فتدفق ماؤها .

٣ الخريق : ولد الظبية الضعيف القوائم . الاحوى : ما خالط حمرة او صفرة
سواد . الادمانة : الظبية اشرب لونها يابضاً .

٤ صوراً : جمع أصور وهو المائل .

وَأَنَّ عَلِيًّا لَأَوَّلَىٰ بِكُمْ ، وَأَذْكَىٰ يَدًا عِنْدَكُمْ مِنْ عُمَرَ .
ولم يعرض بعد المتوكل لسياسة الخلافة الا في التدرى ذلك بانه لم يخاض الحب
لخليفة اخلاصه اياه للمتوكل . ثم انه رأى ضعف الحلائف الذين توالوا بعد المتوكل ،
فعلم ان من العبث الكلام على سياسة الخلافة بين العباسيين والطلبين ما دام الامر
فيها للموالي . واصبح لا يمدح خليفة الا مدح الموالي معه وازدلف اليهم . ويكثر
ذكره لهم في مدح المعتز ، ولعله كان يشفق عليه من سطوتهم ، او يخشى على نعمته ان
تزل بزواله ، وهو قد اتصل به وحظي عنده اكثر منه عند غيره . فاذا مدحه اشاد
بذكرهم ، وجعلهم جند الله لتأييد الخليفة ونصرته . واعتذر لهم اذا اساؤوا اليه
او اثموا :

وَلَيْتَ نَصْرَهُ الْمَوَالِي فَأَعْطَتْهُ - عُلُوَّ السَّمَاءِ أَوْ هُوَ أَعْلَىٰ

.....

أَمَّا الْمَوَالِي فَجُنْدُ اللَّهِ حَمَلَهُمْ ، إِنْ يَنْصُرُوكَ فَقَدْ قَامُوا بِمَا احْتَمَلُوا
وَضَعُفَ الْخُلَفَاءَ حمله على استنهاز همهم ، فكان يذكّرهم اباؤهم العظام .
ويزعم انهم متشبهون بهم ، سائرون على خطاهم كقوله في مدح المهتدي :
لَهُ عَزْمَةٌ مَا اسْتَبْطَأَ الْمَلِكُ نَجْحَهَا ، وَلَا اسْتَعْتَبَ الْإِيَّامَ وَرِي زِنَادِهَا^١
رَشِيدِيَّةٌ فِي نَجْرِهَا وَاتِّقِيَّةٌ ، يَرَى اللَّهُ إِثَارَ التَّقَىٰ مِنْ عِتَادِهَا^٢
واذا رأى بادرة عزم من احدهم ، تنفس الصعداء ، وشاقه ان تستعيد عزة الملك
سابق عهدا ، فنسبمه يقول بعد ان فتك المعتز ببغا :
فَالْيَوْمَ عَاوَدَتِ الْخِلَافَةُ عِزَّهَا وَأَصْأَاءَ وَجْهِ الْمَلِكِ بَعْدَ ظَلَامِ

١ حملهم : كلفهم . احتملوا : تكلفوا وحملوا .

٢ استعتب : استرضى . الوري : خروج النار من الزناد . الزناد : جمع زند وهو
العود الذي تقدح به النار . يقول : له عزمة ناجحة لم يستبطىء الملك نجاحها يوماً . ولا
احتاج نوقدها الى استرضاء الايام لان الايام كانت دائماً طوعها .

٣ نجرها : اصلها . ايثار : تفضيل . العتاد : العدة . يقول : ان الله يرى لها ان تجعل
تفضيل التقى عدة لها .

أَضْحَى بُغَاءً وَأَقْرَبُوهُ وَخَزْبُهُ ، وَكَأَنَّهُمْ حُلْمٌ مِنَ الْأَحْلَامِ .
 والبحري يصدر مدحه على الغالب بالغزل . وقلما غني بحسن التخلص بل ينتقل
 وثباً ، ويقتضب اقتضاباً كاستاذة ابي تمام . ولكنه يختلف عنه بانه اقل غلواً منه ،
 واشد ترفلاً لممدوحه ، واكثر تحديداً بنعمه . وشعره كشعره حافل بالفوائد التاريخية .
 ففيه اخبار الوقائع والحروب التي جرت في ايامه ، واخبار الذين خرجوا على العباسيين
 من علويين وسواهم . وفيه غير ذلك من الحوادث التي تظهر لنا اضطراب الحالة
 السياسية في ذاك العصر .

وصفه

والوصف هو الذي رفع منزلة البحري ، واحله في الطبقة الاولى . فقد اوتي من
 قوة الخيلة وروعة التصور ما جعله يتناول الاشياء المادية فيوسمها بشعره لحاً ، فيخرج
 لها صوراً دقيقة بارعة الفن . وقد يرتفع عن المراثيات فيمعن في سماء الخيال ، ثم يعود
 يشتي التصاوير والتهاويل ، ملؤها حركة وحياة ، فتجس كذاك تسمع جرسها ، وترى
 خطواتها ، وتلمسها باناملك العشر .

وكان لنشأة الشاعر في بادية منبج يد في تصفية خياله ، فشرب على ما يشب عليه
 اهل البداوة من دقة الحس ، وصدق الخيلة ، ورقت عليه منبج بجبالها الطبيعي الذي
 تغنى به الشعراء ، فاستمد منها خياله البديع ، ثم زاده ثروة باسفاره الى الامصار
 المتحضرة . فبهرتة المدنية الجديدة بمشاهد عمرانها . فشغف بها ، وصورها احسن
 تصوير . كوصفه ايوان كسرى ، وبركة المتوكل ، وقصر المعتز ، ومجالس اللهو والنحو ،
 او وصفه للمناظر الطبيعية ، كدجلة والربيع . حتى ان اوصافه البدوية ، على ماديتها
 الظاهرة وضيق حدودها ، وسلوكه في اكثرها مسلك من تقدمه ، لا يعدوها جمال
 الفن ولا سيما قصيدة الذئب .

وصف الايواء

لم يحدثنا الرواة عن السبب الذي حمل البحري على السفر الى المدائن حتى زار
 قصور الاكاسرة ، وطاف بها وبكى عليها . ولكن الشاعر منحبرنا في مستهل قصيدته

انه شخص اليها وملء فؤاده يأس وتشاؤم، فهو حزين لانه استبدل العراق بالشام، وهو مثقل بالهموم يشكو جفاء ابن عمه له. فسفره كان اذاً لتفريج الكرب، ولتفريه عن النفس.

وكان الايوان يوم طاف به الشاعر خراباً، معرّى من اثائه، بعد ان امر المنصور بهدمه. فأخذ البحّري بجلال معالمة ورسومه، واجتذبه روعة الفن، فانخطف على اجنحة الخيال، ومثّلت له عظمت الاكاسرة بما عرف من اخبارهم، وشهد من آثارهم. وذكر اليمن وغارة الاحبوش عليها، وانتصار كسرى لها، وردة الملك على اميرها سيف ذي يزن، فراح يصف الايوان، ويتغنى بفضل الفرس الذين ايدوا استقلال بلاده.

ويقف امام صورة تريك وقعة بين الروم والفرس في مدينة انطاكية، فيتناولها بالوصف فتحس ان الحياة تدب فيها، ويدرك انك تشاهد التحام الفرسان، ووقع الاسنة. وتتمثل كسرى في ثيابه الملونة يسوق الصفوف تحت رايته. وما انت الا منجذب مع الشاعر في خياله الجميل.

فَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا كَيْسِيَّةَ أَرْتَعْتَ بَيْنَ رُومٍ وَفُرسٍ
وَأَلْمَنِيَا مَوَاتِلَ، وَأَنْوُ شَرْ وَأَنْ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرْفَسِ
فقصيدة الايوان ابلغ مثال لدقة الوصف، ومحو الخيال عند البحّري. وقد ادّهش بها معاصريه لانه فتح بها فتحاً جديداً في الادب، وهو البكاء على الممالك الزائلة. ووصف اطلالها الدارسة. فاذا ابن المعتز يقول: « لو لم يكن للبحّري الاقصيده السينية في وصف ايوان كسرى، فليس للعرب سينية مثلاً. وقصيدته في وصف الحركة لكان اشعر الناس في زمانه. »

غزله

ليس للبحّري غزل قائم بنفسه، وانما هو في صدور مدائحه، فمنه تقليدي بدوي يتسم به الاقدمين من وقوف وبكاء على الاطلال، ويكثر فيه ذكر اسماء عرائس

الشعر كسعاد واسماء وليلى ، وذكر اما كن البدو كنجد وإضم وخبت . وهذا النوع لا يطالعك بشيء طريف . ومنه الجديد المترف ، وهو الذي تحس فيه نفسية الشاعر ، وتلمس عاطفته المتوقدة . وفيه يصف عواطف نفسه واهواءها ، وشجونها وارتياحها ، ويصف مواقف اللقاء والوداع ، ومجالس اللهو والانس ، والخمرة والحبيب . ويصف استكانته للحب وخضوعه ، واذعانه لمشيمة محبوبه . وقد يتهتك في تشبيهه ولكنه لا يبلغ فيه مبلغ ابي نواس .

واول ما عرف الحب قلب البحري يوم تعشق علوة الحلبية ، فاذكت الجذوة الاولى في فؤاده ، فاذابت عاطفته على قوافيه . ثم ابتعد عنها الى العراق ، فكان لا يفتر عن ذكرها ، والتشبيب بها والحنين اليها . والظاهر ان علوة هذه كانت فتاة تياهة يلذ لها العبث بقلوب الفتيان ، وليس للتصون عندها حظ كبير ، لذلك لم يكن حب البحري لها عذرياً ولا صلته بها طاهرة ، حتى اذا بلغه انها تزوجت هجأها ، واوجع عرضها ، ورمها بكل سائنة . وغزل فيها يظهر لنا حقيقة هذا الحب وبعده من العفاف . على ان البحري لم يقصر حبه على علوة بل احب اشخاصاً آخرين ، احتلوا فؤاده ، واشتركت عاطفته فيما بينهم ، فذكرهم في شعره وشبب بهم جميعاً .

وكان صاحبنا لم يسعد طالعه بمن يهواهم ، فابتلى بالافتراق عنهم ، فكان يتشوق اليهم ، ويتألف على ايام لقائهم ، فاذا لجت به الذكريات ، وتغلبت عليه الاشواق ، تمثلت له اخيلتهم في المنام ، فاذا هب من نومه ، وكذبت اليقظة الحلم ، تضاعف التياغه وازداد وجده ، فراح يشبب بطيف الحبيب ، ويأسى على فراقه ، كأن الحلم حقيقة . ولما كثر ذلك منه طارت له شهرة في وصف طيف الخيال .

وغزل البحري في اكثره لطيف ناعم ، يزدان بحسن الوصف ، وفيه ما يستأسر القلوب ، ويشير العواطف في النفوس .

رأوه

كاد البحري يحصر رثاءه في نسيب يعز عليه فقدته . او صديق يشجيه بعده . فقد رثى المتوكل وكان احب الخلفاء اليه . ورثى اباسعيد وابنه يوسف وآل حميد وجميعهم

من انسابه . ورثي غلامه قيصر وكان يحبه ، وجارية له وكان يهواها . لذلك جاء رثاؤه على قاتله عاطفياً صادق التفعج .

على انه لم يرث الفتح بن خاقان مع حبه له وحزنه على موته . ولعله تاب الى رشده بعد رثائه المتوكل ، فشعر بالخطر المحقق به فلم يجزؤ على رثاء الفتح ، ولا سيما ان المنتصر ادعى ، بعد ان بويغ بالخلافة ، ان الفتح قتل المتوكل ، وانه قتل الفتح ثأراً لابييه .

وليس للبحثري غير مائة واحدة في المتوكل ، ولكنه ظل يذكره ويذكر الفتح في سوانح شعوره ، ويتلف على ايامهما . ولم يرث خليفة غيره ، مع انه شهد مقتل جماعة منهم كان متصلاً بهم يدحهم ، ذلك بانه لم يخلص الحب خليفة بعد المتوكل ولم يشأ ان يستهدف لغضب الموالي وولاء العهد ، وهو يعلم ان اكثر الخلفاء الذين ماتوا في زمنه قتلوا إما بسيف الاتراك ، واما بمكيذة يشترك فيها ولي العهد .

واكثر مراتي البحثري يتخللها المدح ، ولا سيما ما جاء في رثاء الامراء الذين يفيد منهم . فانه يبكي الميت ويتفجع عليه ، ثم يفرغ الى تغزية ولده او بعض اهله فيمعن في مدحهم . فكأنه يوطئ من رثائه سبيلاً للاتصال بهم . فقد رثى نسييه ابا سعيد رثاءً صادقاً لاشك فيه ، ولكنه مدح في القصيدة نفسها ولده يوسف . ورثي وصيفاً القائد التركي ، ومدح في المرواة ولده صالحاً . وتجد له مديحاً في محمد بن عبد الله بن طاهر ادججه في رثائه لاخيه طاهر ، وعمه الحسين .

ويستهل مراتيه على الغالب بتعظيم الخطب واكباره ، وذم الدهر والتوجع من صروفه ونوائبه . وما يؤخذ عليه في رثاء النساء ان المرأة مضعوفة عنده ، فهو يرى فيها رأي الفرزدق زاعماً انها اهون ميت على الرجل ، وان البكاء عليها عيب وفضاضة . ولعله يتكلم بلسان عصره فان المرأة كانت يومئذ ذليلة الجانب ، محتقرة المكان . فمن ذلك قوله يعزي نسييه ابا نهشل الطوسي عن ابنة افترطها :

وَأَعْمَرِي مَا أَلْعَجَزُ عِنْدِي إِلَّا أَنْ تَبْنِيَتِ الرَّجَالُ تَبْكِي النِّسَاءَ

وقوله مستنداً الى حديث لا ندري مبلغ صحته :

وَمَنْ نَعِمَ اللَّهُ لَا شَكَّ فِيهِ حَيَاةُ الْبَيْنِ ، وَمَوْتُ الْبَنَاتِ

لِقَوْلِ النَّبِيِّ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ : - مَوْتُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ

عتابه

برع البحتري في العتاب ، واحسن في اللوم والاسترضاء حتى قال صاحب العمدة :
« واحسن الناس طريقاً في عتاب الاشراف شيخ الصناعة ، وسيد الجماعة ابو عبادة
البحتري . » ويمتاز عتابه في نعومته ، وتلفظه فانه يؤنب قليلاً . ويسترضي كثيراً ،
ويلوم ولا يهدد . واذا هدد لا يغلظ ، ولا يتبعّض .

فخره

وله في الفخر اشياء حسنة . واكثر مفاخره بشعره ، ثم بقومه بني طي . وربما افتخر
على انسابه اذا لحقته جفوة منهم ، فيؤنبهم ، ويصف حسن مآتيه ليظهر ان حياته
فخر لهم ، فمن ذلك قوله من قصيدة :

وَمِنَ الْأَقَارِبِ مَنْ يُسَرُّ بِمِيتِي سَفْهًا ، وَعِزُّ حَيَاتِهِمْ بِحَيَاتِي
إِنْ أَبَقَ ، أَوْ أَهْلِكَ فَقَدْ نِلْتُ أَلَّتِي مَلَأْتُ صُدُورَ أَقَارِبِي وَعُدَاتِي

حكمه

وله بضاعة قليلة في الحكم لانها ليست من طلباته ، فهو يرى ان الشعر لم يخلق
المنطق وفي ذلك يرد على بعض لائمه :

كَفَقُّسُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُمْ ، فِي الشَّعْرِ يُلَغَى عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُهُ
وَلَمْ يَكُنْ ذُو الْقُرُوحِ يُلْهَجُ بِأَ مَنْطِقٍ ، مَا نَوْعُهُ ، وَمَا سَمِيَّةُ
وَالشَّعْرُ لَمْحٌ تَكْفِي إِشَارَتُهُ ، وَلَيْسَ بِالْهَذَرِ ، طَوَّلَتْ خُطْبُهُ

وفشأته البدوية هي التي جعلته لا يأنس بالادلة العقلية والتفكير المنطقي ، ولا
يرى خيراً في الشعر الا اذا انطلق من هذه الاغلال محمولاً على اجنحة الخيال الحر
الفسيح . فجاءت حكمه على قلتها ساذجة عمومية التفكير . تدور معانيها على
السنة الناس ، واكثرها في شكوى الزمان .

والبحتري كاستاذة ابي تمام ليس له يد طولى في الهجاء، وبضاعته فيه نثرة، وجيده قليل. وكان ابنه ابو الغوث يزعم ان والده عند موته امره باحراق جميع ما قاله في هذا الفن ففعل. ونحن نشك في رواية ابي الغوث ونرى ان الابن اراد ان يستر عجز ابنه، فزعم ذلك الزعم. ولقد وصل الينا من هجاء البحتري ما يكفي للدلالة على ضعفه في هذا النوع الذي لم يكن من مذهب. ولطالما تعرض له ابن الرومي واوجع عرضه فلم يجرؤ البحتري على مهاجته لعجزه عن لحاقه. وخطره يوماً ان يرد عليه ليسكته فاهدى اليه تحت متاع وكيس دراهم. وضم الى ذلك بيتين سخيفين وهما:

شَاعِرٌ لَا أَهَابُهُ ، نَبَحْتُ كِلَابُهُ
إِنَّ مَنْ لَا أُعْزُهُ ، لَعَزِيزٌ جَوَابُهُ

على ان هذا التمثل لا يستر ضعف البحتري وتقصيره عن ابن الرومي في الهجو. وكان ابن الرومي يعرف ذلك فيه. فقد ذكر المَرزُبَانِي في وشحه. انها اجتماع مرة، وكان اجتماعها سبباً للمودة بينهما. فقال البحتري: «عزمت على ان اعمل قصيدة في الهجاء...» فقال له ابن الرومي: «ياك والهجاء يا أبا عبادة. فليس من عملك وهو من عملي.» فقال له: «نتعاون.» وعمل البحتري ثلاثة ابيات. وعمل ابن الرومي ثمانية، فلم يلحقه في صنعه.

ولكن البحتري كان يهاجم الشعراء المغمورين فيهجوهم غير خائف شرهم. وصب اكثر هجائه على الطبقة العالية من الناس حتى انه هجا اربعين رئيساً من الذين مدحهم واخذ جوائزهم. منهم خلفاء ووزراء وقواد وكتاب وقضاة وولاة ومن جرى مجراهم من الكبراء.

وهو في هجائه فاحش متعهر، بذى الالفاظ يجعل مهجويه على الغالب مخشين فاقدى النخوة والحياء. ولم يجد له صاحب الاغاني غير قصيدتين جيدتين في الهجو احدهما في ابي قماش، والثانية في يعقوب بن الفرج النصراني. والاولى فيها شي.

من مذهبه في الوصف والتصوير . ولكنها لا تجعل منه شاعراً هجّاء على كل حال .

ما أدرك عليه

قال الآمدي في موازنته بين الطائيين : « وما رأيت شيئاً مما عيب به أبو تمام إلا وجدت في شعر البحتري مثله . إلا أنه في شعر أبي تمام كثير ، وفي شعر البحتري قليل » وقد صدق الآمدي ، وإن يكن تعصبه على أبي تمام لا يحتاج إلى دليل . فالبحتري وقع في مثل ما وقع به استاذة ، فروي له شعر مسروق جعله ابن أبي طاهر ستائة بيت منها مائة مسروقة من شعرا أبي تمام . وسواء صح هذا العدد كله أو بعضه فالاستاذ فاق بالسرقة تلميذه . وخصوصاً إذا نظرنا إلى ما ترك أبو عبادة من الشعر الكثير الذي يبلغ ضعف شعر أبي تمام . ثم إلى المعاني المشتركة التي سرّقه أياها وهي لا يستقل بها شاعر دون آخر . فما أخذه من أبي تمام وحسنه قوله :

وَلَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ
وقال أبو تمام :

دِيمَةٌ سَمَحَةٌ أَلْقِيَادُ سَكُوبُ ، مُسْتَغِيثٌ بِهَا الْأَثَرُ الْمَكْرُوبُ
لَوْ سَعَتْ بُقْعَةٌ لِإِعْظَامِ نُعْمَى ، لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيبُ
وقوله وقصر فيه عن استاذة :

وَلَنْ تَسْتَيْنَ الدَّهْرَ مَوْضِعَ نِعْمَةٍ ، إِذَا أَنْتَ لَمْ تَدُلَّ عَلَيْهَا بِحَاسِدٍ
وقال أبو تمام :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طَوَّيْتُ ، أَتَّاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ
وأدرك عليه معانٍ لم يوفق في استخراجها . فمنها ما كان ضعيف المدلول . ومنها ما خالف فيه أدب الشعر كقوله يمدح المعتز بالله :

لَا أَعْدُلُ يَرْدَعُهُ وَلَا أَلَّـ غَنِيْفُ عَنْ كَرَمٍ يَصْدُهُ

وهذا على رأي الآمدي من أهجن ما مدح به خليفة واقبحه . ومن ذا يعنف الخليفة أو يصدّه ؟ إن هذا بالهجو أولى منه بالمدح .

وهو كأستاذه يحتذي مثال الاقدمين في اشباع الحركات حتى يخرج منها حرف
لين ، وهذا الزحاف نفر منه جمهور الشعراء المولدين . وان اجازته اصحاب العروض .
على ان البحري لم يتورط فيه تورط ابي تمام .

ولا يخلو شعره من ابيات فيها ضعف واسفاف . وقد تكرر بالفاظ تنكر عليها
الفصاحة ، وتعجب ان يكون البحري صاحبها . فمن ذلك استعماله فعل اختشى .
وهذا غير مسموع كقوله في مدح ابن الفياض :

يَخْتَشِي زَلَّةَ الْخِطَارِ ، وَأَرْجُو عَوْدَةً مِنْ عَوَائِدِ اللَّهِ تُتَمَنَّى

ويمكننا ان نعزو هذه الاشياء الى اكثاره من النظم ، ثم الى اختلاف
الروايات فانها حملت عليه اقوالاً منجولة ، فنسبت اليه على براءته منها .
ومهما يكن من شيء فان الذي ادرك على البحري يكاد لا يذكر بالاضافة
الى غزارة شعره .

عن ترجمته

نسب الى ابي العلاء المعري انه قال : « ابو تمام والمتنبي حكيان وانما الشاعر
البحري . » ومنهم من يضيف هذا القول الى المتنبي نفسه فيزعم انه قال : « انا
وابو تمام حكيان وانما الشاعر البحري . » وكلا الامرين عندنا مشكوك فيه لانه اما
مخالف لعقيدة ابي العلاء في شاعرية ابي الطيب وقد كان يسميه وحده الشاعر ويسمي
غيره من الشعراء باسمه كما قال ابن الاثير . واما مخالف لعقيدة ابي الطيب واثباته
القوي بشعره . على ان البحري اصح من ابي تمام طبعاً ، واقل تكلفاً ، ووضح الثلاثة
ديباجة واكثرهم انسجاماً ، واسلمهم من الغموض والتعقيد . ذلك بأن نشاطه البدوية
جعلته لا يحتفل بالمعاني الفلسفية والادلة العقلية ، ولا يتورط في التزام البديع لانه
يخالف اذواق اهل البادية المطبوعين على الشعر . ولا يسرف في طلب الغريب ، لان

الخطار : جمع الخطر . العردة هنا بمعنى المعروف . العوائد : جمع عائدة وهي
المعروف . تمنى : تقدير .

معرفته ليست فضيلة عند البدو كما هي فضيلة عند الحضرة . فكل بدوي يعرف الغريب ، ولا يعرفه كل حضري . لذلك كان البحترى يحذفه وينفيه عن شعره ليقربه من افهام ممدوحيه الا ان يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة في موضعها من غير طلب لها . فاوتي ديباجة رائقة ، قلما ظفر شاعر بمثلها حتى ضرب المثل بها فليل ديباجة بحترية وشبه شعره لاجلها بسلاسل الذهب لتناسقه ، وتماسكه ، ورونقه وحسن انسجامه . واتخذ طرازاً أعلى للطريقة الشامية التي شغف بها صاحب بن عباد ، وحث الناس على رواية اشعار اصحابها . وكان شعره وضع للغناء لما فيه من ايقاع وترجيع ، ومزاوجة الفاظ ومطابقتها . ثم لما فيه من الطراوة والبرقة ، والبعد من التداخل ، على خفة في المعنى وقرب تناول .

وكان اذا تشبه باستاذ فطلب المجاز والبديع ، يحسن اختيار الالفاظ وتاليفها ، ويجعل استعاراته وتمثيلات ، وجناساته ، ومطابقاته ، نازلة في منازلها ، لا تستخدم المعنى ، وانما تريده تصويراً ورونقاً . وكان وصية ابي تمام له اثرت فيه احسن تأثير فاهتدى بهديها . فانقذ شعره من الشوائب التي علقت بشعر استاذ . فاذا هو كما اوصاه : « يتقاضى المعاني ، ويحذر المجبول منها ، ولا يشين شعره بالالفاظ الزرية . » وشهد له ابو تمام فقال : « انت امير الشعراء بعدي . »

ويرى طائفة من اهل الادب انه لم يأت بعد ابي نواس من هو اشعر من البحترى ولا بعد البحترى من هو اطبع منه على الشعر . وذكر الامدي في موازنته ان ابا عبادة قد اسقط في ايامه اكثر من خمس مائة شاعر ، وذهب بنجرهم ، وانفرد بأخذ جوائز الخلفاء دونهم .

واذا صح ان انشاء الاديب صورة لنفسه ، فشعر البحترى بما فيه من ديباجة رائقة ، وخيال جميل ، وغزل لطيف ، يجعلنا نشك في ما يزعمه بعض الرواة من انه كان وسخاً بغيضاً ، فاناقة عباراته ، لا تدل على قذارة آله ، ورقة الفاظه ولطف معانيه لا يلائم غلاظة طباعه .

وما ادراك ان اولئك الذين شتموا عليه كانوا من خصومه ، فارادوا اسقاطه ليفضلوا صاحبهم ابا تمام . ونحن نرى غيرهم من الرواة لا يصفونه بمثل هذه الاوصاف

بل ينعتونه بحسن الخلال . ومهما يكن الامر فشعر البحترى يجعل صاحبه محبباً الى النفوس ، ولا يرسم لنا تلك الصور الممقوتة التي يرينا اياها بعض الرواة .
والخلاصة ان البحترى يتحلى بمجال الديباجة ، وبراعة الوصف والتصوير . ولا سيما وصف الطبيعة ومظاهر العمران ، يسمو به خيال لطيف ، يسبح في سماء صافية الاديم ، معطرة الارحاء ، علميلة النسيم . وهو زعيم الطريقة الشامية ، وفي طبيعة من قال مدحاً في خلافة العباسيين . ومترلته في الطبقة الاولى بين الشعراء المولدين .

ابن الرومي

٨٣٥ — ٨٩٦ م و ٢٢١ — ٢٨٣ هـ ؟

حياته	:	اخباره من شعره . صفاته و اخلاقه . حبه للحياة . طيرته . اثاره .
ميزته	:	مدحه . هجوه . رثاؤه . غزله . وصفه الطبيعة . اراؤه وعقائده .
		مترلته . تفكيره وعاطفته و خياله . ليس لشعره ديباجة . هو اكثر الشعراء اختراعاً .

X حياته

ابي المؤرخون الاوائل ان يتركوا لنا ترجمة وافية لابن الرومي ، فلم يدونوا الا اخباراً متقطعة الاوصال ليس فيها غناء كبير للباحث في الاداب . فهم يعلموننا ان اسمه علي بن العباس بن جريج او جورجيس . وان لقبه ابن الرومي ، وكنيته ابو الحسن .
وانه مولى لعبيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور احد الامراء العباسيين ، وانه ولد في بغداد وبها نشأ . وهنا تنقطع سلسلة اخباره فما تجد منها غير نتف لا لحمة بينها ولا سدى . حتي اذا بلغنا خبر موته علمنا انه مات مسموماً سمّه القاسم بن عبيد الله الوهي وزير المعتضد . وكان هذا الوزير ظلاماً عاتياً ، فخاف ان يهجو الشاعر لما عرف

من فلتات لسانه، فدرس عليه من اطعمه 'خشكناجة' مسمومة مات بها . وكانت وفاته في بغداد ودفن في مقبرة البستان .

وزيد ابن خلكان على هذه الرواية قوله : « فلما اكلمها احس بالسقم فقام ؛ فقال له الوزير : « الى اين تذهب . » فقال : « الى الموضع الذي بعثني اليه . » فقال له : « سلم لي علي والدي . » فقال له : « ما طريقي على النار . » وخرج من مجلسه واتى منزله ، واقام اياماً ومات . » اه

ولكن هذا القول مضعوف بدليل ان والد القاسم مات بعد ابن الرومي ببضع سنوات ، فلا معنى لقول القاسم : « سلم علي والدي . » ويؤيد ذلك رواية لابن رشيق في العمدة تطلعنا على ان عبيد الله ابا القاسم هو الذي اوعز الى ولده بان يتخلص من الشاعر لان لسانه اطول من عقله .

ولئن نجس المؤرخون حق ابن الرومي فلم يعنوا بجمع اخباره لقد كان الشاعر احرص منهم على ذلك ، فجاء شعره تاريخاً صادقاً لحياته ، وصورة ناطقة باخلاقه وصفاته . فاذا اردت حقيقة نسبه فهو رومي من ناحية ابيه ، وفارسي من ناحية امه : X

كَيْفَ أَغْضِي عَلَى الدِّينَةِ وَالْفَرْسِ خُوْلِي وَالرُّومُ أَغْمَامِي

واذا اردت ولاءه فهو عباسي :

قَوْمِي بَنُو الْعَبَّاسِ ، حِلْمُهُمْ حِلْمِي ، كَذَلِكَ ، وَجَهْلُهُمْ جَهْلِي
مَوْلَاهُمْ ، وَغَدِي نِعْمَتُهُمْ ، وَالرُّومُ ، حِينَ تَنْصِي ، أَصْلِي

ويخبرنا في شعره انه عاش فقيراً ضيق العيش :
أَيْلَتِسُ النَّاسُ الْغَنَى فَيُصِيبُهُمْ ، وَأَلْتِمِسُ الْفُتَّ الطَّنِيفَ فَيَلْتَوِي

يستجدي الكساء ليقيه قر الشتاء ، فيما طل حتى يخشى ان يأتي الصيف قبل ان يعطى بغيته فيقول :

١ الخشكناجة : قرص حلوى بالسمن والسكر .

٢ تنصني : تسندني وتنسبني .

إِنَّكَ إِنْ مَا طَلْتَنِي أَلْمَوَاعِدَا ، وَأَضْرَمَ الصِّفُ الْأَجِيجَ الصَّاحِدَا^١
جَاءَ الْكِسَاءُ عِنْدَ ذَلِكَ بَارِدَا

وتركبه الديون فيتدمر ويشكو :

وَأَرْتَكَبُ الدُّيُونَ إِيَّايَ فِي ظِلِّكَ - يَهْجُوكَ بِاللِّسَانِ الْقَصِيحِ^٢
ويستعطي درهمين من كل صديق ليسد عوزه :

لِي فِي دِرْهَمَيْنِ فِي كُلِّ شَهْرٍ ، مِنْ فِئَامٍ ، مَا يَطْرُدُ الْخَوَجَاءَ^٣
ولكن أصحابه كانوا يعرضون عنه أكثر الأحيان ، ولا يلبون نداءه ، فيعاتب
ويؤنب ويهجو .

على أن الشاعر لم يعيش طول حياته معدماً محروماً ، فقد كانت تمر به اوقات
يلهو بها وينعم ، ثم لا تلبث أن تمضي سراعاً ، فيعود اليه بؤسه . وكان له ضيعة
فخانه الحظ فيها ، ولم تجده فتيلاً :

أُعَانِي ضَيْعَةً مَا زِلْتُ مِنْهَا ، بِحَمْدِ اللَّهِ قَدِمًا فِي عَنَاءِ^٤
وجمع ثروة فالتهمت منها النيران :

حُدُوثٌ حَوَادِثُ مِنْهَا حَرِيقٌ ، تَحْيِفُ مَا جَمَعْتُ مِنَ الثَّرَاءِ^٥
وكان له دار فاضطره بعضهم الى بيعها :

وَلِي وَطَنٌ آلَيْتُ أَنْ لَا أُبِيعَهُ ، وَأَنْ لَا أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَا لَكَ^٦
وقد ضامني فيه لئيمٌ ، وعزني ، وها أنا منه مُعَصِمٌ بِجِبَالِكَ^٧

وتملك داراً ثانية فغصبتة اياه امرأة فراح يتظلم الى الوزير القاسم :

تَهَضَّنِي أَنْثَى ، وَتَغْصِبُ جَهْرَةً عَقَارِي ، وَفِي هَاتِيكَ أَعْجَبُ مُعْجَبٍ^٨

١ الاجيج : اللهب . الصاخذ : المحرق .

٢ الفِئَام : الجماعة من الناس لا واحد له من لفظه . الخوجاء : الحاجة .

٣ تحيف الشيء : تنقصه واخذ من نواحيه .

٤ آلَيْت : اقسمت .

٥ عزني : غلبني . مُعَصِم : ممسك . وقوله : معصم بجبالكا اي ، مكل عليك .

٦ تَهَضَّنِي أَنْثَى : تظلمني وتغصبني .

فكل ذلك يدل على ان الشاعرو عاش مضعوفاً مهيناً ، وحالفه الشقاء وزكد الطالع ، فلم يبتسم له الدهر الا ساخرأً منه . فقد لقي من الناس تحوشاً وشرأ . وخذله اصدقاؤه وابتعدوا عنه ، واقصاه الملوك ولم يقوبوه . فعاش خاملاً ، مضطهداً ، مُتَنَقِّصاً ، ضيق الرزق ، كثير العوز ، واصيب باولاده الثلاثة وامراته وامه واخيه . فمات وهو على اشد ما يكون من البؤس والتطير .

واختلف في تاريخ موته فقليل انه كان سنة ٢٨٢هـ ، وقيل سنة ٢٨٣هـ ، وقيل بل سنة ٢٧٦ . ولكن ابن الرومي يخبرنا في شعره انه بلغ الستين :
 طَرَبْتُ وَلَمْ تَطْرَبْ عَلَى حِينٍ مَطْرَبٍ ، وَكَيْفَ التَّصَابِي بِأَبْنِ سِتِّينَ أَشْبَبَ
 فبلوغه الستين ينفي قول من زعموا انه مات سنة ٢٧٦ ، ويؤيد التاريخين الآخرين لانه لا خلاف في تاريخ ولادته . فوفاته اذاً بين السنة الثالثة والثانين والرابعة والثانين بعد المائتين . فيكون قد ادرك تسعة خلفاء اولهم المعتصم وآخرهم المعتضد ولكنه لم يتصل بواحد منهم

صفاته واغلاظه

يصف ابن الرومي نفسه في مواضع شتى من شعره ، فيرينا انه كان في صباه جميل الوجه ، ابيض اللون ، اسود الشعر ، حسن القامة معدولها . ولكن هذا الجمال لم يلبث ان خبا نوره لاستهتاره بالملذات ، فاصفر وجهه وتجمد ، وتقوس ظهره ، وضعف سمعه وبصره ، ووهنت قواه ، ونحل جسمه واستدق :

سُلِبْتُ سَوَادَ الْعَارِضِينَ وَقَبْلَهُ ، بَيَاضُهَا الْمَحْمُودُ ، إِذْ أَنَا أَمَرْدُ^١

.....

وَأَضْحَكَ قَنَاطُ الظَّهْرِ قُورَسَ مَتْنُهَا ، وَقَدْ كَانَ مَعْدُولاً ، وَإِنْ عِشْتُ فُجْحًا^٢

١ العارضين : جانبي الوجه . يقول : انه شاب عارضاه ففقد سوادهما بعد ان فقد بياضها الذي عرف به يوم كان امرد . يريسد انه فقد رونق وجهه وشاب وهو لا يزال فتى .
 ٢ فُجْحٌ : استرخى . يقول : انه اذا عاش وطال عمره سيصير ظهره الى الاسترخاء بعد تقويسه في سن الشباب .

وَأَحَدَتْ نِقْصَانُ الْقَوَى بَيْنَ نَظَرِي وَسَمْعِي، وَبَيْنَ الشَّخْصِ وَالصَّوْتِ بَرْزَخًا^١

.....

أَنَا مَنْ خَفَّ وَأَسْتَدَقَّ فَمَا يُثْقِلُ - أَرْضًا ، وَلَا يَسُدُّ فضاء

.....

شَغِفْتُ بِالْخُرْدِ الْحَسَنِ وَمَا يَصْلُحُ وَجْهِي إِلَّا لِذِي وَرَعٍ^٢ ،
كَيْ يَعْبُدَ اللَّهَ فِي أَلْفَلَاةٍ ، وَلَا يَشْهَدَ فِيهِ مَسَاجِدَ الْجَمْعِ^٣
وعلا رأسه المشيب وله من العمر احدى وعشرون سنة . واصيب بالصلع ، فاتتهم
عمامته ، ولكنه ابى خلعا لتستر ضلعمته :

فَظَلَمُ اللَّيْلِ أَلْيَ الْيَوْمِ أَشْبَنِي ، لِعِشْرِينَ يَحْدُوهُنَّ حَوْلُ مُجْرِمٍ^٤

.....

عَزَمْتُ عَلَى لُبْسِ الْعِمَامَةِ حِيلَةً ، لِنَشْرِ مَا جَرَّتْ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَعِ
وكان مضطرب المشية يهتز كالغربال في يد المغربل :
إِنَّ لِي مِشْيَةً أَغْرِبِلُ فِيهَا ، أَمِنَّا أَنْ أُسَاقَطَ الْأَسْقَاطُ^٥
وهو الى ذلك دقيق الحس ، عصبي المزاج ، تغلب عليه السوداء ، فيثور ، ويشتد
غضبه ويسلط لسانه اذا عابث به عابث ، ولكنه سريع الرضى ، صفوح اذا استرضي .
وكان يحب الحياة ويتعشقها مع ما لقي فيها من بؤس وشقاء . والحياة عنده لذة تتطلبها
ويستمتع بها . واللذة عنده شهوة الى الجمال يتبعه اينما بدا له . فيستعذبه في وجوه

١ البرزخ : هنا الحاجز بين الشئين .

٢ الخرد : جمع خريدة وهي البكر السكوت الخفرة .

٣ يقول : ان وجهه في شحوبه اشبه بوجوه النساك . يصلح لان يعبد الله في
الفلألة ، ولا يصلح ان يجتمع مع الناس يوم الجمعة في المساجد فكيف يحق له وهو في مثل
هذا الحال ان يعشق الخرد الحسان .

٤ يحْدُوهُنَّ : يسوقهن والمعنى يتقدمهن . حول مجرّم : سنة تامة .

٥ الاسقاط : جمع السقط وهو ما أسقط من الشيء وما لا خير فيه . يقول انه يغربل
مشيته ولكنه لا يخشى ان يسقط شيء من غرباله ، كما تسقط النفاية من غرابيل الغربالين .
وهنا يستم معناه ليدل على ان غرباله مجازي لا حقيقي .

المَلّاح ، وفي اصوات المغنين والقيان ، وفي الطبيعة وما عليها من صور والوان .
واللذة عنده شهوة الى المآذب ، فهو منهوم لا يشبع من طعام وفواكه وشراب .

وطلبه لهذه الميزات على فقره وحرمانه ، جعله يحسد كل ذي نعمة ، فيتمناها
لنفسه ، ويستكثرها في صاحبها . وجعله يلحف في السؤال ، ويعاتب ويتذلل حتى
يتبعض .

وكان على حبه للتكسب يجبن عن ادراك رزقه ، فقد يدعوه بعض الامراء فما
يجرؤ ان يصير اليه لانه يخشى الاسفار ويخيفه الهل والبحر والصيف والشتاء . فهو
موسوس ضعيف العقل ، متشائم ، متطير .

وزاده طيرة ما ناله من الارزاء والمحن فاصبح يتوهم النحس توهماً ، ويتمثله في
تصحييف الاسماء وقلبه وتخلييلها ، وفي صور الاشخاص ، واشكال الاشياء . حتى بات
الناس يضحكون به ، ويعابثونه ، فيهجروهم ، ويشخن في اعراضهم ويستخر منهم ، وهم
يعنون في نكايته ولا يبالون . ذكر صاحب معاهد التنصيص : « ان اصحابه كانوا
يرسلون اليه من يتطير من اسمه فلا يخرج من بيته اصلاً ، ويمتنع من التصرف سائر
يومه . وارسل اليه بعض اصحابه غلاماً حسن الصورة اسمه حسن ، فطرق الباب عليه .
فقال : « من ؟ » قال : « حسن » فتفاءل به وخرج واذا على باب داره حانوت خياط قد
صلب عليها درفتين كهية اللام الف . ورأى تحتها نوى تمر فتطير وقال : « هذا شير
بان لا تمر . » ورجع ولم يذهب معه . وكان الاخفش الاصغر علي بن سليمان يقفوع
عليه الباب اذا اصبح . فاذا قال : « من القارع ؟ » قال : « مرة بن حنظلة . » ونحو
ذلك من الاسماء التي يتطير بذكرها . فيحبس نفسه في بيته ، ولا يخرج يومه اجمع اه .
واخبار ابن الرومي في الطيرة كثيرة نكتفي بما ذكرنا منها للدلالة على وسوسته
وجبنه واختلاط عقله .

ومن صفاته الحسنة انه كان صادق المودة لاصحابه ، محباً لاولاده واهله ، عطوفاً
على الفقراء والمساكين .

لابن الرومي شعر كثير رواه عنه المسيي . ولم يكن مرتباً فعمله الصولي على الحروف ، وجمعه ابو الطيب وراق ابن عبدوس من جميع النسخ . وزاد على كل نسخة مما هو على الحروف وغيرها نحو الف بيت . و ذكر المستشرق كليان هيوار ان ابا عثمان سعيداً الخالدي من العلماء المتصلين بسيف الدولة كتب ترجمته مفصلة ، ولكن لم تصل اليها .

وبقي شعره متفرقاً في كتب الادب حتى قام بعض الادباء في مصر ، فعنوا بطبعه ونشره . وعني بدراسته جماعة منهم عباس محمود العقاد فانه وضع كتاباً خاصاً به . فهذا الشاعر الذي اهمله عصره ، وتنكر له ابناء زمانه عرف قدره بعد موته فدونت اشعاره ، وجمعت اخباره . ونبشت اثاره ، فاذا هي عنوان العبقريّة والنبوغ .

ولابن الرومي بقايا في النثر منها رسائل صغيرة الى الوزير القاسم والى بعض اصدقائه . ومنها نبذة في تفضيل النرجس . ونثره حسن الاسلوب يجري به مع بقاء الكتاب . وكان يقتخر بنثره كما يقتخر بشعره مشبهاً نفسه بالاخطل والجاحظ :
أَلَمْ تَجِدُونِي آلَ وَهَبٍ لِمَدْحِكُمْ ، بِشِعْرِي وَنَثْرِي أَخْطَلًا ثُمَّ جَاحِظًا

ميرته

هذا شاعر حاول التكسب بشعره ، فلم يفلح سهمه . وقالت حظوته فما اتبع له ان يرضى بمدوحه فيرضوه ، فعاتبهم واستعجبهم ، فما اجداه العتاب . ولا أعطي العتبي . فسخط وهجا ، وانتقم اخبث انتقام .

هذا شاعر تنكر له الدهر ، وقعد به الجدة ، وازرى به معاصروه ، وصفرت كفه ، فقادته مضاضة الفقر الى ذل السؤال . فالح والحف ، فنهر ورد ، وليس للالحف غير الرد .

هذا شاعر احب الحياة ونعيمها ، فتهالك على شهواتها وملاذها ، فاذاقه الله لباس الجوع ، فاذا هو منهوم لا يشبع ، يرى الدنيا وما فيها لذة واستمتاعاً .

ورد في ابن خلكان رواه المتني وهو تحريف .

هذا شاعر كُتب الشقاء له في لوح الاقدار ، فقد ارتزق فلم يُرزق . واشتهى فحُرم .
واحِب فنبذ . وطلب الراحة في ظل عائلته ، فمات اولاده ، وماتت زوجته ومات اخوه ،
وماتت امه . وغصبت داره . وبقي وحده حياً يشقى ، فتشاءم وتطير . فسخر الناس
به . وقالوا : مجنون موسوس . وقد صدقوا فابن الرومي لم يسلم من اختلاط في عقله
يرفده الشقاء ، وتشده الحمية . ولكن الشاعر مدين بعمق ريته لجنونه وشقائه وخيبته .
فلو لم يطرّحه الناس ، وينكروا عليه غرابة اطواره . ولو لم يخفق ويتعس ويتألم ،
لشغل شعره بالمديح ، وما يشبه المديح ولما جاءنا بهذه الايات البينات التي صور بها
عواطف نفسه ، واخلاق اهل زمانه ، وصور الاشياء التي رغب فيها واحبها ، وظل
طوال عمره يشتهيها . والاشياء التي كرهها ونفر منها وتطير .

مرمه

لم يدح ابن الرومي من الخلفاء الذين عاصروهم غير المعتضد ، وليس له فيه شيء .
يعتد به ، لانه لم يحظ عنده . ولكنه مدح جماعة من الوزراء والامراء . فوفق لشيء
من الاجادة . واشهر بمدوحه اسمعيل بن ببلل وزير المعتضد ، ومحمد بن عبدالله بن طاهر
صاحب شرطة بغداد وامير خراسان ، واخوه عبيدالله بن طاهر ، كانت له ولاية
الشرطة بعد اخيه . والقاسم بن عبيدالله الوهبي وزير المعتضد .

على ان مدائحهم لم تكن لتغنيه من فقر ، لانهم لم يحسنوا صلاته ، ولم يقرّبوا
مكانه ، وربما اقصوه عنهم ، وسمعوا شعره دون ان يجيزوه عليه . وغير عجيب ان
يخفق عندهم ، وهو على اضطراب عقله ، وضيق اخلاقه ، وسلطة لسانه ، وسوء تصرفه
في مصاحبة الناس ، لا يصلح للمجالس فيتخذ ندياً . وكان الى هذا شديد الخاف ،
فتهموا به وحرّموه . فالله ذلك لامرين احدهما حاجته الى المال ، والاخر ذهاب شعره
ضياعاً . فانه كان مفتوناً بلذة الحياة ونعيمها فلم يقدر له من الرزق ما يشبع به
شهواته . وكان حريصاً على شاعريته فامضه ان يبخل حقها . فكثرت عتابه لمدوحه ؛
وارهقهم بالسؤال والاستعطاف حيناً ، وبالتأنيب والتهديد آخر . وقد يعتد بنفسه
فيطلب ان يكون ندياً لهم يحضر مجالس اللهو معهم ، او كاتباً في دواوينهم

تستودع عنده اسرارهم . فيرتد خائباً مذبذباً ، يتظلم ويشكو .

وكيف يُفْلح شاعر مثله ، وهو لا يحسن المدح الا اذا سأل وعاتب وهدد . ولم يكن له من ظرف اللسان ، وحميد المخالقة ، ورجاحة العقل ما يجنبه الى الامراء فيرغبوا في مجالسته ومنادته . وكانت طيرته عوناً عليه ، فازداد بها بؤساً وخيبة ، لان وسواس عقله جعله جباناً قلق النفس ، مروع الفؤاد يتخوف اشياء يتوهمها توهماً فاذا دعاه امير ان يتجشم اليه السفر ليسمع شعره ويشبهه ، ابى ان يذهب خوفاً من مشاق البر وغرق البحر ، وطلب اليه ان يجيزه دون ان يركبه هذا المركب الحشن . ولعل معاصرته للبحاري أضرت به ، وغرته عند الامراء . لانه مدح اكثر الذين مدحهم ابو عبادة ، فلم يحفلوا به ، ولا التفقوا لفته . مع انهم اكرموا البحاري وخصوه بسني الجوائز . ويرجع ذلك الى ان الوليد ابرع منه في المدح ، وارضن في المجالس واعقل ، واحسن تصرفاً في استرضاء ممدوحيه .

هجو

لابن الرومي شهرة في الهجاء لا تتقدمها شهرة دعبل وبشار . ويفوقهما بما امتاز فيه من دقة التصوير فان هجاءه لا يقتصر على القذف والطعن والسخر بل يتعداه الى وصف اخلاق المهجو ، وتصوير اشكاله حتى يبرزه مثله شوهاً مضحكة .

وبواعث الهجاء عند الشاعر عديدة ، فمنها انه كان محروماً يستجدي فلا يعطى الا القليل ، فيغضب ويهجو من يمنعون صلتهم عنه . ومنها انه كان يحسد ذوي النعمة الذين يتمتعون بملاذ الحياة دونه فيهجوهم . ومنها ان الناس كانوا يعلمون ضيق اخلاقه ، وغرابة اطواره ، فيعشثون به ويضايقونه ، ويعيبون شعره وينتقدونه ، فيثور نأثره ويهجوهم . ومنها انه كان دقيق الحس ينفر من الاشياء التي لا تلائم طبعه ، ولا يستأغها ذوقه فيذمها كما في هجائه لصاحب اللحية الطويلة ، والغناء القبيح . ومنها انه كان شديد الطيرة يتوهم النجس في الاشخاص والاسماء والعاهات والعيوب ، فهجا كل شيء يتطير منه . ومنها انه كان شرهاً منهوماً لا يصبر عن الطعام ، فاذا جاء رمضان تضايق من الصوم فهجاه . ومنها انه كان يتشيع للعلويين مع ولائه في بني العباس ، فهجا

العباسيين وافحش فيهم لما رأى ما اصاب الطالبين من التشكيل .

رأوه

✕ لم يكن ابن الرومي حظيظاً عند الملوك فيتخذ الرثاء آلة للتكسب ، لذلك قلت
مراثيه ، وليس له منها ما يستحق الذكر الا الذي قاله في اولاده وزوجه وامه واخيه .
والا الذي قاله في بستان المغنية وكان يهواها ، وفي ابي الحسين يحيى بن ابي عمر الطالبي
لانه كان يتشيع للعلويين ، فساءه ان يفتك به العباسيون وكان قد ثار بهم . فبكى
عليه وهجا بني العباس وآل طاهر اعوانهم على قتله . والذي قاله في بكائه على البصرة
لما دخلها الزنج سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ م) واحرقوها ومثلوا باهلها ، فقد راعه ما دهاها
وهي منبت العلماء والادباء ، وعكاظ الاسلام فرثاها والهاً وصور خرابها ابرع تصوير .
وابن الرومي شديد التفجع على الميت اذا كان عزيزاً عليه ، ولا غرو فانه من
طبيعته ضعيف الارادة قوي العاطفة ، دقيق الاحساس ، مضطرب العقل ، فاخلق به
ان يغلب عليه الجزع اذا رزى بمن يحبه ، فيتأجج بر كاناً عاطفياً ينفث نيرانه عن نفس
يصهرها الحزن ويضغطها التطير ، ويحفزها تتابع النكبات ، فتنفجر بالبكاء والالين .
واحسن مراثيه قصيدته في ولده الاوسط واسمه محمد . وقدمات منزوفاً وهو لم يزل طفلاً .
فهي من افجع ما قال والد في رثاء ولد . وهي تصور جزع الشاعر ادق تصوير ، وتخرج
مشهداً تاماً عن حياة طفله ومرضه وذبوله وموته .

وابن الرومي على تفجعه لا يرثي فقيده اكثر من مرة . وقلمها جاوزها الى المرتين
او الثلاث شأنه في رثاء امه وامراته ، مما يدل على ان الحزن لا يلح عليه طويلاً . وانما
تحرقه الجمره ساعة سقوطها ، ثم لا تلبث ان تنطفئ . فينسى او يتناسى . ولعل هذا راجع
الى تقلب طباعه ، واضطراب مزاجه ، وسرعة تنقله من حال الى حال ، او راجع الى
توالي المصائب عليه ، فان حرمانه وخسرانه ، ثم موت امه واخيه ، ثم موت اولاده
وزوجه لا بد ان يجعل في نفسه شيئاً من الاستسلام والقنوط ، فيصبح وهو اليق
الارزاء والتطير ، يتوقع كل يوم رزاً جديداً ، فينسى الماضي لاشتغال فكره بتتظر

الآتي .

٢٠٢

كان ابن الرومي تتبع جمال يجري وراءه طلباً للذة فهي عنده زينة الحياة الدنيا ، ولا بهجة للحياة بدونها . فافرع ما شابه على أشواك شهواته . وما راعه إلا بارقة البياض تلوح بفرقه فبكى على الصبى وتلف . وذم المشيب وهجاه . وهو لم يأسف على فراق الشباب إلا لانه سيفارق اللذة بعده . وما كان ليحب ويعشق لولا التهاك على اللذة والاستمتاع . ومثل هذا الحب تغمره المادة ، وتسيطر فيه على الروح فينحط بصاحبه الى الدنيا ، ويجعل المرأة اداة للهو والتسلية ، ويهبط بها عن عوشها السامي الذي رفعه الله لتوضع عليه .

وصاحب هذا الحب لا يتعشق شخصاً واحداً فيقف فؤاده على حبه ، وانما لذته في التنقل . فكالم بداله وجه جميل اقتن به ، وجد في اثره . وهيهات ان يطمئن الى معاشره الحرائر المحصنات ، او يكتفي بزوجة امينة ودیعة يسكن اليها ، ويغض طرفه عن سواها . فابن الرومي بقي مدة طويلة لا يأنس بالحياة الزوجية ، ولا يتغزل الا بالقيان والغلمان ، ولا يجد اللذة الا في مكائس الريب وحوانیت الحمارين ، حتى نفدت قواه او كادت ، فتزوج ، وكان زواجه في اواخر كهولته ، فوزق اولاداً ضعاف البنية ، فلم تكتب لهم الحياة .

وليس لشاعرنا غزل كثير على شدة شغفه بالجمال لان الحب لا يؤثر في نفس طالب اللذة تأثيره في نفوس المتيمين ولا يترج بها الا اوقاتاً معلومة يموت في خلالها حيناً ثم ينبعث ويحيا ، ثم يموت . ويغلب على غزل ابن الرومي وصف القينة والساقى ومجلس لهو وتجد هذا الغزل في صدر اهاجيه كما تجده في صدر مدائحه .

وهو في تهافته على اللذة لا يُشفى فؤاده الا اذا استوعبها من اقصى قراراتها ، فيود لو انه يستغرق في ذات من يهواه فتترج روحه بروحه ، حتى لتظنه من اصحاب مذهب الاتصال الذين يزعمون انهم يستغرقون في ذات الله سبحانه وتعالى عما يافكون :

كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ ، سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَ حِينَ يَمْتَرِجَانِ

والوصف عند ابن الرومي اخص ميزة يعرف بها، فهو من اي النواحي اتيته تجده وصافاً بارعاً ومصوراً دقيقاً . وفي شعره اوصاف جديدة لم يسبقه اليها شاعر، استمدّها من حياته وتأثرات نفسه . فانه لتطيره من المناظر القبيحة كان يتعشق الجمال على اختلاف مظاهره واتساع معانيه . فاحب الطبيعة ولا سيما طبيعة الربيع فاتصل بها وجعل منها شخصاً حياً، مازجاً شعوره بشعورها . وأغرم بحبالها كما اغرم بالوجه المليح، فاصبح اذا وصفها شبهها بالمرأة، واذا وصف المرأة شبهها بالطبيعة فمن ذلك قوله يصف الارض في الربيع :

تَبَرَّجَتْ بَعْدَ حَيَاءٍ وَخَفَرٍ، تَبَرَّجَ الْأُنْثَى تَصَدَّتْ لِلذَّكْرِ

وكان يحب الصوت الجميل ومجالس اللهو، فوصف القينة وغناها، والساقى وكأسه، والخمرة وآتيها . وله براعة في نعت الصوت الحسن تدل على صحة شعوره بالفن كوصفه للقينة وحيد .

وكان له من شراسته وحرمانه ماضعف نهجته الى المآذب . واوتي معدة خبيثة لا تشبع ولا ترتوي . ولم يخطيء نعتها اذ قال فيها متلهفاً على إكلة :

أَهْفِي عَلَيْهَا وَأَنَا أَلْزَعِيمُ ، بِمِعْدَةٍ شَيْطَانُهَا رَجِيمٌ

ولهذا اكثر من ذكر انواع الطعام والشراب . وهو اول شاعر فيما نعهد، عني بوصف السمك والفرايج والبيض والقطائف والزلابية والمشمش والموز والعنب وغير ذلك من المأكول .

وهو لدقة احساسه قوي الشعور بالشيء يستكرهه، كما انه قوي الشعور بالشيء يستحسنه . وكان له من تطيره وضعف عقله ما جعله يكره او يتخوف الاشياء التي يخفو عنها طبعه، ولا يستأغها ذوقه ومزاجه، فيهجوها ويصفها فعلة بالاحدب وصاحب اللحية الطويلة، وسفر البر والبحر، والقينة سُتُفٌ، والمغني دبس لانه استقمح صوتها .

١ تبرجت : اظهرت زينتها ومحاسنها، ويريد بزينة الارض ازهارها في الربيع . بعدد حياء وخفر : اي بعد ان اخفت تبرجها في الشتاء .

٢ الزعيم : الكفيل .

وفعله بنفسه بعد ان شاب، وضعفت قواه، وشحب لونه. فقد اكثر من وصف مشييه
والبكاء على شبابه لانه فقد بها لذة الحياة .

وضيق ذات يده جعله يستفيض في وصف فاقته وقد جره فقره الى حسد الاغنياء،
فهجاهم ووصف ترفهم كما في قصيدته التي هجا بها الكتاب المتنعمين باموال الدولة .
وتنكر له الناس، وعشوا به فحقد عليهم، ورأى الخير في الحقد فمدحه وبين
منافعه. وهجا الناس، ومزق اعراضهم، فحقدوا عليه، فرأى الشر في الحقد، فذمه،
واظهر مساوئه واضراره . وصور اخلاق الحقود ادق تصوير .

وكان له من حياة الزهاد تعزية وسأوى في حرمانه، وتوالي الخطوب عليه .
فوصف معيشتهم وتعبدهم ولكن نفسه التي استعبدها الشهوات لم تكن لترتاح الى
حياة المترهدين، فمتنسك مثلهم .

ولزم بغداد فما استطاع البعد عنها الا غراراً . فاذا فارقها حن اليها، وصور
ذكرياته فيها ابداع تصوير :

بَلَدٌ صَحَبْتُ بِهِ الشَّيْئَةَ وَالصَّبِيَّ ، وَلَسْتُ فِيهِ الْعَيْشَ ، وَهُوَ جَدِيدٌ
فَإِذَا تَمَثَّلَ فِي الضَّمِيرِ رَأْيُهُ ، وَعَلَيْهِ أَفْنَانُ الشَّبَابِ تَمِيدٌ

ووصف الصيد كغيره من الشعراء المولدين، ولكنه لم يلتزم له بحر الرجز،
ولا امعن في الغريب مثلهم .

ويمتاز وصفه في الاسترسال والتبسط، ودقة النظر فانه حريص على اظهار الاشياء
دقيقا وجليها، متفنن في ابرازها وتصويرها سواء عليه ابتشيه كانت ام بغير تشبيه .
وبتمثيل ام بغير تمثيل . وكثيراً ما يتبع المعنى ويستقره حتى يستتمه ويستوفيه،
ويظهره على حقيقته لا غلو فيه ولا تمويه .

ارأوه وعقائده

ذكر ابو العلاء المعري في رسالة الغفران ان ابن الرومي كان يتعاطى الفلسفة .

وفي شعره امثلة عديدة تدل على انه كان ملماً بعلوم عصره، واقفاً على الفلسفة اليونانية والاداب الفارسية. ولكن ذلك لم يجعل منه مفكراً ذا مذهب معروف، وانما جعله صاحب آراء وعقائد لا تخلو من التناقض لما كان عليه من اضطراب العقل، وغريب الاطوار، وتقلب الافكار. فقد كان يتشيع للعوليين بدليل قصيدته التي رثى بها ابا الحسين يحيى بن عمر الطالبي، وهجا العباسيين من اجله وافحش فيهم. ثم كان يقول بمذهب المعتزلة والقدرية معاً، وقد ميل الى الجبرية مع بعدها عن القدرية. فمن ذلك قوله في الاعتزال :

أَرُفُّضُ الْإِعْتِزَالَ رَأْيًا ؟ كَلَّا ! لِأَنِّي بِهِ ضَيْنٌ

وقوله في القدرية :

الْخَيْرُ مَصْنُوعٌ بِصَانِعِهِ ، فَمَتَى صَنَعْتَ الْخَيْرَ أَعْقَبَكَ
وَالْشَّرُّ مَفْعُولٌ بِفَاعِلِهِ ، فَمَتَى فَعَلْتَ الشَّرَّ أَعْطَبَكَ

ومن قوله في الجبرية وقد اوجعه ترف الكتاب وحياتهم الناعمة بين القيان :
لَوْ تَرَى الْقَوْمَ بَيْنَهُنَّ لِأَجْبَرُ تَصْرَاحًا ، وَلَمْ تَقُلْ بِأَكْتِسَابٍ
ولهذا اعتقد بالخط ، وقوي ايمانه به :

إِنَّ لِلْجَدِّ كَيْمِيَاءَ إِذَا مَا مَسَّ كَلْبًا أَحَالَهُ إِنْسَانًا

واعتقاده بالخط جعله ينيطه بطوالع الكواكب شأن ابناء عصره .

وكان يقول بالطبيعتين^١ فطبيعة الخير في النفس لانها سماوية ، وطبيعة الشر في الجسم لانه ارضي ، والشر كامن في الارض كمون اضطراب وجبر، والارض مضطرة الى قبوله ، مجبرة عليه . ولذلك يوصي الانسان بتطهير نفسه من الطبيعة الارضية الشريرة

وله في الحقد رأي مختلف فطوراً يحسنه فيظهر فضله، وتارة يذمه فيظهر شره .

١ اعقبك : جازاك بخير

٢ اجبرت : دفت بالجبرية . صراحاً : خالصاً من كل شيء اي اجباراً صراحاً .
الاكتساب : مباشرة الاسباب بالاختيار اي ان الانسان مخير في كسبه لا يجبر . والاكتساب من مذهب القدرية .

٣ الطبيعتين : كالثنوية جاءت من الفرس، وهي ان في الانسان طبيعة شر وطبيعة خير .

وهكذا رأيته في الجود والبخل .

وكان على حبه للحياة وملاذها ينظر اليها بعين سوداء لكثرة ما ناله فيها من الويلات والمحن ، فيرى ان بكاء الطفل ساعة ولادته انما هو ناشئ عن خوفه من صروف الدهر ، وهذا رأي ساذج كما لا يخفى ، ولكنه يكشف عن نفس حزينة متأللة متطيرة :

لِمَا تُؤْذِنُ أَلَدُثِيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا ، يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُوَلَّدُ

وساء ظنه بالناس ، لانهم في زعمه لثام لا يصاحبون المرأة الا في السراء . ويتخلون منه في المضراء ، فمن الخير عنده أن لا يكثر الانسان من الاصحاب .

وكان يوصي بالصبر على شدة جزعه ، ويحاول ان يقنع نفسه بان الصبر والجزع ليسا من الطوابع المركبة في الانسان بل هما في اختياره ، يستطيع ان يتصرف فيهما كيف يشاء .

وهو على حبه للمرأة سيئ الظن بها كسائر اهل زمانه ، ينعتها بالمكر والحداق والكيد ، وحسبك ان تقرأ حديقة الشعر فتبتين حبه لها وضعف ثقته بها .

ما ادرك عليه

لم يدرك على ابن الرومي سرقات جمّة مع كثرة شعره ، ذلك لغزارة مادته في الاختراع والتوليد . وكان يتجنب استباحة افكار غيره ، الا اذا اقتبسها ليولد منها معنى جديداً . وكان يزدرى الشعراء الذين يغيرون على اكفان الموتى ويسلبونهم اياها ، فعله بالي عبادة البحري . ومع هذا فلم يسلم من العثار بعض الاحايين ، فمن سرقاته قوله في وحيد :

لَيْتَ شِعْرِي إِذَا أَدَامَ إِلَيْهَا كَرَّةَ الطَّرْفِ مُبْدِيٌّ وَمُعِيدٌ ،

أَهِيَ شَيْءٌ لَا تَسَامُ الْعَيْنُ مِنْهُ ، أَمْ لَهَا كُلَّ سَاعَةٍ تَجْدِيدٌ ؟

اخذه من قول ابي نواس :

يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حُسْنًا ، إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

ويؤخذ عليه في بعض شعره لين قد يبلغ به حد الاسفاف . فمن غشه البارد قوله في ختام ابيات يدح بها المعتضد :

دَامَتْ سَلَامَتُهُ ، وَطَالَ بَقَاؤُهُ ، وَمَعَ الْبَقَاءِ الْعِزُّ وَالنَّعْمَاءُ

فهذا اشبه بختام رسالة يكتبها بعض العامة . وربما استعمل الفاظاً عامية تنكرها الفصاحة كقوله :

لَسْتُ أَهْجِيكَ مَا حَمَيْتَ بَيْتِ ، وَسَتَهْجُوكَ عَنِّي الْأَحْدُوثُ ١

فقوله : اهجيك خطأ لانه واوي . قال الجوهري : « لا تقل هجيته والعامة تقول . » ولم يخل شعره من الاقواء وزحاف الاشباع ، ولكن ذلك فيه قليل .

مُرَاتَه

قال العميدي صاحب الإبانة في كلامه على المتنبي : « ولا اقيسه في امتداد النفس ، وعلم اللغة ، والاقتدار على ضروب الكلام ، وتصوير المعاني العجيبة ، والتشبيهات الغريبة ، والحكم البارة ، والاداب الواسعة بابن الرومي . » وقال ابن رشيق صاحب العمدة : « وكان ابن الرومي ضئيلاً بالمعاني ؛ حريصاً عليها . يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقابه ظهراً لبطن ، ويصرفه في كل وجه ، والى كل ناحية حتي يميتة ، ويعلم انه لا مطمع فيه لاحد . » وقال ايضاً : « واما ابن الرومي فاولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه ، وحسن افئنانه . » وقال ابن خلكان : « صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ؛ يغوص على المعاني النادرة ، فيستخرجها من مكانها ، ويبرزها في احسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره ، ولا يبغي فيه بقية . »

فهذه الاقوال كافية لان تعرفك منزلة الشاعر عند الادباء المتقدمين ، فتعلم ان

١ الاحدوثة : ما يتحدث به . يقول : ان حديث الناس عنه سيهجو بعد موته .

اهمال عصره له لم يضيّع فضله بعد موته . فقد قام اصحاب الادب يذشرون ذكره ،
ويفضله بعضهم على اكابر الشعراء امثال المتنبي وسواه . وقد استحق ابن الرومي هذه
المنزلة لاسباب منها براعة وصفه وتصويره . ودقة نظره في مراقبة الاشياء ، ومنها
خصب معانيه المولدة والمختصرة ، واسترساله معها حتى يستوفيها الى آخرها ، ويهرزها
جلية تامة ، باشكالها والوانها ، وصفاتها وتوابعها . وقلما غفل عن شيء منها او مما
يتصل بها مهما دق شأنه ، وقل خطره .

واسترساله مع المعاني جعله يطيل قصائده فيبلغ بها مائتي بيت او ثلثمائة . وهذا
الطول لم نعهده في شاعر قبله ، اذا استثنينا منظومات كليله ودمنة ، وما شاكلها
لضعف الروح الشعرية فيها . ثم اذا انكرنا ما يزعمه الرواة من ان بعض المعلقات بلغت
الف بيت ، لان زعمهم يحتمل الشك اكثر من اليقين .

ومتماز قصائده على طولها بقربها من وحدة الموضوع . فهي وان تعددت اغراضها
احياناً ، لا تخلو من الصلة المعنوية التي تربط اجزاءها بعضها ببعض . ولا ابن الرومي
شعر كثير نظم في غرض واحد .

ولعل اصله الاعجمي كان له يد في طول نفسه ، وميله الى وحدة الموضوع ، كما
كان له يد في اتساق افكاره ، ودقة معانيه ، واحاطته بهنات الامور ، وخروجه الى
اغراض جديدة كوصف الاخلاق والعادات ، وتصوير الاشخاص تصويراً سخرياً
مضحكاً ، وغير ذلك مما يتصل بحياة المرء في هزله وجده ، وفرحه وكدره .

ويظهر اتساق افكاره في ارتباط معانيه واغراضه ، ثم في اعتماده على الاسلوب
المنطقي ، فانه اتخذ اماماً له وخصوصاً في احتياجه الى الرد على خصومه ومعبريه ،
والى معاتبة ممدوحيه واسترضائهم ، والى ابداء ارائه في الحياة وصروف الدهر .
وتختلف احكامه المنطقية بين القوة والضعف ، فمنها ما يستقيم له ومنها ما لا يستقيم .
ذلك ان قوة التفكير عنده تنازعها قوة العاطفة . ولا غرو فانه موسوس عصبي المزاج
سريع التأثر ، فاجدر به ان يكون عبداً للعاطفة ، يستخدم منطقها لارضائها ، ومجاراة
اهوائها . وحسبك ان ترى محاولته تركية الطيرة ، وامعانه في تزيين الحقد ، وتبغيض
السفر ، لتبين كيف يسخر تفكيره لعاطفته .

وهو على قوة عاطفته وتفكيره، مديد الخيال، عميق التصور. وخياله مع اتساع مجاريه ينطلق بهدوء وانتظام، يسايره المنطق، فلا يخرج بصاحبه الى الغلو والاحالة، بل يعتمد في الغالب الى اظهار حقائق الموصوفات فيخرجها في احسن صور واصدق تمثيل باعاً فيها حياة تجعلها تهتز وتتحرك، هائماً في وادٍ كثيب تتفجر من جوانبه ينابيع الدموع، وتدمي رياحينه اشواك الشهوات والالام. وابن الرومي اشغف الشعراء بالطبيعة والوانها، يتصل بها ويعيش معها ويحسها احساساً قوياً ١١.

ولكن ليس لشعره على الاجمال ديباجة لان انصرافه الى توليد المعاني، واستخراجها من ابعاد قراراتها ثم اهتممه باستيفائها وشرحها جعله يهمل اللفظ فما يحفل به. فاذا هو لا يعنيه الا ان يظفر بالمعنى الطريف سواء افرد في القالب الجميل او لم يفرد. فرويت له ابيات ضعيفة البناء لا روعة فيها ولا رونق تحلو الفاظها من الموسيقى الشعرية، فما تهتز لها ولا تطرب. ولولا حسن معانيها لكانت خالية بالاغفال.

واهماله اللفظ جعله لا يحتفل بالزخرف والتزييق، فاقصد في استعمال البديع، وفي طلب التشابيه والاستعارات، فعرف له منها شيء قليل بالاضافة الى كثرة شعره ولكن قليله جيد رائع. واجوده ما جاء من التشابيه بصورة المركب التمثيلي، فانه غاية في الابداع. واكثر من استعمال الغريب لطول نفسه، ثم لركوبه القوافي الغليظة كالنساء والحاء والشين والضاد وما اشبه. فانه كان يرى ان المدح تسقط قيمته اذا سلكت اليه القوافي السهلة. ثم لاقتداره على ضروب الكلام، فان تضلعه من اللغة جعله ينتقي اللفظ المؤدي حقيقة المعنى، ولو كان غير مأنوس، وكثيراً ما يعتمد الى تحليل الالفاظ والتلاعب بمعاني مشتقاتها فيغث بيانه وينضج ماؤه.

على ان غريبه لم يورث شعره غموضاً لسهولة تعبيره ووضوحه، وسلامة الفاظه من التداخل. ولم يؤثر فيه الاسلوب المنطقي كما أثر في شعر ابي تمام، لانه لم يعتمد الادلة العقلية العويصة بل تناول منها اقربها سبلاً، وتولى في نظمه شرحها وايضاها. ولم يحار الطائي في التزام البديع، والافراط في التجنيس والمطابقة، فيقع في التعقيد مثله ويصعب على الناس فهمه.

وعلى الجملة فابن الرومي اطول الشعراء نفساً، واكثرهم اختراعاً للمعاني، واستيفاء

لها ، وابعدهم نظراً في وصف دقائق الاشياء ، واقربهم الى وحدة الموضوع . وابرع
من صور الاخلاق والصفات ، وجعل لمهجو به تصاوير هزلية مضحكة ، واصدق مؤرخ
لحياته في ملذاتها وافراحها ، وفي مكارهها واحزانها . واثق اهملة عصره ، ولم يقدره
حق قدره ، لقد كان على الرغم من عصره ، في طليعة الشعراء المولدين .

الكتاب المولدون

العصر الثاني

ميزة النثر

ليس في ميزة النثر ما يدعو الى فصل هذا العصر عن الاول ، فاسلوب الرسائل بقي على حاله لم يتبدل فيه شيء . الا ما كان من ازدياد التزيين والسجع وهذا طبيعي قضت به سنة النشوء والارتقاء ، كما قضت بتقدم فن التصنيف وشيوعه عند الكتاب . وفي هذا العصر تمت السيادة لاسلوب الجاحظ . وما الجاحظ الا من كتاب العصر الاول عاش فيه معظم عمره ، وصنف فيه اكثر كتبه واشهرها . ولم يعيش في الثاني الا عشرين سنة ونيفاً مضى به نصفها الاخير وهو مفلوج مقعد ليس به غناء . فالعصران عصر واحد في الادب شعره ونثره وان فصلتهما السياسة .

الجاحظ

٧٧٥ ؟ — ٨٦٨ م و ١٥٩ ؟ — ٢٥٥ هـ

حياته : اتصاله بالاسراء . موته . صفاته و اخلاقه . زندقته . استاذوه و علومه . الجاحظية . اثاره .
ميزته : الحيوان — اغراضه . البخلاء — اغراضه . اسلوبه الانشائي . مترلته . تأثيره . لماذا غلب اسلوبه .

١ ذكر ياقوت ان الجاحظ قال : « انا اسن من ابي نواس بسنة ، ولدت في اول سنة ١٥٠ وولد في آخرها . » ونحن نشك في هذه الرواية لان ابا نواس ترجع ولادته سنة ١٤٥ هـ وقد ادرك ابا عمرو بن العلاء (راجع صفحة ٥٠) وكان يتردد على بابيه ويسمع منه وهو في العقد الاول من عمره . و ابو عمرو توفي سنة ١٥٤ هـ فعلى ذلك لا تصح ولادة الشاعر في سنة ١٥٠ هـ كما يزعم ياقوت .

هو عمرو بن بجر بن محبوب الكِنَاني بالولاء ، وقيل بل كِنَاني صليب والاول اشهر . وكان له جد اسود اللون يقال له فزارة كان جمالاً لعمرو بن رقلع من بني كِنانة . ولقب بالجاحظ لجحوظ عينيه ، وربما قيل له الحدقي لكبر حدقتيه . وكني بابي عثمان .

وكان مولده في البصرة . فلما ترعرع طلب العلم في الكتاب ، وخالط المسجديين من اهل العلم والادب . فاخذ عنهم . وكان يكتري حوانيت الوراقين ويبيت فيها للمطالعة . على ان ضيق ذات يده لم يتح له ان ينقطع الى العلم في اول امره . فقد شوهذ يبيع الخبز والسمك في سيجان^١ ولعله افاد من هذه التجارة ما اغناه بعض الشيء . فانصرف يجلس الى علماء البصرة ويسمع من العرب الخُص في المربد . وبدأت نباهة الجاحظ في خلافة المأمون ، ووصلت كتبه الى الخليفة فاعجب بها واستقدمه اليه ، وصدره ديوان الرسائل ، فاستعفى بعد ثلاثة ايام . فأعني . وكان سهل ابن هارون يقول : « ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان اقل نجم الكتاب . » ويعزو ابن شهيد الاندلسي إخفاق الجاحظ في منصب الكتابة الى امرين اولهما دمامة وجهه . والمملوك يؤثرون الكتاب الحسان الوجوه . والثاني خفته وعشه والكتاب يُحمد فيهم الترصن والوقار .

ولما صارت الخلافة الى المعتصم ، وتقلد الوزارة ابن الزيات اتصل به الجاحظ اتصالاً مكيناً ، واقام معه يكتب له ويدحه ، وقدم له كتاب الحيوان افاد منه مالا وفراً . وتأتى له ان يقوم برحلات الى دمشق وانطاكية وربما الى مصر . فوسعت هذه الاسفار خياله وزادته علماً وخبرةً وإطلاعاً .

وكان بين ابن الزيات والقاضي احمد بن ابي دؤاد من الشنآن ما جعل كاتبنا ينحرف الى صديقه الوزير ، ويتنكر لابن ابي دؤاد . فلما استخلف المتوكل ، وفتك بابن الزيات ، خاف الجاحظ على نفسه ، ولاسيا ان المتوكل كان يكره اصحاب

الاعتزال وابو عثمان منهم، فهرب واختفى عن الناس. فجد القاضي في طلبه حتى قبض عليه. وجيء به مغلول العنق بسلسلة، مقيد الرجلين، في قيص سليل. فلما وقع نظر القاضي عليه قال: «والله ما علمت لك إلا متناسياً للنعمة، كفوراً للصنيعة، معدناً للمساوى». وما قصرت باستصلاحي لك، ولكن الايام لا تصلح منك لفساد طويتك رداءة دخلت لك، وسوء اختيارك، وتغالب طبعك». فقال له الجاحظ: «خفّض عليك، أيديك الله! فوالله لأن يكون لك الامر علي خير من ان يكون لي عليك. ولان اسيء وتحسن احسن في الاحدوثة عنك من ان احسن فتسيء. ولان تغفو عني في حال قدرتك اجمل بك من الانتقام مني». فقال له ابن ابي دؤاد: «قبحك الله! ما علمت لك الا كثير تزويق الكلام. وقد جعلت ثيابك امام قلبك، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر». ثم قال: «جئوا مجدّاد». فقال: «اغزاله القاضي! ليفك عني او ليؤيدني؟» فقال: «بل ليفك عنك».

فجئ بالحداد فغمزه بعض اهل المجلس ان يعنف بساق الجاحظ، ويطيل امره قليلاً، ففعل. فلطمه الجاحظ وقال: «اعمل عمل شهر في يوم، وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة، فان الضرر على ساقى وليس مجذع ولا ساجة^١». فضحك ابن ابي دؤاد واهل المجلس منه. وقال القاضي: «أنا اثق بظرفه ولا اثق بدينه». ثم قال يا غلام: «صر به الى الحمام وأمط عنه الاذى، واحمل اليه تحت ثياب وطويلة^٢ وخفّاً^٣ فليس ذلك ثم اتاه فتصدر في مجلسه. ثم اقبل عليه القاضي وقال: «هات الآن حديثك يا ابا عثمان!»

وانقطع الجاحظ الى ابن ابي دؤاد سنة كاملة، وقدم له كتاب البيان والتبيين فاجازه عليه بخمسة الاف دينار. ولما فُلع القاضي وخلفه في القضاء ابنه ابو الوليد، لزمه الجاحظ حتى غضب عليه المتوكل لكثرة شاكيه، فامر به، فصرف عن القضاء، وصودرت امواله وذلك سنة ٢٣٧ هـ (٨٥١ م).

١ الساجة: شجرة هندية عظيمة وتطلق على قطعة الخشب.

٢ تحت: وعاء تصان فيه الثياب.

٣ طويلة: اي قلنسوة طويلة، وفلانس الطوال كانت من زي العصر العباسي.

واتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان وزير المتوكل، وقدم له كتبه، منها كتاب في مناقب الترك وعامة جند الخلافة، وكانت بينهما مودة ومراسلات.

ولطالما اتنى الفتح على الجاحظ عند المتوكل واخذ له الجوائز والمجاهرات. ولكن دمامة ابي عثمان حالت بينه وبين الخليفة، فلم يقرب مكانه. حدث الجاحظ عن نفسه قال: «ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رأي استبشع منظري، فامر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني.»

مونه

اجمعت الروايات على ان الجاحظ اصيب بالفالج والنقرس^١ في اواخر حياته، فانتقل الى البصرة في خلافة المتوكل وربما في السنة التي قتل فيها^٢ ويروون لعلمته خبراً لا ينبغي التعويل عليه وهو انه كان على مائدة احمد بن ابي دؤاد فاكل مضيرة^٣ وسمكاً ففج و نقرس من ليلته لجمعه بين السمك واللبن. 

ونرى ان الجاحظ كان يشكو علمته في عهد ابن الزيات، وقبل ان يتصل باحمد ابن ابي دؤاد، لانه اشار اليها في كتاب الحيوان، واعتذر بها الى نقاده. قال: «وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه: اول ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الاعوان، والثالثة طول الكتاب.» فهذه العلة التي يذكروها ولا يسميها رافقته وهو ابن سبعين وكان لم يزل متصلاً بابن الزيات. ولكننا لانقطع بانها هي الفالج لان الجاحظ اصيب بالنقرس ايضاً. وكان به حصاة لا ينسرح له البول معها. فقد تكون هذه العلة الحصاة، وقد تكون اعراضاً من ألم النقرس، او خدر الفالج. على انه لم يقعه المرض الا بعد ان نيف على الثمانين. فمكث مدة في سر من رأى ثم انتقل الى البصرة فاقام فيها حتى مات.

١ النقرس: علة في مفاصل الكعبين واصابع الرجلين تشبه داء المفاصل.

٢ قتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م).

٣ المضيرة: لحم يطبخ باللبن المضير اي الحامض. وربما خلط المضير بالحليب وهو الاجود. ثم يضيفون اليه من الازرار ما يوفر اللذة في طعمه وله مريقة يمدون اكلها.

صفاته وأخلاقه

كان الجاحظ مشوه الوجه جهماً ، نائق العينين ، قصير القامة لا تنفتح العين على أبشع منه منظراً . وكان الى ذلك خفيف الروح ، حسن المعاشرة ، ظريف الحديث ، طيب النكتة ، مطبوعاً على السخر والتهكم . وليس سخره بالجراح الحاد وإنما هو لطيف ناعم ، مصور لنفسه المرحاة التواقة الى الدعاب . ولطالما التمس الجاحظ النكتة وأوردها ولو كانت على نفسه ، وأخباره في ذلك كثيرة . قال : « أتيت منزل صديق لي ، فطرقت الباب ، فخرجت الي جارية سنديية . فقلت لها : « قولي لسيدك : الجاحظ بالباب . » فقالت : « الجاحد بالباب ؟ » على لغتها فقلت : « لا ، قولي : الخدي بالباب » فقالت : « اقول الخلقي ؟ » فقلت : « لا تقولي شيئاً . » ورجعت . » وقال : « اتاني بعض الثقلاء فقال : « سمعت ان لك الف جواب مسكت ، فعلمني منها . » فقلت : « نعم » فقال : « اذا قال لي شخص : « يا . . . ياتقيل الروح ، اي شيء اقول له ؟ » قلت : « قل له صدقت . »

وكان شديد الذكاء حسن الفراسة ، محباً للتكسب ، ولا يعتد بما يأخذه الناس انفسهم وينتحلونه من الرسوم والعادات ، وأنواع العصبية المذهبية فقد دافع عن العرب ، ورد على الشعوبية في كتابه البيان والتبيين . ولكنه لم يبخس الاعاجم حقهم في كثير من كتبه ، وقد يتخذ من ذلك سبيلاً للتكسب ، فانه قدّم البيان والتبيين الى القاضي احمد ابن ابي دؤاد وهو عربي صريح فتقرب اليه وتكسب منه بدفاعه عن العرب . وقدم كتابه في مناقب الاتراك الى الفتاح بن خاقان وهو تركي الاصل فحظي به عنده . وكان يحب اللهو والمجانة وسماع القيان والمغنين ، وتطيب له معاشره الاماء والجواري فتسرى بهن واستمتع ، ولم يتزوج ، ولم يرزق ولداً .

واذا علمت ان الجاحظ من علماء الكلام ومن شيوخ الاعتزال ، وصاحب الفروقة الجاحظية ، وامير من امراء البيان ، لم تعجب ان ترى له حساداً يبالبغون في انتقاده ، ويتهمون به بالزندقة .

كان الجاحظ حر التفكير كغيره من اصحاب الاعتزال ، يعتمد على العقل ، ويتخذة اماماً في تفسير الشرع وتأويله . ولا يطمئن الى الحديث لكثرة ما فيه من المصنوع ، فرد كثيراً من الاحاديث واتهمها . وحمل على علماء التفسير من سنيين ، وصوفيين وغالية ، فانكر عليهم اقوالهم وجهلهم ، وسخر منهم واسرف في السخرية . وفي كتاب الحيوان مقالات عديدة يناظرهم بها في غير رفق ولا هوادة ، فمن ذلك قوله : « وقال الله عز وجل : والتين والزيتون . فزعم زيد بن أسلم ان التين دمشق والزيتون فلسطين . . . والكلمات في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف . وانما يريد النعم والاعاجيب والصلاة وما اشبه ذلك . » وقال ايضاً : « وفي القرآن قول الله عز وجل : «واوحى ربك الى النحل . . . » فقد زعم ابن حائك وناس من جهال الصوفية ان في النحل انبياء لقوله عز وجل : « واذا أوحيت الى الخوايين . » وما خالف ان يكون في النحل انبياء بل يجب ان تكون النحل كلها انبياء . لقوله على الخروج العام : «واوحى ربك الى النحل . » ولم يخص الامهات والملوك واليعاسيب^١ بل اطلق القول اطلاقاً . » وقال ايضاً : « وزعم بعض المفسرين واصحاب الاخبار ان اهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر . فعطس الاسد عطسة ، فرمى من منخريه بزوج سنانيه ، فلذلك السنور اشبه شيء بالاسد . وسلح الفيل زوج خنازير ، فلذلك الخنزير اشبه شيء بالفيل . قال كيسان : فينبغي ان يكون ذلك السنور آدم السنانيه وتلك السنورة حواءها . وضحك القوم . »

وهذه الشواهد كافية للدلالة على تهكم الجاحظ برجال الدين من غير المعتزلة ، وتسفيه اقوالهم . فلا بدع ان ينقموا عليه ، ويتبعوا هفواته ، ويرموه بكل نقيصة ومعرة . فقد اتهموه بدينه ، وقالوا انه زنديق ، واتهموه بصنع الحديث ، والتهاون بالصلاة . ووضعوا عليه روايات لا محل لذكرها . على اننا وان كنا نعتقد ان الجاحظ ليس من اولئك المتشددين في امر الدين ، ولا من الذين يؤمنون باحكامه دون ان

١ اليعاسيب : جمع يعسرب وهو ذكر النحل .

يحتكموا الى عقولهم ، لأنبي ان نجاري من يرمونه بالزندقة والاحاد فليس في كتبه ما يدلنا على كفره ، وانما هي مشبعة بالعاطفة الدينية ، لا يفتأ يتحدث فيها بقدره الله وحكمته في خلقه . وقلما روى خيراً الا ذكر الله واثني عليه . واذا تكلم على منافع الكتب ، فضل كتب الله على غيرها . واذا ذكر الفصاحة لا يجد افصح من النبي محمد . فمن كان هذا شأنه فما هو بزنديق وانما هو مفكر حوال التفكير يشك في موضع الشك ، ويؤمن في موضع الايمان . وكان له من روح عصره ، وحوال بيئته ما يفسح له في مجال الشك والسخر . فشك وسخر ، ولكنه لم يسقط في الكفر والجحود . وليس التهاون بالصلاة ضرباً من الكفر اذا صح ان الجاحظ كان لا يقيسها في اوقاتها ، ولم يقيم دليل قاطع على وضعه للاحاديث ، وهبه وضع تاجناً او مداعبة او نكاية ، شيئاً منها فما يؤتم به لانه كان يتهم الاحاديث ، ولا يشق بها ، وقبله ابو حنيفة لم يعتمد بالحديث . فالجاحظ مستهزئ ساخر ، معتزلي يعتمد على العقل ، ولكنه ليس بزنديق .

استاذوه وعلومه

رغب الجاحظ في العلم وهو حدث فكان يذهب الى الكتاب في البصرة مع ما هو فيه من خصاصة .

ثم عمد الى دكاكين الوراقين يكتريها ويبيت فيها للنظر ، ولم يقع في يده كتاب الا استوفى قراءته . ثم اتصل بشيوخ العلم وائمة الادب فاخذ عن ابي عبيدة والاصمعي وايي زيد الانصاري وايي الحسن الاخفش . وتخرج في الكلام والاعتزال على ابي اسحق النظام . وكان يشهد الموبد ، ويسمع اللغة من الاعراب شفاهاً .

وحدث عن جماعة من الفقهاء كابي يوسف صاحب ابي حنيفة ، ويزيد بن هارون ، والسري بن عبدويه . وروى عنه المبرد ، ويموت بن المزرع ، وابوبكر السجستاني وسواهم .

ويرى بعضهم انه تعلم الفارسية واتقنها . ويستدلون على ذلك بكثرة ما ورد من الفاظها في كتبه . ولكن لا يصح الاطمئنان الى هذا الرأي لان لغة الفرس كانت

شائعة في عصر الجاحظ لانتشار اهلها في العراق، فقد يكون التقط الفاظاً منها، واستعملها في كتبه قلمحاً وتظرفاً، دون ان يعنى بدراستها واتقانها .
ولم يدع الجاحظ علماً معروفاً في ايامه الا نظر فيه، واطلع عليه . فقد درس الفلسفة والمنطق والطبيعات والرياضيات والتاريخ والسياسة والاخلاق والفراسة . فاكتملت آله . فاذا هو فقيه متكلم يتفلسف ويتمنطق . محدث وان لم يؤمن بالحديث . بارع في الادب واللغة، راوية للاخبار والاشعار . بحاث في الحيوان والنبات . نقادة للاخلاق والعادات . عالم بالفلك والموسيقى والغناء .

الجاهلية

اثر ابراهيم النظام في افكار تلميذه اكثر من استاذيه الباقين، فقد لقنه علم الكلام، وصار به الى الاعتزال، وعوده حرية التفكير . ولكن الجاحظ لم يلبث ان انفرد عنه بمقالة قامت عليها فرقته الجاحظية . ولم يبلغ اليها من آرائه في مذهبه هذا الا ما اورده الشهرستاني في الملل والنحل . والبغدادى في الفرق بين الفرق . ومنه نعلم ان ابا عثمان جارى المعتزلة في اشياء فقال مثلهم بنفي الصفات عن الله، واثبات مذهب القدرية . وقال بخلق القرآن كما خلق الرجل والمرأة والحيوان . وانفرد عنهم بمسائل منها قوله بان المعارف ضرورية مركبة في طباع العباد وليست من افعالهم وليس للعباد كسب سوى الارادة لانها جنس من الاعراض . واما الافعال فجبرية تحصل من العباد طباعاً . ومنها ان اهل النار لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرون الى طبيعة النار، وان الله لا يدخل احداً في النار بل ان النار تجذب اهلها اليها ورويت له اقوال غير هذه لا نرى فائدة من ذكرها . ومذهب الجاحظ كما يقول الشهرستاني هو بعينه مذهب الفلاسفة الا انه ميل الى الطبيعيين اكثر منه الى الاهليين .

أما

خلف الجاحظ مؤلفات عديدة جعلها بعضهم ثلاثمائة وستين كتاباً وهي دون
١ حراف الراوندي قول الجاحظ، وكان يتعصب عليه ويكرهه . فزعم انه قال ان القرآن جسد يجوز ان يقلب مرة رجلاً ومرة حيواناً .

ذلك فيما نعلم لانه اضيف الى الجاحظ كتب ليست له . و ذكرت كتب تكرر اربابها .
 مختلفة . على انه مهما يكن من شيء فان اثار الجاحظ في غاية الخصب . ونظرة الى ما
 اثبت منها في مقدمة الحيوان ، ومعجم الادباء تطلعنا على طائفة جليلة ، تري على المائة
 بين مؤلف كبير ورسالة صغيرة . وفيها عالج شتى الاغراض والمواضيع فكتب في
 الادب والشعر والديانات والعقائد والامامة والنبوة والمذاهب الفلسفية . وبحث في
 السياسة والاقتصاد وتحسين الاموال ، وغش الصناعات ، وفي الاخلاق وطبائع الاشياء
 وحيل اللصوص وحيل المكذبن وذوي العاهات كالحول والعور والعرجان والبرصان .
 وتكلم على العصبية وتأثير البيئة فكتب في القحطانية والعدنانية والصرحاء والهجناء ،
 والسودان والحمران ، والرجال والنساء . وفي اي موضع يغلبن ويفضلن ، وفي اي موضع
 يكن المغلوبات والمفضولات . وبحث في العلوم التاريخية والجغرافية والطبيعية
 والرياضية فكتب في المدن والامصار والمعادن وجواهر الارض ، والكيمياء والنبات
 والحيوان والطب والفلك والموسيقى والغناء ، والقيان والمغنين . وكتب في الجواري
 والغلمان والعشق والنساء ، والتزد والشطرنج وغير ذلك مما يتناول الحياة الاجتماعية
 والادبية والعلمية في عصره وقبل عصره .

وكان في اول امره ينحل كتبه البلغاء المشهورين كعبد الله بن المقفع ، وسهل بن
 هارون ، فيقبل عليها الناس ، ويتسارعون الى نسخها لا لشيء الا لانها منسوبة الى
 كتاب معروفين . وربما كتب افضل منها ونسبه الى نفسه فلم يجد عليه اقبالا . وما
 زال هذا دأبه حتى بعد صيته فاصبح لا يضع رسالة الا تلققتها الايدي وتناسختها ،
 وطارت في الامصار فحفظوها واستظهروها . وربما ارسلوا المنادين الى مكة في
 مواسم الحج ، يسألون الحجاج عن كتاب له طالبوه ولم يجدوه .

وافاد الجاحظ بكتبه ثروة حسنة طاب بها عيشه فقد قدم الحيوان الى ابن الزيات
 فاعطاه خمسة الاف دينار ، وقدم البيان والتبيين الى ابن ابي دؤاد فاعطاه خمسة الاف
 دينار ، وقدم كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي فاعطاه خمسة الاف
 دينار . وكانت له وظائف يتقاضاها مشاهرة في وزارة الفتح بن خاقان ، عدا ما نال
 من الجوائز والصلوات في مختلف الاحوال .

ولما مات راح بعض الكتاب المغمورين يضيفون اليه كتبهم لتشتهر، كما فعل هو في اول عهده بالكتابة فنحطوه كتباً كثيرة ليس له يد فيها، ولا هي من نفسه واسلوبه . وروي للجاحظ شعر في المدح والهجاء وغير ذلك، ولكن شعره لا يعتد به لان ابا عثمان خلق كاتباً لا شاعراً . ومزله قائمة على طرائف مصنفاته ، وبلاغة انشائه .

صبرته

تتجلى ميزة الجاحظ في كل كتاب اورسالة صنفه، وهو كثير كمارأيت . فهيات أن يتاح لنا دراسة اثاره كلها في هذا البحث . وانما نجتزئ بكتابين من اشهرها وهما الحيوان والبخلاء . وربما رجعنا في بعض الاحوال الى البيان والتبيين وسواه استتماماً لميزة الكاتب العبقري في مختلف شؤونه واغراضه .

كتاب الحيوان - اغراضه

جعل الجاحظ هذا الكتاب في سبعة اجزاء . فالجزء الاول صدره بمقدمة ممتعة يرد فيها على شخص انتقد كتبه، وعاب عليه ابحاثه . ويذكر في هذه المقدمة طائفة جليلة من مصنفاته التي تصدى لها المنتقد . ثم ينتقل الى مدح الكتب، وذكر فوائدها والترغيب في اصطناعها . ثم يتكلم على الخصاص واحواله ومنافعه ومساوئه، ثم على الكلب والديك وما قيل فيها من ذم ومدح .

والجزء الثاني يتضمن تمة الكلام على الكلب واحتجاج صاحبه له . والجزء الثالث يذكر فيه الحمام وما وصف به من كرم الطباع ثم من لؤمها، ويتخلل ذلك استطرادات الى صدق الظن والفراسة والجنون ثم ينتقل الى الكلام على الذبان والغربان والجعلان^١ والخنافس، والهدد^٢ والرخم^٣ والخفّاش^٤

١ الجعلان : ضرب من الخنافس ين . قيل انه يموت من ريح الورد ويعيش اذا اعيد الى الروث ، ويضرب المثل بشدة سواد لونه مفردة جعل .

٢ الهدد : طائر ذو خطوط واللوان يبي افحوصه في الزبل فينتن ريحه .

٣ الرخم : طائر يشبه النسر والعامية تسميه الشوح ، الواحدة رخمة .

٤ الخفّاش : اللوطاط ، وهو طائر لا يطير في ضوء ولا ظلمة ، وانما وقت غروب

الشمس وبقيّة الشفق حيث يرتفع البعوض وينتشر فيتمكن من صيده .

والجزء الرابع يتكلم فيه على الدرة والنمل والقرد والخنزير والحيات والظليم
ثم على النيران واجناسها ومواضعها، وما يضاف منها الى العجم، وما يضاف منها الى
العرب. ونيران الديانات وغير الديانات ومن عظمها، ومن استهان بها، ومن افروط في
تعظيمها حتى عبدها .

والجزء الخامس يستتم فيه الكلام على النار، ثم يشرح في تفسير بعض الايات،
ثم يرجع الى ذكر النار فيتكلم على جمرات العرب. ثم يفرد باباً يذكرفيه ما قيل من
مديح في النصرى واليهود والمجوس والانزال وصغار الناس . وهو في جميع ذلك لا
يبحث في الحيوان حتى ينتقل الى القول في اجناس الطير التي تألف دور الناس، والقول
في الفأر والجردان والسنانيير، والعقرب والصواب والبق وما اشبه. ثم في العنكبوت
والنحل والفرداد^١ والجبارى^٢ والضأن والماعز والضفدع . ثم في الفرق بين الانسان
والبهيمة، والانسان والسبع ثم في القطا، ويختم الكتاب بنوادر من اشعار واحاديث .

والجزء السادس يبدأ فيه بذكر الابواب التي تكلم عليها، ثم يوطى^٣ للابواب
التي يريد الكلام فيها . ويستهل القول في الضب، ثم يفسر قصيدة البهراني في
الحيوان، ثم يبحث في الغيلان والجبان، ثم يورد قصيدتين في الحيوان لبشر بن المعتز
ويفسر الاولى منها، وينتقل الى المدهد والظبي والتمساح والارانب والظربان^٤. ثم
يورد اشعاراً في اخلاط من السباع والوحش والحشرات . ثم يفسر قصيدة بشر بن
المعتمر الثانية . وينتقل الى ذكر الثأر عند العرب، وذكر الجبان ووهله . ثم يتكلم

١ الظليم : ذكر النعام .

٢ القراد : دويبة تتعلق بالابل ونحوها وهي كالقمل للانسان .

٣ الجبارى : طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الاوزة في منقاره طول يقال للذكر

والانثى والواحد والجمع يضرب به المثل في البلاهة والحمق .

٤ الظربان : دويبة كالهرة منتمة الريح .

في الورل^١ وتسلطه على الحية ، ثم على القنفاذ والقهد^٢ ويختم بنوادر واشعار واحاديث .

والجزء السابع ، اصغر الاجزاء . يبحث فيه عما عرفت به الحيوانات من الحكمة العجيبة ، والأحاساس الدقيقة ، والصفة اللطيفة . وما الهما الله من المعرفة وكساها من الجبن والجراة ، وأشعرها من الفطنة بما تحاذر به عدوها . ويستدل بذلك كله على حسن صنع الله ، وجلال احكامه وتدابيره . ثم ينتقل الى القول في الفيل ، ثم في ذوات الاظلاف^٣ فيتكلم على الزرافة وغيرها من الحيوانات . وعند ذلك ينتهي الكتاب .

وهذا الكتاب مستمد من عدة مصادر : منها اشعار العرب واخبارهم وامثالهم . ومنها القرآن والحديث ، وما بلغ اليه علم الجاحظ بالتوراة والانجيل . ومنهسا كتب العلوم المنقولة ، ولا سيما كتب ارسطو واقواله في الحيوان وما اضيف اليه فيه من اقوال . ومنها ما اخذه الجاحظ شفاهاً من افواه من كان يحديثهم من اصحاب المهن والحرف وغيرهم . ومنها ما كان نتيجة رحلاته واختبارات .

وقد رأيت ان الجاحظ لم يقصر ابجائه على الحيوان بل احاط بالنواحي الادبية والدينية والاجتماعية والاخلاقية . ففي هذا الكتاب شعر كثير ، واخبار ونوادر ، وفحش ومجون . وفيه آيات واحاديث ، وحكم وامثال . وفيه ابجاث في الديانات والعبادات . وفيه اساطير وخرافات . وتقاليد وعادات .

والجاحظ كما علمت يعتمد على العقل في ابجائه شأن اصحابه المعتزلة . وقد اتخذ عقله دليلاً في كتاب الحيوان ، فاذا هو يدقق ويمحص ، ويختبر الاشياء بنفسه ، او يسأل عنها اهل المعرفة واصحاب الاختصاص .

واذا اعتمد صاحب التفكير على العقل فلا يخلص في الغالب من الشك . وهكذا

١ الورل : دابة كالضب الا انه اعظم منه خلقه يكون في الرمال والصحاري .

٢ القهد : سبع اشبه بالنمر اسمر اللون ضارب الى الصفرة مرقط الظهر شديد الغضب ،

ثقل النوم .

٣ الاظلاف : جمع الظلف وهو للبقرة والشاة ونحوهما كالظفر للانسان والخافر للفرس .

شك الجاحظ في ما رأى وسمع وقرأ . فكان يشك في اقوال ارسطو اذا لم يقبلها عقله ، كما كان يشك في اقوال الرواة والمحدثين . وتراه يزين الشك ويوصي به فيقول : « وبعد فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له . »

وجنوحه الى الشك جعله يقف عند كل رواية ليحكم فيها عقله ، فمرة يرفضها ، ومرة يقبلها ، ومرة يُبْهَت دونها بين الرِّفْض والقَبُول . وبهتته عائد على عجزه عن ادراك الحقيقة .

واذا اتهم ارسطو ورفض قوله شد عليه وضعف امتحاناته ، ورماه بقوارص الكلام . ويسميه تارة باممه وتارة صاحب المنطق . فمن ذلك قوله : « وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل . وما يليق بمثله ان يُخَلَّد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها اشباهه من العلماء . »

ويشدد النكير على الخرافات الشائعة ، والاساطير المتداولة ، ويسخر منها وينفيها . واذا اطمأن الى الرواية علل سبب ارتياحه اليها فيقول مثلاً : « وقد زعم صاحب المنطق ان ولد الفيل يخرج من بطن امه نابت الاسنان ، اطول مكثه في بطنها . وهذا جائز في ولد الفيل غير منكر ، لان جماعة نساء . . . يرويات الآباء والابناء قد ولدن اولادهن ولهن اسنان نابتة . »

وربما اطمأن الى رواية غريبة فقبلها على علاقتها مكتفياً بابداء تعجبه كما في كلامه على الافعى التي عضت الناقة ، وفصيلها يرتضع منها ، فمات الفصيل قبل امه وكثيراً ما يلجأ الى الاختبار في الجاهة ، فيتتبع الاشياء بنفسه . ويدقق في السؤال عنها . وقد يعتمد الى الحيوانات فيقتلها او يرضخ بيضها ليفحص باطنها . او يدفنها حية ليراقب حرركاتها . او يجمع بعضها ببعض في إناء واحد ليشهد تألفها وتخاصمها .

وربما جرت له مناظرات مع نبلاء الاطباء في عصره كسَلْمَوِيَّه وابن ماسويه ، وِبَحْتِيشَوْع بن جبريل كمنظرته لهم في عمل سم الافعى .

وقد تجد له ابحاثاً لا يقرها العلم الحديث ولا تقوم على الاختبارات الفنية كقوله

ان الذبان يتولد مرة من تعفن الاجسام والفساد الحادث في الاجرام^١ والباقلاء^٢ اذا عتق . فلا حرج عليه في ذلك فانما هو يعرض علينا علوم عصره لا علوم العصر الذي نحن فيه .

ويعجبك كلامه على البلدان وتأثير الهواء في اهلها ، وما اشتهر من امراضها وحشراتهما . كقوله في حمى الاهواز وضعف نسلها ، وشحوب لونهم .

ويقوده الكلام على الحيوان واضراره ومنافعه الى بحث في فلسفة الخلق وضرورة وجود الخير والشر ، واللذة والالم في الحياة .

والجاحظ في هذا البحث يريد ان يظهر قدرة الله وحكمته في خلقه ، وانه خلق كل شيء نافعاً وان يكن فيه الاذاة والضرر . واطهار قدرة الله وحكمته هو الغاية التي تتطلبها الكاتب في جميع مباحث هذا الكتاب . فانه لا يورد مثلاً ولا يقص خبراً ، ولا يبدي درساً الا استخلص منه عبرة يردّها على قدرة الله وحسن صنعه في خلقه .

فكتاب الحيوان كما رأيت ، فيه ادب كثير ، وفيه علم غير يسير ، واذا غلبت عليه الصبغة الادبية فمن الغبن ان نبخسه حقّه من العلم ، فان فيه من الاستقراءات والاختبارات ما لا تجده الا في ابحاث العلماء والمفكرين^٣ .

الخبر - أغراضه

هذا كتاب جعله الجاحظ في جزء واحد ، صور فيه اخلاق البخل وطرقهم في الحرص والاقتصاد ، وصدره بمقدمة خاطب فيها شخصاً طالب اليه ان يحدّثه عن البخل ونوادير اصحابه ، فاجاب طلبه ، ووضع له هذا الكتاب . واوله رسالة من سهل بن هارون الى بني عمه ، وقد ذموا مذهبهم في البخل ، فدافع عنه واحتج له ، وذكر منافعه ، وما قيل في تحسين الحرص وذر السرف . حتى اذا انتهت الرسالة اخذ الجاحظ

١ الاجرام : جمع جرم وهو جسم الحيوان وغيره .

٢ الباقلاء : الفول . الواحدة باقلاء .

في سرد قصص البخلاء ، واكثرهم من اهل البصرة وخصوصاً اهل مسجدھا وفيھم من اهل خراسان . ويتخلل هذه الاقاصيص حيل البخلاء في الحرص والاقتصاد وجمع المال ، ودفع الضيوف ، ومناظرات كثيرة بين السخي والسخي . ولا يتحوج الكتاب من فضح اصدقائه المبخلين وذكر نوادرهم . وفيھم طبقة من الادباء والعلماء . ويختم هذه الاقاصيص بإيراد رسالة من ابي العاص بن عبد الوھاب الى الثَّقَفي يذم فيها البخل ويمدح الجود . ويتعرض لرجل يعرف بابن التَّوأم ، فيعده في البخلاء ، فلما بلغت الرسالة ابن التَّوأم كره ان يجيب ابا العاص لما في ذلك من المنافسة . وخاف ان يترقى الامر اكثر من ذلك ، وكأنه خشي ان يؤثر كلام ابي العاص في نفس الثَّقَفي فيصرفه عن البخل . فبادر اليه برسالة فند فيها اقوال ابي العاص ، ومدح البخل ، وزين جمع المال . ثم يعود الجاحظ الى اخبار البخلاء فيروي نوادر عن نجل الاصمعي . ثم ينتقل الى اسماء المآدب عند العرب ، فيبين اختصاص كل اسم بمعناه كأخْرس يتخذ للطعام صبيحة الولادة ، والإعذار طعام الحُتان .

ويقوده الكلام على المآدب الى الاخبار عن جوع العرب وعطشهم ، وشظفهم وفقرهم . ثم يستطرد الى شبعهم وخصبهم وضيافاتهم ، وقد رهم وصفاتها عند الشعراء من مدح وذم ، ويعدد طعام الاعراب من طيب وردي . . . ويروي اشعاراً هجيت بها اقوام لاشتهارهم ببعض الاكلات . ثم يذكر الكلاب ونبحھا في الليل لاستجلاب الضيوف ، ونبحھا في وجه الضيف لدفعه ، ويروي ما قيل من الشعر في هذا وذلك . ويختم الكتاب بالكلام على النيران التي كان يوقدها العرب في الاماكن المرتفعة ليهتدي بها الضيفان ، ويروي ما قيل في ذلك من الشعر .

فالكتاب كما يتبين لا يقتصر على اخبار البخلاء ، وانما هو كسائر كتب الجاحظ حافل بشتى اغراض مصطبغ بالادب من جميع جهاته . ولكن فوائده حمة في تدبير المنزل وعلم الاقتصاد ، وان تكن اقاصيصه مصروفة الى ناحية الشح والجشع . وفي الكتاب من الفوائد التاريخية ما لا يقل شأناً عن الفوائد الاقتصادية فانه يطلعنا على انواع الملابس والاطعمة عند الاعراب ، واحوالهم في الشدة والرخاء . فبينما كان بعضهم يأكل نخاعة القرون والاضلاف ، والدقيق المختلط بالشعر ، والقردان

المعجونة بالدم وغير ذلك من خبيث الطعام، كان البعض الآخر، وهم المترفون، ياكلون الطيب من اللحوم، والتمر واللبن، والفاكهة، والفاؤذق^١ . ويطلعنا على كثير من عاداتهم في الضيافة وابقاد النار لها . وعلى خرافاتهم واعتقاداتهم الباطلة، ومنها ما كان في عصره كاعتقادهم العين المألحة . وهي التي تعرف بالعين الشريرة .

ويطلعنا ايضاً على منزلة الاعاجم في عصره ولاسيما الاطباء فان الناس كانوا لا يرون خيراً في الطب الا في ما جاءهم عن نصراني عجمي . ومن ذلك خبره عن اسد ابن جاني الطبيب العربي المسلم .

فالجاحظ كما ترى يصور احوال عصره في كل كتاب يصنفه، ويطالعك بكل حديث طريف، ونادرة ظريفة . فيفيدك ويلهيك في وقت واحد . ويمتاز البخلاء في ان اشخاصه على شحهم وخساستهم لا يطعمون في النفس صوراً كدرة تنفر منها لان الجاحظ ألقى عليهم من خفة روحه ظلاً لطيفاً فحسنهم في العين، وحببهم الى القلب . فهم من طيِّاب البخلاء كما ينعتهم او ينعت بعضهم . والكتاب كله يجري على هذا النمط من تصوير للاخلاق والعادات، واخبار في الحرص والاقتصاد، وادب كثير ونوادر واشعار .



اسلوبه الانساني

للاجاحظ اسلوب لا تحطئه سواء وقعت عليه في كتاب صنفه، او في رسالة دمجها ولهذا الاسلوب ميزات عديدة منها ان الكتاب يستهله بالبسملة، ويرددها على الغالب بالحمدلة والتعوذ كما فعل في البيان والتبيين او بمقدمة دعائية يخاطب بها شخصاً لا يسميه كقوله في الحيوان: «جنَّبك الله الشبهة»، وعصمك من الخيرة...» وقوله في البخلاء: «تَوَلَّاكَ الله بحفظه، واعانك على شكره...» والدعاء من لزوميات الجاحظ يكثر منه في جمل اعتراضية اما تملحاً وتظرفاً، واما تلطفاً وتجبياً، واما سخرراً وتمكماً وهذا اظرف الادعية عنده وألذها وقماً كقوله على لسان صاحب له :

١ الفالوذق والفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل وهي اطيب الحلوات عند العرب .

« فكيف عقل العجوز حفظها الله ! »

والسخر عند الجاحظ طبيعي لا يتكلفه تكلفاً، فالكلمة دائماً على اسلة لسانه .
 والتهكم حشو الفاظه . فذلك كثر هزله في مواضع الجدل فبينما يكون في بحث علمي
 رصين لا يلبث ان يفاجئك بالنادرة الظريفة فيضحكك ويزيل سأمك . وقلما خلا
 كتاب له من المضحك والمهازل . فهو من اولئك الناس الذين يرون الدنيا ضاحكة
 اذا ضحكوا لها . وكان يعتذر عن خروجه من الجد الى المزح بقوله : « وان كنا
 قد امللناك بالجد ، وبلاحتجاجات الصحيحة الممزوجة لتكثير الحواطر وتشد العقول ،
 فاستنشطك ببعض البطالات وبذكر العلل الظريفة ، والاحتجاجات الغريبة . »
 وتهكم الجاحظ لطيف ناعم وربما جاء به ذمماً في قالب المدح دون ان يتبغض
 فيه . وهو كثير السخر بالخرافات والحقائق والاحاديث الكاذبة . وكتابا الحيوان
 والبخلاء حافلان بسخره وتندرته .

ويمتاز اسلوبه في الاستطرادات الكثيرة فما يسلك غرضاً الا تجاوزه الى آخر بدافع
 من شعر او حديث او آية ، او غير ذلك يستشهد به ويقف عنده فيخرجه عن موضوعه
 الى اغراض شتى حتى يتيه بقارئه . ثم يرجع به الى الحديث الذي خرج عنه بعد ان
 ينسيه اياه . وقد يطول استطراده فيستغرق عدة صفحات . وقد يقصر فما يجاوز بضعة
 اسطر ، ويرى الجاحظ لنفسه في ذلك عذراً فيقول : « وعلى اني قد عزمت ، والله
 الموفق ، ان اوضح هذا الكتاب ، وافصل ابوابه بنوادير من ضروب الشعر ، وضروب
 الاحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب الى باب ، ومن شكل الى شكل .
 فاني رأيت الأسماع تمل الاصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والاولات الفصيحة اذا
 طال ذلك عليها . »

ومن ميزات التكرير والمرادفة والاسهاب ويعود ذلك على قصده الى تبليغ المعنى
 وايضاحه ، وابرار الموصوف وتصويره ، ثم على تطرابه لموسيقى الفاظه ، ووقعها في
 مسامعه .

وتصوير الموصوف من ابرز خصائص الجاحظ ، فانه كثير العناية بمراقبة الاشياء
 التي يصفها فما يهمل موضعاً يتعلق به غرضه الا جعل له صورة حتى يبرز موصوفه على

الشكل الذي يراه، ومن الناحية التي يريد ان يظهره فيها . ويستعين على ذلك بتعابير
الخاصة فيكرر ويرادف، ويبدي ويعيد الى ان تتم له الصورة التي يريد .

وهو كثير الاستشهاد بالآيات والاحاديث والاشعار والامثال، مما يدل على سعة
اطلاعه ووفرة روايته، ولكنه كغيره من المتقدمين لا يتخرج من ايراد الاشعار
الفاحشة، والنوادر المتعهرة . وكان يرى ان الشيء اذا وقع في محله، فلا سبيل الى
استنكاره، ويسخر من الذين يتأبون ذلك ويستكروهونه . ويقول فيهم : « واكثر
من تجده كذلك فانما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم، والنبل والوقار الا بقدر
هذا الشكل من التصنع . » والجاحظ في رآيه هذا ينطق بلسان السواد الاعظم من
اهل عصره فان ادبهم كان في كثرة ما جنأ متهمكاً خليعاً .

وشيء آخر يميز اسلوب الجاحظ وهو الجمع بين الاضداد ولا يقتصر ذلك على
كتبه المتناقضة في اغراضها وانما يكون في كتاب واحد ككتاب البخل . مثلاً . فانه
يحتج مرة للسخي، ويحتج مرة للبخل . وليست رسالة ابي العاص الى الثقي في ذم
البخل، ورد ابن التوأم واحتجاجه للبخل . الا خاصة يمتاز بها الجاحظ في اسلوبه الجدلي
فهو عالم بالكلام تلذ له المناظرات، واغلب ظننا ان الرسالتين من وضعه لان فيهما
روحه ونفسه وطرقه في التأليف والتعبير .

وانشاء الجاحظ يسيل طبعاً ورقة، بعيد من التكلف لا يلتزم لسه سجعاً، ولا
يتعمد استعارة او تشبيهاً، وقلمنا غنى الا في بعض رسائله ومقدمات كتبه، فهو ابعد
الكتاب من المجاز والتزيين، لا يعني الا بايضاح المعنى في اللفظ السهل الفصيح .
وقد يصطنع التشبيه والاستعارة اذا اقتضتها البلاغة، وتشابيهه مادية محسوسة،
قريبة التناول، بارعة التصوير، لا اغراب فيها ولا تركيب كقوله : « ولربما رأيت
الحائط وكأن عليه مسحاً شديداً السواد من كثرة الذبان . » او قوله يصف قاضي
البصرة : « كأنه بناء بُني او صخرة منصوبة . »

وكان على استبحاره في اللغة، وحرصه على البيان الصحيح، يحمد خطة ربها لا

يوافقه عليها جمهور النحاة . وهي انه اذا روى نادرة من نوادر عامة المولدين لا يتكلف لها الإعراب بل يثبتها بكلام ملحون كما وردت على لسان صاحبها . قال في الحيوان : « ان الإعراب يفسد نوادر المولدين كما ان اللحن يفسد كلام الأعراب . » وقال في البخلاء : « وان وجدتم في هذا الكتاب لحناً ، او كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا انما تركنا ذلك لان الإعراب يبعث هذا الباب ، ويخرجه من حده ، إلا ان احكي كلاماً من كلام متعالي البخلاء ، وأشحاء العلماء كسهل بن هارون واسباهه . » وله كلام من هذا الضرب في البيان والتبيين .

وجملة الجاحظ قصيرة على الغالب ، رشيقة واضحة المعنى ، مفصلة تفصيلاً ، يقطعها مرة ويرسلها اخرى ، وقد تطول اذا تحللها حمل يتطلبها سياق الكلام ، فتمتد وتتسع دون ان يعتورها غموض ولا انقطاع لاثتلافها مع الجمل المتداخلة فيها ثم لمشاركتها اياها في التنازع على الغرض الواحد . وهو كغيره من الكتاب المتقدمين يفرط في استعمال فعل القول اذا حدث عن غيره حتى تكاد لا تذهب صفحة الا وفيها طائفة من قال وما يشق منه ، وربما وردت هذه الافعال متتابعة متجاورة فيثقل وقعها في السمع كقوله في البخلاء . قال : « فما قال ابو الفاتك ؟ » قال : « قال ابو الفاتك . »

وكغيره من المتقدمين لا يسلم انشاؤه من التباس الضمائر حتى لتضطرب ان تستوضح المعنى في شيء من الجهد ، ولا تستخلصه الا اذا نظرت الى ما قبله ، وإلى ما بعده من كلام يدل عليه . ومع ذلك فاسلوبه من اوضح الاساليب القديمة ، واكثرها طلاوة ، واحسنها رواء .

مفرته

قال ابن العميد : « كتب الجاحظ تعلم العقل اولاً والادب ثانياً . » وهذا قول حق لا جمجمة فيه لان الجاحظ في بحوثه العلمية ، واعتماده على العقل في تعليقاته واختباراتهِ كان من قادة التفكير الحر في الاسلام . وما اراؤه في الاعتزال ، واقواله في الحيوان والنبات والامصار والبلدان وغير ذلك الا نتاج عقل صحيح فلا بدع ان

تكون غذاء لسواه من العقول .

والجاحظ اكبر اديب عرفته لغة العرب ، وتقدم عصره فكانت كتبه هداية للادباء ، وقدوة للمنشئين ، يرتضعون لبانها ، ويضربون على غرارها . وقد شاقهم فيها ذلك الادب الخليط وما فيه من جد وعبث . ففتنوا به واتبعوه فكثرت طلابه ومقلدوه . فجاءت كتبهم حافلة بشتى الموضوعات فيها اختلاط واستطراد وسوء ترتيب . ومنهم من كان ينكره الجاحظ كابن قتيبة فانه ، مع تشنيعه عليه لما بينهما من اختلاف في المذهب ^١ ، لم يسعه الا الاحتذاء على خطته في تأليفه ، فترسم مجونه ومضاحيكة في كتابه عيون الاخبار مع انه كان ينكر عليه ذلك ، وقلده في تناول الاغراض المختلفة ، وبجث مثله في الطبائع والاخلاق والحيوان والبخل والطعام . ومن تلاميذ الجاحظ ابو العباس المبرد ، وابن عبد ربه ، وابو القاسم الامدي . وكان ابن العميد يسمى الجاحظ الثاني لانه سلك طريقته في تقصير الجملة وتقطيعها ، والاكثر من الشواهد . وتلمذ له القاضي الفاضل وكان يقول : « واما الجاحظ فاما منا معشر الكتاب الا من دخل داره ، او شن على كلامه الغارة . »

وكان من تأثير كتبه ان خلقت له الاعداء والخصوم ، كما خلقت له الاصدقاء والانصار ، فتضاربت فيه الاقوال فمن مادح يغالي في مدحه ، ومن ذام يسرف في ذمه ، ولم يختلف الناس يوماً الا على رجل عظيم .

على ان خصومه لم يتمكنوا من اسقاطه في تحاملهم عليه ، فلم تكن مطاعن البغدادي وابن قتيبة والراوندي وسواهم ، الا لترفع قدره . وما منهم واحد استطاع ان ينكر علمه وفضله ، ولكنهم هاجموا من ناحية مذهبه ، فاتهموه في دينه .

ولا غرو ان يؤثر الجاحظ هذا التأثير في كثير خصومه ، ويكثر مريدوه فانه اوتي من الذكاء والعلم قسطاً حسناً . ورأى ان الكتب في عصره ، منها ما يعتمد على النقل ، ومنها ما يعتمد على الرواية حتى كاد لا يكون فيها استنباط فاختره واضطلع بعينه فكان راوية ومختزاً في وقت واحد . ثم رأى ان الكتاب لا يعنون

الا بعلم دخيل ، او بادب قديم . وقل من نظر منهم الى عصره ، فروى عنه شيئاً .
 فقام يسد هذه الثلمة ، وخص عصره بجانب من كتبه . فصور اخلاق اهله وحياتهم ،
 فشغف الناس بكتبه واقبلوا عليها يطالعونها بلذة . والانسان يروقه ان يرى ما يصور
 له البيئة التي يعيش فيها ، ويحس احساسها ، ويشعر بشعورها . فكتب الجاحظ لم تكن
 كلها غريبة عن معاصريه كما كانت كتب ابن المقفع . فابن المقفع نقل آداب الفرس
 والهند واليونان ، فأعجب الناس بها لانهم رأوا فيها شيئاً جديداً لا عهد لهم به . ثم
 لانها كتبت بلغة بليغة ممحقة ملأت صدورهم جلالاً . ولكنهم لم يجدوا صلة روحية
 بينهم وبين هذه الآداب ، لانها وضعت لزمان غير زمانهم ، ولشعب غير شعبهم . فأثروا
 عليها كتب الجاحظ ، فغلب اسلوبه على اسلوب ابن المقفع . وساعده على ذلك ما
 فيه من سلاسة وفكاهة وسهولة مساع . فاسلوب ابن المقفع منطقي رصين ، متعفف ،
 تؤثره الطبقة الارستقراطية لتأديب انجالها ، وتحتفل به دور التعليم ، وتفضله على غيره .
 واما اسلوب الجاحظ ، فاسلوب ضاحك هازي . ماجن ، ديمقراطي يدخل بين الطبقات
 كلها . وكما غلبت على ابن المقفع الثقافات العجمية غلبت على الجاحظ الثقافة العربية ،
 فحفلت كتبه بالشعار والنوادر والآيات والاحاديث والامثال غير انه لم يهمل الثقافات
 الدخيلة بل كان لليونانية والفارسية عنده حظ غير قليل .

وملك الجاحظ ناصية البيان فانقادت اوضاع اللغة ذللاً بين يديه تواتيه في
 مختلف الابحاث وشتى اغراض واعطي من براعة الكلام ، وقوة الاختراع ، وحسن
 التعليل ما جعله يعرض للاشياء الحقيرة فيبني عليها موضوعات جليلة . ولو اعتمد القارى
 على عناوين كتبه لصدفته عن النظر فيها .

وحسب الجاحظ منزلة انه اول من جمع علوم عصره ، وصور حياة اهله وانتقد
 اخلاقهم وعاداتهم . واول من وضع الكتب الطويلة الجامعة ، وخلط فيها الهزل بالجد
 والمجون بالرصانة ، والفحش بالتعفف ، والكفر بالايان وكل شيء بضده . فهو ابرع
 كاتب جمع النقيضين ، واحتج للنقيضين ، وذم ومدح النقيضين . وامتاز بالفضول العلمي
 وحب الاستقراء . وهو الى ذلك شيخ من شيوخ المعتزلة ، وامام من اية المتكلمين .
 وصاحب الفرقة الجاحظية ، وزعيم الادباء غير مدافع .

علوم اللغة

المصرف والنحو

ظل الخلاف على أشده بين الكوفيين والبصريين وطمت الشروح والتعليقات فتعقدت المسائل النحوية ، وتشعبت طرقها . فلما توالى الفتن على المصريين وامتدت اليها ايدي الخراب ولا سيما البصرة بعد ان عاث فيها صاحب الزنج فساداً ، اخذ العلماء يهاجرون الى بغداد ، وفيهم اصحاب النحو ، فاختلط المذهبان ، ونشأ منهما مذهب بغدادي جديد اشهر اصحابه ابو العباس ثعلب وله في ذلك كتاب اختلاف النحويين ، ومن افاضل النحاة ابو بكر الانباري ، وابو اسحق الزجاج ، وابو القاسم الزجاجي ، وابن السكيت وغيرهم .

اللغة

كان كل نحوي من المتقدمين عالماً باللغة و كل لغوي عالماً بالنحو ولكن تغلب على الواحد منهم صفة اكثر من اخرى فيعرف بها . وفي هذا العصر بدأ يتسع نطاق اللغة ، وتصنف فيها الكتب المطولة . وكان من علمائها المشهورين ابو العباس المبرد وله كتاب الكامل في اللغة والنحو والادب . وابن دريد وله جمهرة لسان العرب ، وكتاب الاشتقاق . وعبد الرحمن الهمداني وله كتاب الالفاظ الكتابية في المترادفات .

العلوم الدخيلة

العلوم الطبيعية

ظل اصحاب الكيمياء يبحثون عن الحجر الفلسفي حتى ظهر لهم بطلانه ، والفضل في ذلك لابي يوسف الفيلسوف الكندي فانه اول من نهى عن الاشتغال بالكيمياء للحصول على الذهب ، واذم ذلك وبين انه عبث وتضييع للعمر والمال . وقد اشار ابن

الرومي الى بطلان هذه الكيمياء بقوله : « كالكيمياء التي قالوا ولم تصب . »
وتقدم الطب العربي على اثر انتشار الكتب المنقولة واقبال المسلمين على دراستها
واشتهر جلة من الاطباء في مقدمتهم ابو بكر الرازي جالينوس العرب ، وله كتاب
الحاوي في صناعة الطب . وينسب اليه ابتكارات كيمياوية منها زيت الزاج وهو
الحامض الكبريتي ، ومنها الكحول .

واشتغل العلماء بالتاريخ الطبيعى ، فصنف ابن وحشية الكلداني كتاب الفلاحة
النبطية ، وقسطا بن لوقا الطبيب النصراني كتاب الفلاحة اليونانية .

العلوم الرياضية

كان من اشتغال العرب بهذه العلوم ان نهضوا بعلم مساحة المثلثات ، وعرفوا
طريقته السهلة التي تحول الاعمال الحسابية الى مثلثات تحل زواياها بواسطة الخيوط
والجيوب . والفضل في ذلك لابي عبدالله البتاني فانه اول من استبدل الجيوب من اوتار
الدائرة في قياس المثلثات .

العلوم الفلسفية

اقتصرت الفلسفة في العصر السابق على الترجمة ، حتى اذا انتشرت الكتب
المنقولة وطالعتها المفكرون واختمرت بها افكارهم ، شرعوا في التصنيف فظهرت الفلسفة
الاسلامية اليونانية وغايتها التوفيق بين الشرع والعقل . ونبع من المسلمين ابو يوسف
يعقوب الكندي ، وله فضل في ترجمة كتب ارسطو وتفسيرها وبسط عويصها .
وابو نصر الفارابي وله كتب كثيرة منها اراء مبادئ المدينة الفاضلة هذا فيه حذو
افلاطون في جمهوريته ، ورسالة السياسة في ما ينبغي للمرء ان يستعمله مع رؤسائه ،
ومع اكفائه ، ومع من دونه ، ومع نفسه .

التاريخ

كان المؤرخون قبل هذا العصر لا يعنون الا بالطبقات والفتوح والقبائل والانساب .

فلما تمت السيادة للعجم واسترخت العصبية العربية امام عصبية البلد كما رأيت في تنافس البصرة والكوفة، اقتصد المؤرخون في تدوين الانساب واكتفوا من الفتوح بتلخيص حوادثها وضبطها، وعنوا لجمع اخبار الامم واحوال البلدان، نبههم على ذلك اطلاعهم على التواريخ المنقولة، وضربهم في الامصار البعيدة واختلاطهم بشعوبها. واشتهر من المؤرخين البلاذري وله كتاب فتوح البلدان، واليعقوبي وله كتاب البلدان، وكتاب في التواريخ العام يعرف باسمه. ومحمد بن جرير الطبري وله كتاب اخبار الرسل والملوك ويعرف بتاريخ الطبري.

ومما يعاب على هؤلاء المؤرخين انهم دونوا جميع ما عرفوه من الحوادث والاخبار دون تمحيص او تعليل، ودون ما نظر في الاسباب والمسببات، فشوهوا التاريخ بجوافات واساطير لا يقبلها العقل فحفلت كتبهم بالمضحكات. واقتصروا على الاحداث المادية كالولادة والوفاة والحرب والفتح والولاية والعزل. ولم يبحثوا في احوال الامم الاقتصادية والاجتماعية، وفي تطور الحضارة وتبدل الاخلاق والاهواء. وغير ذلك مما لا غنية للتاريخ عنه، فجاءت كتبهم مجموعات اخبار منسقة إما باعتبار الطبقات، وإما باعتبار السنين، وإما باعتبار الدول، وكلها ضعيفة الفن في تأليفها، خالية من الفلسفة التاريخية، ولكنها المرجع الوحيد للباحث في تاريخ العرب والاسلام.

الجغرافية

اشتغل العرب بالجغرافية قبل ان يطلعوا عليها في الكتب المنقولة، فقد دعتهم الحاجة الى هذا العلم بعد ان اتسعت الممالك الاسلامية، وتوالت الفتوح، وسيرت البرد بين الخليفة وعماله. فكان حجاج البيت الحرام يدونون اسماء المواضع التي يجوزونها الى مكة. ورواة الاخبار يهتمون باشعار العرب الى الاماكن والدارات في البادية. وامراء الجيوش، وولاة الامر يتقصون احوال البلدان الخضوعة، ويضبطون مواقعها واقاليمةا وسكانها واديانها وغلاها لاخذ الجزية والخراج منها. وكان على اصحاب البريد ان يحافظوا على رسائل الخليفة وعماله، ويسلكوا بها الطرق المأمونة،

فضبطوا المسالك والمواقف التي كانوا يرون بها، ودققوا في وصفها وتعريفها. فاجتمع لدى العرب من كل ذلك فوائد جغرافية جمّة ولكن ينقصها حسن التأليف والتبويب. فلما نقلت جغرافية بطليموس ترجمها المصنفون واعتمدوا عليها في وضع كتبهم وتنسيقها، الا انهم لم يقتنعوا بما جاء فيها بل تجشّموا الرحلات البعيدة في البر والبحر، وخبروا الا ما كن بانفسهم، فصححوا بعض اوهام بطليموس، واستدركوا ما غاب عنه من العلم مما تمكنوا من الحصول عليه. واشهر الجغرافيين ابن خردادبّه وله كتاب المسالك والممالك. وكان يتولى البريد في العراق العجمي، فذكر فيه مسافات الطرق، واحصى جباية الخراج. واليعقوبي وله كتاب البلدان الذي مر ذكره، فانه لم يقصره على التاريخ بل تعدى به الى الجغرافية فذكر احوال البلدان واجناس اهلها، وما بينها من الابعاد، ومقادير الخراج فيها. وابن رُسته وله كتاب الاعلاق النفيسة في تقويم البلدان، وصف فيه البحار والانهار والاقاليم السبعة.

الادب والادباء

ما ان تولى صدر الدولة العباسية الا وقد فزع الرواة من تلقف الاخبار والاشعار، واعتساف البوادي والفقار، وانصرفوا الى تدوين ما اجتمع لديهم من ادب يتناقلونه بالرواية والاسناد. فشغف الناس به، وحسن تذوقهم له، فأقبلوا على كتبه يتناسخونها ويقتنونها، فازداد المشتغلون به نشاطاً، فاكبوا على التصنيف والتمحيص والنقد. حتى اذا اكتمل العصر الثاني كان الادباء المصنفون قد كثر عددهم فهروا اللغة ومؤلفات نفيسة، لولاها لضاع من آدابنا شيء جليل.

وخطا النقد الادبي خطوة إلا تكن واسعة فان فيها تطوراً محسوساً اقتضته نهضة العلوم والفنون. فقد كان لنقل الفلسفة والمنطق اثر بليغ في ترقية الافكار وتنقيتها. فصار الادباء يحصون الشعر والنثر، ويضعون لها الشروط والقوانين، واذا وقعوا على قول فلسفي او منطقي، ردوه على مذهبه، وقدروه على قياسه، فان استقام

لهم المعنى قبلوه والارفضوه . واصبحوا يحكمون اراءهم في القديم والحديث ، فاذا تعصبوا للاول لا يبخسون الثاني حقه . فابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء يخطط خطة جديدة في القديم والحديث اذ يقول : « ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا لتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين واعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه . » والمنطق هو الذي هدى ابن قتيبة الى هذه الخطة ، فاراه ان القديم والحديث إضافيان لا حقيقيان ، وان كل حديث سيصبح قديماً وفي ذلك يقول : « ولم يقصر الله الشعر والعلوم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عبادہ ؛ وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره . »

وفي كتاب ادب الكاتب ينتقد ابن قتيبة صناعة الانشاء ويبحث في ما يحتاج اليه الكاتب من الآداب والعلوم ، ويبين اوهام الكتاب ومغالطهم في معاني الالفاظ والاشتقاقات والتراكيب .

وللجاحظ في البيان والتبيين نقد على فن الخطابة يظهر فيه ما يستحسن من الخطيب وما يعاب عليه . ويبحث في اختلاف لغات العرب ، واوضاعها وفصاحة مفرداتها .

وكان لكتاب البديع الذي وضعه ابن المعتز تأثير في فن الانتقاد فان الادباء بعده اخذوا يتحرون في نقدهم الصور البيانية ، ويتفحصون وجوه الاستعارة والتشبيه والطباق وما الى ذلك . ثم جاء قدامة بن جعفر فصنف كتابه في نقد الشعر ، فبين فيه حدود النظم وشروط ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وتكلم في المجاز والتشبيه ، وعرض لعشرين نوعاً من البديع توارد مع ابن المعتز في سبعة منها .

فمن ذلك يتضح ان لتقدم العلوم والفنون يداً طولى في تطور النقد ، ولكن الادباء في وضعهم النظم والقواعد لصناعاتي الشعر والنثر ابعدوا الشعراء والكتاب عن طبعهم فاصبح هؤلاء ، ولا سيما في اواخر العصر ، لا ينظمون ولا يثرون الا وهم يتلفتون الى تلك الشروط والقوانين محاذرة الانتقاد .

العصر العباسي الثالث

٩٤٦ — ١٠٥٥ م و ٣٣٥ — ٤٤٧ هـ

« يتبدى بقيام الدولة البويهية واستقلالها »
 « بالسلطان ، وينتهي بسقوط بغداد في ايدي »
 « السلاجقة »

ملحة تاريخية

الدولة الحمدانية :	سيف الدولة في حلب .
الدولة الفاطمية :	فتح مصر . انتقال الخلافة اليها .
الدولة البويهية :	اصلها . فتح بغداد . المعتضد .
ميزة عصر :	سوء الحالة السياسية . حسن الحالة الفكرية .

استقلال الولايات العباسية

تكلمنا في العصر الماضي على اسباب ضعف الخلافة العباسية، وما كان من تجزؤ
 هيكلها واستقلال ولاياتها ونجترى هنا بالكلام على اشهر الدول التي استقلت وكان
 لها يد بيضاء على العلوم والآداب .

الدولة الحمدانية

٩٠٤ — ١٠٠٣ م و ٢٩٢ — ٣٩٤ هـ

هي دولة عربية شيعية ينتهي نسبها الى تغلب بنت وائل . وكان بدء امرها في خلافة المكتفي عندما ولي الموصل ابو الهيجاء عبد الله بن حمدان . وتداول الحمدانيون امارة الموصل واحداً بعد واحد ، لا يشقون الطاعة على العباسيين الا عادوا اليهم مستأمنين ، حتى ازال ملكهم عضد الدولة بن بويه فنفروا في الولايات . فمنهم من دخل في خدمة البويهيين ، ومنهم من رحل الى مصر . وقصد سيف الدولة حلب واستولى عليها ثم امتلك حمص ، ثم سار الى دمشق فدخلها واقام فيها ، ولكن كافوراً الإخشيدي عاد اليها فاسترجعها منه .

ونشبت بين سيف الدولة والروم عدة مواقع ابلى فيها بلاء حسناً وردهم مراراً عن حلب فلم يستقروا فيها مدة حياته . ومات سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٦ م) قري العين بعد جهاد طويل ، وسلطان امتد نحو ثلاث وعشرين سنة . وملك بعده عقبه حتى انقرضت دولتهم ، واستولى الفاطميون على حلب .

واشتهر بلاط الحمدانيين بمناصرة العلم والادب ولا سيما عهد سيف الدولة فان الشعراء الذين كانوا يجتمعون ببابه ، لم يجتمع مثلهم الا في قصور الخلفاء المتقدمين . وحفلت داره بطائفة من الاطباء والفلاسفة والعلماء . فمن شعرائه المتنبى ، ومن خطبائه ابن نباتة ، ومن فلاسفته الفارابي ، ومن علمائه ابن خالويه .

وكان سيف الدولة أديباً نقاداً يناظر الشعراء ، ويدلهم على سقطاتهم . ونبغ من الحمدانيين شعراء محسنون ، اشعرهم ابو فراس .

الدولة الفاطمية

٩٠٩ — ١١٧١ م و ٢٩٧ — ٥٦٧ هـ

اختلف المؤرخون في نسب الفاطميين فمنهم من نكرو واشجعتهم بفاطمة بنت النبي ، وجعل عروقتهم في اليهودية او النصرانية ، ومنهم من اثبتها ولم يلتفت لفت مجرحيها وفي جملتهم ابن خلدون .

ويرجع الفاطميون باصلهم الى جعفر الصادق^١ وهم من الشيعة الباطنية ينقلون الخلافة من جعفر الصادق الى ابنه اسماعيل ، ثم يسوقونها في عقبه حتى ينتهوا بها الى اول خليفة فاطمي وهو عبيد الله المهدي ابن محمد الحبيب . ويدين الفاطميون بالحلولية فيقولون بان الله حل بالمهدي وغيره من الأئمة الاثني عشر . وانتشرت شيعتهم في اليمن والمشرق^٢ وافريقية . ومؤسسها ابو عبيد الله محمد الحبيب ، فإنه ابتداءً يث دعوته سراً . وعادة الشيعة ان تدعو للرضا من آل محمد دون ان تسميه تقية وخوفاً عليه . فقصده محمد الى اليمن ودعا اهلها وبشرهم بقرب ظهور المهدي المنتظر . واتصلت اخباره بالشيعة الذين في العراق فصاروا اليه فكثر جمعهم . ثم انفذوا دعوتهم الى المغرب ، فاذاعها وثبتها ابو عبد الله الشيعي المشهور .

ولما مات محمد الحبيب اوصى لابنه عبيد الله وقال له : « انت المهدي » . فقام عبيد الله بالامر وكان ذلك في خلافة المكتفي فطلبه الخليفة فهرب الى مصر ومنها الى طرابلس الغرب ، وجاء سجلاسة فاعتقله عاملها أليسع بن مدرار ملبياً امر زيادة الله الأغلي^٣ . ولكن ابا عبد الله الشيعي ما انفك يجاهد في سبيله بقبائل كتامة حتى

١ جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب هو الامام الخامس من الاثمة الاثني عشر على مذهب الامامية من الشيعة .

٢ المشرق : اي العراق وفارس وخراسان الى حدود الصين والهند .

٣ هو احد امراء الدولة الاغلبية في افريقية . مؤسسها ابراهيم بن الاغلب سنة ١٨٦ هـ (٨٠٠ م) وكان الرشيد قد ولاه على افريقية فقاوم الدعوة الادريسية هناك ، واخلص الاغلبية للعباسيين . واستتب لهم الملك هناك فتوارثوه نحو اثنتي عشرة سنة ومائة ، وانقرضت دولتهم سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) . والمراد بافريقية هنا كما كان يفهمها العرب وهي الارض

فتح له البلاد عنوة، وانتصر على الاغلبة، وامتلك افريقية؛ ودخل سبجلماسة فانقذ عبيد الله من محبسه. ثم نزلوا برقادة، فبويع عبيد الله البيعة العامة، وقامت به الدولة العبيدية في افريقية منتسبة اليه.

ولما صارت الخلافة الى المعز لدين الله الخليفة الرابع، ستر قائده جوهر الرومي الى مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) فافتتحها. وكان العبيديون قد هاجموا غير مرة وأرجعوا عنها، وقد وفقوا في هذه الكرة لضعف الدولة الإخشيدية.

واقام جوهر الدعوة للمعز في مصر، وازال الشعار الاسود العباسي، وألبس الخطباء الشيايب البيض، ثم فتح دمشق، وخطب للمعز على منابرها. وبني مدينة القاهرة شمالي القسطنطية، وتم بناؤها سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) فجاءها المعز في السنة التالية، وجعلها مقر الخلافة الفاطمية، واتم بناء الجامع الازهر، وكان جوهر قد بدأ به. وتعاقب بعد المعز على مصر عشرة خلفاء، ثم زال ملكهم بقيام الدولة الايوبية.

وكان لهم حضارة راقية، فقد انشئت في عهدهم المدارس والمكاتب، واقتنيت الكتب النفيسة، وبني مرصد جبل المقطم. وقرب الخلفاء الشعراء والعلماء، واحسنوا صلاتهم، فاقبل هؤلاء على مصر، وطابت لهم مورداً.

وعني الفاطميون باللغة الفصحى في دواوينهم، فأقاموا عالماً بالنحو يراقبها ويصلح ما يقع فيها من اللحن. وتركوا من الآثار العادية ما يشهد بتقدم العمارة في أيامهم. وعرف بعضهم بالتساهل، وكره التعصب فان المعز كان يأذن لاسقف النصارى بان يناظر القضاة والعلماء في مسائل الدين. وامر بتجديد بناء الكنيسة القبطية، وشهد بنفسه وضع الحجر الاول فيها. وكان المعز من محسني الشعراء، واشتهر ايضاً بالشعر ابنه الامير تميم.

التي تمتد من طرابلس الغرب الى الجزائر اي انها لا تشمل على تونس الحالية وحدها بل تعداها الى قسم من طرابلس والى ولاية قسنطينة حيث كانت قبائل البربر المعروفة بالكستامة.

الدولة البويهية

٩٣٣ — ١٠٥٥ م و ٣٢١ — ٤٤٧ هـ

هذه دولة فارسية من ابناء الديلم قام بها اخوة ثلاثة وهم علي والحسن واحمد ولد ابي شجاع بويه، قيل ان نسبهم يتصل بملوك الفرس . وكان بعض زعماء الديلم خرجوا لامتلاك البلاد بعد ان رأوا ضعف العباسيين وفيهم ما كان بن كالي ومرداويج ابن زيار ، وخرج ابناء بويه في جملة القواد مع ما كان . فلما دب الخلاف بين ما كان ومرداويج، وغلب مرداويج صاحبه على طبرستان و جرجان انضم ابناء بويه اليه فوحب بهم ، واستعمل علياً كبيرهم على الكوج . فلم يلبث علي ان استقل بامرره وفتح اصفهان ثم استولى على بلاد فارس كلها . وكانت الخلافة افضت الى الرازي فكتب علي اليه والى وزيره ابي علي بن مقلة بالطاعة ، وان يُقطع ماييده من اعمال فارس؛ فاجيب الى طلبه، وبعث اليه باللواء والخلع . فاقطع اخاه الحسن اصفهان ، واخاه احمد كرومان ، واستقر هو بفارس . ثم ولي احمد العراق ، فاقام هذا بالاهواز . وحدثت فتن في بغداد سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) فانتهز احمد بن بويه الفرصة فاحتلها وازال سلطة الاتراك عنها .

وكانت الخلافة بيد المستكني، فعنا لسلطان ابن بويه وضرب السكة باسمه ، ولقبه بمعز الدولة، ولقب اخاه الحسن بركن الدولة ، واخاه علياً بمعاد الدولة . ثم استراب معز الدولة بالمستكني فوثب عليه ومعه ، وبايع الفضل بن المقتدر ولقبه المطيع لله . ولما بلغ الحمدانيون ما فعل المعز جاؤوا من الموصل لقتاله ، فخرج للقائهم ، فدخلوا بغداد . فلم يطحن للمعز بها مضجع الا سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) بعد ان استنفذها منهم .

ولم يكن لعباد الدولة امير فارس ولد ذكر ، فبنى عضد الدولة ابن اخيه ركن الدولة . فاستولى بعده على فارس واقام بشيراز . ثم مات ابوه ركن الدولة امير اصفهان فضم مملكته اليه . ثم مات معز الدولة في بغداد وانتقل ملكه الى ولده بختيار . وكان ضعيفاً ، سبى السيرة ، قليل الحيلة . فسار عضد الدولة الى بغداد ودخلها سنة ٣٦٧ هـ

(٩٧٧ م) ووحد دولة البويهيين ، وخطب له على منابرها . ولم يخطب لاحد قبله غير الخليفة . ثم ملك الموصل من بني حمدان ، وعاش مرهوب الجانب ، منبسط السلطان ، حتى أتاه اليقين ، فتوفي ببغداد سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) .

ولدولة بني بويه فضل كبير على العلم وذويه ، فانهم أباحوا حرية التفكير ، وشدوا أزر العلماء ، فظهرت على عهدهم فلسفة اخوان الصفاء في البصرة وبغداد ، ونبغ الشيخ الرئيس ابن سينا . وافاضوا من سيدهم على الشعراء والكتاب ، فضربوا اليهم آباط الإبل من الامصار البعيدة ، وقصدتهم امثال المتنبي وابي اسحق الصابي . وعُرف بالشعر جماعة منهم كعضد الدولة وتاج الدولة .

وبلغ بهم حبهم للعلم انهم لم يستوزروا غير الكتاب والشعراء ، فركن الدولة استوزر ابن العميد . وابنه مؤيد الدولة استوزر صاحب بن عبّاد . وكان مؤيد الدولة عاملاً لاختيه عضد الدولة على الري وهمدان . فلما مات تولى بعده اخوه فخر الدولة فأقر صاحب في وزارته . وكان وزير معز الدولة الحسن المهلبى الشاعر . ولم يشأ البويهيون ان يُقروا بخلافة الفاطميين في مصر مع انهم شيعيون مثلهم ، وآثروا عليها خلافة العباسيين وهي سنية . ذلك بان الفاطميين كانوا دولة قوية تقبض على السلطة الروحية والسلطة الزمنية معاً ، والبويهيون وهم من الفرس يعنيهم ان يستعيدوا سابق عزهم وسلطانهم ؛ وما يتأتى لهم ان ينفردوا بالاحكام الا في خلافة مهينة الجناح كخلافة بني العباس .

عبرة العصر

لا يصح لنا ان نسمي هذا العصر عباسياً من الوجهة السياسية ، انما يصح ذلك من الوجهة الفكرية ، لان السلطان فيه كان للملوك المستقلين ، ولم يبق منه الا الشيء اليسير لخلافة بني العباس . ولكن العلوم والآداب عباسية خالصة ، ترتبط بما تقدمها بعروة وثقى لا انفصام لها . وهي وان يكن لها مييزات جديدة تصطبغ بها وتتلون ، فما ذلك الا رقي بعد نشوء ، وتتمة بعد بدء ، ونضج بعد اثمار . فليس من فن او علم في العصر الثالث الا وقد نشأ ونما وترعرع في حمى العباسيين ، فمن العدل ان نسمي

العصر عباسياً وان ولي ملك بني العباس او كاد .

وهذا العصر يمتاز في شيئين مختلفين اولهما سوء الحالة السياسية في ممالك الاسلام ، واضطراب الأمن في جميع الامصار ، وانتشار الدعوات والفتن والحروب . والثاني حسن الحالة الفكرية وقيام المدارس والمكاتب ، وازدهار العلوم والاداب . فان الامراء المستقلين لم يقتصر تنازدهم وتحاسدهم على ان يقاتل بعضهم بعضاً ، ويكيد بعضهم لبعض ، بل تعدى ذلك الى التنافس والتباهي بتقريب الشعراء والعلماء ، والتزيد من الكتب ودور التدريس ، فبدلوا المال ، واجزلوا العطاء . ومالوا الى التساهل فلم يتخرجوا من حرية القول والتفكير . فاتسع مجال الارتفاق على اهل العلم ، فتفرقوا في الممالك المستقلة ، واصبح لهم جملة حواضر ترفه لهم العيش ، وتضمن لهم الشهرة ، بعد ان كان الرزق والشهرة محصورين في بغداد . فانبسطت احوالهم ، وفرغوا الى النظم والتأليف ، فنهضوا بالفكر الاسلامي نهضة عظيمة ، وتم على ايديهم نضج العلوم والاداب .

ومع ان بعض الدول التي استقلت كانت عجمية الاصل فارسية او تركية ، كالبيهيية ، والسامانية ، والغزنوية . فقد ظلت السيادة فيها للغة العربية لان ملوك العجم وهم مسلمون أبوا الا ان يحافظوا على لغة القرآن ، فتركوا لها السيادة الدينية . ثم ان العربية كانت لغة الاداب والعلوم ، فلم يستغنوا عنها في انشاء حضاراتهم ، فاعتمدوا عليها وجعلوها لغتهم الرسمية في مدارسهم ، ومساجدهم ودواوينهم . على ان الفرس جهدوا في احياء لغتهم القومية فتأتى لهم ان ينظموا الشعر فيها ، وينقلوا اليها بعض الآداب ، ولكن تعسر عليهم نقل العلوم ولا سيما الشرع لافتقار الفارسية الحديثة الى الاوضاع العلمية . وظلت الاولى للغة العرب طوال هذا العصر ومعظم العصر الذي يليه حتى تمت السيادة للشعوب الغربية ، واجتاحت البلاد العربية بلغاتها ولهجاتها ، فتضاءل سواد لغة الضاد وباد محاماتها ، واهل العلم بها ، وغلبت عليها طغمة طمأنية الاعاجم .

-
- ١ السامانية : دولة فارسية في ما وراء (النهر) تركستان) ضمت اليها خراسان في خلافة المعتضد واقترض ملكهم على يد الاتراك بعد ان حكموا من سنة ٨٧٢ - ١٠٠٤ م ٢٦١ - ٣٩٥ هـ
 - ٢ الغزنوية : دولة تركية مقرها غزنه في الافغان ، وامتدت سلطتها الى تركستان والهند وسواهما ، انقرضت بعد أن ملكت من سنة ٩٧٦ - ١١٨٣ م ٣٦٦ - ٥٧٩ هـ .

الشعراء المولدون

العصر الثالث

ميزة الشعر . الشعر الفلسفي . الشعر الصوفي . الفخر والحماسة . الدهريات . الزهريات .
الاخوانيات . الهزليات . سائر اغراض الشعر وفنونه . لغة الشعر .

مقدمة الشعر

اصطبغ الشعر بالوان جديدة مازته بخصائصها . وانبعثت فيه فنون كادت تضمحل وتنسى ، واستقلت ابواب كانت تابعة لغيرها . فاما ما استجد به فالشعر الفلسفي والصوفي . واما ما انبعث حياً فالفخر والحماسة . واما ما استقل فالدهريات والزهريات والاخوانيات والهزليات .

الشعر الفلسفي

لا نعني بالشعر الفلسفي تلك الحكم والامثال المبثوثة في شتى القصائد . فهذه قديمة غير محدثة وان يكن المتنبي رقاها واظهر حلاها . وانما نعني الشعر الذي تنظم فيه المذاهب الفلسفية بحثاً عن الحقيقة بالنظر الى الطبيعة وما وراء الطبيعة . ومن حق الشعر الفلسفي ان يظهر في هذا العصر ، وقد اختمرت العقول بالعلوم الدخيلة ، وشرع المفكرون في التصنيف بدلا من النقل ، فنشأت الفلسفة الاسلامية متحدة بالفلسفة اليونانية ، ونبغ الفارابي وابن سينا واخوان الصفاء ، ونبغ شاعر فيلسوف نظم الفلسفة للفلسفة في كتاب ممه الزوميات الا وهو ابو العلاء المعري . ولابن سينا قصيدة فلسفية شرح فيها رأي افلاطون في هبوط النفس من السماء ، وحبسها في الجسد

الى ان تظهر فتزجج من حيث اتت . فهذا النوع من الشعر جديد لم يعرفه العرب من قبل .

الشعر الصوفي

وهذا ايضاً فن جديد ظهر بعد ان ترقى الطريقة الصوفية، وصارت علماً يعتمد على الفلسفة . وكانت قبلاً اشبه بالزهد مقتصرة على العبادة ، والانقطاع الى الله ، والاعراض عن زخرف الدنيا . ويعنى الصوفيون على الاخص بثلاثة اشياء اولها الاتصال بالله في هذه الحياة الدنيا . والثاني انبثاق العالم من الله . والثالث رجوعه اليه تعالى ويسمونه الوصال . ويزعمون انهم في اتصالهم بالذات تتكشف لهم الحقائق الخبوء فيعرون الجنة وما فيها من اشجار وانهار، وحور وولدان، ويرون الجحيم وما فيه من ابواب وعذاب . ولا يتم عندهم هذا الفتح الالهي الا بعد مجاهدة وذكر وخلوة ، يعكف عليها الصوفي ، فتأخذه غيبوبة يعبرون عنها بالانجذاب والسكر ، فيتوصل الى الكشف والمشاهدة . ولهذا كثر تغزلهم بالحمرة الالهية ونشوتها ، وتغزلوا بالذات والصفات، ووصفوا الجنة ونعيمها . ولهم في ذلك اصطلاحات مخصوصة بهم يستعملونها في شعرهم ونثرهم . والمنظومات الصوفية من الشعر الرمزي ، ظاهرها غزل متها لك ، وباطنها توجد بالغرزة الالهية . وكان ظهور هذا الفن في ارض الفرس والعراق لان ثمة مولد الصوفية . ثم امتد بامتدادها الى الشام فمصر .

ومن الشعر الصوفي قول عبد الكريم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢م) :

سَقَى اللَّهٌ وَقْتًا كُنْتُ أَخْلُو بِوَجْهِكُمْ ، وَتَغَرُّ أَلْهَوَى فِي رَوْضَةِ الْأَنْسِ ضَا حَكُ
أَقْمَنَا زَمَانًا ، وَالْعَيُونُ قَرِيرَةٌ ، وَأَصْبَحْتُ يَوْمًا ، وَالْجُنُونُ سَوَافِكُ

الفخر والحمامة

كان هذا الفن قد ضعف في صدر الدولة العباسية ، لضعف العصبية والنخوة ، وانصراف الشاعر الى القصص والمجون . فلما توالى الحروب والفتن ، هب الامراء

للدفاع عن ممالكهم ، فأنسوا في شعوبهم فتوراً واستكانة ، ونفوراً من الحوب
والنجدة ، فمضوا يلبثون فيهم روح الشجاعة والحمية ، وحشوا الشعراء على الفروسية
والاقدام . وكان ملوك العرب اشد عناية من غيرهم باستخدام الشعر الحماسي ، فسيف
الدولة حمل المتنبي الى حلب ، ودفعه الى الرواض فعملوه الفروسية والطراد . فكان
يصحبه في غزواته الى بلاد الروم ، ويصف معاركه ، ويبحث بشعره الحمية في صدور
الرجال . وقيل ان الخليفة الفاطمي او عز الى القصاصين بنشر سيرة عنترة لشقف
المصريين على الفضائل الجاهلية من فروسية وشجاعة ونجدة . ونظمت لهذه القصة
اشعار حماسية اضيفت الى عنترة واقرانه ، ورصع بها صدر كل معركة او مبارزة ،
فاستعاد هذا الفن سابق عزه ، وكان الفضل في احيائه لشعراء العرب الخالص كالمثني
وابي فراس والشريف الرضي وامثالهم . فجددوا به عهد الشعراء الفوسان ، وابدعوا في
وصف التحام الجيوش ، ووقع الاسنة والسيوف ، وشيخ و صافيههم ابو الطيب المتنبي .

الدهريات

وكان من تتابع الحروب والمحن ، واستفحال الفقر والعوز ، ان تفاقم تدمير الناس
على زمانهم ، فباتوا لا تحدث لهم حادثة الا اضافوها الى الدهر ، واحالوا عليه باللوم
والعتب كما هو شخص مسؤول عن اعماله . واعتادوا ذلك حتى غلب على كلامهم ،
وتلون به شعرهم ، فاصبح فناً ولكنه ممتزج بغيره . ثم انشأ الشعراء ينظمونه منفرداً
فعل ابن الرومي واضرابه ، وتم له الاستقلال في هذا العصر ، وسموه شكوى الدهر
او الدهريات .

الزهريات

وهي وصف الطبيعة وجمالها ، وهذا الفن قديم في الشعر العربي ، فلما كثر النظم
فيه افردوا له باباً قائماً بذاته دعوه الزهريات . وخصوه بنعت الرياض والبساتين ،
والاشجار والازهار والاطيار ، وغيوم الربيع ووسميه وما شاكل .

الاغروايات

هذا باب انفرد به النثر قبل الشعر، ثم لما كثرت النظمون، وتعاطى القريض الوزراء وكتاب الدواوين واهل الفقه والقضاء، اصبحوا يتراسلون بالشعر كما يتراسلون بالنثر فاستعملوه في التهنة والتعزية والشكر والعتاب والاستعطاف وغير ذلك مما يدور بين الاصحاب من مراسلات.

الهزليات

ويشمل هذا الباب الدعاب والعبث والتهكم، ويغلب عليه الهزل والمجون، وهو غير جديد في نوعه فقد ظهر منه شيء في ملاحيات بشار وحماد عجرد، ثم في مداعبات ابي نواس واصحابه المجان، ولكن لم يختص به شاعر يتخذة فناً، يميزه من غيره قبل ان ظهر في بغداد اشباه ابن سكرة وابن حجاج من شعراء هذا العصر؛ فانهم جعلوا منه غرضاً مقصوداً، وغاية يرمي اليها، فاصطبغ به شعرهم دون غيره من الفنون والاغراض. ودونك مثالا عليه هذه الابيات من مقصورة صريع الدلاء التي عارض بها مقصورة ابن دريد، واخرجها متهمكاً مخرج الحكم والامثال :

مَنْ لَمْ يُرِدْ أَنْ تَنْتَقِبْ نِعَالَهُ ، يَحْمِلُهَا فِي كَفِّهِ إِذَا مَشَى ،
وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصُونَ رِجْلَهُ ، فَلَيْسَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَحْفَا
مَنْ صَفَعَ النَّاسَ وَلَمْ يَدْعُهُمْ أَنْ يَضَعُوهُ فَعَلَيْهِمْ أَعْتَدَى
مَنْ طَبَخَ الدِّيكَ وَلَا يَذْبَحُهُ ، طَارَ مِنَ الْقَدْرِ إِلَى حَيْثُ يَشَا

وكان للاصطلاحات الفلسفية، والمزاعم الصوفية حظ من هذا الشعر، فان اصحابه اصطنعوها وسيلة للضحك والسخرية. فمن ذلك ان المتفلسفين كانوا يشبهون الانسان بعالم صغير، فيقول اخوان الصفاء في رسائلهم: «ان هذا الجسد لهذه النفس هو بمنزلة دار لساكنها. فرجلاه وقيام الجسد عليها كأساس الدار، ورأسه في اعلى بدنه كالغرفة في اعلى الدار.» الى ان يقولوا: «ورقبته وطولها كرواق الدار، وفتح حلقومه

وجريان الصوت فيه كدهليز الدار . « فانتحل ابن سكرة اراءهم في نزلة نزلت به فقال :

قُلْتُ لِلنَّزَلَةِ حُلِّي ، وَأَنْزِلِي غَيْرَ لَهَا قِي
وَأَتْرُكِي حَلْقِي بِحَقِّي ، فَهُوَ دِهْلِيزُ حَيَاتِي

على ان هذا الشعر يشوبه كثير من فحش القول وهجره مما يجعله غير صالح للحفظ والرواية .

سائر اغراض الشعر وفنونه

كان من جراء تنافس الدول في تقريب الشعراء ، واقبال العلماء والكتاب على نظم الشعر ، ان تضاعف عدد الشعراء والمتشاعرين ، فتكاثروا حتى امتلأت بهم الدواوين والمجالس ، وكثر القول حتى اكتظت به الصحائف والقماطر . قيل ان صاحب بن عباد بنى داراً فهنأها بها خمسون شاعراً ، وان صديقاً له مات حمارة ، فوثي الحمار باكثر من خمسين قصيدة .

وكان من انقياد الشعر الى غير اهله ان اختلفت فيه الوانه واغراضه وفنونه ، فحفل شعر الكتاب والوزراء بالتشاييه والاستعارات وانواع البديع ، لانهم تعودوا التمنيقي في ترسلهم ، فغلب عليهم في نظمهم ، واحتذى على مثالهم جماعة من الشعراء لمكانتهم في دولتهم ، فاصبح الشعر عندهم صنعة ووشياً .

وطغت الاصطلاحات العلمية والفلسفية على شعر اهل العلم والفلسفة ، وتردد فيه اسماء فلاسفة اليونان وعلمائهم . ويختص هذا الشعر بضعف العاطفة ، وقلة الماء ، وقوة التفكير ، ووفور المعاني على الالفاظ بحيث لا تسلم احياناً من الابهام . فمن ذلك قول البديع الاسطولاوي :

وَذِي هَيْئَةٍ يَزْهُو بِحَالٍ مُهَنْدَسٍ ، أَمُوتُ بِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَأُبْعَثُ
فَعَارِضُهُ خَطُّ أَسْتَوَاءٍ ، وَخَالُهُ بِهِ نُقْطَةٌ ، وَالْحَدُّ شَكْلٌ مُثَلَّثُ

وقول ابي الفتح البستي :

وَقَدْ يَلْبَسُ الْمَرْءُ خَزَّ الثِّيَابِ ، وَمِنْ دُونِهَا حَالَةٌ مُضْنِيَةٌ
كَمَنْ يَكْتَسِي خَدَّهُ حُمْرَةً ، وَعَلَّتُهُ وَرَمَ بِالرَّيَّةِ

وافوط الشعراء في ذكر الالفاظ القبيحة، ووصف معارض الفحش، فشأوا من تقدمهم، واربوا عليهم في الاقبال على الذات، والاستغراق في الشهوات. وقادهم ذلك الى الازراء بالدين، فحقت اسماء الانبياء وكتبهم على الستهم. وكان لانتشار الدعوات الباطنية، والطرق الصوفية، والاراء الفلسفية يد في دفع الشعراء الى الاجترار على الدين والانبياء المرسلين. وغلب الغلو المسترذل على مدائحهم لان تنافس الدول المستقلة جعل اعراءها يستعذبون كل اطراء كاذب، لكي يُمدح كل واحد منهم باحسن مما مدح به غيره. فاسرف الشعراء في اقوالهم، واغرقوا في طلب المحال، فوضعوا ممدوحهم في مقام الرسل حيناً، وفي مقام الاله آخر، واضافوا اليهم شتي المعجزات، واسطع الايات، فجاء شعرهم من هذا القبيل كثير الغثاء بغيضاً ممقوتاً.

لغة الشعر

كان من تعدد حواضر الشعر ان ظهر شعراء في الامصار العجمية حيث الرطانة غالبية، والبلاغة مهزومة، فجاء شعرهم ضعيف البيان منحدرأ الى الركاقة. وسرى هذا الداء الى العراق لغلبة العناصر الفارسية والتركية على اهله الا بغداد قرارة العلم، وكعبة رجاله، ومحط رحال الاعراب، فان شعراءها احتفظوا ببلاغتهم، وحسن بيانهم، فنبت فيهم امثال الشريف الرضي، ومهيار الديلمي، وابن نباتة السعدي، والسلامي وغيرهم.

واما الشام فان شعراءها بقيت لهم ملكة البلاغة، فضربوا بسهم وافر منها. ويرجع ذلك الى اعراقهم في العروبة، وقربهم من البادية، وقلة اختلاطهم بالاعجام فامتاز شعرهم في الجزالة، والرصانة ولم يخلص من الغريب، كما في شعر المتنبي والنامي واي فواس، واي العلاء.

١ خز الثياب : اي الثياب الحريرية . حالة مضنية : اي حالة فقر تضني الجسم .

واما مصر فلم تكن قدماً موطناً للشعر، ولا مزاراً لاهل البادية ، فما نبغ فيها شاعر يذكر^١ ولا رنت في ارجائها قافية شرود الا لشاعر غريب يقصدها كما قصد اليها ابو نواس والمتنبي . فلما قامت الدولة الفاطمية ، وتعهدت الشعر برعايتها اقبل الشعراء على مصر ، وتكاثر عددهم ، فنمت بدور الادب في الكنانة ، وتعاطى الشعر جماعة من اهلها ، الا انهم لم ينبغوا فيه نبوغ اهل الشام والعراق لقلة بضاعتهم في هذه الصناعة وقرب عهدهم بها ، ثم لضعف ثقافتهم الادبية والعلمية فان العلوم والاداب انتشرت في العراق والشام قبل ان تدخل مصر وقد فيها عروقتها . هذا والشعر المصري عيّل الى الصنعة اللفظية ، لآن التركيب لم يدعم بلغة متينة خالصة العروبة ك لغة اهل الشام ، فانحدر احياناً باصحابه الى الضعف . واذا تمادى اللين لا يسلم من الاسفاف . ونحن نقتصر هنا على درس اثنين من شعراء الشام ، وهما المتنبي وابو فراس .

المتنبي

٩١٥ — ٩٦٥ م و ٣٠٣ — ٣٥٤ هـ

حياته	:	دعوته . تنقله . وفادته على الامراء . اتصاله بسيف الدولة . اتصاله بكافور . في العراق وفارس . مقتله . اخلاقه وصفاته . استاذوه وعلومه . آثاره .
ميزته	:	مدحه : غلوه . مدحه لسيف الدولة . مدحه لكافور . رثاؤه : دموماته الثلاث . هجاؤه . تصويره . سخره . هجاء كافور . غزله . فخره . وصف القوة . الاسد . المعارك . فلسفته وارائه في الحياة . تعظيم القوة . تحقير الضعف . ذم الزمان واهيله . كره النسل . مصاحبة الناس . سخطه على الملوك . اعتقاده بالخط . الحياة والموت . طلبه المجد . الشجاعة والعقل . المال . فلسفته الالهية . النفس . المحسوسات . الكواكب . ما ادرك عليه . منزلته .

١ لا نعد اباً تمام شاعراً مصرياً لانه شامي الاصل ، ولان ثقافته الشعرية قامت بين العراق والشام .

هو احمد بن الحسين الجعفي ، عربي صليبة . وبنو جعفي بطن من سعد العشيرة ابن مذحج ، وهي قبيلة يمانية فيها فصاحة ولسن ، ينتهي نسبها الى بني كهلان ، وكنيته ابو الطيب ، ولقبه المتنبي . قيل لُقِبَ به لادعائه النبوة . وكان ابو الحسين بن لنكك يحسد ابا الطيب ، ويطعن عليه ، ويزعم ان اياه كان سقاء بالكوفة . ورواية رجل مثله لا يصح التعويل عليها .

وكان بالكوفة محلات نزلتها افناء اليمن ، واطلقت عليها اسماء قبائلها المشهورة منها محلة كندة ، وفيها ولد المتنبي ، واليه انتسب . وظهرت عليه النجابة وهو صغير ، فحمله والده في نعومة اظفاره الى الشام فنشأ فيها ، وبها تخرج ، ونظم الشعر وهو في المكتب ، وما ان ترعزع حتى مات ابوه وتركه يتيماً .

دعوته

لبث المتنبي بعد موت ابيه يطوف بين الشام والعراق ، ويتنقل في البادية مصاحباً الاعراب . وكانت الديار الاسلامية يومئذ دريئة للفتن والدعوات ، فالفرق الباطنية من قرامطة واهماعيلية وسواهم ، يدعون للرضا من ابناء علي ، او يبشرون الناس بظهور المهدي ليظهر الارض من الجور والفساد . والخواارج على السلطان يؤرثون نار الفتن في الامصار ويستولون عليها عنوة حتى باتت الخواطر على تنظر دائم لرسول تبعثه السماء ، ولخارجي مغامر يملك الارض ويحتل مكان مالك آخر .

وكان ابو الطيب ينظر الى هذه الاحوال القلقة ، ويقلبها على وجوها ، ويستكشف الافكار المضطربة ، ويروز حصياتها ، فحدثته نفسه الطموح بان يلقى دله في الدلاء ، ولم لا يفعل وفي قلبه جراءة واعتماد ، وفي لسانه فصاحة وبيان . وكان له في الاعراب اصحاب وخلان لكثرة اختلاطه بهم ، ومرافقته لهم في حل وترحال ، فاعتمد عليهم في بث دعوته ، فاجتمع اليه بعض القبائل الضاربة في بادية السماوة بجبال الكوفة وما

يليهام من مشارف الشام كبني كلب و كلاب وغيرهم . واهل البادية ، لجهالتهم وفقرهم ، اسرع الناس لتصديق الدعوات و إثارة الفتن و الخروج على السلطان . ويدلنا شعرا المتنبى على ان هذه القبائل كانت قوية الشوكة ، كثيرة العصيان ، مرة تشق عصا الطاعة على سيف الدولة فيوقع بها ويسبي نساءها ، فيستعطفه المتنبى عليها . ومرة تخرج بالكوفة وتعيث فساداً فيأتي دليز بن لشكروز لقتالها فتنصرف الى باديتها ، قبل وصوله . فابو الطيب في اعتاده عليها قد استنصر اقواماً لا يأتلون في مواجهة الكروب ومقارعة الخطوب . فلما كبر امره ، تأدى خبره الى لؤلؤ امير حمص من قبل الدولة الاخشيديية ، فخرج اليه وأسرهم ، وشرّد اصحابه ، وحبسهم طويلاً حتى كاد يتلف . ثم رقله فاستتابه وختل سبيله .

اما دعوته التي دعا اليها ففيها خلاف ، فمنهم من يزعم انه ادعى النبوة . ومنهم من يقول انه تنحل العلوية ودعا الناس الى بيعته . ومنهم من يضيف اليه الدعوتين كليهما فيزعم انه حبس في الكوفة لادعائه العلوية ، ثم حبس في حمص لادعائه النبوة . غير ان ابا العلاء المعري يشك في خبر حبسه بالكوفة اذ يقول في رسالة الغفران : « وما وضع ان ذلك الرجل حبس بالعراق ، فاما بالشام فحبسه مشهور . » ولكنه لا يشك في خبر ادعائه النبوة فيقول : « وحدثت انه كان اذا سئل عن حقيقة هذا اللقب (اي المتنبى) قال : « هو من النبوة » اي المرتفع من الارض . وكان قد طمع في شيء . قد طمع فيه من هو دونه . وانما هي مقادير يظفر بها من وفق ، ولا يُراع المجتهد ان يُحقق . وقد دلت اشياء في ديوانه انه كان متألهاً ، فمن ذلك قوله : « ولا قابلاً الا خالقه حكماً » اه . على ان تأله في شعره لا يعطينا دليلاً قاطعاً على تنبؤه وان يكن شبه نفسه مرة بالمسيح واخرى بصالح في قوله :

مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَحْلَةٍ إِلَّا كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ^١
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارِكُهَا اللَّهُ ! - غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ^٢

١ النبوة والنبي ما ارتفع من الارض .

٢ نخل : قرية لبني كلب عند بعلبك .

٣ صالح : نبي ذكره القرآن . ثمود : قبيلة بائدة جاء في القرآن ان الله ابادها بعد ان فسقت وكذبت بصالح ، وعقر رجل منها نافته .

حتى ان قصيدته التي استعطف بها الوالي وهو معتقل عنده ليس فيها ذكر انبوتته
وانا يشير الى امر كان يفكر به ولم يفعله :

وَكُنْ فَارِقًا بَيْنَ دَعْوَى أَرَدْتُ ، وَدَعْوَى فَعَلْتُ ، بِشَأْوٍ بَعِيدٍ^١

ومن تتبع ديوانه منذ حادثته الى اكتهاله، يرى حب الولاية والرئاسة يدور في
رأسه، ويدفعه الى اظهار ما في ضميره من الرغبة في الخروج على السلطان، والاستظهار
بالشجعان، والاستيلاء على بعض الاطراف . وغير مستبعد ان يلتبس الملك بشتى
الوسائل، فيدعي العلوية او يدعي النبوة أسوة بغيره من الادعاء .

ويستدل من قصيدته التي بعث بها الى الوالي وهو مسجون، انه اظهر دعوته قبل
ان يتم الخامسة عشرة وهذا من غرائب النبوغ المبكر ان صح الخبر، وفي ذلك يقول :
تُعَجِّلُ فِيَّ وَجُوبَ الْخُدُودِ - وَحَدِّي قُبَيْلَ وَجُوبِ السُّجُودِ^٢

اما الثعالبي فلم يطمئن الى هذا البيت بل ارتاب في صدق صاحبه وقال : « ويجوز
ان يكون قد صغر سنه وأمر نفسه عند الوالي لأن من كان صبيًا لم يظن به اجتماع
الناس اليه للشقاق والخلاف . » واذا تقصينا اخبار دعوته تبين لنا من حديث لابي
عبدالله معاذ بن اسماعيل اللاذقي ان المتنبى قدم اللاذقية في سنة عشرين ونيّف وثلاثمائة هـ
وزعم انه نبي مرسل، فيكون يومئذ في حدود العشرين . وينبغي ان يكون قد
شارف الرابعة والعشرين او جاوزها يوم اعتقاله لؤلؤ امير حمص . لان حمص كانت في
حكم الإخشيد ايام محمد بن طنج، وهذا استقل في ولايته على سوريا ومصر سنة
٣٢٣ هـ (٩٣٤ م) ولم تعرف دولته بالاخشيدية الا سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م) حين انعم
عليه الخليفة العباسي بلقب الاخشيد^٣

١ دعوى اردت : اي من يقول أردت . الشأو : المسافة .

٢ الحدود : جمع حد وهو العقوبة الشرعية . يقول : تلزمني حدود الله وتعاقبني واناصبي
دون البلوغ لا تجب عليه الصلاة فكيف تجب عليه العقوبة ؟

٣ الإخشيد : لفظة فارسية معناها اللامع وكان ملوك فرغانة في تركستان يلقبون بهذا
اللقب فانعم به الخليفة الراضي بالله على محمد بن طنج فتلقب به .

لم يرث المتني من ابيه مالا يسد به خلته، ويغنيه عن التكسب بشعره . وكثيراً ما كان يشكو الفقر وشظف العيش ، وقلة الاعوان . وابتدأ يدح الناس وهو في الكتاب ، وكان من جوائزه في صباه هدية فيها سمك من سكر ولوز في بركة من العسل . وعصت به الحاجة بعد موت ابيه فراح يتردد في حواضر الشام ، يدح الامراء والسادات ، فعرفته دمشق ، وبعليك ، وحمص ، وطرابلس ، ومنبج وانطاكية ، واللاذقية ، وطرسوس ، وصور ، وطبرية ، والرملة . وله مدائح قالها في اثناء دعوته يوم كان يتوغل في البادية ، ويستنصر الاعراب ، كمدحته في الحسين بن اسحق التنوخي ، انشده اياها في اللاذقية وهو ابن عشرين لقوله فيها :

وَمَا أُرَبْتُ عَلَى الْعَشْرِينَ سِتِّي ، فَكَيْفَ مَلَيْتُ مِنْ طُولِ الْبَقَاءِ !

وموت به اوقات اول امره ، كان يجاز فيها بدينار واحد ، ويلبس خشن القطن ولا يملك ناقه يستعين بها على اسفاره ، فيركب نعليه ويضرب بهما في الحواضر والبوادي ، فاشتهر مجلده على المشي المتواصل وفي ذلك يقول :

لَا نَاقَتِي تَقْبَلُ الرَّدِيفَ ، وَلَا بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرِّهَانِ أَجْهَدُهَا
شِرَاكُهَا كَوْرُهَا ، وَمَشْفَرُهَا زِمَامُهَا ، وَالشُّسُوعُ مَقُودُهَا ١

ويقول في كلمة اخرى :

أَبْدَأُ أَقْطَعُ الْبِلَادَ وَنَجْمِي فِي نُحُوسٍ ، وَهَمَّتِي فِي سُعُودِ

١ الرديف : الراكب خلف الراكب . الرهان : السباق .

٢ الشراك : سير النعل . الكُور : رحل الناقة . المَشْفَر : من الناقة بمنزلة الشفة من الانسان . زمام النعل : ما تُشد اليه السيور التي تكون بين الاصابع . الشسوع : السيور . مقودها : شسع . مقودها : حبالها الذي تقاد به . جعل نعله ناقته بجامع ركوبه اياها . وجعل سيرها الذي تُشد به بمنزلة الرحل . وجعل زمامها بمنزلة مشفر الناقة . وجعل سيورها بمنزلة المقود . وكان حقه ان يقول : وزمامها مشفرها لمناسبة ما قبله وما بعد الا انه خالفها لضرورة الوزن .

ويقول ايضاً :

لَسْرِي لِبَاسُهُ حَشْنُ الْفُطْنِ - وَمَرْوِيٌّ مَرَوْ لِبَسُ الْقُرُودِ

ثم حظي عند بعض الامراء امثال آل تنوخ في اللاذقية ، وبدر بن عمار في طهية .
والحسن بن طنج بالرملة . واتيح له شيء من الشهرة حتى اصبح ذور الوجهة يتعرضون
له ليمدحهم ففعل بن كيغلق وكان محافظاً على طريق طرابلس فمر به ابو الطيب
ووجهته انطاكية ، فسأله ان يمدحه ، فترفع ولم يفعل ، فاعتاقه عن سفره ثلاثة ايام ،
فجهاه بقصيدته الشهيرة التي اولها : « لهوى النفوس سريرة لا تعلم » . ومثله طاهر
ابن الحسين العلوي في الرملة ، فانه كان يشتهي ان يمدح بشعر ابي الطيب ، وشاعرنا
يأبى ان يمدحه حتى الح عليه الامير ابو محمد الحسن بن طنج ، وضمن له عند العلوي
مئات من الدنانير ، ففعل ابو الطيب ، ولما دخل على طاهر لينشده شعره فيه نزل طاهر
عن سريره ، والتقاء مسلماً عليه ، ثم اخذه بيده ، فاجلسه في المرتبة التي كان فيها ،
وجلس هو بين يديه .

على ان حظوته عند هؤلاء الامراء لم تغنه من فقر ، ولم تحل دون تدمره على
الدهر ، وشكواه كساد الشعر . وقد اورثته مع ضالتها اعداء وحساداً ، فكانوا
يكيدون له شأن ابن كرويس الاعور نديم بدر بن عمار ، وكان هو يهجوهم ويذود
عن نفسه . وما زال كذلك دأبه بين خمول وشهرة ، وهبوط وارتفاع ، وفقر وغنى حتى
ورد انطاكية وعليها ابو العشائر الحمداني من قبل نسيبه سيف الدولة ، فاتصل به
ومدحه بعدة قصائد ، فاكرمه ابو العشائر ، واحسن مثواه .

اتصاله بسيف الدولة

وكان سبب اتصاله بسيف الدولة ان ملك حلب قدم انطاكية سنة ٣٣٧ هـ
(٩٤٨ م) فاستقبله ابو العشائر ، وقدم اليه المتنبي وعرفه منزله في الشعر والادب

السري : الشريف . يعني به نفسه . مروي : ثياب رفاق تنسج بمرور وهي بلاد
بخراسان . تقول في النسبة إليها ثوب مروي ، ورجل مروي على غير قياس .

وأتى عليه . فحمله معه الى حلب ، واشترط عليه ابو الطيب الا ينشده واقفاً والا يكلف تقبيل الارض بين يديه ، فدخل سيف الدولة تحت شرطه ، ومالت نفسه اليه واحبه ، فسلمه الى الرواض ، فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة ، فكان يصحبه في غزواته ، ويشهد معه المعارك ، ويصفها بشعره .

وافاض عليه سيف الدولة وافر النعم ، فكان يعطيه كل سنة ثلاثة الاف دينار على ثلاث قصائد ماعدا غيرها من نوافل الأعطيات والحيل والجواري والضيع ، حتى بلغ ما ناله في مدة اربع سنوات خمسة وثلاثين الف دينار . وهي ثروة لا تقل عما كان يربحه فحول الشعراء في العصر المتقدم ، لان الذهب في عصر المتنبى كان غالباً لتوزعه في الممالك المستقلة بعد ان كان محصوراً في مملكة واحدة ، ثم لتتابع الحروب والثورات والفتن ، فلا غرو ان يشعر ابو الطيب بلذة الغنى ، ويتزع عن شكوى الفقر ، والتطواف للتكسب ، ويخاطب سيف الدولة بقوله :

تَرَكْتُ السَّرَى خَلْفِي لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ، وَأَنْعَلْتُ أَفْرَاسِي بِنِعْمَاكَ عَسَجْدًا ١
ولكن نفسه الجبارة ظلت تطمع في شي . اعظم ، فكان يشير اليه ولا يصرح به :

أَهْمُ بِشَيْءٍ وَاللَّيَالِي كَأَنَّهَا تُطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ ، وَأُطَارِدُ ٢
وكان به غلظة واستكبار ، فرفع رأسه تغطرساً ، وصغر خده للناس ، فمقتته الشعراء والادباء لكبريائه ، وحسدوه على نعمته ورقة حواشيه . فراحوا يكيدون له ويرمون به بكل نقيصة ، ويعيروونه اصله ، ويعيرون شعره ، ويغلظون قلب الامير عليه . ولم تحف على المتنبى قوة خصومه ، فلم يخيم عنهم بل قاومهم بعنف واحتقار . واذا رأى من سيف الدولة ميلاً اليهم عاتبه واستنجد به عليهم :

أَزَلَّ حَسَدَ أَحْسَادِ عَنِّي بِكِبَتِهِمْ ، فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَدًا ٣
وكان اشد خصومه لدداً ابو فراس الحمداني ، وابن خالويه مؤدب سيف الدولة

١ عسجداً : ذهباً .

٢ وطارد : اي وطارد الليالي عن الحؤول بيني وبين هذا الشيء .

٣ بكبتهم : باذلالهم .

فان أبا فراس وهو شاعر وامير ، كان يتصور من شهرة ابي الطيب المتنبي ، وتقديم سيف الدولة له ، ويغنيظه ان يعرض ابو الطيب عنه فما يخصه بمديح . ولا يُعتقد بقول الثعالبي انه لم يمدحه تهيئاً له واجلالاً ، لا إغفالاً وإخلالاً ؛ فان شاعر سيف الدولة لو شاء لاستطاع ان يمدح ابا فراس وهو دون الملك مقاماً ، وهيبة وجلالاً ، لكنه ترفع عنه كما ترفع عن غيره ، واكتفى بسيف الدولة لا يمدح سواه . فكرهه ابو فراس ، وتغنى اسقاطه ، وخضد كبريائه ، فطفق يضافر الشعراء على ثلبه ، ويلوم ابن عمه على تقديره فيقول : « ان هذا المتمدن كثير الادلال عليك ، وانت تعطيه كل سنة ثلاثة الاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن ان تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره . » وما زال به يعضده سائر خصوم المتنبي من شعراء وعلماء حتى تغير قلب الامير عليه ، فجعل يحفوه مرة ، ويرضى عنه اخرى ، وربما دخل عليه فتنكر له ، ورد السلام مختصراً . وجفاه مرة ، فعاتبه الشاعر ، فلم ينظر اليه سيف الدولة كعادته ، فخرج متغيراً وانقطع عن نظم الشعر . وكان سيف الدولة اذا تأخر عنه مدحه شق عليه واكثر اذاه ، واحضر من لا خير فيه ، وتقدم اليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب ، فلا يجيب ابو الطيب . فيزيد ذلك في غيظ سيف الدولة . » ويتأدى ابو الطيب في ترك قول الشعر ، ويلج سيف الدولة فيما كان يفعله الى ان كبر الامر على الشاعر فنظم ميميته الخالدة التي اولها :

وَأَحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَيْمٌ ، وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ !

وكان ابو فراس حاضراً ساعة انشادها ، فانبرى ينتقدها ، ويبين سرقات ابي الطيب فيها ، وابو الطيب يتابع القول ولا يرد عليه ، ويبالغ في الكبر والصلف حتى انه لم يبال ان يتناوله بشعره ، ويعرض به ، وان يفتخر على جميع من حضر مجلس الامير . فضجر سيف الدولة منه ، واستاء من دعاويه وعجرفته ، فضربه بدواة بين يديه ، فلم يهلع الشاعر بل ظل رابط الجأش ، حاضر الذهن ، فأرتجل هذا البيت الشرود :

١ قوله : قلباه الحق هاء السكت في الوصل ضرورة ، والمختار حذفها . وحذف الياء من قلبي على لغة من يسكنها دفماً لالتقاء الساكنين . شيم : بارد .

إِنْ كَانَ سِرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا، فَمَا لِيُجْرَحَ، إِذَا أَرْضَاكُمْ، أَلَمْ

وتابع ابو فراس نقده، فلم يلتفت سيف الدولة الى قوله، واعجبه بيت المتنبي، ورضي عنه، وادناه اليه، وقبله، واجازه بالف دينار، ثم اردفها بالف اخرى .

على ان هذه القصيدة وان تكن ارضت سيف الدولة مع ما فيها من غطوسة وغلظة في العتاب، لقد احنقت انسابه وحاشيته ورجال مجلسه . وكان ابو العشائر حاضراً فساء ان يعرض الشاعر ببعض بني عمه، فلما خرج المتنبي الحق به بعض غلمانه

ليوقعوا به، فوقفوا له في الطريق، فرماه احد هم بسهم وقال : « خذه، وانا غلام ابي العشائر ! » فوقع السهم في نحو فرسه، فانزعه ورمى به، ثم كر عليهم بالسيف فجرح اُحدهم، فتركوه واشتغلوا بالمضروب . واستخفى ابو الطيب عند صديق له، وسيف الدولة يسأل عنه، وينكر ان يكون قد امر بقتله، او علم بما دبر لاغتياله . ثم عاد اليه الشاعر يدحه، ولكن اجتماع الحساد عليه كان ينغص عيشه، فسئم الإقامة بينهم وآلمه ان يعيرهم الامير معهم، فازمع الرحيل، وحذر سيف الدولة بقوله :

أَذَا الْجُودِ أَعْطَى النَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكٌ، وَلَا تُعْطِينَ النَّاسَ مَا أَنَا قَائِلٌ

فلم يحفل سيف الدولة بتحذيره، ولا منع الخصوم عن الواقعة به حتى كانت حادثة ابن خالويه، فجاءت ثالثة الاثافي .

وابن خالويه له دالة على الامير لانه مؤدبه، وهو يكره المتنبي لشاعريته وحظوته، ويكرهه لان ابا الطيب كان يحقره ويزدري اراءه في النحو . ولطالما حاول النحوي مناظرته، فخذله الشاعر، وجهَّله وسفَّه اراءه . فاتفق ان اجتماعاً مرة في مجلس سيف الدولة بعد ان عاثت مكاييد الحساد في صدر الامير فافسدت في ما بينه وبين شاعره من مودة . وكان ابو الطيب اللغوي حاضراً، فجرت بينه وبين ابن خالويه مناظرة في اللغة، والمتنبي ساكت . فقال له سيف الدولة : « الا تتكلم يا ابا الطيب ؟ » فتكلم بما قوى حجة ابي الطيب اللغوي وضعف قول ابن خالويه . فأخرج هذا من كفه مفتاحاً ليلكم به المتنبي، فقال له المتنبي : « اسكت ويحك ! فانك اعجمي، واصلك خوزي فمالك والعربية ! » فضرب وجهه بذلك المفتاح، فاسال دمه، فغضب

المتنبى من ذلك، وزاده غيظاً ان سيف الدولة لم ينتصر له لا قولاً ولا فعلاً. ولكنه اعتصم بالصمت عالماً ان التعرض لابن خالويه وخيم المغيبة ادا م الامير راضياً عن عمله، وخرج من الحضرة، وقد عول على الرحيل. ﴿

اتصاله بكافور

ترك المتنبى حلب سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) وأمّ دمشق وهي يومئذ من اعمال الإخشيد وعليها وال يهودي من قبل كافور يعرف بابن مالك، فالتمس من المتنبى ان يمدحه، فتأبى، فغضب ابن مالك وحمل كافوراً على ان يطلب ابا الطيب الى مصر. ثم كتب اليه ان الشاعر قال: «لا اقصد العبد، وان دخلت مصر فما قصدي الا ابن سيده». ونبت دمشق بالمتنبى فصار الى الرملة بفلسطين، وافداً على اميرها الحسن ابن طنج، وكان ابو الطيب يمدحه قبل اتصاله بسيف الدولة، فحمل اليه الحسن هدايا نفيسة، وخلع عليه، وحمله على فرس، وقلّده سيفاً محلياً. وعرف كافور بمقدمه فكان يقول: «اُتراه يبلغ الرملة ولا يأتينا». وكانت الرملة من اعمال الإخشيد فكتب الى اميرها يطلبه، فسار اليه ابو الطيب، فأمر له بمنزل، ووكل به جماعة من العلمان يخدمونه، وخلع عليه.

كان كافور مولى لمحمد بن طنج اشتراه بثمانية عشر ديناراً، وكان عبداً اسود، خصباً مثقوب الشفة السفلى، عظيم البطن، مشقق القدمين، ثقيل البدن لافرق بينه وبين الامة. وكان الى ذلك ذكياً فطناً، حسن السياسة. فرقاه سيده، وجعله في خدمة ولديه. ثم قاد له الجيوش في حربه مع سيف الدولة. ولما مات محمد سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) انتقل الملك الى ولده أنوجور، وكان صغيراً، فزأب عنه كافور وقام بتدبير دولته احسن قيام. وتوفي أنوجور سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) قيل ان كافورا سقاه سما ليتخلص منه. فتمولى بعده اخوه علي، واستمر كافور على نيابته مستبداً بالسلطة حتى مات علي سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) فاستولى كافور بعده على الملك واتخذ لقب الإخشيد كساداته ابناء طنج. واتسعت مملكته فكان يدعى له على المنابر بمكة والحجاز جميعه، والديار المصرية، وبلاد الشام من دمشق وحلب وانطاكية وطرسوس والمصيصة وغير ذلك، حتى توفي سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٧ م) وعاد الملك بعده الى آل طنج. فملك ابو الفوارس احمد بن علي الى سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) حيث تم للفاطمين الاستيلاء على مصر فانقرضت بهم دولة الإخشيد.

وكان المتنبي لا ينفك يحلم بالملك منذ حادثته ، فلما صار الى كافور بعد خيئته عند سيف الدولة ، ولقي من الاسود حفاوة واکراماً ، طمع فيه ، وشاقه ان يُقطع ولاية في مملكته يدبر امورها ، ويعتاض بها من خيئته ، ويكبت بها حساده ، فوعده كافور . فشرع المتنبي يدحه في كل ساحة ، ويعرض لذكر الولاية ، وكافور يماطله .

ولم يسلم في مصر من اعداء يكيدون له ، فان ابن حنابلة وزير كافور كان يبغضه لانه أبى ان يدحه ، فاخذ يشع عليه ، ويشير على كافور بان لا يجيب طلبه ، واذا سمع مدحه في سيده قال : « هذا هزة بكافور . »

فلما طال الامر بابي الطيب ، وبان له ان وعود كافور عرقوبية ، تولاه اليأس ، ومل الإقامة في مصر . ثم اصابته الحمى ، فسأت صحته ، فعزم على الرحيل .

وكان كافور يعلم ان ابا الطيب واحد عليه لتخلييه رجاءه ، فخشي ان يهجوّه اذا خرج عن مصر وابتعد عن حكمه ، فمنعه من الرحيل ، وألزمه ان يبقى في بطانته . فعلم ابو الطيب انه سجين لا يستطيع الهراخ الا خفية ، فأعد كل ما يحتاج اليه ، واءانه بعض اصحابه ، فدفن الرماح في الرمال ، وحمل الماء على الابل لعشر ليالٍ ، وتزوّد لعشرين . وكان يفعل ذلك سرّاً وهو يظهر الرغبة في المقام ، ويركب في خدمة العبد خوفاً منه . فلما كانت ليلة الاضحى في اواخر سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) خرج من مصر مستخفياً ، ونظم في هجو كافور دالته الشهيرة : « عيد يا أية حال عدت يا عيد ! » فارسل كافور بعض رجاله بطلبه فلم يدر كوه .

في العراق وفارس

برح المتنبي مصر سائطاً على كافور يهجوّه ويوجع عرضه ، فقدم الكوفة سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) واقام بها . وبلغ سيف الدولة قدومه ، فانفذ اليه ابنه من حلب سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) ومعه هدية سنية ، فمدحه ابو الطيب بقصيدة ، وارسلها اليه . ثم ماتت اخت سيف الدولة ، فعمل المتنبي قصيدة يعزیه فيها ، وبعث بها الى حلب .

ثم انفذ اليه سيف الدولة كتاباً بخط يده يسأله المسير اليه، فاجابه ابو الطيب بقصيدة اولها :

فَهَيْتُ الْكِتَابَ أَبَرَ الْكُتُبِ ، فَسَمِعَا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبِ
ولكنه لم يصر اليه ، ولعله كان يرجو تعويضاً اعظم من الهدية والكتاب ، او لعله أنف ان يعود الى بلد حافل باعدائه وحساده ، مخافة ان يشمتوا به لرجوعه الى حلب بعد اخفاقه بها ، وخيبتته عند كافور .

ولبت المتنبى بالكوفة نحو ثلاث سنوات ، قصد في خلالها الى بغداد والخليفة فيها المطيع لله ، والسلطان بيد معز الدولة بن بويه ، ووزيره المهلبى . فرغب المهلبى الى ابي الطيب في ان يمدحه ، فالتحف برداء الكبر ، على لغة الحاتمى ، وأعرض عن مدحه . فحنق الوزير واغرى به الشعراء فانزحوا يشتمونه ويتنقصون قدره . وكان اشدهم تطاولاً عليه ابن سَكْرَةَ وابن حَجَّاج . وكان المعز قد ساءه ان يصدر شاعر عن حضرة عدوه سيف الدولة ، ويرد حضرته في دار الخلافة ، فلا يلقي احداً يساويه في صناعته . فما كان من الحاتمى الا ان تعرض لمناظرة ابي الطيب فجاءه في داره ، فازدراه المتنبى ولم يوقره ، فحنق واندفع ينتقده ويظهر عيوبه . ويحدثنا الحاتمى في رسالته الموضحة ان ابا الطيب اعتذر له مستخدماً ، وعجز عن مناظرته . ولكن لا نستطيع ان نشئت حقيقة هذه المناظرة لان القصة يرويها احد الخصمين . ومن الصعب ان يقنعنا الحاتمى بان المتنبى لانت قناته في مناظرته له ، وقد عرف ابو الطيب باستبحاره في اللغة ، واعتداده بنفسه ، وصلابته في الدفاع عن شعره .

ولم تطب الاقامة للمتنبى في دار السلام ، فلم يُطل بها مكوثه بل رجع الى الكوفة واقام بها زمناً ثم رحل الى أَرْجَان وفيها ابن العميد وزير ركن الدولة بن بويه صاحب اصفهان . وكان قد راسل المتنبى الى العراق فصار اليه في شهر صفر سنة ٣٥٤ هـ (شباط ٩٦٥ م) ومدحه واقام عنده برهة . ثم جاءه كتاب من عضد الدولة ابن بويه صاحب فارس يستزيه ، فودع ابن العميد ، وشخص الى شيراز ، فاحتفى به عضد الدولة ، واحسن وفادته ، واجزل له العطاء حتى بلغ ما وصل اليه منه اكثر من مائتي الف درهم ما عدا الخلع والهدايا والتحف .

وعرضت لابي الطيب حاجة في الكوفة، فاستأذن عضد الدولة بالسفر على ان يعود اليه، فاذن له وخلع عليه الخلع الخاصة، ووصله بالمال الكثير، فودعه بقصيدة كافية انشده اياها في اول شعبان سنة ٣٥٤ هـ (٢ آب ٩٦٥ م) وكانت آخر شعر قاله، وقد اودعها من التشاؤم على نفسه، بما لم يقع له في غيرها مع كثرة اسفاره .
وكثيراً ما تنتاب الهواجس قلب المرء، قبل زكبة مقدورة له، ولا يعلم لها سبباً :
وَأَتَى سِتَّتِ يَأْطُرُنِي فَكُونِي أَذَاةً ، أَوْ نَجَاةً ، أَوْ هَلَاكَا !

مقتله

اختلف الرواة في مقتل المتنبي فمن قائل ان قاتله فاتك بن جهل الاسدي، ومن زاعم ان عضد الدولة لما وفد عليه ابو الطيب، وصله بثلاثة الاف دينار، وثلاثة افراس مُسرَّجة محلَّاة، وثياب مقتخرة، ثم دس عليه من سألته : « اين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ » فقال : « هذا اجزل الا ان عطائه متكلف، وسيف الدولة كان يعطي طبعاً . » فغضب عضد الدولة، فلما انصرف ابو الطيب من شيراز، جهز عليه قوماً من بني ضبة فقتلوه . وقيل ان الخفراء جاؤوه، وطلبوا منه خمسين درهماً ليسيروا معه، فمنعه الشح والكبر، فوقع له في الطريق ما وقع . على ان الرواية الاولى اشهر وتحرير الخبر ان رجلاً يقال له ضبة بن يزيد العيني كان قد خرج في الكوفة مع خوارج الاعراب من كلاب، فقتل والده، في تلك الفتنة، قتله قوم من الكوفة، وسببت امه .

وكان ضبة غداراً بكل من نزل به، فاجتاز به ابو الطيب في جماعة من اشرف الكوفة، فامتنع منهم، واقبل يجاهر بشتيمهم . فارادوا ان يحيبوه بمثل الفاظه القبيحة، وسألوا ذلك ابا الطيب، فتكلفه لهم على كراهة، وقال يهجو ضبة وهو على ظهر جواده : « ما أنصف القومُ ضبَّة . » وهي قصيدة فاحشة الالفاظ، كثيرة العناء . حتى ان ابا الطيب كان يكره سماعها اذا رويت له . وقد سببت قتله مع ما فيها من سخف وسفسفة، ذلك انه كان لضبة خال يقال له فاتك بن جهل الاسدي، فدخلته

الحمية لما سمع ذكر اخته بالقبح ، فاضمر الشر لابي الطيب ، ولبت يتربص به في جماعة من قومه ، قيل انهم عشرون ، وجعلهم عبدالله الكاتب النصيبي في قصيدة رثى بها المتنبى سبعين رجلاً ، وجعل رفاق ابي الطيب ستة .

77 وعاد المتنبى من شيراز ومعه بغال موقرة بالذهب والطيب ، والكتب الثمينة ، والخلع النفيسة . فلما بلغ النعمانية في جبال الصافية ، من الجانب الغربي من سواد بغداد ، على مقربة من دير العاقول ، خرج عليه فاتك في اصحابه ، فقاتل المتنبى حتى قتل هو وابنه محمّد ، وغلّامه مفلح . وروى صاحب العمدة ان ابا الطيب فرّ لما رأى الغلبة ، فقال له غلامه : « لا يتحدث عنك الناس بالفراور ابداً ، وانت القاتل : »

أَحْيَلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي ، وَالسِّيفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرَاطُ ، وَالْقَلَمُ
فكر راجعاً فقتل ، وكان ذلك في ٢٨ رمضان سنة ٣٥٤ هـ (٢٧ ايلول ٩٦٥ م) .
ورثى ابا الطيب عدة شعراء منهم صديقه ابو الفتح عثمان بن جني النحوي ومظفر بن علي الطبرسي ، وعبدالله الكاتب النصيبي ، وثابت بن هارون الرقي النصراني .
وهذان استجاشا عضد الدولة على بني اسد لانهم قتلوا ضيفه ، وحووا عطاءه ، ولكن عضد الدولة لم يصنع شيئاً ، وذهب دم الشاعر واصحابه هدرًا .

أخلاقه وصفاته

يصور لنا شعر المتنبى اخص ما يمتاز به صاحبه من الصفات ، ففيه الكبرياء والانفة ، والشجاعة ، والطموح ، وحب المغامرات . وفيه التعفف والترصن ، ومجانبة اللهو والهزل ، حتى ان شاعرنا كان يكره الخمر لانها تضعيع العقل :

وَأَنْفَسُ مَا لِقَيْتُ لُبَّهُ ، وَذُو اللَّبِّ يَكْرَهُ إِنْفَاقَهُ

ولا يكرهها لان الكتاب حرمها ، فتحريم الكتاب عنده دون تحريم ممدوحه اذا اراده على شربها :

وَإِذَا طَلَبْتُ رِضَى الْأَمِيرِ بِشْرِبِهَا وَأَخَذْتُهَا ، فَلَقَدْ تَرَكْتُ الْأَحْرَمَا

ومن يعاود بنفسه الى منازل الانبياء والرسول لا يوجب منه تخرج في الدين . فقد

روي ان ابا الطيب لم يكن يصوم، ولا يصلي، ولا يقرأ القرآن. ولكنه كان وفيّاً
 لاصحابه فقد ترك حلب غاضباً مقهوراً، وقلبه لم يزل يحن الى سيف الدولة. وبعث
 ابو العشائر غلامانه ليغتالوه، فلم يقل فيه كلمة سوء، وانما قال ابياتاً تشعر بحبه الاكيد له:
 وَمُنْتَسِبٌ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحْبَبُهُ، وَلِلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ خَفِيفٌ
 وكان يكره التمويه والحداع، فقد شاب وهو غلام فلم يختضب لان الاختضاب
 تمويه :

وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُوَهَّاةً، تَرَكْتُ لَوْنٌ مَشِيبِي غَيْرَ مَخْضُوبٍ
 وكره كافوراً لانه خدعه واخلفه الوعد. ولكن عصره كان عصر رياء ومخادعة
 فاضطره احياناً الى محاربة الناس بسلاحهم :

وَلَمَّا صَارَ وَدُّ النَّاسِ خِبَاءً، جَزَيْتُ عَلَى آيْتِسَامٍ بِآيْتِسَامٍ
 الا انه كان يتألم من ذلك :
 وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرِّ أَنْ يَرَى عَدُوَّهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدٌّ
 وساء ظنه بعصره فتشام به، واحتقر اهيله، وزاده تشاؤماً مغامراته العديدة،
 واخفاقه المتتابع .

وعيب ابو الطيب بالبخل، فرووا عنه قصصاً غريبة لا نطمئن الى صحتها لانها
 تنافي كبره واباه، ولان الشاعر كان كثير الحساد، فوضعوا عليه هذه النوادر ليتنقصوه
 ويسقطوه. ونحن لا نزعم ان ابا الطيب سخي متلاف، فذلك ليس من طباعه، ولكننا
 لا نراه خزاناً شحيحاً، فقد طالما ذم الحرص وافتخر بكرمه. ولو كان ممن يحرصون
 على جمع المال لما استنكف ان يمدح كل امير يسأله مديحاً. واغلب ظننا ان المتنبى
 كان مقتصداً لانه ذاق طعم الفقر في صباه، ورأى فيه ضيماً، ونفسه تأبى الضيم، فكره
 التبذير خوفاً من ذل الفاقة، وهو يطلب المجد، وعنده ان المجد لا يدرك بغير المال :
 « فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ ماله . » فحرص ابي الطيب على طلب المجد جملة يؤثر
 الاقتصاد، ولا يسرف في الانفاق .

طلب المتنبى العلم في صباه ، ورغب في تحصيله ، فحمله والده الى الشام ، فادخله المكاتب ، وطوف به في الحواضر والبادية ، وردده في القبائل ، حتى توفي ابوه وقد ترعرع ابو الطيب وشعر وبرع . وكان يلزم حوانيت الوراقين ، ويقصد اشهر اصحاب اللغة والادب ، في الشام والعراق ويأخذ عنهم . فقد جالس الزجاج ، وابن السراج ، والافخش الاصغر ، وابن دريد ، واباعلي الفارسي ، وتخرج عليهم . ولم ينفك يتوغل في البادية ، ويصاحب الاعراب حتى صار بدوياً قحاً فصيح اللسان ، عالماً بمذاهب الكلام ، مطلعاً على غريب اللغة وحوشها ، واسع الرواية لا يسأل عن شيء الا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر ، حتى قيل ان الشيخ ابا علي الفارسي سألته : « كم لنا من الجموع على وزن فعلى ؟ » فقال في الحال : « حجل ، وخرابي » . قال الشيخ ابو علي : « فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على ان اجد لهذين الجمعين ثالثاً ، فلم اجد » . وكان كثير الدرس يطوي معظم ليله والكتاب بيده ، ولا يرحل الا ودفاثره معه لا يستطيع عنها صبراً ، وهو القائل : « وخير جليس في الزمان كتاب » .

وكان له المام بالعلوم الدخيلة ، وفي شعره اراء كثيرة اقتبسها من فلاسفة اليونان ولا سيما أرسطو .

آثاره

٦٧ لم يخدم الحظ شاعراً بعد موته ، كما خدم ابا الطيب المتنبى ، فان الحرب التي اثارها عليه اعداؤه وحساده اقامت في وجوههم انصاراً له ومريدين ، فسارت اشعاره على الافواه ، وتناقلها جمهور الادباء ، وعنوا بجمعها وشرحها ، حتى ذكروا ان شراح ديوانه يزيدون على الاربعين . فمنهم في المتقدمين ابن جني ، وابو العلاء المعري ، والواحيدي ، والعكبري . ومنهم في المحدثين اليازجيان ، والهروقي .

واهتموا بنقد شعره اهتمامهم بجمعه وشرحه، فمنهم من جار واسرف كالصاحب ابن عباد في كتابه الكشف عن مساوي شعر المتنبي، فانه تتبع سقطاته دون حسناته وشنع عليه، لان المتنبي ابي ان يزوره ويمدحه . وفعل مثله العبيدي^١ في كتاب «الإبانة» ولم يقصر الحاتمي في رسالته الموضحة. ومنهم من عدل وانصف كالقاضي الجرجاني فقد الف كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، ذكر فيه ما للشاعر وما عليه . وكذلك صنع الثعالبي في يتيمة الدهر، والبديعي في الصبح المنبي» واشهر من نقد شعره في المتأخرين الشيخ ابراهيم اليازجي، فانه ذيل ديوانه بنقد بليغ بذ به المتقدمين. ثم قام بعده جماعة من الادباء في الشام ومصر، فدرسوا شعر ابي الطيب درساً تحليلياً حديثاً. والمستشرقين متقدميهم ومحدثيهم عناية كبرى بدرس الشاعر، ونقل اشعاره الى لغاتهم .

ولا ريب ان اهتمام الادباء بابي الطيب من نحو الف سنة الى اليوم هو لا بد سر من اسرار عبقريته وخلوده .

صبرته

لا اشبه المتنبي الا بنسر عتيق اشرف على القمم العالية ، باسطاً جناحيه زهواً وكبراً ، فلاحته له طيور مدومة تريد مجاراته ، فانقض عليها كاسراً يصيح بها . فأوسعها رعباً وذعراً ، فاسفت جوانحها للكلال كل ، وراح النسر يخفق بقوادمه وخوافيه ، وقد منع حجاب الشمس عن سائر الاطيوار .

وابي ان يقتنع بما اتيح له من عز وسلطان ، وهيهات ذلك ، وله همة تصك بنكبها منكب السحاب ، ونفس طماعة لا ترضى بما دون نجوم السماء . فحدثته ان يخرج من سمائه ، ويحتل سماوات غيره ، ففعل . فتضافرت عليه نسور غريبة ، فردته ، فابى ان ينكص خائباً ، فعاود الكرة ، فعاوده الاخفاق . وما انفك يغامر ويخطو حتى

١ هو كما ورد في الابانة ابو سعيد محمد ابن احمد العبيدي . اما الصبح المنبي فيسميه العبيدي . وكذلك ياقوت في معجم الادباء ولكنه لا يذكر الابانة في جملة تأليفه .

تخطفته هوج الرياح، فحطمت جناحيه، فهوى على الصم الخوالد، فتمزق صدره وعيناه
ناظرتان الى عل.

هذا هو المتنبي في شاعريته ونبوغه، في كبريائه وطموحه، في عزائه ومغامراته،
وفي اخفاقه ومماته. فماذا ترك ذلك من اثر في شعره؟ انه لا بد شيء عظيم، سنتبينه في
دراسة اغراضه وفنونه.

مدحه

يشتمل المدح على القسم الاعظم من ديوان ابي الطيب، وفيه تنطوي اكثر فنونه
واغراضه. والمتنبي في مدائحه يسير على طرق مشبهة المسالك، متواطئة الافكار.
ويعود ذلك على ان الشاعر كان يصور في مدائحه ذاتيته، ومطامع نفسه ورغائبها،
ونظرة الى الاشياء المحمودة بعين مكبرة، اكثر مما يصور حقيقة ممدوحه وصفاته التي
يتماز بها. فقد كان ابو الطيب لا يرى خيراً الا بالرجل الذي يلا الدنيا، ويترك فيها
دويماً، الرجل السامي الذي تتمثله مخيلته، وتتوق نفسه الى بلوغ مرتبته. فجعل
ممدوحه صوراً لهذا الرجل الخيالي، متشابهة الالوان والاصواف والاشكال، وكان
يرى الرسل والانبياء رجالاً غير عاديين، فطمعت نفسه في منافستهم، والتفوق عليهم،
فجعل ممدوحه في منازلهم. او أعلى من منازلهم. وكان شاعرنا شجاعاً، بعيد الهم،
شديد الغرائم، فاحب الشجاعة في ممدوحه، وبالع في تعظيمها، وابدع في نعت الابطال
وذكر حروبهم، ووصف انتصاراتهم، فجاءت مدائحه في سيف الدولة، وفاتك
وبدر بن عمار وامثالهم، اروع منها في غيرهم. وكان يعنيه ان يرى ممدوحه سخياً
معطاء، فافتن في وصف جوده، وغالى في طرق انفاقه، فجعل كل ما في الدنيا صغيراً
في عينه محتقراً، يبذله ولا يسأل عنه. ودونك امثلة من اقواله في المدح:

أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازَرٍ سَيْفُهُ ، فِي يَوْمٍ مَعْرَكَةٍ لَأَعْيَا عَيْسَى

١ هو ابو شجاع فاتك، ويلقب بالمجنون لشجاعته. مدحه المتنبي وهو في مصر بقصيدته
الشهيرة: « لا خيال عذرك تُهديها ولا مال ».

أَوْ كَانَ لُجُجُ الْبَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ ، مَا أَنْشَقَّ حَتَّى جَاَزَ فِيهِ مُوسَى

.....

أَوْ كَانَ لَفْظُكَ فِيهِمْ مَا أَنْزَلَ آلَ عُرْقَانَ ، وَالتَّوْرَةَ ، وَالْإِنْجِيلَ ١

.....

بِمَنْ تَقْشَعِرُّ الْأَرْضُ خَوْفًا إِذَا مَشَى عَلَيْهَا ، وَتَرْتَجُّ الْجِبَالُ الشَّوَاهِقُ

.....

فَمَا تَرْزُقُ الْأَقْدَارُ مَنْ أَنْتَ حَارِمٌ ، وَلَا تَحْرِمُ الْأَقْدَارُ مَنْ أَنْتَ رَازِقُ

.....

وَأَرْهَبَ حَتَّى أَوْ تَأْمَلَ دِرْعَهُ ، جَرَتْ جَزَعًا مِنْ غَيْرِ نَارٍ وَلَا فَحْمٍ ٢

.....

واضرب هذه المغاليات كثيرة في شعر ابي الطيب لا نرى حاجة الى الاستزادة منها، ففي القدر الذي اوردناه كفاية للدلالة على نظر الشاعر الى ممدوحه، وشغفه بكل خارق عجيب . ومثل هذه المعاني وغيرها معادة مكرورة في ديوان المتنبي فتكاد لا تقرأ قصيدة الا وقعت على شيء منها وجدته في قصيدة سواها . وترداد هذه الافكار في شعره دليل على ما كان لها من بليغ التأثير في نفسه . وهي الى ذلك يشوبها الغلو المستكره حتى لينحدر بصاحبه الى السخف ، وربما لا يخلو من المضحكات فيخيل اليك ان الشاعر يهزأ بممدوحه كقوله :

فَبَعْدَهُ وَإِلَى ذَا الْيَوْمِ لَوْ رَكُضَتْ بِالْخَيْلِ فِي لَهَوَاتِ الطِّفْلِ مَا سَعَلَا ٣

ومثل هذه الحماقات يحفل بها شعر صباه اكثر من شعر كهولته .

واروع مدائح المتنبي ما قاله في سيف الدولة ، ويكاد يبلغ ثلث شعره . ويمتاز

١ الفرقان : اسم جامع للكتب المنزلة لفرقها بين الحق والباطل . وقد يراد به القرآن بخصوصه وهو المقصود هنا .

٢ جرت : سالت

٣ ركضت : الضمير لبني قمي الذين كسرهم ممدوحه . اللهوات : جمع الالهة وهي الحمة في الخلق عند اصل اللسان .

في وصف الجيوش والمعارك، وصدق العاطفة واخلاص الولاء، والادلال على المدح، ومخاطبته بلغة العشاق والمحبين . وهذه الخاصة تكاد تشمل جميع مدائح المتنبي، الا انها في مدح سيف الدولة اظهر وادل، لان ابا الطيب لم يجب بمدحاً كما احب صاحب حلب، ولم يخلص الود لامير كما اخلص له . فهو شاعر سيف الدولة وان تعدد مدحوه . وليست مدائحه في كافور كذلك، فانها كذب محض، وتجارة محض . ولكنها رائعة الفن، بديعة الاسلوب، لان الشاعر استطاع ان يلبسها ثوباً ذا لونين اتحد ظاهرهما واختلفت حقيقتهما . فزج المدح بالسخر والجد بالعبث، ولا يلام ابو الطيب في مدحه الكاذب لكافور لانه لم يقصده الا بعد ان دعاه اليه، ولم يمدحه شغفاً بمناقبه، ولكن رجاء ان ينال منه ولاية يحو بها خبيته، ويفقأ عيون خصومه، ويحقق احلام صباه . فقد كان شاعرنا متهاكاً في طلبها، وبه مثل الجنون للحصول عليها حتى انه اصطنع التلطف على غير عادته، فكان ينشد العبد واقفاً بين يديه، ولم ينشد الخو الا قاعداً . ووعده كافور بالولاية فاستنجزه الوعد، فأرقه مطلاً وتسويفاً، فكانت نفسه الكبيرة تتألم لعبث الاسود بها، واضطارها الى مصانعته . وبوسعنا ان نبتين سوء حالها من تامل الشاعر في كل قصيدة مدح بها كافوراً، والخافه في طلب الولاية، وتذمره على التسويف .

إِذَا لَمْ تَنْطَبِ فِي ضَيْعَةٍ أَوْ وَلَايَةٍ ، فَجُودُكَ يَكْسُونِي ، وَشُغْلُكَ يَنْسُبُ
ولئن كان ابو الطيب بارع الفن في مدح كافور، لقد كان سيئ السياسة في مصاحبته، قصير الحيلة في استمالته، ضعيف النظر في استبصار فطنته، فانه ما كاد يدخل عليه لينشده اول قصيدة صنعها فيه حتى فاجأه بطلب الولاية، واطهر له غرضه من مجيئه اليه، فقال في يائئته :

وَعَيْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ ، فَيَرْجِعَ مَلِكًا لِلْعِرَاقَيْنِ وَالْيَا
فعلم العبد ان ابا الطيب طامع فيه، فساء به ظنه . ومنه الوعود الكاذبة وابت نفس المتنبي في جهوتها ان تستتر مع رغبتها في اصطناع التلطف، فطفق الشاعر
١ تنطبي : تفوض الي . يقول : ان شغلك عن اجابة طلي يسلب مني ما يكسوني
اياه جودك .

يَتَغْنَى بِفَضْلِهِ وَيَتَسَامَى إِلَى مَقَامِ الْمُلُوكِ فَيَقُولُ :

وَفُؤَادِي مِنَ الْمُلُوكِ ، وَإِنْ كَانِ إِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ
وَلَعَلَّ كَافُوراً خَافَ مِنْ طَمَعِهِ وَطُمُوحِهِ فَعَالَجَهُ بِالْمُطَلِّ ، أَوْ لَعَلَّهُ شَكَّ فِي صِلَاةِ
لِلسِّيَاسَةِ وَالتَّدْبِيرِ لَمَّا رَأَى مِنْ تَهَوُّرِهِ ، وَقَلَّةِ مَبَالَاةِهِ . وَاحْسَ أَبُو الطَّيِّبِ ضَعْفَ ثِقَتِهِ
بِهِ فَخَاطَبَهُ بِقَوْلِهِ :

إِذَا كُنْتُ فِي شَكٍّ مِنَ السَّيْفِ فَأَبْلُهُ ، فَإِمَّا تُنْفِيهِ ، وَإِمَّا تُعِدُّهُ^١
وَلَكِنْ الْأَسْوَدُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَبْلُوَ هَذَا السَّيْفَ ، بَلْ تَرَكَهُ مُتَقَلِّلاً فِي قَرَابِهِ .
وَلَوْ اقْتَصَرَ الشَّاعِرُ عَلَى طَلَبِ الْوَلَايَةِ ، وَالْاعْتِدَادِ بِنَفْسِهِ لَهَانَ بَعْضُ الشَّيْءِ عَلَى
كَافُورٍ ، وَلَكِنْ أَبَا الطَّيِّبِ حَسِبَ الْعَبْدَ مَغْفِلاً لَا يَفْطِنُ لَمَّا يَقُولُهُ لَهُ فَجَعَلَ يَتَنَادَرُ عَلَيْهِ
فِي مَدْحِهِ ، وَيَسْخَرُ بِهِ فِي اسْلُوبِ مَوْجِهِ^٢ لَوْ خَفِيَ عَلَى كَافُورٍ لَمَّا كَتَمَهُ إِيَّاهُ ابْنُ حَنْزَابَةَ
وَهُوَ يَكْرَهُ الشَّاعِرَ وَيَتَمَنَّى اسْقَاطَهُ . وَمَا نُزِيَ أَنَّهُ يُخْفِي عَلَى كَافُورٍ تَعَابَثَ الْمُتَنَبِّئِيُّ
فِي قَوْلِهِ :

وَمَا طَرَبِي ، لَمَّا رَأَيْتُكَ ، بِدَعَةٍ^٣ ، لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ ، فَأَطْرَبُ^٤
قَالَ الْوَاحِدِيُّ : « هَذَا الْبَيْتُ يَشْبَهُ الْاسْتَهْزَاءَ لِأَنَّهُ يَقُولُ طَرَبْتُ عَلَى رُؤْيَيْكَ كَمَا
يَطْرَبُ الْإِنْسَانُ عَلَى رُؤْيَاةِ الْمُضْحَكَاتِ . » وَقَالَ ابْنُ جَنِّي : « لَمَّا قُرِئَتْ عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ
هَذَا الْبَيْتُ قُلْتُ لَهُ : « مَا زِدْتَ عَلَى أَنْ جَعَلْتَ الرَّجُلَ أَبَا زَنْةٍ ، وَهِيَ كُنْيَةُ الْقَرْدِ ،
فَضَحَكَ . » وَلَا نُزِيَ أَنَّهُ يَفُوتُ الْعَبْدَ الذَّكِيَّ ، أَنْ يَكْتُمَهُ الذَّمَّ بِمَعْرِضِ الْمَسْحِ
فِي قَوْلِهِ :

فَمَا لَكَ تَخْتَارُ الْقَيْسِيَّ ، وَإِنَّمَا عَنْ السَّعْدِ يُرْمَى دُونَكَ الثَّقْلَانُ^٥
وَمَا لَكَ تُغْنَى بِالْأَسِنَّةِ وَالْقَتَا ، وَجَدَّكَ طَعَانٌ بِغَيْرِ سِنَانٍ^٥

١ ابله : امتحنه . تعده : تختاره وتهيئه .

٢ موجه : ذو وجهين .

٣ البدعة : ما أحدث من جديد غير مسبوق إليه . وهي منصوبة على أنها خبر ما .
فأطرب معطوفة على أرجو . أي فاطرب على رجاء رؤيتك .

٤ الثقلان : الانس والجن . أي يرمى الثقلان عن قوس سعدك .

٥ جدك : حظك .

وَلَمْ تَحْمِلِ السَّيْفَ الطَّوِيلَ نَجَادُهُ ، وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنْهُ بِالْخَدَتَانِ^١
فَأَنْ تَقُولَ لَانْسَانَ : « نَمْ وَاطْمَئِنَّ فَاحْظُ نَجْدَمَكَ . » لَأَقْرَبَ لَلتَّهْكُمِ مِنْهُ إِلَى
الْمَدْحِ .

ومهما يكن عليه كافور من الغرور بالنفس ، لانهسبه يُجْدَعُ بِشَاعِرٍ يَفْضَلُهُ عَلَى
الشمس بشمس سواده ، وان جعل وجه الشبه ضياء مجده :

تَفْضُحُ الشَّمْسُ كَمَا ذَرَّتِ الشَّمْسُ - بِشَمْسٍ مُنِيرَةٍ سَوْدَاءَ^٢
إِنَّ فِي ثَوْبِكَ الَّذِي أَلْمَجْدُ فِيهِ ، لَضِيَاءٌ يُزْرِي بِكُلِّ ضِيَاءٍ
فَذَكْرُ الشَّمْسِ السَّوْدَاءِ كَافٍ لَأَنْ يَبْعَثَ السَّامِعُ عَلَى الضَّحْكِ وَالِاسْتِغْرَابِ .

وقد علمت ان كافوراً فظن ذكي ، فهيها ان تذهب عنه مراعي الشاعر ، وان تغافل
عنها ، وصرفها الى وجهها الصالح هوناً لكرامته ، واجاز عليها ابا الطيب وقربه ،
ولكنه عرف من اين ياتي ، فينتقم منه ، فانه مازال يعده بالولاية ويعاطله حتى اتلف
نفسه اتمظاراً ، واشعل في قلبه حرقاً

وجملة القول ان مدح المتنبي جيد بارع لولا غلوه الممقوت ، وافخمه ما جاء في
سيف الدولة ، وابعه ما جاء في كافور .

رأوه

يختلف رثاء المتنبي باختلاف صلته بالمفقود ، وشعوره بوقع المصائب . فقد اضطر
الى رثاء اشخاص لم يحزنه الرزء بهم ، فجاء شعره متصلب العاطفة ، فاقد الشعور كثرائه
لام سيف الدولة وابنه واخته الصغرى ، ولمحمد بن اسحق التنوخي ، ولعمة عضد
الدولة . ولكنه ستر عجزه بارسال الحكم البليغة ووصف المأثم ومدح الميت او
مدح آله . وان نفساً كبيرة كنفس ابي الطيب ، تهزأ بالدهر ومصائبه ، ويغلب عليها
العقل اكثر من العاطفة ، لا يهون على الدهر ان يذثا ويلينها ، مهما جر عليها من

١ لم : بمعنى لم والتسكين مخصوص بالشعر . يقول : الحدثان تحارب اعداءك
فلماذا تحمل السيف لمحاربهم ؟

٢ ذرت : طلعت .

حوادثه وخطوبه . ولكن قد تمر بها احوال القاهرة تخضعها للعاطفة ولو زمناً يسيراً .
 فتمتصاعد منها زفوات ، وتنحدر دموع ، كما جرى للشاعر في رثائه جدته لأمه ، واما
 شجاع فاتك ، واخت سيف الدولة الكبرى ، فانه ذرف على هؤلاء الثلاثة ثلاث
 دموعات صادقات . فقد ماتت جدته بالكوفة وهو بعيد عنها ، وكان قد طال غيابها
 بعد ان اخفق في دعوته ، فبرح بها الشوق ، فارسلت اليه كتاباً تطلب منه ان يحضر ،
 فشخص الى العراق ، ولكنه تعذر عليه دخول الكوفة ، لاسباب غير واضحة ،
 فجاء بغداد ، وكتب اليها يسألها المسير اليه ، وكانت قد رست فقبلت كتابه شوقاً ،
 غلب عليها السرور فحمت وماتت . فكان لموته على هذه الحال اثر عميق في نفسه فجزع
 عليها وبكائها ، وارسل الدمعة الاولى أحر دموعة روى بها تراب ميت :

لَكَ اللَّهُ مِنْ مَنجُوعَةٍ بِحَبِيبِهَا ، قَتِيلَةٍ شَوْقٍ غَيْرِ مُلْحِقِهَا وَضَمَا
 أَحْنُ إِلَى الْكَأْسِ الَّتِي شَرِبْتَ بِهَا ، وَأَهْوَى لِمَشْوَاهَا الثَّرَابَ وَمَا ضَمَا

ومات ابو شجاع فاتك ، بعد خروج المتنبى من مصر ، وكان ابو الطيب يحبه
 لشجاعته وكرمه ، فرثاه متوجعاً ، ذارفاً دمعته الثانية على ضريح ميت :

بَرْدَ حَشَايَ إِنْ أَسْتَطَعْتَ بِبَلْفِظَةٍ ، فَلَقَدْ تَضَرُّ ، إِذَا تَشَاءُ ، وَتَنْفَعُ
 مَا كَانَ مِنْكَ إِلَى خَلِيلٍ قَبْلَهَا ، مَا يُسْتَرَابُ بِهِ ، وَلَا مَا يُوجَعُ

وماتت اخت سيف الدولة الكبرى وهو في الكوفة ، بعد رجوعه من مصر ،
 فكان في رثائه اياها صادق العاطفة ، بين اللوعة ، مما يدل على اخلاصه المودة لها .
 فجاءت دمعته على قبرها خاتمة دمعاته الثلاث :

وَلَاذْ كَرْتُ جَمِيلًا مِنْ صَنَائِعِهَا ، إِلَّا بَكَيْتُ ، وَلَا وَدُّ بِلَا سَبَبٍ
 قَدْ كَانَ كُلُّ حِجَابٍ دُونَ رُؤُوسِهَا ، فَمَا قَنِتْ لَهَا يَا أَرْضُ يَا أَعْجَبُ

والمتنبي في رثائه مثله في مدحه ، يخاطب المورثي مخاطبة المحب لحبيبه ، ويؤخذ عليه
 انه لم يحتسب هذه الخطبة في رثاء الاميرات ، فقد خاطب ام سيف الدولة بقوله :
 بَعِيْشِكَ هَلْ سَلَوْتُ فَإِنْ قَلْبِي ، وَإِنْ جَانَبْتُ أَرْضَكَ غَيْرُ سَالٍ
 وقال في اخته الكبرى :

يَعْلَمَنَّ حِينَ تُحْيَا حُسْنَ مَبْسَمِهَا، وَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ بِالشَّنْبِ^١

وما رثي امرأة الا رفعها من الانوثة الى الذكورة ، متأثراً بعقلية عصره ، فانهم كانوا يحتقرون المرأة ، ويعدونها ضعيفة ، مهينة الجناح . وكان ابو الطيب يحب القوة ، ويأنف ان يرثي ضعيفاً ، فجعل مراثياته ذكوراً ، وربما فضلهم على الذكور . قال في ام سيف الدولة :

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا ، لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ

وقال في اخته الكبرى :

وَأِنْ تَكُنْ خُلِقْتَ أَنْثَى ، لَقَدْ خُلِقْتَ كَرِيمَةً غَيْرَ أَنْثَى الْعَقْلِ وَالْحَسَبِ

وقال في عمة عضد الدولة :

وَيُظْهَرُ التَّذْكِيرُ فِي ذِكْرِهِ ، وَيُسْتَرُ التَّائِيْتُ فِي حُجْبِهِ^٢

هذا وان احسن حلية تتحلى بها مراثي ابي الطيب هي الحكم والامثال .

هجاؤه

لم يصطنع ابو الطيب الهجاء آلة للتكسب كما اصطنعه بشار ودعبل وابن الرومي ، فالمتنبى اغز نفساً من ان يهبط بها الى هذا الدرك . وانما اصطنعه عدة للكفاح يؤذي بها من اذاه ، ويدراً بها عن نفسه . ولا نعد هجاءه في كافور من قبيل التكسب لانه لم يهجه مهدداً ليعطيه ، او مستقلاً عطاءه . وانما هجاءه لان كافوراً آلمه في صميم فؤاده ، اذ عبث به عبث الوليد بلعبته حتى اذا ملها اطرحها وحطمها . فقد استقدم كافور ابا الطيب ، وكان هذا يأنف ان يتصل به ، ووعد به بان يقطعه ولاية يدبر اعمالها ، ثم ما طله

^١ يعلمن : الضمير لاتراب المراثية . الشنب : برد الريق . قال الواحدي : « واساء في

ذكر حسن مبسم اخت ملك ، وليس من العادة ذكر جمال النساء في مراثيهم . »

^٢ الضمير في ذكره وحجبه يعود على شخص المراثية يقول : انها امرأة في خدرها . ولكنها ذكر اذا ذكرت مساعيها للسماعي .

و كذب عليه ، واستأثر به ، ومنعه براح مصر . فهذه الامور احفظت الشاعر وزادته كرهاً للعبد فهجاء . و كذلك هجوه لابن كَيْفَلَع فلم يؤخره عن السفر لما هجاء . وهكذا هجاءه لَضَبَة ، فان رفاقه الكوفيين هم الذين حملوه على هجوه ، ولم يكن يريد . وليس له في غير هؤلاء الثلاثة هجاء . يستحق الذكر الا ابياتاً مبثوثة في شتى قصائده ذم بها الزمان واهيله ، والملوك والحساد والشعراء ، فجاءت وليدة الألم والتنافس ، والدفاع عن النفس ، وحب الذات ، والاستئثار بالنفوذ وجوائز الامراء . وحب الاستئثار بالجوائز يرجع عند المتنبى الى التنافس والاعتداد بالنفس اكثر مما يرجع الى الرغبة في التكسب .

وهجاء ابي الطيب مقذع يؤلم الاعراض ، فاحش الالفاظ والمعاني ، يمتاز في تلك القوة التي تتغلغل في اجزائه ، هي قوة نفس الشاعر العاتية ، وفي تلك الامثال الحكمية التي يتحلى بها جميع شعره . ثم في ذلك التشاؤم الذي تضاعف في صدره بعد الاخفاق المتواصل ، فجعله ناقماً على الدهر وبنيه . ثم في اشمئزازه من المهجو واحتقاره له ، حتى يكاد لا يخاطبه الا بصيغة التصغير . ثم في تصويره السخري له حتى يجعل منه اضحوخة شوها . فيصيبه بخلقه وخلقه ومزاجه الاجتماعية .

وسخر ابي الطيب بعيد من ان يكون فيه نكتة لطيفة ، او شيء من الظرف ، وانما هو تهكم حاد جارح يعجب اكثر مما يضحك . و ابرع هجاء قاله كان في كافور فانه افقن فيه ما شاء له الفن ، فأرضى به نفسه المتألمة ، والثائرة على العبد المتملك . وكافور عند ابي الطيب كُويْفِر بصيغة التصغير ، وكناه ابو النتن ، و ابو البيضاء . والقابه الخنثى ، والاسيود ، والحزير ، والحصى ، والنوبي وما شاكل .

غزله

ليس في اخبار ابي الطيب ما ينبئنا انه احب يوماً ، ولا في شعره ذكر لمحجوب يردد اسمه ، ويشبب به ، ويتشوق اليه . وقد تزوج المتنبى ، ورزق ولداً ، ولكنه لم يحدثنا بشعره شيئاً عن امرأته وحبها لها . ولو لم نعلم ان له ولداً لجهلنا امر زواجه لان مؤرخي الاداب سكتوا عنه .

وكان ابو الطيب متعقفاً يرغب عن الملاهي ومكائس الريب، والقيان والحب الفاجر، فخلا غزله من التعمر والمجون . غير انه تسرى بالجواري التي اهديت اليه ، والتسري عندهم غير ممنوع .

وهو في غزله يؤثر البدويات على الحضريات، وقديماً كان الغزل المتعفف في خيام الاعراب . وليس له غزل متحضر الا في شعره الذي قاله وهو في بلاد فارس ، فان ديار العجم ذكرته بوطنه الذي نشأ به ، فحن الى ديار الشام، وذكر نساءها، وتغزل بهن . ولكن إن هي الا خطوة عرضت حتى عاد الى البدويات كأنه لا يجد ارتياحاً في ذكر نساء الحضر .

وغير عجيب ان يأنس المتنبي بالاعرابيات وقد قضى شطر عمره الذي تشتعل فيه نار الحب، وهو يتردد في قبائل البادية، فتفتقت اكمام عاطفته على بسات البدويات، فشغف بهن، ولم يرقه الا حسنهن، لانه جمال مطبوع لا مصنوع، وهو يكره التمويه والطلاء :

مَا أَوْجَهُ الْحَضَرَ الْمُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ ، كَأَوْجِهِ الْبَدَوِيَّاتِ الرَّعَائِبِ^١
حُسْنُ الْخَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيبَةٍ ، وَفِي الْبِدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ^٢
أَقْدِي ظَبَاءَ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا ، مَضْغَ الْكَلَامِ ، وَلَا صَنَعَ الْخَوَاجِبِ

وكان يكثر النزول في بني عدي وهي قبيلة ضاربة بارض سلمية من عمل حمص ، فشذب بالعدويات وجعلهن عرائس شعره دون ان يسمي واحدة منهن :

لَوْلَا ظَبَاءُ عَدِيٍّ مَا شَغِفْتُ بِهِمْ ، وَلَا يَرْبَرِبُهُمْ لَوْلَا جَاذِرُهُ^٣

على ان غزل المتنبي لم يكن قوي العاطفة لان اشتغال الشاعر بطلب المعالي لم

١ الضمير في به للحضر . الرعابيب : جمع رعبوبة : وهي الطويلة المستلثة .

٢ التطرية : خلط الطيب بالافاويه .

٣ الربرب : القطيع من بقر الوحش . والمراد به جماعة النساء . والمراد بالظباء

النساء . الجاذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية والمراد بهن الفتيات .

يترك له متسعاً من الوقت فيفرغ للحب والنساء . وكان له من نفسه المتصلبة وازع
عن الاستسلام لعوامل الهوى . فاذا نسب فاتبعاً للاسلوب القديم ، وارضاء للفن ،
لا تلبية لجوس فواده الخافق ، او تخفيفاً للواعيج اشواقه . ولطالما اراد التغزل فاخشوشن
فاسمعك في صباه :

أَيَّا خَدَدَ اللَّهِ وَرَدَ الْخُدُودَ ، وَقَدَّ قُدُودَ الْحِسَانِ الْقُدُودِ^١
واسمعك في شبابه :

أَرَكَاثِبَ الْأَحْبَابِ إِنْ الْأَدْمَعَا ، تَطِسُ الْخُدُودَ كَمَا تَطِسُنَ الْيَرْمَعَا^٢
واسمعك وهو على قمة كهولته :

أَلَا كُلُّ مَاشِيَةِ الْخِزْلَى ، فِدَى كُلِّ مَاشِيَةِ الْهَيْدَبَى^٣

وقد تجد له غزلاً يروقك ، فاذا تدبرته رأيت ان اعجابك به ناجم اما عن صنعة
تستحسنها واما عن معنى جميل تستلطفه ، لا لانه حورك فيك عاطفة كامنة كقوله :

وَلَمَّا التَّقِينَا ، وَالْتَوَى وَرَقِينَا ، غَفُولَانِ عَنَّا ، ظَلْتُ أَبْيِي وَتَنَسِمُ^٤
فَلَمْ أَرْ بَدْرًا ضَاحِكًا قَبْلَ وَجْهِهَا ، وَلَمْ تَرَ قَبْلِي مَيِّتًا يَتَكَلَّمُ

واكثر عنايته بأن يغوص على المعاني الدقيقة ، ويستخرجها من مكانها . وان
يدخل الفلسفة على الحب ، فاذا صح ان تسميه غزلاً في مثل هذه الحال ، فهو فيلسوف
الغزلين وغزل الفلاسفة . وقد يجيء بالاشياء الحسنة لما فيها من قوة التفكير ، ودقة
المعنى ، وقد يعتصم عليه اللفظ ، فما ينبغي له الكلام ، وربما تبعض فيه وتجرد . ومهما
دار الامر ، فان ارضت الفلسفة في الغزل الادباء او المفكرين ، لا نزاها ترضي حبيباً
مرحاً لعوباً ، تعود ان يفهم لغة العاطفة ، لا لغة العقل . وهيهات ان يكون له صبر

١ خَدَدَ : شق . قَدَّ : قطع طويلاً . الحسان القدود : اضافة لفظية .

٢ الركاثب : جمع ركاب وهي الابل . قطس : تضرب بشدة . البرمغ : حجارة رخوة .

٣ الخيزلي : مشية النساء فيها تناقل وتفكك . الهيدبي : ضرب من مشي الخيل فيه حد .

٤ ظَلْتُ : اي ظلمات .

على اجتهاد فكره ليتفهم غزلاً خفي المعنى؛ او معقد اللفظ قليل فيه . وماذا يهمه من
تفلسف ابي الطيب في وضع قانون الصباية للمحبين ليصح ان يسموا عاشاقاً :

جَهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أَرَى ، عَيْنٌ مُسَهَّدَةٌ ، وَقَلْبٌ يَخْفِقُ

او ليس من التهور ان يوغل شاعرنا في التفلسف ، فيختلق الاعذار للنوى ،
ويجعل منها شخصاً عاشقاً حبيبه :

مَلَامِي النَّوَى فِي ظُلْمِهَا غَايَةُ الظُّلْمِ ، لَعَلَّ بِهَا مِثْلَ الَّذِي لِي مِنَ السُّقْمِ .

وذهب بعض غزل ابي الطيب مذهب الامثال لما فيه من فلسفة الحياة في الحب
كقوله :

زَوَّدِنَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِكَ مَا دَا مَ ، فَحُسْنُ الْوُجُوهِ حَالٌ تَحُولُ

وَصَلِينَا نَصْلِكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا - فَإِنَّ الْمَقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

فهذا اولى بان يبعث الزهد والنسك في النفوس ، من ان يضر من نار الحب والصباية .
ومن ذلك قوله :

وَمَا صَبَابَةٌ مُشْتَاقٌ عَلَى أَمَلٍ مِنْ أَلَلَاءٍ ، كَمُشْتَاقٍ بِلَا أَمَلٍ

وَالْهَجْرُ أَقْتَلُ لِي مِمَّا أَرَا قَبَهُ ، أَنَا الْغَرِيقُ فَمَا خَوْفِي مِنَ الْبَلَلِ

وقوله :

إِنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجًا بِدُمُوعِهِ ، مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ

وما هكذا لغة المحبين ، وبعيد ان يستميل صب حبيبه بالاعتماد على المنطق
والادلة العقلية .

وشيء آخر يميز غزل المتنبي وهو مزج الحب بالحاسة ، وخلط الفاظ الحرب بالفاظ
النسيب . و ابو الطيب شاعر فارس ، ومن عادة الشعراء الفرسان ان يصطبغ حبهم
بدماء الحروب :

١ قوله اراقبه : اي مما اراقبه من فتك اهلها لي لشجاعته ، ودفاعهم عن اعراضهم وقبله :
متى ترزقون من تهوى زيارتها ، لا يتحفوك بغير البيض والاسل

وَمَا كُلُّ مَنْ يَهْوَى يَعْفُ ، إِذَا خَلَا ، عَفَا فِي ، وَيَرْضَى الْحُبَّ وَالْخَيْلُ تَلْتَقِي^١
وقد يكون المتنبي احب كما يزعم ، غير ان الحب لم يشغل فؤاده ، فينتيمه ويذله ،
واراد ان يتغزل اسوة بغيره ، فجاء غزله فلسفة وصنعة . واني لنفسه الجبارة ان تخضع
للحب وتلين ؟ وهي لا تصبو الى غير ركوب الاهوال ، وبلوغ المراتب العليا ، فما حبها
الا القوة تحيط بها السيوف والرماح . ولقد احسن ابو الطيب في تعريف حبه حين قال :
تَقُولِينَ مَا فِي النَّاسِ مِثْلَكَ عَاشِقٌ ، جَدِي مِثْلَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ ، تَجْدِي مِثْلِي ،
مُحِبٌّ كَنِي بِالْبَيْضِ عَنْ مُرْهَفَاتِهِ ، وَبِالْحُسْنِ فِي أَجْسَامِهِنَّ عَنِ الصَّقْلِ^٢
وَبِالسُّمْرِ عَنْ سُمْرِ أَلْقَانَا ، غَيْرَ أَنَّنِي جَنَاهَا أَحْبَابِي ، وَأَطْرَافُهَا رُسُلِي^٣

فخره

لا يستغرب الفخر في شاعر شجاع باسل متكبر كالمتنبي ، فعنصر الفخر مركب
في طباعه ، رافقه منذ صباه حتى وافته منيته . فقد كان صبياً يوم سمت به همته
الى ان يقول :

أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي ، أَيَّ عَظِيمٍ أَتَقِي ؟
وَكُلُّ مَا قَدْ خَلَقَ اللَّهُ - وَمَا لَمْ يَخْلُقْ
مُحْتَقَرٌّ فِي هَمِّي ، كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرَقِي

وفي هذه الابيات الثلاثة وضع خطة الفخر التي سار عليها طوال حياته ، وهي

١ اذا خلا : اي خلا بمن يحب . يرضي الحب : اي يحمي من يجها فما نسبى .

٢ مثلك : حال من عاشق . جدي : امر من وجد .

٣ البيض : السيوف مفردها ابيض . وجمع بيضاء اي امرأة بيضاء . يقول : انه
يكفي بالبيض عن السيوف الا عن النساء . ويكفي بالحسن عن صقل السيوف لا عن بضامة
اجسام النساء .

٤ يقول : واكفي بالسمر عن سمر الرماح لا سمر النساء . وجناها احبابي : اي ما
تجنه من الدماء . واطرافها رسلني : اي اطراف الرماح رسلني التي تذهب الى احبابي . وتجمع
بينها وبينها .

الارتفاع بنفسه الى اعلى الدرجات، وتحقير غيره والازراء به . فابو الطيب في فخره كثير الاعتماد بنفسه، لا يجد لها صنواً ، والناس كبارهم وصغارهم، ملوكهم وسوقتهم محقرون عنده .

وليس للشاعر قصائد مستقلة في الفخر، وانما هي ابيات يوردها في اثناء شكاويه ومدائحه واهاجيه ومراثيه، واعجبها ما جاء في قصائد المدح وهي كثيرة، فانه يجعل نفسه في الثريا شرفاً وخيراً، بحيث يصحح كل ما يقوله في ممدوحه لا يعادل ذرة مما قاله في نفسه . فكان نفسه الكبيرة تأبى عليه ان يطري احداً قبل ان يؤدي لها حقها من التعظيم والاكرام . واعجب من هذا ان ممدوحيه كانوا يسمعون تبجحاته وتمدحاته، ويرضون عنه، ويقبلون مديحه، ويخبرونه عليه ؛ فكان كمن يستبهم بقوة شعره، وسحر بيانه، فيستخذون له ولا يستنكفون . فما قولك بشاعر يدح اميراً ويصدر مدحته بابيات يقول فيها مفتخراً :

وَكَيفَ لَا يُخَسِّدُ أَمْرُؤُ عِلْمٌ ، لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمٌ

فهما يقل من مديح في الامير لا يبلغ به مبلغ هذا البيت الذي وضع فيه قدمه على الرؤوس غير مستثن رأس ممدوحه . او ليس عجباً ان يدخل الشاعر على سيف الدولة معاتباً مسترضياً فيخاطبه بقوله :

سَيَقْلَمُ الْجَمْعُ بِمَنْ ضَمَّ مَجْلِسَنَا ، بِأَنِّي خَيْرٌ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمٌ

وغير ذلك من ابيات كلها صلف وتعريض . ثم يرضى عنه سيف الدولة ويدنيه ويحيره ، مع ان ابا الطيب لم يقل له كلمة لينه الا اردف معها كلمات عنيفة . فقد جاءه من عل وملاً مسامعه وناظره كبراً وتعجباً ، وفتن الامير بقوة شعره ، فاعتقر له سيئاته ، وتغافل عما نعت به نفسه من اوصاف لم تنعت بمثلها الملوك .

ومفاخر المتنبى تتناول حيناً آباءه ، وحياناً نفسه . وهو اذا افتخر بآبائه يحمل القول فما يعدد لهم مآثر ، ولا يذكر لهم اياماً ، ولا يتباهى باسمائهم وانما يقول :

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتَ أَكْرَمِ وَالِدٍ ، لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخْمَ كَوْنُكَ لِي لَمَّا

وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَهُمْ ، بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ *
 واما اذا افتخر بنفسه ، فانه يتسع له مجال القول فيباهي بشجاعته وصبره وعفته
 وابائه ، وشعره وفصاحته ، فتراه يتحدى الزمان ليبارزه :

وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَيَّ شَخْصًا ، لَحَضَبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسَامِي *
 ولا يقبل حكماً الا الله :

تَقَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِهِ ، وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا
 و اذا سأل متكسباً كان الفخر حشو سؤاله ، فانه يظهر للمدوح قيمة شعره ،
 فهو كالدر لا يُغبن من يعطي عليه دراً :

لَكَ الْخَمْدُ فِي الدَّرِّ الَّذِي لِي أَفْظُهُ فَإِنَّكَ مُعْطِيهِ ، وَإِنِّي نَاطِمٌ
 ويعرض للشعراء فيرمي بهم الى اسفل ، ويخلق فوقهم مغرداً ، ومدلاً بشاعريته
 على ممدوحه فيقول :

وَدَعَّ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي ، فَإِنِّي أَنَا الطَّائِرُ الْمُحْكِي ، وَالْآخِرُ الصَّدَى
 و قلما خلت قصيدة لاي الطيب من ابيات في الفخر ، ولا سياً مدائحه .

وصف

لم يعن المتنبي بوصف الطبيعة ، والتغزل بجمالها ؛ والافضاء بما توحى اليه اسوارها
 ولم يلتفت الى قصور الملوك وحدائقهم ، ولا الى حلقات اللهو وادواته ، لان نفسه
 كانت ابعدهما من ان تفرغ لهذه الاشياء ، فقد شغلها حب المغامرات ، وطلب السيادة
 والتملك ، فلم تجد قبلها غير القوة تصفها على اختلاف صورها وهياكلها ، فاتبعها
 يتقراها في مواطنها ، فنظر الى الطبيعة على قلة احتفاله بها ، فلم يبد له منها غير القوة
 فوصفها في بحيرة طهرية ، فاذا امواجها فحول مزبدة ، وطيورها فرسان على خيول بلق ،

المحكي : الذي يحكى به ، اي يكون غيره حكاية له .

ورياحها جيشاً وغي ، هازم ومنهزم^١ . واصابته الحتى وهو في مصر ، فما كاد يصفها ببضعة ايات لطيفة حتى اخذ يتشوق الى يوم تعود به اليه صحته ، فيتمكن من ان يصرف عناناً او زمماماً ، ويحمل قناة او حساماً^٢ . ووصف انشاء ابن العميد في كتاب ورد منه عليه ، فلم يجد فيه غير اسود مقترسة . فالقوة ماثلة في جميع اوصاف المتنبي ، تتبينها في تشابيهه واستعاراته ، وفي الفاظه وعباراته ، وفي غلوه وتخيلاته . واحسن الوصف عنده ما صح ان تتمثل القوة فيه ، كوصف اسد ضارب يطلب فريسة ، ووصف خيول مغيرة تثير غباراً ، وجيش زاحف غارق في الزرد ، وسيوف مسالوة ، ورماح مشرعة ، ومعارك حامية الوطيس تضارب فيها الابطال وتطاعن .

وابداع في وصف الاخلاق وتصوير الحياة ، والاشخاص . وصوره مادية واقعية ، قلما بث فيها روحاً ارفع من روحها ، ولكنه يرفعها بالاغراق والتكبير وجمال الفن . فما اسده اسداً عادياً ولا شخصه انساناً بشرياً ولا جيشه جيشاً مألوفاً . وانما هي اشياء متطرفة عن حدودها تطرف نفسه القوية وخياله العنيف الجامع .

وقد وصف الاسد في قصيدة مدح بها بدر بن عمار لما عفر الليث بسوطه ودار به الجيش . ومثل هذه المشاهد الرائعة تثير اعجاب ابي الطيب ، فبالغ في وصف الاسد ما شاءت له شاعريته ، وشاء خياله المبدع . وهذه المبالغة كلها مدح لبدر لانه اذل بسوطه ليثاً هصوراً نضد هام الرفاق تلولا . ووصف المعارك فكان كما قال فيه ابن الاثير : « اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها ، واشجع من ابطالها ، وقامت اقواله للسامع مقام افعالها ، حتى يظن ان الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا . »

وهذه المعارك هي التي شهدتها مع سيف الدولة ، فأجاد وصفها ، ولم يبدع في

١ نستثنى وصفه للطبيعة في شعرب بوان ، وهو سائر الى عضر الدولة ، فانه لطيف ناعم خارج عن مألفه . ولا ندري ماذا اوحت اليه بلاد الفرس ، وماذا كان من تأثيرها في نفسه . فانه حينها حينئذ صادقاً الى وطنه الشام ، وهي المرة الاولى التي يعرف بها المتنبي وطناً ويرتاح الى ذكره . وتنزل بالشاميات ، وهي المرة الاولى التي يانس فيها بذكر الحضريات دون البدويات . ووصف الطبيعة وصفاً لطيفاً ، ولم يسبق له وصف مثله قبل ذاك الحين .

وصف الحروب الا عند صاحب حلب .

ووصف الجيوش والمعامع أروع شعر المتنبي وافخمه، ولولاه لما جاءت مدائحه في سيف الدولة اجل من مدائحه في غيره، فقد كان مصوراً بها الحروب، ومؤرخاً ومخلداً . ومن العدل ان نقول انه لو لم تجتمع عبقرية المتنبي، وهمة سيف الدولة في الحروب، لما خرج هذا الشعر الرائع .

فلسفته و آراؤه في الحياة

لشعر اغراض متفاوتة يمتاز بعضها من بعض ، ويعلو بعضها على بعض ، ونرى ان اعلاها ثلاثة، فالاول الغزل وما يتبعه من تشبيب بمحاسن المحبوب وتصوير لاخلاقه، ووصف لشواعر النفس في حالي اللذة والالم . والثاني وصف الطبيعة ، واستجلاء اسرارها، والاتصال بمحاسنها والوانها . والثالث النظر في الحياة، وما يتعلق بها من عادات الناس و اخلاقهم ، وطبائعهم واذواقهم ، ولذاتهم والامهم ، وتآلفهم وتحالفهم ، وسياساتهم واجتماعاتهم . فاذا قسنا العبقرية في الشاعر على هذه الاغراض الثلاثة، فالمتنبي خاسر في الغرضين الاولين ، رابع في الثالث ، بسل معتصب باجمد اكاليل العبقرية، متبوء أعلى مراتبها . فهو لا جرم فيلسوف الحياة ، لان فلسفته مأخوذة من صورها واسفارها . فقد كان لابي الطيب من حياته وحياة عصره غير ومواعظ اعمال فيها فكره، وبنى عليها آراءه . وكان له من اطلاعه على الفلسفة العربية اليونانية عون على ابراز فكره ناضجاً، مشبعاً بالاحكام السديدة . فكتبت له فلسفته صك الخلود، وسارت امثاله على افواه الاجيال، تطوي وراءها العصور والقرون .

والمتنبي، كما علمت، يحب القوة فغير عجيب ان تقوم آراؤه في الحياة على تعظيمها . وتعظيم القوة يكاد يكون من خصائص الفلسفة العربية منذ طورها الجاهلي الى عصر ابي الطيب . فقد كان العرب في بداوتهم يعيشون بالغزوات والغارات، فجاءت حكمة شاعرهم ممزوجة بالقوة كما قال زهير :

وَمَنْ لَمْ يَنْدُ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ ، يُهْدَمَ ، وَمَنْ لَا يُظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ

ثم جاء الاسلام قائماً على الجهاد، فلم يجد الشاعر المسلم غير القوة عماداً، فبشر بها
 واشاد بذكرها. والمتنبى احد اولئك المبشرين الذين دفعوا للقوة هيكلًا عالي الدعائم.
 ويختلف عن غيره في انه كان يبني فلسفته على شواعر نفسه ورغائبها، فهو لم يعظم القوة
 الا لانه احبها، وجاهد في سبيلها، ولم ير للحياة معنى الا بها.

وقد يحب الانسان القوة ويعظمها، ولكنه يرحم الضعف ويعطف عليه. واما
 المتنبى فقد ازدرى الضعيف، وسخر منه، وتنادر عليه:

وَإِذَا مَا خَلَا الْعَجَبَانُ بِأَرْضٍ،، طَلَبَ الطَّعْنَ وَحَدَهُ وَالْتِزَالَ

ونحن نشرع الان في تحليل فلسفته، وعرضها على حياته، وحالة عصره، لنستخرج
 منها هذين العنصرين المتضادين ألا وهما تعظيم القوة، وتحقير الضعف، ونصل الى الغاية
 التي يرمي اليها شاعرنا وهي المجد.

زمن الزمان واليه

اوتي ابو الطيب نفساً جبارة تسامت به الى ارفع الدرجات، فعاكستها الاقدار،
 فاخفقت مراراً، فافضى بها الاخفاق المتتابع الى التشاؤم بالزمان واهله. وقد تشاءم باهل
 زمانه لانه رأى فيهم اعداء وحساداً يكيدون له، ويعكسون آماله، ويخضدون
 شوكته. ورأى فيهم ايضاً من ساعده الحظ، فبلغ اعلى الرتب، وهو عنده لا يستحق
 هذا المقام، فكره زمانه، و اشار اليه بهذا تحقيراً:

أُرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِي مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ

وكره اهل زمانه، وصغروهم فجعلهم اهيلاً، ورماهم باقبح النوع. فهم قوم
 ليس الاحسان عندهم في صنع الجميل، وانما في ترك القبيح:

إِنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرَكُ الْقَبِيحَ بِهِ، مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ، إِحْسَانٌ وَإِجْمَالُ

وفي هذا البيت حكمة خالدة مع العصور.

كره النسل

وقاده تشاؤمه بالزمان واهله الى القول بكره النسل :
وَمَا الدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤْمَلَ عِنْدَهُ حَيَاةً ، وَأَنْ يُشْتَقَ فِيهِ إِلَى النَّسْلِ

مصاحبة الناس

فاما وقد قضى المتنبي على اهل زمانه باللؤم والقبح والظلم والجهل ، فاصبح من
حقه ان يتهم مودتهم ودينهم :
فَلَمْ أَرَ وَدَّهْمٌ إِلَّا خِدَاعًا ، وَلَمْ أَرَ دِينَهُمْ إِلَّا نِفَاقًا
ويربأ بنفسه ان ينتسب اليهم :
وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ ، وَلَكِنْ مَعْدِنُ الدَّهْبِ الرِّغَامُ

سخطه على الملوك

وابو الطيب ساخط على الملوك ، يريد الشر لهم لامرين . اولها انه يرى من حقه
ان يرتفع الى منازلهم لان فؤاده منهم :
وَفُؤَادِي مِنَ الْمُلُوكِ ، وَإِنْ كَا نَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ
والثاني تألمه من رؤية من تجري معهم التقادير ، وهم جهال ، فتعالي لهم العروش
بعد خمول ذكر . وقد حاول ان يوطى له عرشاً ، فلم يفلح ، فنقم عليهم ، وراح
يشتمهم ، ويتنفي هلاكهم :
وَلَا أَعَاشِرُ مِنْ أَمْلَاكِهِمْ مَلِكًا ، إِلَّا أَحَقَّ بِضَرْبِ الرَّأْسِ مِنْ وَشْنِ

اعتقاده بالخط

ونشأ من هنا اعتقاده بالخط، فقضى ان العاقل غير محدود :

وَمَا أَجْمَعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدَيَّ ، يَا أَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجَدَّ وَالْفَهْمَا
وكان كافور محدوداً لانه مغفل في نظره : « وَجَدْتُكَ طَعَانٌ بِكُلِّ مَسْنَانٍ . »

الحياة والموت

ولو كان غير المتنبئ اصيب بالاخفاق المتواصل في حياته، لافضى به ذلك الى
الاذعان والخنوع، ولكن ابا الطيب لم يزد الاخفاق الا عزماً واقداماً، وابى ان يقو
بجنيته وعجزه . فلم يفتأ يجاهد الايام ويعارك الليالي ، فما يسقط في المضمار الا نهض
قاتماً وهو يقول :

تُرِيدِينَ أَثِمَانَ الْعَالِي رَحِيصَةً ، وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ
او يقول :

وَإِذَا كَانَتْ النَّفْسُ كِيَارًا ، تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ
وكان يرى ان « لكل امرئ من دهره ما تعودا . » فمن عود نفسه الذل هان
عليه احتماله :

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ ، مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيْلَامُ
ومن حمل نفسه على ركوب الاخطار هانت عليه مكارهاها :

سُبْحَانَ خَالِقِ نَفْسِي كَيْفَ لَدْتُهَا ، فِيمَا النَّفْسُ تَرَاهُ غَايَةَ الْأَلَمِ
ونظر الى الموت فراه ضرورياً لحياة الانسان فقال :

سُبِقْنَا إِلَى الدُّنْيَا فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا ، مُنِعْنَا بِهَا مِنْ جَنَّةٍ وَذُؤُوبِ

وقضى بان طعم الموت واحد سواء مات الانسان حتف انفه او مات في الحروب :

فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ حَقِيرٍ ، كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ عَظِيمٍ

ورأى ان لا مهرب من الموت، فاستعجز من يحذرده ويخافه، على حين لا يرده

حذر ولا خوف، فتولد فيه تحقير الضعف وايشار القوة :

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ ، فَمِنْ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانًا
وانكر ان يكون العجز من العقل :

يَرَى الْجَبْنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ ، وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّعْنِ اللَّئِيمِ

وعلى هذه الاراء بنى صرح الحياة التي يريد ان يحياها ، فاذا هي حياة القوة
البالغة بصاحبها الى اعلى قمم المجد .

طلبه المجد

وغير جدير بابي الطيب ان يطلب من المجد ادناه ، وهو يرى ان طعم الموت في
الامر الحقير مثله في الامر العظيم . فقد نظره الى اسمى الدرجات ، وقال :

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ ، فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ

ووطن نفسه على الجهاد في سبيل المجد ، فعانى الاسفار ، وركب الاخطار ، فما
الدنيا عنده الا غنيمة الجسور : « والبر اوسع والدنيا لمن غلبها » فاضعف ذلك فيه
حب الوطن ، فكان يقول : « وكل مكان يُنبت العزَّ طيبٌ » او يقول : « إِنَّ
الدَّلِيلَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَ » ووضع خطته التي يسير عليها لبلوغ المجد فاذا هي :

وَلَا تَخْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِفًا وَقَيْنَةً ، فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبَكْرُ
وَتَضْرِيبُ أَعْنَاقِ الْمُلُوكِ ، وَأَنْ تَرَى لَكَ الْهَبَوَاتُ السُّودُ وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ
وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا ، كَأَنَّمَا تَدَاوُلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْثُلُهُ الْعَشْرُ
فالقوة تحوط هذا المجد من جميع اطرافه ، فقبابه الصوارم ، وموطنه المعارك ،
وهدفه تضريب اعناق الملوك ، ولا سلامة له الا اذا سبغ بالدماء :

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ
وهذه القوة التي يتعشقا شاعرنا يدعما باشياء ثلاثة لا غنية عنها وهي الشجاعة
والعقل والمال .

١ الهبوات : جمع هبوة وهي الغبار . المجر : الكثير .

٢ تداول الشيء : تعاقبه واخذه مرة بعد مرة .

الشجاعة والعقل

يقدر المتنبى العقل كما يقدر الشجاعة ، لان هذه لا تبلغ بصاحبها المراتب العليا
ما لم يصحبها العقل :

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ ، بَلَّغَتْ مِنَ الْعِلْيَاءِ كُلِّ مَكَانٍ

وهو وان فضل السيف على القلم مرة في قوله :

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي : « أَلْمَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ أَلْمَجْدُ لِلْقَلَمِ . »

فقد فضله بين قوم لا يعظمون العلم ، وانما يعظمون البطش ، ولطالما قضى للعقل
على الشجاعة فمن ذلك قوله :

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ ، هُوَ أَوَّلُ ، وَهِيَ أَلْمَحَلُّ الثَّانِي

والعقل عنده لا يعادله في التعظيم الا الشرف :

يَهُونُ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا ، وَتَسْلَمَ أَعْرَاضُنَا وَعُقُولُنَا

المال

وكان يرى ان المال عصب المجد ، وان لا قوة الا به ، فعظم جانبه ، ولم يسرف
في انفاقه حفاظاً على المجد ان ينهار بشلل اعصابه :

فَلَا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ، وَلَا مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

فجبه المال من اجل المجد وحده ، فاذا ذهب المجد اصبح المال لا قيمة له ولا
نفع : « ولا مال في الدنيا لمن قل مجده . » فالمجد اذاً هو المحور الذي تدور عليه فلسفة
المتنبى في الحياة .

فلسفته الازلية

لم يعن ابو الطيب بالفلسفة الالهية عنايته بفلسفة الحياة ، لانه رآها لا تؤدي
الى نتيجة واضحة ، فزهد فيها ولم يتعمق في بحثها ، غير انه ترك بعض اقوال لا نرى
بأساً في ان نعرض لها موجزين . فنقول : ان الشاعر لم يشك في وجود الله تعالى ،

ولكنه استخف بالدين والانبياء والكتب المقدسة ، غير حافل
ويظهر انه تأثر بالحلولية منذ صباه ، فقد ذكر هذا المذهب وهو صبي :
نُورٌ تَظَاهَرَ فِيكَ لَاهُوتِيَّةٌ ، فَتَكَادُ تَعْلَمُ عِلْمَ مَا لَنْ يُعْلَمَا
والحلولية انتحلها جماعة من العلويين ، فقالوا بان روح الله تحل في ائمتهم حتى تبلغ
المهدي المنتظر . ونرى ان ابا الطيب قد تلقن هذا المذهب من باطنية الكوفة ، ورافقه
التفكير به الى اواخر حياته فاذا هو يقول في ابن العميد :
فَإِنْ يَكُنْ الْمَهْدِيُّ مَنْ بَانَ هَدْيُهُ ، فَهَذَا ، وَإِلَّا فَالْهَدَى ذَا ، فَمَا الْمَهْدِيُّ ؟
ولعل تأثره بهذا المذهب يؤيد الرواية التي تذهب الى انه ادعى العلوية في اول
امره ، وما العلوية الا الامام الباطن ، والمهدي المنتظر .

النفس

تكلم ابو الطيب غير مرة على النفس فقال :
فَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ مِنْ جَوْهٍ ، وَهَذِهِ الْأَجْسَامُ مِنْ تُرَابٍ
وهذا مذهب الماديين الذين يقولون بان النفس من الهواء . وقال ايضا :
وَالظُّلُمُ مِنْ شَيْمِ النَّفْسِ فَإِنْ تَجِدَ ذَا عِقَّةٍ ، فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ
وهذا قول من يرى ان الشر كامن في النفس ، وهو مذهب مادي ايضا لان
اصحابه يزعمون ان الخير في الجسم ، ويخالفون في ذلك مذهب افلاطون الذي يقول
بان الخير في النفس ، والشر في الجسم . وتكلم ابو الطيب على خلود النفس قال :
تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ ، إِلَّا عَلَى شَجَبٍ ، وَاخْتَلَفَ فِي الشَّجَبِ
فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً ، وَقِيلَ تَشْرِكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ
وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا وَمُهْجَتِهِ ، أَقَامَهُ الْفِكْرُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالْتَعَبِ

١ الشجب : الهلاك ، يقول : تخالف الناس في كل شيء ، فلم يثقفوا الا على الموت ،
ولكنهم اختلفوا على حقيقة هذا الموت .
٢ المهجة : الروح .

فقد اقر بعجزه عن ادراك الحقيقة، ووقف حائراً بين القولين لا بيت امراً
وحاول مرة ان يفسر الحالة التي تطرأ على النفس بعد مفارقتها الجسد فقال :
تَمَتَّعَ مِنْ سُهَادٍ أَوْ رُقَادٍ ، وَلَا تَأْمُلْ كَرِّىَ تَحْتَ الرِّجَامِ
فَإِنَّ لِثَالِثِ الْخَالَيْنِ مَعْنًى ، سِوَى مَعْنَى انْتِبَاهِكَ وَالْمَنَامِ
ولكنه لم يخرج بهذا التفسير من حيرته وعجزه .

المحسوسات

لم يشك المتنبي في المحسوسات ، كما انه لم يشك في المعقولات :
وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْإِفْهَامِ شَيْءٌ ، إِذَا أَحْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ

الكواكب

وكان الفلاسفة في عصره ، والفارابي في مقدمتهم ، يقولون بعقول الكواكب ،
يريدون به تأييد المذهب الانبثاقي الذي اعتمدوا عليه في تعليل خلق العالم . فلم يطمئن
المتنبي الى هذا القول فسخر به ، وانكره :

فَتَبّاً لِدِينِ عَبِيدِ النُّجُومِ - وَمَنْ يَدَّعِي أَنَّهَا تَعْقِلُ

ولكنه اعتقد تأثيرها الطبيعي في حظوظ الناس اسوة باهل زمانه :

نَفَى وَقَعَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ بِرُمُوحِهِ ، وَلَمْ يَخْشَ وَقَعَ النُّجُومِ أَوَّالِدَ بَرَّانٍ

على ان فلسفته الالهية ليست مما يؤبه له في معيار شاعريته وتفكيره ، وانما تقوم
متزلزلة على ارائه في الحياة .

١ الكرى : النعاس ويريد به النوم . الرجام : حجارة ضخمة تنصب على القبر
مفرداً رجمة .

٢ النجم : هنا الثريا . الدبران : خمسة كواكب من الثور وقيل نجم كبير في عين
الثور وهو من منازل القمر . يقول : ان هذا الرجل رد عنه قضاء الرماح برمحه . ولكنه
لم يحسب حساباً لقضاء النجوم ومناحسها ، وكانت قد قضت بحلول اجله .

كان الخدار المتنبى في مقابجه بقدر ارتفاعه في محاسنه، فجعل منها سلاحاً ماضياً
 بأيدي خصومه يحاربونه به. ولا يزيد ان نتقصى جميع ما أدرك عليه، فهذا بحث
 يطول اموه، وليس محله هنا. وقد عاجله قبلنا جماعة من الادباء المتقدمين كالصاحب
 ابن عباد، والقاضي الجرجاني، والحاتمي والثعالبي، والواحي وسواهم. فبحسبك ان
 ترجع الى الوساطة او يتيمة الدهر، او الصبح المتنبى لتقع على ضالتك. بل حسبك ان
 تطالع البحث البليغ الذي ذيل به الشيخ ابراهيم اليازجي ديوان ابي الطيب فان فيه
 نهاية الارب. وانما نحن نجتزئ بالدلالة على انواع معانيه، وبيان اسبابها، فنقول: ان
 المتنبى كان يعنى بتصيد المعاني ويغوص عليها في ابعاد قراراتها، حتى اذا امكنته
 ابرزها بالشوب الذي يتفق له فسواء عليه كان كرايس او خراً وديباجاً. وربما
 ازدحم عليه المعاني في البيت الواحد، فيلجأ في اظهارها الى التقديم والتأخير، والحذف
 وتقصير الالفاظ، فيكثر تداخله وتعقده، ويعتوره الغموض، فلا يحصل معناه الا بعد
 كد الحاطر وارهاق الذهن. واستبان للشيخ ابراهيم ان طائفة من غوامض المتنبى
 ليس فيها كبير معنى بحيث لو حللتها لما رأيت للشاعر عذراً في لباسها هذا الشوب
 البالي. وعزا ذلك الى التعمية في صور التراكيب، والباس المعنى غير ثوبه، فقد كان
 المتنبى يقع على المعنى الساقط فيحاول الخروج به الى الاغراب، وعلى المعنى المسبوق
 فيحاول البعد به عن اصله، فيغير ديباجته ويتحلق فيه حتى يفسده. واكثر معمياته
 واردة في اوائل شعره قبل ان تستحكم ملكته، وكان يومئذ يحتمل على خطة ابي
 تمام فيغرب ويتكلف، وينقب عن الوحشي من اللفظ، ويعتمد الصيغ الشاذة،
 والتراكيب الجافية، ويسرف في طلب المجاز والبديع، فمن ذلك قوله:

أَحَادٌ أَمْ سُدَّاسٌ فِي أَحَادٍ، لَيْتَنَّا الْمَنُوطَةُ بِالتَّنَادِي؟

قال صاحب بن عباد: «وهذا من عنوان قصائده التي تحير الافهام، وتفوت

التنادي: (القيامة). يقول: ان ليلته لطولها معلقة بيوم القيامة. وقوله: احاد. اي
 أحاد؟ والمعنى ان ليلته دهر، وكل ليلة من ليالي هذا الدهر سبعة ايام.

الاهام، وتجمع من الحساب مالا يُدرك بالأرقام طريقي، والاعداد الموضوعة للموسيقى.
ويؤخذ عليه فساد ذوقه في مطالع المدح :

أَوْهَ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلِي وَاهَا ۱ لِمَنْ نَأَتْ ، وَأَبْدِيلُ ذِكْرَاهَا ۱

قال الثعالبي : « وهو برقية العقب اشبه منه بافتتاح كلام في مخاطبة ملك .
وعيب عليه الاستكثار من استعمال ذا ، وهي ضعيفة في صنعة الشعر ، دالة على
التكلف ، ويزيدها قبحاً وغلاظة ان تأتي ثقيلة على السمع ، متقلقلة في موضعها ،
ظاهرة التكلف كقوله : يُضاحكُ في ذا اليوم كلُّ حبيبه . »

وعيب عليه تكرار اللفظ حتى يثقل وقعه ، ولا يحسن فيه المعنى :
وَلَا الضَّعْفَ حَتَّى يَتَّبَعَ الضَّعْفَ ضَعْفُهُ ، وَلَا الضَّعْفَ الضَّعْفَ الضَّعْفَ ، بَلْ مِثْلُهُ أَلْفٌ ۲

فقد اراد المغالاة في ممدوحه فحشر نفسه في هذا المأزق الموحد حتى غرق .
وكان ممدوحه احب ان ينتقم للشعر فلم يجزه بسوى دينار واحد .
ومن مقابحه خشونته في مخاطبة الملوك :

عَيْبٌ عَلَيْكَ تُرَى بِسَيْفٍ فِي الْوَعَى ، مَا يَصْنَعُ الصَّمْصَامُ بِالصَّمْصَامِ ؟ ۳
وسوء تلخيصه من الغزل الى المدح :

عَلَّ الْأَمِيرَ يَرَى ذُلِّي ، فَيَشْفَعُ لِي إِلَى الَّتِي تَرَكْنِي فِي الْهَوَى مَثَلًا ۴

ولم يقنع بتكليفه هذه المهمة الشنعاء حتى جعله يعتقل رحمه ايحارب امرأة ،
ويأخذ له بثأره منها :

أَيَقَنْتُ أَنَّ سَعِيدًا آخِذٌ بِيَدَيَّ ، لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرَّمْحِ مُعْتَقَلًا ۵

۱ أوه : كلمة توجع . واهَا : كلمة تعجب واستطابة . وقوله : والبديل ذكرها
اي والبديل منها ذكرها .

۲ مثله : منصوب على الحال لانه نعمت نكرة قدم عليها . والف خبر عن محذوف اي
بل انت الف . يقول : انه لا يرضى لممدوحه ان يكون ضعف الوري بل الوف الاضعاف .

۳ ترى : حذف ان : أي ان ترى . الصمصام : من اساء السيف . والمعنى ان سيف
الدولة صمصام ، فعيب عليه ان يحمل صمصاماً في الحرب ، وماذا يصنع به وهو مثله .

۴ سعيد : اسم ممدوحه وهو سعيد بن عبدالله الكلبي المنبجي .

ويعاب عليه غلوه المستنكر حتى يخرج به الى الاحالة . وسرقاته عن تقدمه كالي تمام والبحري وابن الرومي وسواهم . وتكراره للعاني ، وهذا عندي ليس بعيب فلشاعر ان يستعين بمعانيه متى شاء ، على ان لا يفرط في تردادها والمتنبى لم يفرط في التكرار .

وهو اقل الشعراء اخلاقاً بالاوزان ، فليس في ديوانه الا بيت او بيتان خرج بهما عن الوزن كقوله :

تَعَثَّرْتُ بِهِ فِي الْأَفْوَاهِ أَلْسِنَهَا ، وَالْبُرْدُ فِي الطَّرِيقِ ، وَالْأَقْلَامُ فِي الْكُتُبِ ١

فقد اختلس حركة الهاء من به . ويدرك عليه بعض سقطات في اللغة كقوله :
مَنْ لَبِيضَ الْمُلُوكِ أَنْ تُبْدَلَ اللَّوْنُ نَ بِلَوْنِ الْأُسْتَاذِ وَالسَّحْنَاءِ
ووجه الكلام ان يقول : « ان تبدل بلونها لون الاستاذ . » لان ما دخل عليه حرف الجر في هذا الفعل كان هو المتروك .

مصراته

اوتي المتنبي شهرة لم يوتها شاعر قبله ، ففسار شعره على غوارب السنين والاحقاب ، تردده الحواضر والبوادي ، وتختصم فيه مجالس الادب ، وتعتقد عليه حلقات الطلب . وحجب شعراء زمانه فلم يذكر معه الا ابو فراس ، ولولا مكانه من السلطان لاختفاه . وكان من عداوة الادباء له ان ضاعفت سيرورة شعره ، لان اهتمامهم بنقد اقواله ، واطهار معانيه ، جعل الناس يلتفتون لفته من كل صوب ، وقام له انصار ينافحون عنه ، ويردون حجاج خصومه ، فصنفت الكتب في ما له وما عليه ، وعني الشراح بتفسير ديوانه لكثرة الراغبين فيه ، فكتب له الخلود في ارفع الواحه ، وتبوأ اعلى درجاته . هذا ولسنا نزعم ان خلوده مدين لعداوة الادباء دون غيرها فلو لم يكن في شعره ما

١ به : الضمير لخبر وفاة اخت سيف الدولة . البرد : جمع بريد وهو الرسول . يقول : تلجلجت بذكره الالسة ذعرا ، وتعثرت الرسل الحاملة له في الطرق ، ورجفت ايدي الكتاب في كتابته .

٢ من لبيض الملوك : اي من يكفل لهم . السحناء : الهيئة .

يستحق هذا الاهتمام لما شغل به الناس ، وملاً الدنيا على حد قول ابن رشيق ؛ فإن في شعره من قوة البلاغ ، وطيب المساغ ، ما يستبني السماع ، ويلج القلوب بغير استئذان . ولربما قرأت له قصيدة دون ان تبغي حفظ شيء منها ، فما تتركها الا وانت راوية له على الرغم منك . ولا ريب في ان ذلك عائد على وفرة مقلداته التي استقاها من فلسفة الحياة ، فلا تقع حادثة في نظام الاجتماع الا كان لها في شعره ما يتمثل به ، فكانه كما يقول الشيخ ابراهيم اليازجي : « ينطق بالسنة الحدثان ، ويتكلم بخاطر كل انسان . » وقد وفق لافراغ هذه المقلدات في قالب سهل واضح ، فساغتها النفوس ، وعلقت بالخواظ ؛ وقلما وجدت له بيتاً عائراً الا وقد جمع حلاوة اللفظ وشرف المعنى .

وشيء آخر عمل لتوطيد شهرة المتنبي وخلوده وهو ما تجدد في شعره من تصوير المعامع ، واطواء الشجاعة والحمية والشرف ؛ فان الانسان مطبوع على حب القوة ، يلد له ان يتغنى بها ، ويتمنى ان ينسب اليها ولو كان ضعيفاً . وكذلك الانسان يكبر الشرف والحمية ، وان كان دينياً ساقط المروءة . فاشتمال شعر ابي الطيب على هذه الميزات العالية ملكه قلوب الناس وخواطروهم ، فحفظوه واستشهدوا به حتى ان صاحب ابن عباد وهو اشد خصومه لبدأ كان احفظهم لشعره ، واكثرهم تمثلاً به في محاضراته ومكاتباته . ولا يزال شعر المتنبي في زماننا معيناً غيراً يترشف منه الشعراء والكتاب . وامتازت لغة المتنبي في قوتها فلاءمت بها قوة نفسه ومعانيه واغراضه . وتبدو هذه القوة في الفاظه الصلبة ، وتراكيبه المتينة ، وتشابيهه واستعاراته ؛ عيها خيال بدوي عنيف ، يسمح في ساء محجة بالغيوم ، تنقض منها الصواعق ، وتثور فيها الزوابع ، وتنقذ عنها الرجوم ، فما يعود الا مضرراً بالدماء .

وكان حياته المضطربة تأثرت في توجيه عاطفته ، فان تردد في البادية ، ومغامراته الكثيرة ، واخفاقه المتتابع ، وتشاؤمه بالزمان واهله ، جعل عاطفته تنمو خشوشة متصلة ، لا ترتاح الى سوى العنف والشدة . وكذلك اثرت فيها ثقافته الفلسفية وتطلبه المعاني فضعف عملها في كثير من المواطن بقدر ما قوي عمل التفكير . وتمفوت ديباجته ، فأحياناً تنجلي صافية لها رونق ورواء ، فتطرب وتبهج وتحمس ، وأحياناً تتجهم كدرة معقدة نافرة ، فتضيق بها النفس وتتأذى منها الاذان .

٧٧ و ابو الطيب يمثل شطراً كبيراً من عصره ، ففيه تتجلى تلك النهضة الفكرية التي سمت بها العلوم والفلسفة والمنطق . وفيه يتمثل اتساع الرزق على الشعراء ، لتعدد حواضر العلم والادب ، وتنافس الامراء في استقدام الشعراء ليمتدحوهم ، ويغالوا في نعوتهم حتى اصبح الشعر تكسباً كله . وفيه يتمثل اضطراب الحالة السياسية ، وتحفز كل ذي طموح الى التملك ، وكثرة الحروب والخروج والفتن .

وعلى الجملة فشعر المتنبي وثيقة تاريخية لزمانه . وهو ابرع من وصف جيشاً ، وصور ملحمة ، ولو طالت ملاحمه لسد ثلثة في الشعر العربي . وهو اكثر الشعراء المتقدمين بيتاً مقلداً ، وانضجهم تفكيراً وحكمة ، وابصرهم بفلسفة الحياة واخلاهم على كروار الاجيال .

ابو فراس

٩٣٢ — ٩٦٧ م و ٣٢٠ — ٣٥٧ هـ

حياته : نسبه . اسره . موته . صفاته واخلاقه . اثاره .
ميزته : لم يدح . غزله . ترفعه . فخره . روميته . ما ادرك عليه . مترلته .

هياة

هو الحارث بن سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني ، عربي النجار ينتمي بعمومته الى تغلب فريضة الفرس ، ونجؤولته الى تميم فضر الحمراء لقوله :

لَمْ تَتَفَرَّقْ بِنَا خُوُولُ ، فِي الْعَزِّ أَخَوَانَا تَمِيمُ

وكنيته ابو فراس ، ولد على الارجح في الموصل حيث كان ابوه واسرته . وقتل ابوه وعمره ثلاث سنوات ، قتله ابن اخيه ناصر الدولة لانه سعى سرأ في ضمان الموصل وديار ربيعة من جهة الرازي بالله الخليفة العباسي . فنشأ ابو فراس يتيماً تحتضنه امه ، ويعطف عليه ابن عمه سيف الدولة اخو ناصر الدولة .

فلما قام عرش الحمدانيين في حلب سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) كان شاعرنا في جملة من ضمهم بلاط سيف الدولة من آل حمدان . فشب في كنف ابن عمه يشملهحنانه ورعايته، فوسخت محبته في قلبه صبيًا، وميزه سيف الدولة بالاكرام من سائر قومه لما رأى من نجابته ومحاسن اخلاقه .

ولقي ابو فراس في الحضرة جمهرة من كبار العلماء والادباء، فتنخرج عليهم في اللغة والشعر والرواية حتى برع . ولما بلغ أشده أخذ سيف الدولة يستصحبه في غزواته، ويمرسه بمواقف الاهوال، فخرج فارساً مغواراً، بصيراً بمواقع الطعن والضرب، فحارب الروم، ونازل الدماشق^١ وسطاً على القبائل الثائرة بابن عمه؛ فأذل كعباً وكلاباً، ونميراً وقشيراً . واصبح لا يطيب له غير مقارعة الكتائب، وملاقاة الابطال، والزود عن حياض الملك حتى اذا استخلفه الامير على اعماله، ولم يستصحبه في غزوة غزاها، تكدر وتوسل اليه ان لا يحرمه صحبته :

لَا تُشْغَلَنَّ، فَأَرْضُ الشَّامِ تَحْرُسُهُ، إِنَّ الشَّامَ عَلَى مَنْ حَلَّه حَرَمٌ^٢
لَا تَحْرِمُنِي سَيْفَ الدِّينِ صُحْبَتَهُ، فَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي تَحْيَا بِهَا الْأُمَمُ^٣

واقامه سيف الدولة على منبج، فتولى اعمالها، وحارب الروم دونها .

اسره

تضاربت الروايات في اسر ابي فراس، فمن قائل انه أسر مرة واحدة، ومن زاعم انه أسر مرتين، فقد حدثنا صاحب يتيمة الدهر بان الروم اسرته في بعض مواقعها بعد ان جرح بسهم اصابه في فخذه، وبقي نصله فيها، فحمل الى خورسنة^٤ ثم الى قسطنطينية . وذكر ابن خلكان هذه الرواية، واسندها الى ابي الحسن علي بن

١ الدماشق : جمع دُشُشُق : قائد قواد الروم .

٢ يقول : لا يشتغل قلبك على الشَّام اذا غبت عنه معك فان ارضه تحرسه .

٣ صحبته : الضمير لسيف الدين .

٤ قلعة ببلاد الروم، والفرات يجري من تحتها .

الزّراد الديلمي، وجعل تاريخ اسره سنة ٣٤٨هـ (٩٥٩م) وتاريخ فدائه سنة ٣٥٥هـ (٩٦٥م) ثم استدرك فزعم ان المؤرخين نسبوا ابن الزّراد الى الغلط، وقالوا: اسر ابو فراس مرتين، فالمرة الاولى بغارة الكحل في سنة ٣٤٨هـ. وما تعدوا به خرسنة. وبني على نجاته اسطورة، فقليل انه ركب فرسه وركضه برجله، فأهوى به من اعلى الحصن الى الفرات. والمرة الثانية اسره الروم وهو على منبج في سنة ٣٥١هـ (٩٦٢م) وحملوه الى قسطنطينية، فاقام فيها اربع سنوات حتى افتداه سيف الدولة سنة ٣٥٥هـ. اما نحن فنميل الى ترجيح الرواية الاولى ما خلا اسطورتها لاسباب منها: ان الثعالبي، وهو اقرب الرواة عصرأ الى ابي فراس، لم يذكر له سوى اسرة واحدة، ولم يرو اسطورة نجاته كما رواها ابن خلكان، مع انه شديد الاعجاب به لا يذكر اسمه الا بالاعظام، فلو صحت الاسطورة والاسرة الثانية، لما غفل عنهما صاحب يتيمة الدهر. ومنها: ان الرواة لم يختلفوا في شأن الفداء، فقد اتفقوا على ان سيف الدولة افتداه مرة واحدة وهو اسير في قسطنطينية. ومنها ان ابا فراس لم يقل روميته الا بعد ان طال اسره، وابطأ سيف الدولة في بذل فدائه، وله رومية شهيرة نظمها في خرسنة، وبعث بها الى سيف الدولة لما علم ان والدته قصدت اليه من منبج تكلمه في المفاداة، فلم يجب طلبها، وفيها يقول بلسان امه:

يَا مَنْ رَأَى لِي بِحِصْنِ خَرْشَنَةِ أَسَدَ شَرَى فِي الْقُبُودِ أَرْجُلَهَا

فهذا يدل على انه اخذ يعاتب ابن عمه وهو في خرسنة، فلو اعتمدنا الرواية الثانية لما صح لابي فراس ان يقول شعراً يطلب فيه الفداء الا في قسطنطينية حيث طال اسره بحسب هذه الرواية، وتعذرت مفاداته. فلهذه الاسباب نرى ان الشاعر لم يؤسر غير مرة واحدة، وقد امتد اسره سبع سنوات، فسلخ ثلاثاً منها بنجر خرسنة، واربعاً بقسطنطينية، ونظم روميته في كلا المحبسين.

ولم يذكر لنا المؤرخون السبب الذي من اجله تباطأ سيف الدولة في بذل الفداء لابن عمه، وليس في شعر ابي فراس ما ينبئ عنه، فهل تعذرت المفاداة لتشدد الروم

في استبقاء الشاعر الامير عندهم وهم يعلمون مكانته . ام هل تعذرت لامر اراده سيف الدولة من اطالة اسر ابن عمه ؟ ذلك ما لا نستطيع القطع به ، ولكننا نرى ان صاحب حلب لو اراد تعجيل الفداء لما عثر عليه ، وان غلت شروطه لان ابا فراس اغلى منها في دولته . ولكنه اثر التسويف لغرض في نفسه ، ولعله احس من الشاعر الفارس طمعاً في الملك ، وتريب من ادلاله وزهوه بشجاعته ، فرأى ان يصرفه عن وجهه زمنياً ، ويمد في اسره ، ليضعف عزائه ، ويريه ان الدولة غنية عنه ، وان النصر يتم بدونه ، ففعل ما فعل حتى حان وقت الفداء فافتداه .

موته

توفي سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٦ م) بعد خلاص ابي فراس بعام واحد ، وخلفه ولده ابو المعالي سعد الدولة ، وهو ابن اخت شاعرنا ، يعاونه على الامر قرغويه مولى ابيه . فخطر لابي فراس ان يتغلب على حمص ويقتطعها ، وهذا يؤيد مازعمناه من مطامعه في الملك ، فقصده قرغويه بجيش الى حمص ، فاستظهر عليه وقتله . وروى ابن خلكان عن ثابت بن سنان الصايي ان جثته بقيت مطروحة في الهيرة الى ان جاء بعض الاعراب فكفنه ودفنه . وقد رثاه ابو اسحق الصايي بقصيدة نوه بها الثعالي ، ولم يذكر منها شيئاً .

صفاته واهله

كان ابو فراس طويلاً بديناً ، تبدو عليه دلائل القوة والبطش ، وقد وصف نفسه فقال :

مَتَى تُخْلَفُ الْأَيَّامُ مِثْلِي لَكُمْ فِتًى ، طَوِيلَ نِجَادِ السَّيْفِ ، رَحْبَ الْمَقْلَدِ^١
وشاب وهو في العشرين :

وَمَا زَادَتْ عَلَى الْعِشْرِينَ سِنِي ، فَمَا عُذْرُ الْمَشِيبِ إِلَى عِذَارِي^٢

١ طویل نجاد السیف : كناية عن طول القامة . رحب المقلد : كناية عن سعة ما بين المنكبين .

٢ العذار : الشعر النابت على جانب الوجه المحاذي للاذن .

واصابته طعنة في خده فبقي اثرها :

مَا أَنَسَ قَوْلَتَهُنَّ يَوْمَ لَقِينَنِي : أَرَى السِّتَانَ بِوَجْهِ هَذَا الْبَائِسِ^١

ووصفه الثعالبي فقال : كان فرد دهره ، وشمس عصره ، أدباً وفضلاً ، وكرماً ونبلاً ، ومجداً وبلاغة وبراعة ، وفروسية وشجاعة . « اه

وكان كغيره من ابناء الملوك يميل الى اللهو والعبث والسماع ، ولكن حياته كانت سلسلة حروب وغزوات ، واسر واعتقال ، فلم يُتَح له ان يتنعم بمخضر العيش ، ويرتوي بماء الشباب . وانما كان يقتصر اللذات افتراضاً فاذا سنحت له شرب وطرب ، ولها وعبث ، ودلف الى بيوت الحمارين :

وَقُمْنَا نَسْحَبُ الرِّيطَ ، إِلَى حَانَةِ خَمَارٍ^٢

وَمَا فِي طَلَبِ اللَّهِو ، عَلَى الْفَتَيَانِ ، مِنْ عَارٍ

وكان صبوراً لا يستخفه الجزع ، ولا يوهى له جلد ، ولطالما اوصى بالصبر ، وافتخر به . وهو الى ذلك حسن التدين ، عظيم الثقة بعناية الله . وكان يتشيع للعلويين .

أما

لابي فراس ديوان جمعه ابن خالويه بعد موته ، واورد له الثعالبي في يتيمة الدهر طائفة حسنة من مختاراته ، ولاسيا الروميات . وافضل طبعات هذا الديوان ما اخرجته المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٤٥ بعناية سامي الدهان الذي تولى جمعه ونشره وتعليق حواشيه ووضع فهرسه .

ميرته

الشعر عند ابي فراس ألهُوَّة يتلهى بها ، وبلسم يداوي به كلومه ، وقمطر يجمع فيه مفاخره . وقد اغناه الله عن السؤال بعزة الملك ، ونعيم الدولة ، فلم يصطنع

١ قوله : ما انس : يجوز لانه فعل الشرط وجوابه محذوف والتقدير لا انس . أرى : حَقَّر .

٢ الرِّيط : جمع رِيطَة وهي كل ثوب لين رقيق يشبه الملاحفة .

المدح ولا الهجاء ، وانما مدح قومه وعشيرته وهذا فخر لا مديح :

نَطَقْتُ بِفَضْلِي ، وَأَمْتَدَحْتُ عَشِيرَتِي ، فَمَا أَنَا مَدَاحٌ وَلَا أَنَا شَاعِرٌ ١

ومدح بعض اصدقائه من آل ورقاء وسواهم ، وهذا من نوع الإخوانيات .
فالمدح والهجاء لا حظ لهما في شعر ابي فراس ، وما القصيدة التي هجا بها العباسيين ،
ومدح العلويين الا من النوع السياسي ، اندفع اليه شاعرنا بعاطفة التشيع لعلّي وابنائهم .
ولم تكن حياته المضطربة لتسمح له بان يفتنّ في وصف مشاهد الطبيعة ، واسباب
اللهو فلم يترك فيه شيئاً يستحق الذكر .

وكذلك الرثاء لم يكن له يد فيه ، فقد ماتت اخته فرثاها ، فلم يحسن رثاءها .
وماتت اخت سيف الدولة ، فاراد ان يرثيها فلم يصنع شيئاً وانما شجاء ان يحزن
اخوها . ورثى ابن سيف الدولة فما تم له الاحسان . ومات سيف الدولة فلم يقل فيه
شيئاً على ما بينهما من مودة وقربى . وما كان لابي فراس ان يقصر في الرثاء ، وهو
شاعر عاطفي ، والرثاء قوامه العاطفة ؛ ولعل تعودده ركوب الاحوال والمخاطر جعله
يستهن الموت فما يرتاع له ، ولا يرى فيه ما يبعث على الجرع ؛ فكان يستقبل مصائب
الدهر في شيء من الانفة والاستكبار ، وحبس عاطفته فلم يطلق لها العنان في التفجع
والارنان . وربما كان سكوته عن رثاء سيف الدولة مسبباً عما وقع بينهما من جفاء
من اجل الفداء .

ونظم في الحكم فما تأتت له البراعة ، لان العاطفة اذا غلبت اضعفت قوة التفكير ،
وانما ترك بعض ابيات جرت مجرى الامثال كقوله : « وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءُ يُفْتَقَدُ
الْبَذْرُ . » وقوله : « وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَنَاءَ لَمْ يَغْلَهَا الْعَهْرُ . »

وله في الاخوانيات شعر حسن وخصوصاً ما كان منه في تسلية صديق نائبه
نائبه كالقصائد التي بعث بها الى ابي العشائر ، وكان هذا اسيراً عند الروم .
واجمل شعره ما جاء في مفاخره وروميّاته ، ونحن نعتمد عليها في دراسته ،
ونلم المالمأ بغزله .

لابي فراس غزل يأتي به موة في صدور مفاخره واخوانياته، واخرى مستقلاً في مقطعات صغيرة. ويختلف عن غيره من متغزلي المولدين بانه لم يتعهر فيه، وان استخف في بعضه حيث يذكر مجالس لهوه. ولم يتذلل لمن يحبه، فيدعوه بسيدته، ومالك رقه او يفرش خديه تحت اقدمه، بل يغلب عليه الكبر والانفة. واذا برّح به الوجد حبس دمه على عيون الناس لئلا يتبينوا فيه ضعفاً، وابى ان يبكي الا محتجبا بمقيص الليل. ثم لا يغفل عن نعت دمه بصفات ترفعه من وهدة الذل، فهو العصي، ومن خلائقه الكبر.

واذا رأى من حبيبه صدوداً استرضاه على شيء من الاعتداد بالنفس :

أَجْمِلِي يَا أُمَّ غَمْرٍو ، زَادَكَ اللَّهُ جَمَالًا ،

لَا تَلْبِيعِينِي بِرُخْصٍ ، إِنَّ فِي مِثْلِي يُغَالَى

وليس لشعره عروس اشهر بها، وقصر نسبه عليها، فحينما يذكر ام عمرو، وآخر عمرة، وكثيراً ما يشبب بشخص لا يسميه. والطف غزلياته، واشتملها لميزته في هذا الفن قوله في صدر احدى رومياته :

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ ، شَيْمَتِكَ الصَّبْرُ ، أَمَّا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ ؟

وقد تغلب الصنعة على غزله ولا سيما مقطعاته فانه كان يزينها بالطف التشابه والاستعارات، ويوشىها بانواع البديع حتى يكاد يبعد بها عن الطبع.

مفاخره

لا يستغرب الفخر من شاعر كابي فراس، تحلى باشرف صفاته ومعانيه : فمن فروسية وشجاعة، وإباء وعفة، الى نسب رفيع وحسب كريم، الى شاعرية جواده، وبيان ساحر. فاذا افتخر امعن في وصف شجاعته واقدامه، وبلائه في الحروب، وباهى الناس بابائته واعمامه وجدوده، وعدد ايامهم وحروبهم، ومدح سيف الدولة، وذكر مناقبه، وفاخر به لانه ابن عمه ومربيه. وله رائية طويلة تبلغ مائتي بيت

وخمسة عشر بيتاً ؛ تكاد تشتمل على جميع خصائصه في الفخر ؛ أكثر فيها من ذكر الغزوات والوقائع . ولو غني بالوصف والتصوير ، كما غني بسرد الاخبار لتترك ملحمة من فرائد الشعر القصصي . ووصف المعارك والجيوش والعُدَد ، ضعيف في شعر أبي فراس على الأجمال ، فقد كان همه في تعداد انتصاراته ، والادلال بشجاعته وكرمه ، وعفته وحلمه .

وقلما ترى في مفاخره اعتداداً مستكبرهاً كاعتداد أبي الطيب ، وخروجاً الى الاحالة كخروجه ، وان وقعت على شيء من ذلك ساغته نفسك ، ولم تنفر منه ، لقربه من الطبع وبعده من التكلف ، فتتمثل فيه اميراً معجباً بنفسه ، مزهواً بمناقب قومه ، يتكلم بعاطفته لابعقله ، والشعر العاطفي محبب الى القلوب كيفما جاء . ويمتاز فخره في نفجته الملوكية ، وفخامة لفظه وشدة اسره ، ولكنه لا يخرج الى الوحشي من الكلام .

روميانه

ويراد بالروميات القصائد التي قالها الشاعر وهو اسير في بلاد الروم ، فقد آلمه ان يتناساه ابن عمه ، ويهمل امره ، ولا يذكر ما له من بيض الايدي في دولته . وكان يزيد المأماً ما يبلغه من الاخبار عن والدته الحزينة ، فانها لم ترقأ لها دمة طوال اسره ، ولطالما قصدت من منبج الى حلب تلتبس الفداء من سيف الدولة ، ثم تعود خائبة ، مكلومة الفؤاد ، مكسورة الحاطر ، وما ان يعلم الاسير بنجرها ، حتى تقبض على صدره غصة القهر ، فيثور ثأره ، وتفيض شواعره ، فيبث اشجانه في مسامع بنات عاطفته . والروميات تشتمل على اجمل المزايا التي تحلى بها ابو فراس ، ففيها غرة نفسه ، وإباؤه ، وجراءته وشجاعته . وفيها حبه لوالدته ، وحنينه الى صبيته ووطنه . وفيها صبره وجلده وتقته المكيئة بعناية الله . وفيها شكايته لسيف الدولة وعته عليه . فكانها منذ كرات ضمنها ما كان ير به وهو مأسور .

وكان يتوقع من سيف الدولة ان يعجل افتدائه ، فلما استبطأه ارسل اليه يحثه على بذل الفداء :

دَعَوْتُكَ لِلجَنَنِ الْقَرِيحِ الْمُسَهَّدِ ، لَدَيَّ ، وَلِلنَّوْمِ الْقَلِيلِ الْمَشْرَدِ

وتأبى على ابي فراس نفسه الكبيرة ان يتدخل في طلب الفداء، لما به من انفة وعزة. فاما ان يطلبه لانه يريد ان يموت قتيلاً لا موسداً، او لان ملك بني حمدان ليس به غنى عنه. واما ان يطلبه من اجل امه العجوز :

لَوْلَا الْعَجُوزُ بِمَنْسَجٍ ، مَا خِفْتُ اسْبَابَ الْمَنِيَةِ !
وَكَمَا عَمَّا سَأَلْتُ مِنْ اَلْفِدَا نَفْسُ اَيَّةِ ،

وخطر له ان يلتجئ الى خراسان بعد ان اوجعه تباطؤ سيف الدولة عنه . فكتب اليه يقول : « مفاداتي ان تعذرت عليك ، فأذن لي في مكاتبة اهل خراسان ومراسلتهم ليفادوني، وينوبوا عنك في امري . » فآثر ذلك في سيف الدولة، وسأه ان يفزع ابن عمه الى قوم اعجاب غرباء، فارسل اليه يقول : « ومن يعرفك بخراسان ؟ » فألم ابا فراس ان يُنسب الى الحول، فقال من قصيدة يعاتب بها سيف الدولة :

فَلَا تَنْسِبَنَّ إِلَيَّ الْحُمُولَ ، عَلَيْكَ أَقَمْتُ ، فَلَمْ أَغْتَرِبْ
وَأَصْبَحْتُ مِنْكَ ، فَإِنْ كَانَ فَضْلٌ ، وَإِنْ كَانَ نَقْصٌ ، فَأَنْتَ السَّبَبُ
وَإِنَّ خُرَاسَانَ إِنْ أَنْكَرْتَ عَلَيَّ ، فَقَدْ عَرَفْتَهَا حَلَبُ

وهذا قول لا يصدر الا عن نفس عزيزة ، لا تلين لها خنزوانة مهما تراخى بها الاُسر، وتألبت عليها المصائب. ولطالما ناظر شاعرنا الدمستق ، وفخر عليه ، ورماه بقوارص الكلام، غير خاشٍ مغبة جراته ، ولا مبالي على اي جنبه وقع الامر. فمن قوله فيه وقد تناظرا في امر الدين :

أَمَّا مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ عَلَيَّ ، يُعْرِفُنِي الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ

وقال له الدمستق يوماً : « انما انتم كتاب ولا تعرفون الحرب . » فأحفظه ذلك من عدوه فرد عليه : « نحن نطأ ارضك منذ ستين سنة ، بالسيوف ام بالاقلام ؟ » وله شعر في ذلك .

واشدَّ ما كان حنينه الى وطنه واهله، فقد جمعت في صدره الشجاعة والصبر،
والرقة والحنو، ولكل من هذه الصفات أثر بليغ في حياته، ولا سيما حياة اسره فيينا
تراه يعاتب ويهدد ويعظ ويؤنب، اذا هو يلين ويلطف فييث صبابته، ويشرح هواه،
ويناجي والدته وصبيته وخلانه. وقد تهيج به الذكرى ريح تهب شامية، او عيد
يربه، او حمامة تنوح على شجرة، فتفيض شجونه، ويتسلى بالاشعار :

أَقُولُ ، وَقَدْ نَاحَتْ بِقُرْبِي حَمَامَةٌ : أَيَا جَارَتَا ! هَلْ تَشْعُرِينَ بِحَالِي ؟

وجملة القول ان ابا فراس تعذب في الاسر كثيراً ، ولقي اشد العنف والارهاق،
ولكنه لم يخفض رأسه، ولا اذل نفسه، وانما ظل شديد العزيمة، صليب العود، بادي
الشمم، جريء القلب، يجابه العدو في عقرداره، متدرباً بالصبر، متوكلاً على رحمة الله.

ولا بد من القول ان لاسره يدأ على خلوده، وعلى الادب معاً . فلولا روميته
لما كان له في سائر شعره ما يتميز فيه من الشعراء العاديين . ولولا اسره وشقاؤه لما جرى
طبعه بهذه القصائد الرائعة، فجاء بها ذوب العاطفة المتألمة، وعصارة النفس الكليم،
فكتبت اسمه في سفر الخلود، ومهرت الادب نوعاً طريفاً من الشعر الوجداني .

ما ادرك عليه

ادرك على ابي فراس من السرقات، كما ادرك على غيره، ولكنه يعاب في ما
سرقه عن ابي الطيب المتنبى، مع كرهه له، وتسريقه اياه، كقوله :

رَامِيَاتُ بِأَسْهُمٍ رِيْشَهَا أَهْذُ بٌ ، تَشْقُ الْجُلُودَ بَعْدَ الْقُلُوبِ

وقد قال ابو الطيب :

رَامِيَاتُ بِأَسْهُمٍ رِيْشَهَا أَهْذُ بٌ ، تَشْقُ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْجُلُودِ

ومما يدرك عليه اخذه باللغات الضعيفة كقوله :

وَمَا أَتَفَرَّتْ عَنْ رَيِّقِ الْخُسْنِ إِنَّمَا نَمْنَمْنَ عَلَى مَا تَحْتَهُنَّ الْمَعَاجِرُ^١
فهذه لغة اكلوني البراغيث . وربما رفع خبر كان واخواتها ، وسكن الفعل المضارع حيث لا مسوغ للتسكين ، كقوله :

قَدْ مَنَحْتُ الرَّقَادَ عَيْنَ خَلِيٍّ بَاتَ خَالٍ مِمَّا يَجُنُّ ضَمِيرِي^٢
وقوله :

لَسْتُ أَغْتَبِكَ ، وَالْعِتَابُ لِرُوحِي قَاتِلٌ ، وَالْعَذَابُ غَيْرُ وَحِيدٍ^٣

مصراته

قال صاحب بن عباد : « بدى الشعر بملك ، وختم بملك . » يعني امرأ القيس و ابا فراس . وقال الثعالبي : « وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة ، والسهولة والجزالة ، والعذوبة والفخامة ، والحلاوة والمتانة ، ومعه رواء الطبع ، وسمية الظرف ، وعزة الملك . ولم تجتمع هذه الحلال قبله الا في شعر عبد الله بن المعتز . و ابا فراس يعد اشعر منه عند اهل الصنعة ونقدة الكلام . » اهـ

وقد حق لابي فراس ان يستوي على الدرجة الرفيعة مع الشعراء ، ولكن الادباء المتقدمين لم يلتفتوا اليه كل الالتفات لاسباب منها ان معاصرتة لابي الطيب اخفتت صوته ، كما اخفتت اصوات غيره من اصحاب الشعر ، الا ان ابا فراس كان اظهر منهم لمكانته في دولته . ومنها ان المتقدمين كانوا يبنون مقاييس الفحولة على المدح والهجو ؛ فمن لم يشهر بهما لا يعد في الفحول . ولم يكن بابي فراس حاجة الى هذين الفنين فلم يصطنعهما ، فانحدرت منزلته بعض الشيء ، ولم يعد وده في الطبقة الاولى ، ولكنهم ختموا به الشعر ، وفضلوه على ابن المعتز . وبين هذين الشاعرين شبه ، فكلاهما ملك قال الشعر متلهياً لامتكسباً ، ونظمه في الفخر والغزل والاخوانيات ، الا ان حياة ابن المعتز

١ المعاجر : جمع معجر وهو ثوب تعجز به المرأة اي تشده على رأسها .

٢ يجن : يستد .

٣ وجيب : مردود من وجبه عنه : رده . وهو فيل بمعنى المفعول .

كانت راحة ورخاء ، فاكثر من وصف الرياض والحدائق ، ومجالس اللهو ، وغدوات الصيد ، فغلبت الصنعة على شعره . وكانت حياة ابي فراس حرباً واسراً ، فاجاد الفخر والحاسة وابدع في روميّاته ، وغلبت على شعره العاطفة ، لانه لم يتكلفه تكلفاً وانما جرى به طبعه الصحيح ، وهو في اشد حالات التأثر محارباً كان او اسيراً .

واستسلامه الى العاطفة المطلقة جعل في خياله ضيقاً ، فلم ينفسح له مجال التصوير والتزين ، فقد كان يصف حالته في الاسر كما يحسها ويشعر بها ، لا كما تجسمها الخيلة وتوسّعها . وكان يصف الحروب ، ويذكر الوقائع دون ان يلجأ الى الخيال لتلوينها وتعظيمها فعل المتنبي . فصوره الخيالية قصيرة الخطى ، قريبة المدى ، ولكنها لطيفة محببة .

وتماز لغمته في حسن اختيار الالفاظ ، وجمال التعبير ، وفيها الجزالة وشدة الاسر في موضع الشدة ، وفيها الرقة والسهولة في موضع الخنو . وجدير بنا ان ننصف ابا فراس فنقول : انه جيّد الشعر في حماسياته ، مبدع في روميّاته ، شاعر العاطفة في كليهما . وهو الشاعر الملك ، والملك الفارس ، والفارس الاسير .

الكتاب المولدون

العصر الثالث

ميزة النشر . انشاء المترسلين .

ميزة النشر

تبدل النشر ميزة جديدة ظهرت في انشاء المترسلين ووُضعت لها القواعد والاصول، و اقيمت الاهداف والحدود، فكان منها اسلوب واضح المعالم، يعتمد على الصناعة والتعميق. والترسل منذ نشوئه قائم على الصنعة والتزيين لانه وليد المواطن الارستوقراطية لمترفة . فقد كان اصحابه الاوائل ، اما وزراء وامراء ، واما متقربين الى الوزراء والامراء ، ومعظمهم من الموالى المستبحرين في الحضارة . فكان الزخرف والتنوق في العبارة من اخص غاياتهم . ولا بدع قترف الالفاظ من اتباع ترف الحياة، ولا سيما الترسل فإن اغراضه قليلة، فاذا لم يُحسن فيه تصريف الكلام، ضعف شأنه وانخفض منزلته . ولكنه كان في العصر الاولى غير يترتب التكلف لصحة طباع اهله ، ثم تداولته الاجيال ، فسارت به الصنعة في طريق الكمال بعامل النشوء والارتقاء . فما ان اكتمل العصر الثاني حتى بات المترسلون يلتزمون المحسنات اللفظية والمعنوية التزاماً، ويتكلفون لها تكلفاً .

و كأن الاقدار ابت الا ان يظل الترسل في ايدي الاعجام يتعهدونه باذواقهم حتى يبلغوا به اقصى حدود الفن والصناعة . واتاحت له كاتبين بليغين عبداً طريقه بما لهما من واسع السلطان، وبراعة الانشاء ، الا وهما ابن العميد وزير ركن الدولة، والصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة ففخر الدولة . فارتفع شأن الترسل بهما، وتعشقه

الكتاب، وجأهم عجم متقربون الى الحضرة، فاحتذوا على مثالها، وساروا بالاسلوب الجديد الى اعلى درجاته، ونبغ فيهم امثال ابي بكر الخوارزمي، وابي اسحق الصابي، وبديع الزمان الهمداني، وابي منصور الشعالي وسواهم .

انشاء المترسلين

يتناول الترسل عدة اغراض متلونة، فمنها الاخوانيات على اختلاف ابوابها . ومنها مقدمات الكتب . ومنها مناظرات الادباء . كمناظرة ابي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني، او مناظرة المتنبي والحاتمي . ومنها المناظرات السياسية كمناظرات الشيعة والعباسيين، والشعرية والعرب . ومنها المقامات وسنفردها مجتاً خاصاً بها . وامعن المترسلون في الوصف حتى جاروا الشعراء في خيالهم، فوصفوا القصور والحدائق والرياض، والازهار والبرك والجداول والانهار والبحار، والسفن والزوارق، والزينة والرياش، والحلى، والالات الطرب، والاطعمات والاشربات، والاواني، والفصول، والليل والنهار، والغيوم والمطر، والعود والبروق، والصيد والوحوش والطيور، والعواطف والشهوات . وتماجنوا في وصف الاماء والعلماء، ومجالس اللذة والطرب .

وحلوا انشاءهم بانواع الاليجاز والبديع، فالتمزوا التشابيه والاستعارات والكنائيات فكادوا لا يعبرون عن معنى بحقيقة لفظه . والتمزوا التزيين فجاؤوا بالمسجوع قصير العبارات على الغالب، مزدوجاً وغير مزدوج . وجاؤوا بالطباق والجناس وسواهما من المحسنات، فغلبت ميزة الشعر المصنوع على نثرهم، لا ينقصه غير البحور والاوزان .

وشغفوا بالاعتباس من القرآن والحديث والامثال لفظاً ومعنى . وتضمن الملمح والنوادر من التاريخ والعلوم، والاشارة الى الحوادث المشهورة . والاستشهاد بالشعر، فقد يحلونه نثراً، او يوردون البيت او نصف البيت، او لفظة شاردة من بيت . وقد تمر بك فقر لا تقرأ منها جملة الا رأيت بعدها بيتاً من الشعر، كقول بديع الزمان الهمداني في رسالته الى ابي بكر الخوارزمي :

أنا لُقرب الأستاذ، اطال الله بقاءه : « كما طرب النشوان مالت به الحمر . »

ومن الارتياح للقائه: «كما انتفض العصفور بآله القطر» ومن الامتراج بولائه «كما التقت الصهباء والبارد العذب». «ومن الابتهاج بمראה: «كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب».

وقول ابن العميد يصف شهر رمضان في رسالة الى ابي العلاء السروري :
كتابي، جعلني الله تعالى فداك، وانا في كدٍ وتعب منذ فارقت شعبان، وفي جهد ونصب، من شهر رمضان. وفي العذاب الادنى، دون العذاب الاكبر، من وقع الصوم، ومرتهن بتضاعف :

حرور أو أن اللحم يصلّي ببعضها غريضا، أتى أصحابه وهو منضج^٢
ومتمحن بهواجر يكاد أوaruhأ يذيب دماغ الضب، و: «يغادر الوحش قد مالت هواديها».

وآثروا الاطناب، وكرهوا الاليجاز وعابوه، فأفضى بهم ذلك الى الاكثار من المترادفات، والى معاقبة الجمل على المعنى الواحد كما رأيت في المثالين المتقدمين، فاصبح اللفظ غاية لهذا الاسلوب

وكان من تأثير المواطن الارستوقراطية التي نشأ فيها الاسلوب الجديد ان اصحابه اسرفوا في منح الالقاب، كسيدي الاستاذ، وسيدي الشيخ، وما شاكل. واكثروا من الادعية، فتركوا لمن جاء بعدهم قوالب لفظية تداولتها الاجيال حتى ابثذلت وصارت من سقط المتاع.

وتسرب هذا الاسلوب في لغة المصنفين، فاستعملوه في كتبهم فعل الثعالب في يتيمة الدهر. ولكنه لم يشع عندهم، فقد تحاماه سوادهم امثال ابي الفرج في اغانيه،

١ البارح : الريح الحارة في الصيف .

٢ الحرور : الريح الحارة بالليل، وحر الشمس، والحر الدائم . يصلّي : يشوى . غريضا : طريا

٣ اورها : حرها .

٤ الضب : دويبة على حد فرخ التمساح، وذنبه كثير العقد كذنبه، وله صبر عجيب على حرارة الشمس .

٥ الوحش : اي الحر الوحشية . هواديها : رؤوسها مفردا هادية . اي تميل الوحوش رؤوسها الى الاسفل لتسترها من حرارة الشمس .

والقاضي الجرجاني في وساطته، والآمدني في موازنته، وابن رشيق في عمدته، وانتحلوا
مذهب الجاحظ وسواه من الكتاب المطبوعين .
ونحن نجتزئ هنا بدرس آثار بديع الزمان ففيها غنى لمن يريد الاطلاع على
اسلوب المترسلين .

بديع الزمان

٩٦٧ ؟ — ١٠٠٧ م و ٣٥٧ ؟ — ٣٩٨ هـ

- حياته : نشأته واسفاره . مناظرته لابي بكر . زواجه وموته . صفاته واخلاقه :
ذكاؤه . استاذوه وعلومه . اثاره : ديوان شعر . مجموعة رسائل .
ومجموعة مقامات .
- ميزته : رسائله . اغراضها . سخره وتهكمه وتصويره . مقاماته : التعريف
بالمقامات . مخترع المقامات . تحليل مقامات بديع الزمان . المقامة
المضيرية . المقامة البشرية : اصطفت شاعرا لتاريخ الادب . انشاؤه .
مترلته .

مبا

هو احمد بن الحسين، المعروف ببديع الزمان، وكنيته ابو الفضل ولد بهمدان^١
وبها نشأ، واليها انتسب . ثم فارقتها سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) وهو في ميعة الصبي ،
وربيع الشباب . ووفد الى صاحب بن عبّاد في الرّي فحظي عنده . ثم قدم جرجان ،
فدخل فيها الاجتماعية، وتعيش في اكنافهم . ثم قصد الى نيسابور فوافاه سنة ٣٨٢ هـ
(٩٩٢ م) فأملئ فيها مقاماته ، وناظر ابا بكر الخوارزمي .

١ همدان : مدينة شمالي فارس .

مناظرة مع ابي بكر

لأنعلم من امر هذه المناظرة الا ما املاه بديع الزمان عنها، فان مؤرخي الاداب لم يذكروا من اخبارها غير ما اورده الثعالبي في يتيمة الدهر، وهو لا يكاد يتعدى الاشارة، باوجز عبارة، ولا يزيد على الاخبار بوقوعها، وانقسام الناس بين المتساجلين، وهبوب ريح الهمذاني لتصديه لشيخ راسخ القدم، صليب العود كاخوارزمي، وهو لم يزل غض الحداثة، مقتبل الشباب . ولكن البديع فصلها في احدى رسائله تفصيلاً وافياً، وذكّر جميع ما جرى فيها من منافسات، ومباهيات ومشقات . وخلاصتها ان ابا الفضل دخل نيسابور صفر الكف، رث الهيمّة، لان اللصوص دهموه ورفاقه، وهم في بعض الطريق، فابتزوا ما معهم من دراهم وثياب . وكان ابو بكر في نيسابور، فزاره البديع فلم يلتق لديه وفادة حسنة، وانما لقي صلفاً وتكلفاً لرد السلام . فعاد من عنده، وكتب اليه يعاتبه، فرد عليه يستنكر عتابه، وينكر ألا يكون وفاء حقه، ونسبه الى العريضة . فسكت البديع، وانقطع عن ذكر ابي بكر . ومضى على ذلك شهر فجعل اخوارزمي يعرض ببديع الزمان، ثم لا يكتفي بالتعريض حتى يعلن : «وجعلت عواصمه تهب، وعقاربه تدب .» وطلب ان يجمع بينهما وبين الهمذاني . وعرف البديع فكتب اليه يعرض عليه المناظرة، فاجتمعا مرتين بمشهد من القضاة والفقهاء والاشراف وغيرهم من سائر الناس . وتقارعا، فقرعه البديع بالمهاترة والتحقيق والمشاقة ونفسه بالمبادهة والحفظ، والشعر، والترسل، واللغة والعروض، والسجع . وخروج البديع رافع الرأس، وابو بكر منكساً : «ولما خرجت لم يلقيني الا بالشفاه تقيلاً، وبالاَفواه تبجيلاً . وانتظروا خروجه الى ان غابت الشمس، ولم يظهر ابو بكر حتى حضر الليل بجنوده، وخلع الظلام عليه فروته .»

فنتيجة المناظرة على رواية الهمذاني نصر مبين له، وخذلان ممين للخوارزمي . غير اننا لا يسعنا ان نطمئن كل الاطمئنان الى روايته وهو احد الخصمين . وليس لنا مستند سواها يشفع لها ويذكرها . فهي اشبه برواية الخاقاني لمناظرته مع المتنبّي .

ومن تدبرها بروية وأناة رأى فيها من صلف البديع واعتداده بنفسه، وتعامله على أبي بكر ما يجرح حقيقتها، ويلقي الشبهات عليها . فانه جعله ينخزل في جميع العلوم التي ناظره فيها ، ولم يتركه مرة يبلغ شأوه في باب من الابواب ، حتى في الترسل واللغة والسجع ، مع ان ابا بكر طويل الباع في هذه الفنون . ولم يرو له من الشعر الاكل غث ساقط . وبلغ من تجهيله اياه ان جعله لا يعرف ان للشاعرو ان يصرف مالا لا ينصرف ، وهذا لا يكاد يحمله صبيان الكتاتيب .

ولم يقتصر على تحقيره واخزائه ، بل حقو شهوده واخزاهم ، ونعتهم اقبح النعوت : « رجال يلعن بعضهم بعضاً ، فصاروا الى قلب المجلس و صدره ، حتى رد كيدهم في نحرهم ، وأقيموا بالنعال الى صف النعال . » مع انه افاض النعوت الحسنة على من كانوا له شهوداً وانصاراً .

وإنا ، وان كنا نكبر عبقرية أبي الفضل ، ونؤثره على أبي بكر ، لا نرى بداً من الشك في روايته . فغير معقول ان ينهزم خصمه على هذه الصورة الفاضحة ويصلد زنده في جميع الفنون ، لا تقتدح ناره ، ولا يهب شراره ، وهو احد شيوخ العلم ، وإاية الادب ، ومناظره فتي في اول عمره .

وقد رأينا ان الثعالبي لم يذكر في يتيمة ان البديع قهر ابا بكر ، وانما ذكر انقسام الناس بينهما ، وان هذه المناظرة كانت سبباً لنباهة الهمداني . ولا غرو في ذلك فان تصدي فتي رطب لشيوخ يابس العود ، ومقارعة له بمشهد من العلماء لا بد له ان يطير بشهرته ، ويجعل اسمه على الافواه . وغير عجيب ان ينقسم الناس بينه وبين خصمه ، فهذا دأبهم في كل مناظرة . وأن تكثر انصاره ، وله من ظرف الصبي ، وجماله خير شفيع .

ولبت الخصام ناشباً بينهما بعد المناظرة ، فكان ابو بكر يتبع مقامات البديع ويطعن عليها . والبديع يتبع شعر الخوارزمي ، ويعيبه ، حتى قبض ابو بكر ، فخلا الجو للهمداني لا ينافسه فيه منافس ، ودرت عليه اخلاف الرزق ، فحسنت احواله ، وخفض عيشه .

وعلقت نفسه بالاسفار فجاب خراسان، وسجستان، وغزنة، فخطي فيها جميعاً .
ولم يبق ملك او امير او وزير او رئيس، الا خصه برغائب النعم . ثم التقى عصاه بهراً ،
وأصهر فيها الى احد اشرافها ابي علي الحسين بن محمد الحشنامي ، فانتظمت احواله بصهره ،
وقرّت به عينه ، واشتد ظهره ، واقتنى بمعونته ومشورته ضياعاً فاخرة ، وعاش عيشة
راضية حتى تصرف فيه ايدي المنون . قيل مات مسموماً ، وقيل بل عرض له داء السمكة
فعبجل دفنه وهو حي ، فافاق في قبره ، وسمع صوته بالليل ، فنبش عنه ، فوجد قابضاً
على لحيته من هول القبر ، وشدة الدعر ، وقد مات . وكانت سنه اربعت على الاربعين .

صفاته واخلاقه

وصفه صاحب اليتيمة قال : « كان مقبول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ،
ناصح الظرف ، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد ، خالص المودة ، حلو الصداقة ،
مرّ العداوة . » اهـ . وكان على نشأته الفارسية يؤثر الانتماء الى العرب ، فيقول في احدى
رسائله : « اني عبد الشيخ ، واسمي احمد ، وهذان المولد ، وتقلب المورد ، ومضر
المحتد . » ويطعن على الشعوبية ، ويفضل العرب على العجم ، ولا يباي . فمن ذلك قوله
يرد على شاعر شعوبي هجا العرب وافتخر عليهم :

ثَرِيدٌ عَلَى مَكَارِمِنَا دَلِيلًا ، مَتَى أَحْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ ؟
أَلَسْنَا الضَّارِبِينَ جَزَى عَلَيْكُمْ ، وَإِنَّ الْجَزْيَ أَوْلَى بِالذَّلِيلِ .^٢
مَتَى قَرَعَ الْمَنَابِرَ فَارِسِيٌّ ، مَتَى عَرَفَ الْأَغَرَّ مِنَ الْحُجُولِ ؟^٣

١ هراة : بلد من خراسان .

٢ الْجَزَى وَالْجَزْيُ : جمع جزية ، وهي ما يؤخذ من خراج الارض ، ومن اهل
الذمة .٣ قَرَعَ الْمَنَابِرَ : اي قرعها بصوته او بعصاه وهو يخطب عليها . الاغر : الجواد في جبينه غرة .
الْحُجُولُ : جمع حجول وهو البياض في قوائم الفرس . والمراد ذي الحجول ، فحذف
للشعر . او المراد الحُجُول بمعنى اسم الفاعل ، اي الفرس المحجّل . ولكن المشهور الحجيل
فيقال فرس حجيل لا فرس حجول . ومعنى البيت انه ليس في الفرس خطيب ولا فارس .

مَتَى عَلَّقْتَ ، وَأَنْتَ بِهَا زَعِيمٌ ، أَكْفُ الْفَرَسِ أَعْرَافَ الْخَيُْولِ ؟^١
فَأَمَجَّدُ مِنْ أَيْبِكَ ، إِذَا أَنْتَسَبْنَا ، عُرَاةٌ ، كَاللَّيْثِ ، وَكَالْخُصُولِ^٢

وكان الى ذلك حسن العقيدة الدينية ، يتشيع للعوليين ويدحهم ولعله اتخذ
مذهب الامماعيلية الباطنية لكثرة مداخلته لهم .

نظاؤه

اشتهر البديع في ذكائه ، وقوة حافظته ، وسرعة خاطره . قال الثعالبي : « كان
يُنشد القصيدة التي لم يسمعها قط ، وهي اكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ، ويؤديها
من اولها الى آخرها ، لا يخرم منها حرفاً ، ولا يخل معنى . وينظر في الاربع والخمس
الاوراق من كتاب لم يعرفه ، ولم يره ، نظرة واحدة خفيفة ، ثم يهذها^٣ عن ظهر قلبه ،
ويسردها سرداً ، وهذه حاله في الكتب الواردة وغيرها . وكان يُقترح عليه عمل
قصيدة ، او انشاء رسالة في معنى بديع ، وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة
والجواب عنها فيها . وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدى بأخر سطر منه
ثم هلم جراً الى الاول ، ويخرجه كأحسن شيء ، واملحه . ويوشح القصيدة الفريدة من
قوله ، بالرسالة الشريفة من انشائه ، فيقرأ من النظم النثر ، ويروي من النثر النظم .
ويعطى القوافي الكثيرة ، فيصل بها الابيات الرشيقة . ويُقترح عليه كل عويص وعسير
من النظم والنثر ، فيرتجله في اسرع من الطرف ، على ريق لا يبلعه ونفس لا يقطعه .
وكلامه كله عفو الساعة ، وفيض اليد . وكان يترجم ما يُقترح عليه من الابيات
الفارسية ، المشتعلة على المعاني الغريبة بالابيات العربية ، فيجمع فيها بين الابداع
والاسراع ، الى عجائب كثيرة لا تحصى ، ولطائف تطول ان تستقصى . » اهـ .

١ علقت : علمت . زعيم : كفيل ومدع . الاعراف : جمع عُرْف وهو شعر عنق
الفرس . وقوله انت بها زعيم ، اي انت تزعم فروسية العجم ، او تكفل بها اي تضمنها .
ينكر عليهم الفروسية كما انكرها في البيت السابق .
٢ عرأة : اي اعراب عرأة .
٣ يهذها : يسرع في قراءتها .

لم نعرف من استاذي بديع الزمان غير اثنين اولهما ابن فارس صاحب المجمل ، فقد درس عليه وهو في همدان ، فأخذ عنه اللغة وآدابها . والآخر صاحب بن عباد فانه اتصل به بعد ان ترك همدان ، وتلمذ له في صناعة الترتيل ، وأفاد منه ادباً جمّاً . وكان لمداخلته الاسماعيلية اثر بليغ في تثقيفه ، فاقتبس شيئاً كثيراً من آرائهم ومعارفهم . وكان يعرف لغة الفرس وآدابهم . ونستدل من رسائله ومقاماته على براعته في علم الكلام ، واطلاعه على مذاهب اصحاب البدع واراىهم الفلسفية ، ومعرفة علم المنطق ، واحوال البلدان ، وطبائع اهلها ؛ مما يجعل منه ادبياً عالي الثقافة ، مكتمل الآلة في زمانه .

اماره

لبديع الزمان ديوان طبع في مصر ، وشعره مختلف المذهب ، فأنأ يجري مع الطبع ويخلو من التكلف ، كقصيدته التي رد بها على الشاعر الشعوي . وأنأ تظهر عليه الصنعة وتكثر فيه المحسنات اللفظية والمعنوية كسائر شعر عصره .

وله في النثر مجموعة رسائل نشرتها المطبعة الكاثوليكية في بيروت ، وشرح غريبها الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي . ومجموعة مقامات فيها اثنان وخمسون مقامة ، تولى شرحها الشيخ محمد عبده المصري ، ونشرتها المطبعة الكاثوليكية في بيروت . الا المقامة الشامية فقد تركت لما فيها مما ينافي الادب . وكذلك أغفلت بعض جمل والفاظ من مقامات اخرى . ويستفاد من رسائل البديع واقوال المؤرخين ان اصل المقامات اربع مائة ، فعبثت بها ايدي الدهر ، فما ابقث الا على اقلها .

صيرته

لا تقوم ميزة البديع على شعره ، فانه وان يكن له فيه اشياء حسنة ، فآثاره في النثر

ابلق واسمى، وبها طار ذكره، وخلد على كرور الليالي. فعلى هذه الآثار من رسائل ومقامات نعتمد في كلامنا عليه لنجلو تلك الميزة التي بوأته اعلی درجات الادب .

رسائله

تتوزع رسائل البديع على اغراض شتى كالسؤال والشكوى والعتاب، والاعتذار، والاسترضاء، والمدح والتهنئة. ويعرض في اكثرها لشؤونه الخاصة، فمن ظلامة يبسطها وشكاية يرفعها، وحاجة يشرحها. وله على خصومه حملات منكرات، فيصورهم تصويراً دقيقاً ملؤه السخر والنكاية، ويطعن عليهم بغير رفق ولا هوادة، فما يذكر لهم صفة الاقبحها، وشيمة الازلها. وتحفل رسائله بالآيات والامثال، والاشارات التاريخية، والاستشهادات الشعرية. ويستهلها على الغالب بالبسملة فالحمدلة، ويدخل عليها الدعاء. وهي في اكثرها قصيرة بليغة الاداء، واذا طالت في احوال مخصوصة، لا تفرط في الطول.

وكان يكاتب الامراء والوزراء والقضاة والشيخ وغيرهم. ومن ابلى رسائله ما كتبه الى ابي العباس الاسفرائيني وزير الامير محمود بن سبكتكين بعد فتح بهاضية من بلاد الهند. فقد استهل رسالته بذكر ما للامير من القوت العظيمة في مختلف الامصار، وما له من جهاد في سبيل الله والاسلام. ثم فرغ الى التنويه بفتح الهند، فدخل اليه مدخلاً حسناً بقوله: «وسنذكر من حديث الهند وبلادها». وراح يصف طبيعة البلاد حرها وقرها، وعقباتها وانهارها، حتى اذا بالغ في التصوير والتهويل انتقل انتقالاً حسن الاتساق، فقال: «حتى اذا خرقت هذه الحجب خلص الى عدد...» وطفق يطنب في ذكر

١ محمود بن سبكتكين اعظم سلاطين الدولة الغزنوية. امتدت سلطته على افغانستان وتركستان وخراسان وطبرستان، وسجستان، وكشمير، وشمالى الهند. وملك من سنة ٣٨٨ - ٤٢١ هـ (٩٩٨ - ١٠٣٠ م). وملوك الدولة الغزنوية اترك، يتسبون الى غزنه قاعدة ملكهم. وكانت حياة دولتهم من سنة ٣٥١ - ٥٨٢ هـ (٩٦٢ - ١١٨٦ م).

عدد سكانها ، ويصف شدة بأسهم ، وغلاظة اكبادهم ، وتآبد اخلاقهم وعاداتهم .
فما ان انتهى من اوصافه حتى ظهرت الهند في مناعة الشمس ، واذا به يوجز فيقول :
« زحم الامير السيد ادام الله ظله هذه الاهوال بمنكبه . » وكأنه اطمأن الى
نجاحه في تعظيم القتح ، فلم يذكر شيئاً عن الحرب ، ولا عن جيوش الامير الغازي .
وانما اقتصر على ان جعل الفضل للامير بعون الله . وذكر الغنائم التي غنمها في عودته .

مقاماته — التعريف بالمقامات

المقامات اقاصيص خيالية مختلفة الاغراض والموضوعات . فمنها الادبية ، ومنها
العلمية ، ومنها الدينية ، ومنها الاجتماعية ، ومنها الاخلاقية ، ومنها المجونية . وفيها سخر
شديد ، ونقد لاذع . وفيها ضروب من التخالب والاحتيال ، للتكسب والتعيش .
وفيها صور متلونة لطبائع المجتمع وعاداته .

ومدار المقامات على بطل متبدل الالوان ، كثير الاحتيال ؛ فيه شر كبير ، وفيه
خير كبير . فهو دين منافق ، صادق كاذب ، مترهد ماجن ، واعظ خادع ، كل شي
وضده . وهو الى ذلك واسع العلم والادب ، شاعر خطيب ، متكلم راوية ، تجده
في كل مقامة ، وقلما خلت مقامة منه . ويتولى الحديث عنه راوية خيالي مثله ، يفاجئه
في كل مقامة ، ويفضح اسراره ، وينقل اخباره .

والفن القصصي ضعيف في المقامات لقصرها ، ثم لان القصة ليست غاية فيها بل
واسطة الاظهار شخصية بطلها في شتى احواله . ولقد تم مقامات غثة باردة لا قيمة فيها
للقصة البتة .

وتمتاز المقامات في جمال لغتها ، وكثرة غريبها ، واعتمادها على المجاز اكثر من الحقيقة ،
واصطباغها بالصنعة اكثر من الطبع . فهي ملتزمة السجعات ، انيقة العبارات ، حافلة
بالحسنات المعنوية واللفظية . فيها الامثال والاشعار ، والآيات والاحاديث ، فكل
مقامة قطعة ادبية ، لغتها لغة الشعر اكثر مما هي لغة النثر .

ممنوع المقامات

وبديع الزمان اول من جاء ناعنه فن المقامات، فله فضل المتقدم، وان زعم بعضهم انه اخذه عن استاذه ابن فارس، فليس في آثار استاذه ما يرجح هذا الزعم فضلاً عن تأكيدده. ولا يحط من قدر البديع قول الحصري في زهر الاداب انه رسم ابن دريد في احاديثه الاربعين. لان احاديث ابن دريد، نوادر ولطائف لم يستقل بها دون غيره، فللمجاذب مثلاً في البخلاء والحيوان، وكذلك لابن قتيبة في عيون الاخبار، ولابن عبد ربه في العقد الفريد. وهو في هذه الاحاديث يتوخى اظهار فصاحة الاعراب، والاشادة بفضائلهم، وليست المقامات كذلك. ويروي احاديثه عن عدة رواة معروفين، وللمقامات راوية خيالي واحد. وفي الاحاديث ابطال متعددة، وللمقامات بطل واحد.

واذا جاز ان يجعل الحديث نواة للمقامة فن باب التشابه القصصي، فالمقامة حكاية فنية راقية وضعت للخاصة. واما الحديث فنادرة يتلهم بها العامة والخاصة معاً، وكيف دار الامر فالمقامات غير الاحاديث الدريدية، ولا فضل في اختراعها الا لبديع الزمان.

تحليل مقامات البديع

لهذه المقامات راوية خيالي يعرف بعيسى بن هشام، رجل اخو سفر، لا يستقر به مكان، وربما اتخذ صفة التجار، او صفة المكدنين. ولها بطل يعرف بابي الفتح الاسكندري، يظهر في اكثرها، وينقل اخباره عيسى بن هشام. وابو الفتح هذا رجل خيالي ايضاً: «من الثغور الاموية، والبلاد الاسكندرية^١». صاحب خبث وحيل، يصطنع جميع المهن التي يحترقها الناس، من اجل الكدنية وابتزاز المال. وقلما خلت مقامة من الكدنية والاحتيال. وتراه مرة شيخاً جليلاً وقف في الناس واعظاً ينصح

١ الاسكندرية: ثغر من ثغور الاندلس

ويحذر، ومرة قرأ أيسلي الناس ويضحكهم، وأخرى مشعوذاً يدعي صنع المعجزات خديعة للقوم الساذجين . فيدر عليه الرزق ، وينتفع بشعوذته وخداعه ، فهو أشحد الناس ، وابعهم تسالاً . وهو الى ذلك اخطبهم وأشعرهم ، واعرفهم بعالم عصره . وقد اختلفت اغراض مقاماته وتنوعت ابوابها، فمنها الادبية كالمقامة الجاحظية، والمقامة القريضية، وفيها رواية وشعر ونقد . ومنها الدينية والاخلاقية والاجتماعية، فمن شيخ يتظاهر بالتقوى والتنسك ليعطف عليه الناس، ويعطوه . ومتسول يطوف ومعه طفل فصيح يسترق القلوب . وتاجر حديث النعمة، معجب بنفسه ، كثير الكلام، يضجر مستمعيه . ومجنون عاقل متبحر في علم الكلام، يرد على احد شيوخ الاعتزال . وغير ذلك مما يقع بين الناس في مصاحباتهم ومخالفاتهم .

وحوادث هذه المقامات تقع على الغالب في الامصار المتحضرة، وقلما عني البديع بالكلام على اهل البادية، كما في مقاماته الغيلانية، والاسدية والبشرية، والفزارية والاسودية . وهي، في اكثرها، قصيرة ضعيفة الفن القصصي، تكاد تكون غثة باردة، لولا حسن الصياغة، وبراعة التصرف في ضروب الكلام . واما ما طال منها فانه جميل مونتق كالمقامة المصيرية والبشرية والاسدية وسواها .

ورواية بديع الزمان، وبطله لا ينحصران في زمان محدود، فان عيسى بن هشام يحدثك في المقامة الغيلانية ، عن الفرزدق وذي الرمة كأنه معاصر لها . ثم يحدثك في المقامة الحمدانية عن سيف الدولة بن حمدان . ويحدثك عن خلف بن احمد، وكان والياً على سجستان معاصراً للهمداني ، وقد خصه البديع ببعض مقاماته، واشاد فيها بذكوره واطراه .

ونحن نجتري بتحليل مقامتين من مقاماته، احدهما المصيرية، وفيها تظهر براعة البديع في الوصف ودقة التصوير، على شيء كثير من السخر وخفة الروح . والاخرى البشرية، وهي التي وفق بها صاحبنا لاختراع شاعر جاهلي تبناه التاريخ من بعده الا وهو بشر بن عوانة العبدي .

المقامة المضيرية^١

يستهل البديع هذه المقامة كما يستهل غيرها باسناد الحديث الى راويته: «حدثنا عيسى بن هشام قال كنت بالبصرة، ومعني ابو الفتح الاسكندري رجل الفصاحة يدعوها فتحييه، والبلاغة يأمرها فتطيعه وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقدمت إلينا مضيرة». وبعد ان وصف المضيرة، وقصعتها وشغف المدعويين بها قال: «قام ابو الفتح الاسكندري يلغنها، وصاحبها، ويمقتها، وآكلها... ورفعناها فارتفعت معها القلوب، وسافرت خلفها العيون، وتحلبت لها الافواه وتلظت لها الشفاه». وسئل ابو الفتح عن امرها، فأخبر انه دعاه بعض التجار في بغداد الى المضيرة، فصار معه الى بيته، وطلق التاجر وهو في الطريق، يصف زوجته حتى ينتهي هذا المشهد بقول ابي الفتح: «وصدعني بصفات زوجته، حتى انتهينا الى محلته». فشرع التاجر يصف المحلة، وعظيمة دورها، وجعل داره منها كالجوهره الوسطى من العقد. وانتهيا الى باب الدار، فوقف يصف طاقتها، فبايها، فحلقة الباب. ودخلا الدهليز، فجأر التاجر بالدعاء: «عمرَك الله يا دار. ولا خربك يا جدار». وشرع يقص على ابي الفتح، كيف امتلك الدار، ومن اشتراها. ثم استطرد الى ذكر حظه الحسن، فذكر خبر عقد من اللؤلؤ اشتراه بثمان نجس، حتى اذا انتهى عاد الى داره، فروى حادثة حصيد اشتراه بالمناداة، ونعت صانعه، ونصح لابي الفتح ان يشتري الخضر من عنده ثم عاد الى حديث المضيرة، فطلب من الغلام الطست والماء. فقال ابو الفتح: «الله اكبر، ربما قرب الفرج. وسهل المخرج!» وما ان اقبل الغلام حتى شرع التاجر يعرض اوصافه، ويقص قصته، وينعته احسن النعوت. فجاشت نفس ابي الفتح، الا يريق، فالما، فالمنديل، ودعا بالخوان فجاء به الغلام، فراح يقلبه، وينقره بالبنان، ويعجمه بالاسنان، ويقص قصته، وينعته احسن النعوت. فجاشت نفس ابي الفتح، وقد تحقق له ان التاجر سيصف كل شيء يعرض على الخوان، ويذكر كيف اشتراه،

١ المضيرية: نسبة الى المضيرة وهي لحم يطبخ باللبن المضير اي الحامض.

٢ تلمظ: اخرج لسانه فمسح به شقيقه.

ومن اين اشتراه، ومن صنعه . فحاول الانصراف تخلصاً، فظنه التاجر يريد الخروج في حاجة نفسه، فانبرى يصف له الكنيف وحسنه . الى ان قال : « يَتَمَنَّى الضَّيْفُ أَنْ يَأْكَلَ فِيهِ . » قال ابو الفتح : « فقلت : كُـلْ انت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب . وخرجت نحو الباب ، واسرعت في الذهاب . وجعلت اعدو ، وهو يتبعني . ويصيحُ : يا ابا الفتح ! المضيرة ! وظن الصبيان ان المضيرة لَقَبُ لي ، فصاحوا صياحه . فرميتُ أحدهم بحجر . من فرط الضَّجَر . فلقي رجلُ الحَجَر بعمامة . فغاص في هامته . فأخذتُ من النعال بما قدّم وحدث . ومن الصَّع بما طاب وخبث . وحشرتُ الى الجبس ، فاقتُ عامين في ذلك النحس . فنذرت ان لا آكل مضيرة ما عشتُ »

فهذه المقامة من ابداع ماصنع الهمداني، ففيها جمال القصص، وروعة الفن، ودقة الوصف، وحسن الانتقال، واتساق الافكار . وفيها السخر والفكاهة والنكتة . ولو وفق البديع في جميع مقاماته توفيقه فيها ، لبلغ في هذه الصنعة غاية الغايات .

المقامة البُسرية

تمتاز هذه المقامة من سائر اخواتها من مقامات بديع الزمان في انها اصطنعت شاعراً لم تعرفه القرون الحالية ، وزفته الى تاريخ الاداب ، فاحتفل به المؤرخون، واعظموا شأنه ، ولم يجدوا مشقة في تحديد عصره ، فجعلوا وفاته في اواخر القرن السادس للمسيح . وهذا الشاعر هو بشر بن عوآنة العبدي صاحب القصيدة الشهيرة التي اولها :

أَفَاطِمَ لَوْ شَهِدْتَ بِبَطْنِ خَبْتٍ ، وَقَدْ لَاقَى الْهَزْبُ أَخَاكَ بِشْرًا ١

والقصيدة وصاحبها من صنع الهمداني، ولا غرابة في ذلك، فان البديع لم يكن في مقاماته مؤرخاً ولا راوية . وانما هو كاتب متفنن، وقاص خيالي . ولم يدع يوماً صحة مقاماته بل كان بالضد يفاخر في اختراعه لها، كما في رسالته الى ابي بكر الخوارزمي حيث

١ الخبت : اسم موضع والمطمئن من الرمل . والهزبر : الاسد .

يقول: « فيعلم ان من أملى من مقامات الكُذبة اربع مائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لا لفظاً ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر ، حقيق بكشف غيوبه . » اه
اعلى ان الغريب ان ينخدع بها جماعة من جملة الادباء والمؤرخين ، فيجعلوا المقامة البشرية قصة حقيقية ، وقصيدة الاسد شعراً جاهلياً ، وبشر بن عوانة بشراً سوياً . مع انهم لو راجعوا المصادر الادبية والتاريخية التي صنفت قبل المقامات لما وجدوا كتاباً واحداً يذكر بشراً ، او يشير الى قصيدته في الاسد ! فقد رجعنا الى أمّات الكتب القديمة ، فلم نسمع لبشر خيراً . فلا الضبي ذكره في مفضلياته . ولا ابن سلام في طبقاته . ولا ابن قتيبة في الشعر والشعراء ، وعيون الاخبار . ولا ابوقام والبحتري في حماسيتهما . ولا الجاحظ في البيان والتبيين ، والحيوان . ولا ابن عبد ربّه في العقد الفريد . ولا المبرد في كامله . ولا الطبري في تاريخه . ولا الاصفهاني في اغانيه . ولا المرزباني في الموشح . ولا ابن النديم في الفهرست . ولا المسعودي في مروجّه . ولا القالي في اماليه . ونظرنا في بعض الكتب الركيعة التي تأخر زمن اصحابها عن زمن صاحب المقامات ، فلم نرها تذكر بشراً في جملة الشعراء ، او تضيف اليه قصيدة الاسد . ومن هذه الكتب العمدة لابن رشيقي ، وزهر الاداب للحصري ، ومعجم الادباء لياقوت ، ووفيات الاعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات لابن شاکر الكتبي .

١ ولعل ضياء الدين بن الاثير صاحب المثل السائر ، اول من ضلّ فأثبت بشراً ، وأضل غيره من الادباء والمؤرخين . فانه لما عمد الى الموازنة بين المتنبي والبحتري في قصيدتيهما اللتين وصفا بهما الاسد قال : « اما البحتري فانه ألم بطرف مما ذكر بشر بن عوانة في ابياته الرائية التي اولها :

أَفَاطِمَ لَوْ شَهِدْتِ بِبَطْنِ خَبْتٍ ، وَقَدْ لَاقَى الْهَزْبُ أَخَاكَ بَشَرًا

وهذه الابيات من النمط العالي الذي لم يأت احد بمثله . وكل الشعراء لم تسم قوائهم الى استخراج معنى ليس بمذكور فيها . » اه وقال في مكان آخر : « ولفطانة ابي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحتري من الانسحاب على ذيل بشر لانه قصر عنه تقصيراً كثيراً . » اه

١ فابن الاثير يزعم ان البحترى قد تعلق في بائته التي وصف بها الاسد بمعاني بشر ابن عوانة، توهماً منه ان بشراً شاعر جاهلي قديم. ولعله استكثر قصيدة الاسد على بديع الزمان كما هو من طبيعته لا ينظر الى حسنات غيره الا في شيء من الصلف والتعنت، وخصوصاً اذا كانوا من اهل زمانه، فضن بها ان لا تكون لشاعر في الجاهلية، فاثبت بشراً غير متخرج، وتعامى عن حقيقة فن المقامات. فجاء بعده من تعلق باذياله، وادخل بشراً في صلب التاريخ.

ولم يقل احد قبل صاحب المثل السائر ان البحترى سرق عن غيره في قصيدته التي ذكر بها الاسد، مع ان الامدي في موازنته بين الطائيين اورد كل ما أدرك من السرقات على البحترى، وما كان له ان يغفل عن قصيدة بشر لو كان بشراً معروفاً عنده، لان فيها ابياتاً لها اشباه في قصيدة البحترى مثال ذلك قول بشر :

إِذَا لَرَأَيْتَ لَيْثًا رَامَ لَيْثًا ، هَزَبَرًا أَغْلَبًا لَأَقَى هَزَبَرًا

وقد قال البحترى :

هَزَبَرًا مَشَى يَبْغِي هَزَبَرًا ، وَأَغْلَبًا مِنْ الْقَوْمِ يَغْشَى لَيْسَلُ الْوَجْهِ أَغْلَبًا

وكذلك القاضي الجرجاني وهو كالامدي ممن تقدم زمانهم زمن البديع، فانه ذكر في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، قصيدة ابي الطيب في وصف الاسد، وقال : « ولولا ابيات البحترى في هذا المعنى، لعددت هذه من افراد ابي الطيب، لكن البحترى قال يصف قتل الفتح بن خاقان اسداً عرض له، فاستوفى المعنى، واجاد في الصفة، ووصل الى المراد . واما ابو زبيد فانما وصف خلق الاسد وزئيره، وجرأته واقدامه . وكأنما هو مرعوب او مخدر، والفضل له على كل حال . لكن هذا غرض لم ير منه ومذهب لم يسلكه . » اهـ

فالجرجاني لم يجعل المتنبي منفرداً في وصف الاسد لان البحترى سبقه الى ذلك واجاد . ولكن جعل الفضل لابي زبيد الطائي^١ لانه سابق الى هذا الغرض، وان

١ الاغلب : من صفات الاسد . والغايظ الرقبة . (الباسل : الكريه .

٢ ابو زبيد الطائي : شاعر نصراني مخضرم، شهر بوصف الاسد شعراً ونثراً .

يكن سلك اليه مذهباً يختلف عن مذهب ابي عبادة و ابي الطيب . ولو عرف القاضي بشر بن عوانة لذكره مع ابي زيد ، والفرصة اسنح ما يكون لذكره . ولا سيما ان مذهب بشر في وصف الاسد اشبه شيء بمذهب البحتري والمتني .

وفي رسائل بديع الزمان ابيات من وصف الاسد استشهد بها صاحبها من غير ان يعزوها الى بشر مما يدل على ان البديع لم يخطر في باله يوماً ان يجعل من مقاماته قصصاً تاريخية ، ولا من بشر بن عوانة شاعراً حقيقياً .

تحليل المقامة البسرية

لم يعتمد البديع الصناعة في هذه المقامة ، ولا التزم السجع والتزيين ، وانما تركها تجري مع الطبع ، فبعد بها شيئاً عن انشاء المقامات . فكانه ، وهو يتحدث عن شاعر في الجاهلية ، أبى الا ان يجعل كلامه ملئاً لعصر شاعره . وهذا من بعض حسناته ، الا انه لم يأت له ان يبعد بقصته عن الاغواب ، فهي على لطفها ، وفكاهتها ، وحسن سياقها ، فيها اشياء كثيرة لا يطمئن اليها العقل ، ولا يسلم بها المنطق . ولو لم تتخذ هذه المقامة تاريخاً لحياة شاعر حقيقي لما عطينا بنقد ما فيها من الاغراب ، لانه مستملح في قصص خيالية كالمقامات .

لا يظهر في هذه المقامة ابو الفتح الاسكندري ، ألا ان عيسى بن هشام يرويها وهو من عرفت . واولها : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كان بشر بن عوانة العبدى صعلوكاً ، فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة ، فتزوج بها ، وقال : « ما رأيت كاليوم ! » اه فانشدته السبيبة ابياتاً وصفت بها جارية حسناء . قال بشر : « ويحك من عنت ؟ » فقالت : « بنت عمك فاطمة . » فقال : « اهي من الحسن بحيث وصفت ؟ » قالت : « وأزيد وأكثرا » فتري ان بشراً لم يعرف ان له بنت عم حسناء الا من امرأة غريبة سبها في احدى غاراته . فلما عرف ذلك مل جانبها وطلقها : « ثم ارسل الى عمه يخطب ابنته ، ومنعه العم أمنيته ، فألى ألا يرعي على احد منهم إن لم يزوجه ابنته .

ثم كثرت مضراته فيهم ، واتصلت معراته^١ اليهم . فاجتمع رجال الحي الى عمه ، وقالوا : « كف عنا مجنونك . » فقال : « لا تلبسوني عاراً ، وأمهلوني حتى اهلكه ببعض الحيل . » فقالوا له : « انت وذاك . » ثم قال له عمه : « اني آليت ان لا ازوج ابنتي هذه إلا ممن يسوق اليها الف ناقة مهراً ، ولا ارضاها الا من نوق خزاعة . » وغرض العم كان ان يسلك بشر الطريق بينه وبين خزاعة ، فيقتسه الاسد ، لان العرب كانت قد تحامت عن ذلك الطريق . وكان فيه اسد يسمى داداً ، وحيمة تدعى شجاعاً .

ثم إن بشراً سلك ذلك الطريق ، فما نصفه حتى لقي الاسد وقص^٢ مهره ، فزتل وعقره^٣ . ثم اخترط سيفه الى الاسد ، واعترضه ، وقطعه^٤ . ثم كتب بدم الاسد على قميصه الى ابنة عمه : « افاطم لو شهدت . . . » اه

وهذه القصيدة شهيرة متداولة وفق فيها بديع الزمان كل التوفيق فقد ضمنها دقة الوصف ، وجمال التصوير ، وافرغها في قالب شائق ، متخير الالفاظ ، منسجم التعابير . ولكنها على طبعيتها ، وجزالتها ، تنتهي سلاسة ورقة ووضوحاً ، فتجعلك تشك في جاهليتها ، لان الشعر الجاهلي مهما سهل ولان ، لا يخلو من خشونة البداوة وغموض بعض التراكيب ، ولا سيما شعر قيل في وصف الوحوش والابل والقفار . فان عاطفة الجاهلي تتصلب في مثل هذه الحالات ، فتصلب معها الفاظه . وبوسعك ان تلمس أية قصيدة جاهلية شئت ، فترى اختلافاً بيناً في لغتها ، اذا اجتمع من اغراضها الغزل ، والاستعطاف ، او الرثاء الى وصف الوحوش والابل والقفار . ومعلوم ان بشراً من صعاليك العرب ، وهؤلاء يعيشون في البراري المقفرة ، ولا يخالطون غير الوحوش ، فيصبحون من الخشونة على جانب عظيم ، وتحشوشن معهم لغتهم . ولنا في شعر الشنفرى وتأبط شرراً ، امثلة صادقة للغة اولئك الصعاليك . اما قصيدة بشر فحضرية

١ معراته : أذيانه ، واحدها معرة .

٢ قص المهر : رفع يديه وطرحهما ، وعجن برجليه من الغزع .

٣ عقره : قطع قوائمه .

٤ قطه : قطعه عرضاً .

اكثر مما هي بدوية، وليس ورود بعض الغريب فيها بدليل على جاهليتها، وهو قليل تافه لا تأثير له، لتشتته في اثناء اللفظ المأنوس .

وغير عزيز على بديع الزمان ان يأتي بمثل هذه القصيدة على جلالتها، فان له في شعره الذي يجري به طبعه، ما يشبهها، كقصيدته التي رد بها على الشاعر الشعبي، ودافع عن العرب . وليس لنا اعتراض على ما فيها من وصف وتصوير لانها ميرة الهمداني في رسائله ومقاماته . على اننا نعجب لبشر وهو الصعلوك الجاهلي، كيف عرف الكتابة، فكتب قصيدته بدم الاسد على قميصه، في حين ان وجوه قبائل البدو كانوا اميين يومئذ، وندر وجود الكتاب فيهم . افما كان ينبغي للمدرسة التي خرجت بشراً بن عوانة، ان لا تضمن بعلومها على زملائه السليك، والشنفري وتأبط شراً ؟

وارسل بشر القميص الى ابنة عمه لتقرأ القصيدة، ولا نعلم من كان رسوله اليها، لان صاحب المقامات لم يذكره ولا ذكره من أرخ بشراً بعده . غير اننا نعلم ان بشراً ذهب يطلب النوق منفرداً، وسلك طريقاً تحامت عنه العرب .

ولكن وصلت القصيدة الى ابنة عمه، وقرأها عمه، ففاضت عاطفته فجاءه، واحتل حب بشر قلبه على حين غرة، وندم على ما فعل؛ وخشي ان تغتاله الحية . فجدت في اثره، مخاطراً بنفسه : «وبلغه وقد ملكته سروة الحية» . وادراكه اياه على هذه الصورة يجعل القصة اشد تأثيراً في النفس . «فلما رأى عمه اخذته حمية الجاهلية، فاجعل يده في فم الحية، وحكم سيفه فيها .»

وكان ختام هذه القصة اطروفة في غاية اللطف والفكاهة، بينة الاغراب والاصطناع : «فلما رجع جعل بشراً يلاً فمه فخراً حتى طلع امرد كشق القمر على فرسه؛ مدججاً في سلاحه . فقال بشر . «يا عم اني اسمع حس صيد» . وخرج فاذا بعلام على قيد . فقال : «تكلتك أمك يا بشر ان قتلت دودة وبهيمة قتلاً ماضغيك فخراً . انت في امان ان سلّمت عمك .» فبارزه بشر، فقهره الغلام ولو شاء لقتله .

١ سورة الحية : سطوحها وحدتها .

٢ القيد : المقدار . والمراد على قيد رمح او ميل اي مقدار طوله .

٣ ماضغيك : اصول اللاحين من الفم .

ثم قال : « يا بشر سلم عمك ، واذهب في امان . » قال : « نعم ، ولكن بشرطة ان تقول لي من انت . » فقال : « انا ابنك ! » فقال : « يا سبحان الله ! ما قارنت عقيلة قط ، فأنتى هذه المنحصة ؟ » فقال : « انا ابن المرأة التي دلتك على ابنة عمك . » فقال بشر :

« تِلْكَ الْعَصَا مِنْ هَذِهِ الْعُصْيَةِ ، هَلْ تَلِدُ الْحَيَّةُ إِلَّا الْحَيَّةَ ! »

وحلف لا ركب حصانا ، ولا تزوج حصاناً ، ثم زوج ابنة عمه لابنه .
افليس عجيباً ان يكبر ولده من المرأة التي سبهاها ، وهو لم يزل يسعى في صداق ابنة عمه ، ثم يكون لهذا الولد الامرد من البأس ما يمكنه من قهر ابيه حتى اذا عرفه بشر تخلى له عن فاطمة ابنة عمه ، وازوجه اياها ، فكانت من نصيب ابنه لا من نصيبه .
فهذه هي المقامة البشرية التي خُذع بها جماعة من الادباء والمؤرخين ، وكان ابن الاثير اول الخدوعين على تنطسه وكثرة دعاويه .

انساؤه

يمتاز انشاء البديع في لغة انيقة التعبير ، فيها رصانة البدو ، ورقة الخضر ، تلازمها الصنعة ، دون ان تفسد طبع صاحبها . فالهمداني له باع طويل في تحوير الفاظه وتحسينها ، يعتمد السجع فيردده في جمل قصيرة الفواصل ، او طويلتها . وربما تعددت فواصله متواطئة على حرف واحد ، فيؤثر عندئذ تقصير الجمل ويقطعها تقطيعاً .

واذا تخلى عن السجع ، لا يتخلى عن المجاز والتزيين ، فان رسائله ومقاماته حافلة بالتشابه والاستعارات والكنائيات وانواع البديع المعنوي واللفظي ؛ ولا سيما الباق والتشكك والجناس . وقلما تقع على لفظ يعبر عن حقيقة معناه . وقد تكرر بك استعارات وكنائيات تدل على معنى واحد .

وتقليب الجمل على المعنى كثير في انشاء البديع ، وهو من لزومات الصنعة لما فيه من اقتنان في التعبير ، وتنويع في ابلاغ المعنى . ومن ذلك قوله في مقامة : « ورفعناها فارفعت معها القلوب وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الافواه ، وتلهظت لها الشفاه ؛

١ العصا : فرس لجزيمة الابرش والعصية امها . والبيت مصنوع من مثلين اي ان الولد تابع لاصله .

وَاتَّقَدْتُ لَهَا الْاَكْبَادَ، وَمَضَى فِي إِثْرِهَا الْفَوَادُ . »

ويكثر من الاستشهاد بالشعار سواء كان من مَقُولِهِ او مَنْقُولِهِ . ويستشهد بحملة
ايات او بيت ، وربما ادمج نصف بيت في اثناء كلامه . ويُعْنَى بِحُلِّ الْمَنْظُومِ فِيْجْعَلُهُ
نَثْرًا ، وَيُورَدُ الْاَمْثَالُ ، وَالتَّالِيْحَاتُ ، وَلا سِيَّما التَّارِيْحِيَّةُ ، كَقَوْلِهِ مِنْ مَقَامَةٍ : « وَتَشْهَدُ
لِمُعَاوِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ بِالْإِمَامَةِ » .

وَإِنْشَاؤُهُ عَلَى الْجُمْلَةِ مَجْمُوعَةٌ صُورٌ شَتَّى التَّلَاوِينِ ، وَهُوَ لِلشَّعْرِ أَقْرَبُ مِنْهُ لِلنَّثْرِ . وَكَانَهُ
فِي وَشْيِهِ وَتَرْفِ الْفَاطِلَةِ خَلْقٌ لِيَرْبِي وَيَتَرَعَّرَ فِي قُصُورِ الطَّبَقَةِ الْارِسْتَقْرَاطِيَّةِ مِنْ أَهْلِ
الْبَيَانِ . وَلَيْسَ فِي هَذَا الْوَشْيِ عَلَى صَنْعَتِهِ الظَّاهِرَةِ ، مَا يَقْرَعُ الْاِمْتِاعَ ، وَتَجْفُو عَنْهُ الطَّبَاعُ
فَإِنْ مَا يَنْضَافُ إِلَيْهِ مِنْ رُوعَةِ الْإِنْشَاءِ ، وَصَحَّةِ الطَّبْعِ ، يُجْعَلُهُ سَهْلَ الْبَلَاغِ ، طَيِّبَ الْمَسَاغِ .

عَمْرُوتُهُ

قَالَ الثَّعَالِيُّ : « هُوَ بَدِيعُ الزَّمَانِ ، وَمُعْجَزَةُ هَمْدَانِ ، وَنَادِرَةُ الْفَلَكَ ، وَبَكْرُ عَطَارِدِ
وَفُورِدِ الدَّهْرِ ، وَغُرَّةُ الْعَصْرِ » . اهـ .

وَفِي هَذِهِ النُّعُوتِ مَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ اعْجَابِ صَاحِبِ الْيَتِيْمَةِ بِهِ . وَلَمْ يَنْفَرِدْ بِهَذَا
الْاعْجَابِ أَبُو مَنْصُورٍ وَحْدَهُ ، بَلْ شَارَكَهُ فِيهِ جَمْعٌ مِنَ الْمُتَأَدِّينَ فِي عَصْرِهِ ، وَبَعْدَ عَصْرِهِ .
وَحَسَبَ الْبَدِيعَ مِثْلَةً أَنْ يَنْتَظِمَ لَهُ حَزْبٌ يَلْفُ لَفَّهُ وَهُوَ مَا بَرَحَ فِتَى غَضِّ الشَّبَابِ .
فَقَدْ عَلِمْتَ كَيْفَ انْشَقَّ النَّاسُ شَطْرَيْنِ بَعْدَ مَنَاطِرَتِهِ لِأَبِي بَكْرٍ ، وَكَانَ الشَّطْرُ الْاَعْظَمُ
بِجَانِبِهِ ، يَشْدُ أَرْزَهُ ، وَيُفَضِّلُهُ عَلَى خَصْمِهِ وَقَدْ اسْتَحَقَّ صَاحِبُنَا هَذِهِ الْمِثْلَةَ ، بِذِكَاثِهِ
النَّادِرَ ، وَسُرْعَةِ خَاطِرِهِ ، وَاسْتَبْحَارِهِ فِي اللُّغَةِ وَأَدَابِهَا ، وَبَلَاغَةِ أَنْشَائِهِ وَحَسَنِ مَائِهِ
وَرَوَائِهِ ، وَطُولِ بَاعِهِ فِي الْوَصْفِ وَالتَّصْوِيرِ ، وَدَقَّةِ نَظَرِهِ فِي مِرَاقِبَةِ الْأَشْيَاءِ ، وَبِرَاعَتِهِ
فِي التَّوْلِيدِ وَالْإِبْتِكَارِ . وَهُوَ خَيْرُ مَصُورٍ لِلْحَيَاةِ فِي لَذَّتِهَا وَأَلْمِهَا ، وَلا خِلَاقٍ لِلنَّاسِ وَلا سِيَّما
الْمُحْتَمَلِينَ الَّذِينَ يَتَوَسَّلُونَ بِشَتَّى الْحِيلِ لِابْتِزَازِ الْأَمْوَالِ . وَأَوَّلُ مَنْ ابْتَكَرَ فَنَ الْمَقَامَاتِ ،

١ يَقُولُ : لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْمُضْيِرَةُ مِنْ طَعَامِ مُعَاوِيَةَ ، وَدَعَا النَّاسُ لِأَكْلِهَا لَاسْتَرَامَ جَمَاعًا ،
وَشَهِدُوا لَهُ بِحَقِّهِ بِالْخِلَافَةِ .

فترسمه فيه اخلافه، ففتحوا من صخره، واغترفوا من بحره . وكفاه فخراً انه خلق لتاريخ الآداب شاعراً أخذ به صيابة الادباء، فرووا شعره، وأثبتوا خبره، وظل حديث المجالس، وحلقات الطلب زهاء عشرة قرون . وبديع الزمان احد زعماء الاسلوب المنمق، وابعدهم صيتاً، واوسعهم شهرة، وأنهمم ذكراً .

القصص

القصص . سيرة عنترة . الف ليلة وليلة . متزلة القصص .

بدأ القصص عند العرب بدأه عند سائر الشعوب، اسماراً ونوادير وأحاديث، يقطعون بها ليالي الشتاء، وايام الفراغ . والعرب كثيرهم من الامة يروقههم التحدث باخبار اسلافهم، والإشادة بمناقبهم، فقادهم ذلك الى المبالغة في رواياتهم حتى بلغوا بها حد الاغراب والتخريف، فاصبحت اسماهم ونواديرهم اقايصص تلبس فيها الحقيقة بالخيال .

وتضاعفت عناية الناس بالقصص في صدر الاسلام بعد ان صار العرب ديناً جامعاً، ودولة منظمة، وشعباً مجموعاً . واشتمل ذاك العصر على حياة لهُو ومجون، وحياة حرب وجهاد، فكان القاصون يعمرون مجالس اللهو، ويسمرون بنوادير العشاق والمتيمين . ويقصدون اماكن الفتن، ومزاحف البعوث، ويضرمون الحماصة في صدور الرجال باخبار فرسان العرب وايامهم المشهورة .

وطفقت هذه الاقايصص تزداد اغراباً وتبهجاً بمرور الايام والسنين، وتتابع القاصين عليها، وتفاوتتهم بنحسب الخيال، وحب التزين، ورغبتهم في استهواء السامعين . وإثارة عواطفهم حتى اصبحت خرافات في اكثرها ليس لها من الحقيقة الا اثر بعد عين . ولم يُشرع في تدوين القصص الا في صدر الدولة العباسية، واول من اخذ باهداب هذا الفن عبد الله بن المقفع في كتابه كلیلة ودمنة . وفعل فعله سهل بن هارون في

كتابه ثعلبة وعفرة ، وعلي بن داود كاتب زبيدة .

ولما ضعف سلطان العباسيين ، وتولى الاتراك عنهم شؤون الدولة ، انصرف اولئك الى اللهو والسمر ، فكان القاصون يخرفونهم بالحكايات والنوادر ، فشاع تصنيف القصص ونقلها ، ولا سيما ايام المقتدر . وما جاء العصر الثالث حتى كان منها طائفة حسنة ذكرها ابن النديم في الفهرست ، وفيها قصص عربية الاصل كاخبار العشاق في الجاهلية والاسلام ، امثال عروة وعفراء ، ومجنون ليلي ، وعمر بن ابي ربيعة ، وجميل بثينة . و اخبار الجبابب المتظرفات كقصص هند ابنة النعمان ، و اخبار عشاق الانس للجن ، وعشاق الجن للانس . و اخبار البطالين كقصص ابي عمر الاعرج . و اخبار المغفلين ، كنوادر جحا . وفيها قصص عجمية الاصل نقلت عن الفارسية ككتاب هزار افسان ، ومعناه الف خرافة ، و كتاب دارا والصنم الذهب . واشهر هذه القصص واكبرها اثنتان ، احدهما عربية النجار وهي سيرة عنترة العبسي ، والاخرى فارسية وهي حكايات الف ليلة وليلة .

سيرة عنترة

سيرة عنترة كغيرها من القصص ، تداولها السنة القاصين زمناً قبل تدوينها ، وتصرفوا فيها كما شاؤوا وشاء لهم خيالهم من زيادة او نقصان . وزى انها لم تدون دفعة واحدة على ما هي عليه اليوم بل مونت بها ازمئة عديدة ، والكتاب يتواطون على تصنيفها ، فيغيرون فيها ، ويضيفون اليها ، حتى وصلت اليها ضعيفة التأليف ، مختلفة اللغة والشعر ، فيها الحسن الجيد ، وفيها القبيح الردي .

واما الذين تولوا تصنيفها فاشخاص مجهولون الا اثنين احدهما يوسف بن اسماعيل قيل انه جمعها للعزير بالله^١ الخليفة الفاطمي ليشغل بها الناس عن ريبة وقعت في قصر الخلافة ، فجعلوا يلهمجون بها . وقيل بل جمعت لتستثير الحماسة في صدر الشعب المتأخر المتخاذل . والاخر ابن الصائغ الجزري من رجال القرن السادس للهجرة (القرن الثاني عشر للمسيح) . واما نسبتها الى الاصمعي فلا يبعد ان يكون لها بعض الصحة من قبل رواية حوادثها التاريخية ، وشعرها الثابت ، لا من قبل جمعها وتصنيفها . وهذه

١ العزيز بالله بن المعز بالله . خلافته من سنة ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ ٩٧٥ - ٩٩٦ م .

القصة ابداع القصص الحماسية ، و اجمع ما يكون لمكارم الاخلاق . وفيها تصوير
لا بأس به للاشخاص .

الف ليلة وليلة

هي حكايات متتابعة ، مأخوذة من اصل فارسي في كتاب اسمه هزار افسان ،
ومعناه الف خرافة ، ولا يُعرف مصنف هذا الكتاب ، ولا ناقله الى العربية . قال فيه
صاحب الفهرست : « ويحتوي على الف ليلة ، وعلى دون المائتي عمر ، لان السمر ربما
حدث به في عدة ليال ، وقد رأيت به تمامه دفعات . وهو بالحقيقة كتاب غث بارد
الحديث . » فن هذا القول نعلم ان اصل الف ليلة لم يكن بذي خطر ، وانما
ادباء العرب ، رفعوا قدره بما ادخلوا عليه من التحسين ، وعفوا على اصله الفارسي بما
بدلوا فيه ، وزادوا عليه .

وليس هذا الكتاب عمل رجل واحد او عصر واحد وانما شأنه شأن سيرة عنتره ،
فقد ظل العرب يشغلون بتصنيفه حتي اواسط عصر الانحطاط ، فلذلك تجد فيه
اخباراً عن الممالك ، وشعراً لشعراء متأخرين .

وتمتاز الف ليلة وليلة في غرائب حوادثها ، وخيالها العجيب ، وفيها ادب كثير ،
ومجون كثير ، وفيها نقمة على الظلم والارهاق ، وتمثيل لحياة المسلمين وحكامهم في
العصور الخالية .

مزار الفقصص

ومما يجدر ذكره ان اكثر القصص التي ألفها العرب قصيرة . واما ما طال منها
فينقصه التحام الافكار ووحدة الموضوع ، فسيرة عنتره مثلاً وهي اكبر القصص العربية ،
لا تجد في اجزائها ارتباطاً محكماً اذ بوسعك ان تسقط من اخبارها جانباً عظيماً دون
ان تحدث خللاً فيها . ويرجع ذلك على ان حوادثها غير متينة الالتحام في اتلافها
وتسلسلها ، واتجاهها الى الفكرة العامة ، وأن نتائجها لا تتعلق بقدماتها تعلقاً كلياً كما
هي الحال في القصص الغريبة الراقية ، فيتعذر الاستغناء عن شيء منها . ولا نتهم بخيلة
العربي من اجل هذا النقص فان من يقرأ عنتره والف ليلة وليلة يقع على خيال قوي

في انطلاقه، مدهش في صورته والوانه، غير ان صاحبه مترجج السير، قصير النفس، كثير الانتقال، مختلط التفكير فارغ الصبر، لا يترسم خطة الا ضاق بها ذرعاً، ونكص عنها قبل ان يستتمها، ومضى يتفرج منها بسواها. لذلك آثر القصة القصيرة على الطويلة، واذا اطالها سرد الحوادث المختلفة دون ان يعنى بوحدها وربط اجزائها، فجاءت قصته ضعيفة الفن، غثة الاسلوب، باردة التأليف. ولا ريب ان تواطؤ الكتاب على القصة الواحدة في اعصر متفاوتة اللغة والخيال والتفكير، كان له اثر سيئ. فيها، اذ انه زادها اضطراباً، وأوسعها فساداً، فل هذه الاسباب لم تأتنا قصة راقية الفن عن العرب، وانما جاءنا حكايات ومقامات ونوادر واحاديث.

العلوم

العلوم : النحو . المعاجم اللغوية الكبيرة . علم الفهرست . الطبيعيات والرياضيات . الفلسفة الاسلامية . التاريخ والجغرافية .

بلغ التفكير الاسلامي حده الاقصى، ونضجت العلوم، وصنفت الكتب في شتى الفنون والاعراض. فكتب ابن جنّي المجتاً فلسفية في اصول النحو، واشتقاقات اللغة، واحكام حروف الهجاء، وما يصيبها من اعلال وقلب وابدال. ووضعت المعاجم اللغوية الكبيرة كتهذيب اللغة للزهري، والمحيط للصاحب بن عباد، والمجمل لابن فارس، والصاحح للجوهري. وظهر علم الفهرست في كتاب ابن النديم.

ونضجت العلوم الطبيعية والرياضية، فقد ادخل ابن الهيثم البصري اساليب جديدة على الجبر والحساب، وطابق بين احكام الهندسة والمنطق. وتقدم الطب وكثر اصحابه وشاعت الصيدلة، واخترعت الادوية، واصبحت الكيمياء علماً ثابتاً، ودخلت عليها المركبات المستحدثة كماء الفضة، وروح النشادر، والسلياني، وملح البارود، والبوتاس، وغير ذلك. وألفت الكتب النفيسة في علم النجوم، وترقى الاسطرلاب. وشرع العلماء يرحلون لمراقبة الحسوف والكسوف.

وازدهوت الفلسفة الاسلامية، واستقلت عن الفلسفة اليونانية بميزة توفيقية خاصة؛
ونبع الفلاسفة الكبار ، كابن سينا واخوان الصفا .

وكثرت التواريخ الخصوصية بتكاثر الدولات ، واكن فن التاريخ لم يتقدم
لان المؤرخين لبثوا يسردون الاخبار عارية من النقد والتمحيص . واما الجغرافية
فكانت محتاطة بالتاريخ غير منفصلة عنه ، وقد زادت مادتها بفضل الرحلات ، فاضيف
اليها جهات جديدة ، منها في اواسط افريقية ، ومنها في داخل آسية ، ومنها جزر في
المحيط الهندي ، وشاع رسم الخرائط . وكان المسعودي اشهر من اشتغل بالتاريخ
والجغرافية ، وعانى الاسفار الطوال بسببها ، ومن آثاره فيها كتابه الموسوم بروج الذهب .

الادب والادباء

اتسق فن الادب ، واستقل بذاته ، ورغب الادباء في نقد الشعر على طريقتهم ،
فصنفت الكتب في تعداد سقطات الشعراء ، ومناظرتهم ، كما فعل الصاحب بن عباد ،
والحاتمي مع ابي الطيب . وفي الموازنة بينهم ، فعل الامدي في موازنته بين الطائيين ،
واظهاره حسنات كل منهما وسيئاته . وفي الوساطة بين شاعر ونقاده ، كما فعل القاضي
الجرجاني في وساطته بين المتنبي وخصومه . واصبح للشعر نظم محدودة ، وابواب
معروفة ، ومناهج مقررة بعد ان صنف ابن رشيق القيرواني كتاب العمدة في صناعة
الشعر ونقده ، واكمل ما بدأ به ابن المعتز وقُدامة بن جعفر .

وشاع تمحيص الروايات والاخبار ، في المجاميع الادبية ، واشهرها الاغانى لابن
الفرج ، وبيتمة الدهر للشعالي ، وزهر الآداب للحصري ونجدي . هنا بالكلام على
ابي الفرغ لان كتابه اشهر المجاميع ، واكبرها ، واجزلها نفعا .

ابو الفرج الاصبهاني

٨٩٧ — ٩٦٦ م و ٢٨٤ — ٣٥٦ هـ

- حياته : نسبه . نشأته . صفاته و اخلاقه . اثاره : شعره . كتبه الادبية والتاريخية . الاغاني .
ميزته : الاغاني : جمعه وتأليفه . الاصوات المائة المختارة . اغراضه : تاريخ وادب . انشاؤه . منزلته .

حياته

هو علي بن الحسين الاموي القرشي، تتصل عصبته بـروان بن محمد آخر خلفاء بني امية. وكنيته ابو الفرج. ولد باصبهان، واليها انتسب، ونشأ ببغداد، وبها تخرج على طبقة رفيعة من العلماء والرواة كابن دريد، والاخفش والانباري، والطبري، وابن المرزبان وسواهم. فحفظ عنهم شيئاً كثيراً من اللغة والنحو والشعر والاغاني، والاعخبار والآثار، والاحاديث المسندة، والايام والانساب، والخرافات، والسير، والمغازي. وحدث شيئاً غير يسير من آلة المنادمة مثل علم الجوارح والبيطرة، ونتاجاً من الطب والنجوم والاشربة وغير ذلك.

وكان متصلاً بالحسن المهلبى وزير معز الدولة بن بويه، منقطعاً اليه يدحه ويأخذ جوائزه. وافاد من كتبه ثروة حسنة، فقد اهدى كتاب الاغاني الى سيف الدولة، فاعطاه الف دينار، واعتذر اليه عن تقصيره في المكافأة كما يقتضيه حق الكتاب. وكان انسابؤه بنو مروان مملوك الاندلس يتقدمون اليه بتصنيف الكتب لهم، فيفعل، ويسيرها اليهم، ويأتيه انعامهم سرّاً وفلجاً وخولط في اواخر ايامه، ومات في بغداد.

صفاته واهله

كان لطيف المنادمة، حسن المعاشرة، حلو الحديث، يحب اللذة ومجالس اللهو،

ويشرب الخمر ويصحب القيان والمغنين . وكان مع ذلك رث الهيئة لا يعنى بتحسين
 شارته ، كثير الهجاء ، في لسانه سلاطة وهجو ، تحشى معرفته ، ويحذر جانبه لعل
 بالانساب والمثالب . وكان اכולاً نهماً اذا ثقل الطعام في معدته تناول خمسة دراهم
 فلفلاً مدقوقاً ، ولا يؤذيه ولا تدمع منه عيناه . وهو مع ذلك لا يستطيع ان يأكل
 حمصة ، او يصطبغ بمرقة قدر فيها حمص . واذا اكل شيئاً يسيراً من ذلك شرى بدنه
 كله ، وبعد ساعة او ساعتين يفصد ، وربما فصد لذلك دفعتين . فلما كان قبل فاجله
 بسنوات ذهب عنه العادة في الحمص ، فصار يأكله ولا يضره ، وبقيت عليه عادة الفلفل .
 وكان على أمويته يتشيع للعلويين لتربيته بينهم ومخالطته لهم ، واشتاله بانعامهم .

اماره

لاي الفرج شعر اكثره في مدح المهلبى ، روى منه الثعالبي طائفة حسنة في يتيمة .
 ولكن منزلة الاصبهاني لا تقوم على اشعاره وانما تقوم على مصنفاته الادبية والتاريخية
 وهي كثيرة ، منها في الايام والانساب والمثالب ، ومنها في الشعر والشعراء والشواعر ،
 ومنها في القيان والمغنين والحنات واصحابها . واشهر هذه الكتب وابقاها الاغاني ،
 اشغل به صاحبه خمسين سنة ، ووصل اليها منه واحد وعشرون جزءاً ، والجزء الاخير
 نشره المستشرق الاميركي رودلف برونو . ولعل الكتاب كان اكبر حجماً ، وضاع
 منه بمرور الزمان . قال ياقوت : « وجمعت تراجمه فوجدته يعد بشيء ، ولا يفي به
 في غير موضع منه ، كقوله في اخبار ابي العتاهية : « وقد طالت اخباره ها هنا ،
 وسندكر خبره مع عتبة في موضع آخر » ولم يفعل . وقال في موضع آخر : « اخبار
 ابي نواس مع جئان اذ كانت سائر اخباره قد تقدمت . » ولم يتقدم شيء ، الى اشباه
 لذلك . والاصوات المائة هي تسعة وتسعون ، وما اظن الا ان الكتاب قد سقط منه
 شيء ، او يكون النسيان غلب عليه والله اعلم . « اه . وللأغاني اختصارات كثيرة
 لا نرى فائدة من ذكرها .

لم يخلص الينا من آثار ابي الفرج شي . يعتد به الا اغانيه ، فعليه قامت ميزته ، وبه كان خلوده ، فاليه نستند في الكلام على ادب الاصبهاني ، ومزنته ، ومبلغ تأثيره .

الاغاني ' - جمعه ومألفه

يحدثنا صاحب الاغاني ان الذي بعثه على تأليف هذا الكتاب ان رئيساً من رؤسائهم كلفه جمعه ، فتكلفه على ما فيه من مشقة ، وبناء على الاصوات المائتة المختارة . وحكاية هذه الاصوات ان هرون الرشيد امر ابراهيم الموصلي ، واسماعيل بن جامع ، وفليح بن العوراء باختيارها له من الغناء كله ، ففعلوا . ثم امرهم ان يختاروا له ثلاثة منها ففعلوا . ثم رفعت الى الواثق بالله وهو خليفة ، فامر اسحق بن ابراهيم الموصلي بان يختار له منها ما رأى انه افضل من غيره ، ويبدل ما لم يكن على هذه الصفة بما هو اولى منه ، ففعل ذلك . فعلى هذه الاصوات المختارة اعتمد ابو الفرج في تأليف كتابه ، ولكنه لم يقتصر عليها ، بل اضاف اليها طائفة كبيرة من الاصوات التي غنى بها ، وليست منها .

وكان اذا ذكر الصوت عرف قائله ، ومن غنى به ، وبين لحنه وطريقته وجنسه . ومذهبه في ذلك مذهب اسحق الموصلي ؛ اذ كان هو المأخوذ به يومئذ دون مذهب من خالفوه في اسماء الالحان ، وبيان اجناسها . ثم ينتقل الى الشاعر الذي قاله ، فيذكر نسبه واخباره ، وتاريخ مولده ووفاته ، وطائفة من اشعاره ، وما غنى له فيها ، معتمداً بذلك على الاسناد المتسلسل . ثم يفرغ الى من غنى بهذا الصوت ، فينسبه ويروي اخباره ويبين صنعته ، ومزنته ، وما له من الاصوات المعدودة . واذا لم يستتم الكلام على الشخص الذي يتحدث عنه ، لان له اخباراً مع شخص آخر جعلت على حدة أشار الى

١ الاغاني : جمع أغنية بالضم والكسر وتشديد الياء وتخفيفها ، وهي ما يترنم ويغنى به من الشعر ونحوه .

ذلك بقوله : « وسندكر خبره مع فلان في موضع آخر . » ويقول في ذاك الموضع :
« اخبار فلان مع فلان اذ كانت سائر اخباره قد تقدمت . »

وابتدأوه بالاصوات الثلاثة المختارة فما يليها جعله لا يراعي في كتابه طبقات الشعراء ،
وازمينتهم ، ولا طرائق الغناء ، وطبقات المغنين . فانه استعمل الكتاب باخبار ابي قتيبة ،
وهو شاعر مخضرم ليس في المعدودين ، ولا الفحول ، وانما غنى له معبد في شعره :
الْقَصْرُ ، فَالْتَحُلُ ، فَالْجَمَاءُ بَيْنَهُمَا ، أَشْهَى إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَبْوَابِ حَيْرُونَ

فعد من الثلاثة الاصوات المختارة ، فبدأ به ابو الفرج ، ثم بمعبد . وثنى بعمر بن
ابي ربيعة ، ثم بـ ابن سريج ، لان ابن سريج غنى في شعر عمر :

تَشْكَى الْكُمَيْتُ الْجُرْيَ لَمَّا جَهْدَتْهُ ، وَبَيْنَ لَوْ يَسْطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَ
فعد من الثلاثة الاصوات المختارة . وثالث بُضَيْبُ بْنُ رَبَاحٍ ، ثم بـ ابن مُحَرَّرٍ لان
هذا غنى له في شعره :

أَهَاجَ هَوَاكَ الْمَنْزِلُ الْمُتَقَادِمُ ؟ ، نَعَمْ ، وَبِهِ يَمْنُ شَجَاكَ مَعَالِمُ
فعد من الثلاثة الاصوات المختارة . وهكذا مشى الى سائر الاصوات على غير
ترتيب في الشعراء والمغنين .

انغراضه

رأيت ان الاغاني لم يقتصر على الغناء والمغنين ، وانما هو تاريخ جزيل الفائدة . ففيه
اخبار بضع مئة من الشعراء ، والمغنين ، والقيان ، والاماء ، والعلماء ، والعشاق ، والمعشوقات ،
والخنشين ، والمتطرفين والمتطرفات . وفيه اخبار الخلفاء والامراء والقواد ، ومن نبغ
من ابناءهم وبناتهم في الشعر والغناء . وفيه اخبار قبائل العرب وانشابهم ، وغزواتهم ،
وايامهم ، وميائهم . وفيه محاسن ما قيل من الشعر في الجاهلية والاسلام والمائة الاولى
والثانية لبني العباس . وفيه وصف ما اكل العرب ومشاربهم في بداوتهم وحضارتهم ،

١ الجماء : اسم موضع . حيرون : دمشق .

٢ الكميت : الاحمر الضارب الى السواد يصف به جواده .

٣ المعالم : الاثار والدلائل مفردها معالم .

وذكر عشقهم وانواعه، وتسريهم، وزواجهم وطلاقهم، وسائر احوالهم . وفيه تصوير بديع للمجالس والملاهي ، والرياض والحدائق .

وقد علمت ان ابا الفرج يحب اللذة ويتطلبها، وبني كتابه على الغناء، والغناء يُقصد به الى اللذة والترفيه عن النفس، فعلمت ناحية العبث والمجون على كتابه، وحفل بالنوادر المسلية والمتعهرة . فتراه يُعنى بفضح الشعراء، وذكر اخبارهم واشعارهم الفاحشة، وتصور فساد اخلاقهم . ولم يتحرج من تشهير الخلفاء وابنائهم، ونسائهم، وذكر عشقهم واستهتارهم، وعكوفهم على اللهو والشراب والسماع .

فلهذا لا يسعنا اعتماد الاغاني من النواحي التاريخية الشاملة، ولا سيما كلامه على الاسلاميين والمولدين، فانه قلما تناولهم الا من ناحية العبث واللهو . ولا ينبغي الاستسلام الى رواياته كلها دون التوقف عند بعضها في شيء من الشك والاحتياط .

انشأوه

لصاحب الاغاني لغة جزلة سمجة، لم يؤثر فيها اسلوب الرسائل، فهي تفيض طبعاً وسلاسة، وتبرأ من كل تكلف وصنعة، وتعتمد للمجاز . وجملته رشيقة حلوة المساغ، فخمة طليمة، بارعة التصوير، ملوؤها ماء وحياة، لا ليان فيها ولا جفاف، تميل الى القصر لبلاغتها وإيجازها وحسن اختيار الفاظها التي تؤدي حقيقة المعنى، من غير تأبد وخشونة . ولا عيب فيها غير الاكثار من فعل القول .

ويمتاز انشاؤه في مراعاته لغة العصر الذي يتحدث عنه، اذا وضع الكلام في افواه اشخاصه . وهذه الميزة لا يضطلع بعينها الا كاتب نحرير، عارف بمذاهب الكلام، واختلافه في كل موطن وعصر، بارع الانشاء، يتصرف فيه كيف يشاء . ولو اختصر الاصبهاني في الاسناد لدفع عن قرائه كل ضجر، ولكنه احب ان يزيد روايته ثقة فأساء الى انشائه بالحديث المعلن المتسرد .

عن ترجمته .

لم يحدث كتاب عند ظهوره من التأثير ما أحدثه الاغاني في حلقات الادب، فقد

بادر الملوك والناس الى شرائه ، وتنافسوا في اقتنائه . وكان سيف الدولة اول من اقتناه من ملوك الشرق . وذكر صاحب نفح الطيب ان الحاكم المستنصر احد خلفاء بني امية بالاندلس ، بعث الى ابي الفرج بالف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة من الاغاني قبل ان يخرج به بالعراق . وقال ابو القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة بن بويه : « لم يكن كتاب الاغاني يفارق عضد الدولة في سفره ولا حضره . » وذكر ابن خلكان : « ان صاحب بن عباد كان يستصحب في اسفاره حمل ثلاثين جملاً من كتب الادب ، فلما وصل اليه هذا الكتاب لم يكن بعد ذلك يستصحب غيره لاستغنائه به عنها . »

وبلغ صاحب ان سيف الدولة اعطى ابا الفرج الف دينار لما اهدى اليه نسخة من كتابه ، فقال : « لقد قصر سيف الدولة ، وانه يستحق اضعافها . اذ كان مشحوناً بالمحاسن المنتخبة ، والفقر الغريبة ، فهو للزاهد فكاهة ، وللعالم مادة وزيادة ، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة ، وللبطل رجلة وشجاعة ، وللمتظرف رياضة وصناعة ، وللمالك طيبة ولذاذة . ولقد اشتملت خزائني على مائة الف ، وسبعة عشر الف مجلد ، ما فيها سميري غيره . »

واقوال المتقدمين في الاغاني كثيرة ، يطول الكلام عليها ، وكلها تدل على اعجاب منهم واكبار .

ومما يزيد منزلة هذا الكتاب ان صاحبه لم يقتصر فيه على الرواية والاسناد ، بل كان كثيراً ما يحص الاقوال ، وينتقدها ، ويظهر صحيحها من مكذوبها ، ويحمل على الرواة الذين يصطنعونها . وربما اورد الخبر على روايات مختلفة ، ثم عاد الى رأيه فرجح احداها ، او ابدى شكه فيها ، وجعلها على عهدة اصحابها .

وكتابه كان ولا يزال المورد العذب الذي ينهل منه كل باحث في الادب ، ولولاه لضاع ادب كثير للجاهلية وصدر الاسلام .

العصر العباسي الرابع

١٠٥٥ — ١٢٥٨ م و ٤٤٧ — ٦٥٦ هـ

« يبتدىء بدخول السلاجقة بغداد »

« وينتهي باستيلاء هولاكو عليها »

« وانتقال الخلافة العباسية الى مصر »

ملحة تاريخية

الدولة السلجوقية • الدولة الايوبية • ميزة العصر •

الدولة السلجوقية

١٠٣٦ — ١٣١٨ م و ٤٢٨ — ٧١٨ هـ

كل امة انقسمت على نفسها بادت ؛ وانقسام المملكة العباسية دولا ازال سلطانها الممنوع ، وقوض عرشها الرفيع ، وجعلها عبءة في الغابرين . ولم يكن نشاط هذه الدول في بدء امرها ليشعر بحميد العقبي ، فان تناوبد ملوكها وتنافسهم ، وتكالبهم بالعدوان ، وحرصهم على الامتلاك والتوسع ، جعل ضعيفهم لقمة سائغة للقوي ، وبلادهم دريئة للحروب والفتن والخروج والعصيان . فبت لا ترى الا دولا تقوم واخرى تضمحل ، وملوكا تحلح ، وملوكا تستقل . وهذه الاحوال المضطربة لا يستقيم معها نظام ، ولا يستتب سلطان ، ولا تأمن فيها البلاد سطوات الاجانب . والدولة

العباسية كانت في اتساع ولاياتها، مطمح انظار سائر الشعوب، فما ان تجزأت وحدتها، وتقطعت اوصالها، ونشبت فيها الثورات والفتن حتى مدت الامم الاعجمية انظارها، فرأت الفرصة سانحة، والشاة ممكنة للرامي، فتوغل السلاجقة الاتراك في بلاد الفرس، وزحفوا الى العراق، وبنو بويه قد صار امرهم الى الضعف، فدخلوا بغداد، واستولوا عليها. ودانت لهم البلاد من حدود الصين الى آخر حدود الشام، ولكنهم لم يحفظوا وحدتهم، بل تقسموا ممالك، فكان منهم في الفرس والعراق وكرديستان والشام واسيا الصغرى. وفي ايامهم حدثت الحروب الصليبية فان اوربة كانت كغيرها من الامم، تلاحظ المملكة الاسلامية، وتتحفز للوثوب عليها.

وفي اوائل القرن السابع للهجرة ظهر جنكيز خان المغولي، واكتسح البلاد الاسلامية حتى خراسان، فخرّب مدنها، وحرق مكاتبها، ومثل باهلها. وجاء بعده حفيده هولاكو، واجتاح العراق ودخل بغداد سنة ٦٥٦ هـ، وبطش باهلها، وانتهبها، والقى كتبها في دجلة، وقتل المستعصم الخليفة العباسي، وفتك باولاده واهله، واستولى على ما في قصره من الجواهر واللاقي. وهرب من نجا من بني العباس الى مصر، وجعلوا الخلافة فيها، وكانت يومئذ في حكم الايوبيين.

وما زال المغول يتوغلون في بلاد المسلمين حتى افتمتحو الشام واسية الصغرى، وازالوا ملك السلجوقيين.

وامتاز عهد السلجوقيين في انشاء المدارس، واشهرها المدرسة النظامية في بغداد، انشأها نظام الملك الفارسي، وزير ملكشاه السلجوقي، وكان من استاذيها الغزالي.

الدولة الايوبية

١١٧١ - ١٢٦٠ م و ٥٦٧ - ٦٥٩ هـ

هذه الدولة كردية الاصل، وزعيمها يوسف بن ايوب المعروف بصلاح الدين .
 وكان ابوه ايوب وعمه شيركوه من قواد السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب
 الشام من قبل الفاطميين . وكانت الدولة الفاطمية قد ضعف امرها، واستبد عليها
 عمالها ووزراؤها . وحدث ان الصليبيين زحفوا الى مصر يريدون الاستيلاء عليها ،
 فاستنجد العاضد الخليفة الفاطمي بعامله السلطان نور الدين بن زنكي ، فارسل اليه
 قائده شيركوه ، ومعه صلاح الدين ابن اخيه . ثم ارتد الفرنجة عن مصر صلحاً ، واستوزر
 العاضد شيركوه . ومات شيركوه فاستوزر صلاح الدين ، ولقبه الملك الصالح ، فاستولى
 على الاحكام ، ولم يدع للخليفة الا السلطة الدينية . وكان السلطان نور الدين زنكي
 يراقب حالة مصر عن كثب ، فكتب الى صلاح الدين يخبره بانه سيقطع الخطبة عن
 الفاطميين ، ويقيمها لبني العباس ، ويطلب منه ان يفعل فعله . فوافقه صلاح الدين ،
 وكلاهما سنيان . ومات العاضد على اثر ذلك ، وكان مريضاً ، فانقرضت به دولة
 الفاطميين ، وصار الملك الى صلاح الدين ، فاستقل بالامر ، وفتح دمشق واستولى على
 ملك آل زنكي . وحدثت بينه وبين الصليبيين حروب كثيرة ، فاسترد منهم بيت
 المقدس ، وغيره من المدائن التي اقتتحوها في سورية . وكان قد تولاهم الضعف بعد
 ان دب فيهم الخلاف . وملك صلاح الدين من سنة ٥٦٧ - ٥٨٩ هـ (١١٧١ -
 ١١٩٣ م)

واصاب الدولة الايوبية ما اصاب السلاجقة من التجزؤ ، فصار منهم ملوك في
 مصر ودمشق وبلبك وحلب وحمص وما بين النهرين واليمن ، وناول بعضهم
 بعضاً ، فوهن سلطانهم ، ثم زال سنة ٦٥٩ هـ . بغارات هولاكو ، واستشار بما ليكمهم
 التركمان بالسلطان .

وللايوبيين يد ييضاء على اللغة ، فان بلادهم اصبحت قرارة العلماء والادباء ،
 لشغفهم بالعربية وعنايتهم بتعزيز العلم والادب . ونبغ منهم شعراء كبهرام شاه صاحب
 بعلبك ، ومؤرخون كالسلطان الملك المؤيد صاحب حماد ، المعروف بابي الفداء ، وعلماء
 كالملك المؤيد صاحب اليمن . وعنوا بلغة الدواوين كالفاطميين ، فاقاموا عالماً بالنحو
 يراقب الانشاء ، ويصلح الخطأ .

ميرة العصر

فيتضح مما تقدم ان الحالة السياسية كانت على اسوأ ما يكون ، فمن حروب
 متواصلة ، ودول متداولة ، وفتن مشتعلة ، الى تشقق مطرد ، حتي اصبحت على كل بلد
 ملك ذو عرش و صولجان . ومثل هذه الحالة القلقة ، لا جرم ان تكون نذيراً
 بمصير البلاد الى الانحطاط ، وبئس المصير .

الشعراء المولدون

العصر الرابع

ميزة الشعر : الشعر الصوفي . الشكوى . وصف الحروب . لغة الشعر .

ميزة الشعر

لم تتبدل اغراض الشعر وفنونه ، فتجعل له ميزة جديدة ؛ وانما حدث شي . من التطور في بعضها فتما وقوي ؛ كالشعر الصوفي ، فان اصحابه تكاثر عددهم بكثرة الفرق الصوفية ، ونظموا فيه القصائد الطويلة ، حاوية اصطلاحات المتصوفين وعلومهم ، كما في شعر عمر بن الفارض . وكذلك باب الشكوى فانه اتسع لما نزل بالبلاد العربية من المصائب والاهوال ، ولما لقي الشعراء من كساد سوق الشعر ، وفتور اكثر الامراء عن الاخذ بناصرهم ، وعلى الاخص في اواخر العصر . واكثروا من ذكر الحروب والفتن . وكان للحروب الصليبية اثر بليغ في اشعارهم .

واما لغة الشعر فقد مالت الى اللين لاسباب : منها ان امتداد سلطان الفاطميين الى سورية جعل شعراء الشام يتأثرون بلغة المصريين ، ويحتمدون على اسلوب شعرائهم . ومنها ان تسلط الامم الاعجمية على الامة العربية ، واستغراقها فيهم على اختلاف اجناسهم والوانهم ، أثر في اللغة الفصحى اسوأ الاثر ، فغلبت اللهجات العامية ، والالفاظ الدخيلة المسترذلة ، وفشا الفساد في لغة البادية ، وعمّ اللحن ، ومضى عهد التبدي . فصار الشاعر الحضري لا يرى في سكنى البادية ، والاختلاط بالاعراب مقوماً للسانته كما كان يراه اسلافه المتقدمون ، فاكتفى بلغته على فسادها ، وبما يحصله بالدرس والمطالعة .

وامعن الشعراء في الصناعة كل امعان، وقيدوا قرائحهم بقواعد النظم وشروطه وابوابه، كما حددها لهم ابن رشيق وامثال ابن رشيق، فقلّ الطبع وكثر التكلف وضعف الاستنباط، وابتذلت المعاني والتعابير لتواطئهم عليها، وترسمهم لما جاء به الاقدمون. وظهر الابتذال والاسفاف خصوصاً عند الشعراء الذين جاؤوا في آخر هذا الزمان كابن مطروح والبهاء زهير. ولا غرابة في ذلك فانه عصر انتقال من القوة الى الضعف، ومن الارتفاع الى الهبوط، فلا بد للشعر ان ينحدر شيئاً فشيئاً حتى تلتقي اواخر عصره باوائل عصر الانحطاط.

وفي هذا العصر دخلت الموشحات الاندلسية الى الشرق، واحتذى عليها شعراؤه ولا سيما ابن سناء الملك. ونرجى الكلام على هذا الفن الى بحثنا في الادب الاندلسي.

واشتهر من الشعراء عدد غير قليل فمنهم في مصر ابن سناء الملك، وابن النبيه، وعمر بن الفارض، وابن مطروح، وبهاء الدين زهير. ومنهم في الشام ابن الحياط الدمشقي، وابن منير الطرابلسي، وابن حيوس. ومنهم في العراق الطغرأي والحاجري. ومنهم في فارس، صردر، والارجاني، وابن الهبارية، والابيوردي. ولكن ليس بين هؤلاء كلهم واحد يعد من الفحول.

الكتاب المولدون

العصر الرابع

ميزة النثر : الطريقة الفاضلية . جمود الافكار . اللفظ غاية والمعنى خادم . انبثاث الكلمات العامية .

ميزة النثر

بقيت ميزة النثر على حالها، لم يتغير فيها شيء فيجعل لها صبغة خاصة تنفرد فيها غير ان الكتاب اسرفوا في تنميق العبارة، وطلب المحسنات البديعية والتزام السجع . ولا سيما بعد ظهور الطريقة الفاضلية في مصر، فان صاحبها القاضي الفاضل عني بانواع البديع عناية عظيمة، والمح على التورية والجناس، فاطال جملة وباعد بين فواصلها المسجعة، حتى تتم له القرائن والمرشحات، لبيان التورية والجناس، فوقع في الغموض، وتعدّد انشاؤه، وقلّ ماؤه، وكثّر غشاؤه . ووافق ظهور طريقته جموداً في الافكار، وعجزاً عن الاستنباط لتوالي الحروب والمصائب، فاقبل الكتاب يضربون على غرارها يلوك بعضهم اقوال بعض . فاصبح الانشاء ولا سيما آخر العصر، عبارات مرصوفة، ومرادفات مرصوفة وضعفت لغته، وانبثت فيه الكلمات العامية، فتلقفه عهد الانحطاط بهشاشة وارتياح .

وظهر الحويري في اوائل العصر، فترسم بديع الزمان في مقاماته، فوسّع نطاق هذا الفن، واتم صناعته اللفظية .

الحريري

١٠٥٤ — ١١٢٢ م و ٤٤٦ — ٥١٦ هـ ؟

حياته : نشأته . علومه . صفاته و اخلاقه . اثاره : درة الغواص . ملحمة
الاعراب . مجموعة رسائل وشعر . المقامات . سلب وضعها .
ميزته : تحليل مقاماته . انشاؤه . صنعته وتكلفه . منزلته .

حياته

هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، عربي صريح ينتمي الى ربيعة بن نزار،
وكنيته ابو محمد، ولقبه الحريري نسبة الى الحرير وعمله، او بيعه. ولد في المَشَّان
وكان من ذوي اليسار، قيل كان له فيها ثمانية عشر الف نخلة. ورغب في العلم مع
وافر ثروته، فجاء البصرة، وطلبه على علمائها، وسكن فيها بمحلة بني حرام، وهي
قبيلة قحطانية، فقبل له الحرامي. وما زال يجالس العلماء، ويشهد حلقات الادب
حتى برع في الشعر والترسل، واستبحر في اللغة وادابها، وحذق الفقه، وتضلع من
الفرائض. فاكب على التصنيف حتى وافاه اجله، وقد وطى السبعين. وكانت وفاته
بالبصرة، وخلف ولدين هما نجم الدين عبدالله، وضياء الاسلام عبيدالله قاضي قضاة
البصرة.

صفاته واهله

ذكر صاحب معاهد التنصيص ان الحريري كان قذراً في نفسه، وشككه ولبسه،
قصيراً، دميماً، نجياً، مولعاً بنتف لحيته. فنهاه امير البصرة، وتوعده على ذلك، وكان

١ المشان : بليدة فوق البصرة، كثيرة النخل، موصوفة بشدة الوخم اي لا يتجمع كلالها.

كثير المجالسة له . فبقي كالمقيد لا يتجاسر ان يعبث بلحيته . فتكلم في بعض الايام بكلام اعجب الامير ، فقال له : « ساني شيئاً حتى اعطيك . » فقال : « تُقطّعي لحيتي . » قال : « قد فعلت . » وقال ابن خلكان : « انه كان دميماً قبيح المنظر ، فجاءه شخص غريب يزوره ويأخذ عنه شيئاً ، فلما رآه استزرى شكله ، ففهم الحريري ذلك منه . فلما التمس منه ان يلي عليه ، قال له : اكتب :

مَا أَنْتَ أَوَّلَ سَارٍ غَرَهُ قَمَرٌ ، وَرَأَيْدِ اعْجَبَتْهُ خُضْرَةُ الدِّمَنِ
فَأَخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ غَيْرِي ، إِنِّي رَجُلٌ مِثْلُ الْمُعَيَّدِي ، فَاسْمَعْنِي ، وَلَا تَرْنِي
فخجل الرجل منه ، وانصرف .

أما

لحريري تأليف حسان ، منها درة العوّاص في اوهام الخواص ، بين فيه مغالط الكتاب في ما يستعملون من اللفظ بغير معناه . ومنها ملحة الإعراب ، وهي أرجوزة في النحو . ومنها ديوان شعر ورسائل . ومنها المقامات ، وهي أشهر آثاره ، فانها ترجمت الى عدة لغات اجنبية ، وشرحها غير واحد من العلماء امثال الشريشي ، والعكبري ، والزبيدي وغيرهم ، وطبعت مرات في بيروت ومصر واروبة .

سبب وضع المقامات

ذكر عبدالله بن الحريري السبب الذي من اجله وضع والده المقامات قال : « كان

١ سار : سائر ليلاً . الرائد : الرجل يرسله (لقوم ليطلب لهم المرعى . الدمن : جمع دمنة وهي آثار الدار ، وما تلبد من ابعاد الماشية فيها . وخضرة الدمن : ما نبت من العشب عليها فيعجب منظره ، على سوء مخبره . وهو مثل يضرب في حسن الظاهر ، وخبت الباطن . وقوله : غره قمر : اي غاب عنه بعد ان خدعه بظهوره .

٢ المُعَيَّدِي : نسبة الى معد بن عدنان بعد تصغيره وتخفيف داله . وقد جاء في المثل : « تسمع بالمُعَيَّدِي خير من ان تراه » قال المفضل الضبي : « اول من تكلم به المنذر بن ماء السماء قاله لشقة بن ضمرة التميمي الدارمي . وكان قد سمع بذكره ، فلما رآه ، اقتحمته عينه ، فقال له هذا المثل ، وسار عنه . فقال له شقة : « اييت اللعن ! ان الرجال ليسوا بجزر يراد منها الاجسام ، انما المرء باصغريه ، قلبه ولسانه . » فاعجب المنذر ما رأى من قلبه وبيانه . وهذا المثل يضرب لمن له صيت وذكر ، ولا منظر له . »

ابي جالساً بمسجد بني حرام، فدخل شيخ ذو طمرين، عليه اهبه السفر، رث الحال، فصيح اللسان، حسن العبارة. فسأله الحاضرون: «من اين الشيخ؟» فقال: «من سروج» فاستخبروه عن كنيته، فقال: «ابو زيد». فعمل ابي المقامة المعروفة بالحرامية، وهي الثامنة الاربعون، وعزاها الى ابي زيد السروجي المذكور. واشتهرت فبلغ خبرها الوزير شرف الدين أبا نصر انوشروان بن خالد بن محمد القاشاني، وزير الامام المسترشد بالله^١. فلما وقف عليها، اعجبته، واسار على والدي ان يضم اليها غيرها، فاتمها خمسين مقامة. «اه

وذكر ابن خلكان انه وجد نسخة مقامات بخط مصنفها، وقد كتب بخطه على ظهرها انه صنفها الوزير جمال الدين عميد الدولة الحسن بن صدقة وزير المسترشد ايضاً. فعلى هذه الرواية يكون عبدالله بن الحريري قد غلط في اسم الوزير. ويشير الحريري الى الوزير في خطبة مقاماته بقوله: «فاشار من اشارته حكم، وطاعته غنم، الى ان أنشئ مقامات اتلوف فيها تلو البديع، وإن لم يدرك الظالع^٢ شأ الضليع^٣». وجعل راوية مقاماته الحوث بن همام، وهو رجل خيالي اخذه من حديث: «كلكم حارث، وكلكم همام^٤».

ولم يسلم من اتهام الناس له، وانكارهم عليه مقاماته، فقد ذكر ابن خلكان انه رأى في بعض المراجع ان الحريري عمل اربعين مقامة، وحملها من البصرة الى بغداد، وادعاها فلم يصدقها في ذلك جماعة من ادباء بغداد، وقالوا انها ليست من تصنيفه، بل هي لرجل مغربي من اهل البلاغة، مات بالبصرة، ووقعت اوراقه اليه، فادعاها. فاستدعاه الوزير الى الديوان، وسأله عن صناعته، فقال: «انا رجل منشى^٥». فاقترح عليه انشاء رسالة في واقعة عينها. فانفرد في ناحية من الديوان، واخذ الدواة

١ سروج: بلدة بجزيرة الفرات.

٢ المسترشد بالله من الخلفاء العباسيين، خلفته من سنة ٥١٢-٥٢٩-١١١٨-١١٣٦م).

٣ انظالع: الذي يغمر في مشيته.

٤ الضليع: السمين، القوي الاضلاع.

٥ الحارث: الكاسب. الهام: الكثير الاهتمام بالامور.

والورقة، ومكث زمناً كثيراً، فلم يفتح الله عليه بشيء من ذلك، فقام خجلان. فلما رجع الى بلده عمل عشر مقامات اخرى، وسيرهن، واعتذر من عيه وحصره في الديوان بما لحقه من المهابة. وكان في جملة من انكر دعواه علي بن افلح الشاعر، وقد قال فيه:

شَيْخٌ أَنَا مِنْ رَبِيعَةِ الْفَرَسِ ، يَنْتَفُ عُنُونُهُ مِنْ أَلْهَوَسِ
 أَنْطَقَهُ اللَّهُ بِالْمَشَانِ كَمَا بَلَاهُ وَسَطُ الدِّيَوَانِ بِالْخَرَسِ

على ان المقامات الخمسين ثابتة للحريري، ولا وجه للشك في نسبتها اليه.

سيرته

لا يذكر الحريري الا كانت مقاماته اسبق آثاره الى الازهان، لان بها قامت ميّزته وميزته، فاليها نستند في كلامنا عليه، واظهار خصائصه في هذا الفن من الانشاء.

تحليل مقاماته

يبدأ الحريري مقاماته باسناد الكلام الى راويتها الحرث بن همام، ولكنه لا يقتصر كالبديع على قوله: «حدثنا». بل يميل الى التغيير في بدء كل مقامة فينتقل بين حدث وروى وحكى واخبر وقال.

والحرث بن همام رجل كثير الاسفار، فاما يطلب السفر من اجل ديون ينبغي قضاءها، او سعياً لرزق يكتسبه. وربما بدا موسراً يتلمهى بالترحال والاسفار والახبار. وقد يجتمع الحرث وابو زيد منذ اول المقامة، فيتعاونان على انشائها كما في المقامة الواسطية^١ اذ سعى ابو زيد في تزويج الحرث، حتى اذا كان العرس، دس للناس بنجاً في الطعام، فتخدروا، فسلب ما في البيوت من الاكياس والتخوت، ونجا لا يلاوي على العرس واهله.

والحارث اكرم اخلاقاً، واشرف نفساً من ابي زيد، فانه لم يشر كه في لصوصيته، ولطالما اُتبه على دناءته، وصارمه من اجلها، ولكنه لا يلبث ان يعود الى مصاحبتة

١ ربعة الفرس: اي ربعة بن تراد. سمي بذلك لانه اخذ الخيل ارتثاً عن والده. العننون: اللحية او ما نبت من الشعر على الذقن وتحتة سفلاً. الهوس: الخيرة والاضطراب.

٢ الواسطية: نسبة الى واسط، مدينة بالعراق سميت باسم قصر بناه الحجاج بسين الكوفة والبصرة.

لشففه بادبه . وهو على اجتماعه به في كل مقامة لا يعرفه الا اذا اتبعه وسأله عن حاله ،
او اذا تبين الاحتيال في اقواله واعماله . فيضطر الى كتم امره ، فما ينجر خبره الا بعد
ان ينأى عن البلد ، ويأمن اللحاق .

واما ابو زيد فشاعر خطيب مترسل ، عالم باللغة والنحو ، والفقه والفرائض ،
متصرف في ضروب الكلام ونوادر البيان ، يحترف الكدية بالاحتيال ، ويسلك اليها
شتى الطرق ، لا عدة له غير لسان فصيح ، وجنان قوي . فهو لص خبيث ، سكير خمر ،
مخادع منافق ، مستهتر فاسق . يظهر في كل المقامات ، وغالباً يعاونه على احتياله ولده
او زوجه ، وهما لا يقلان عنه خداعاً وخبثاً ، وفصاحة وعلماً ، ولهما من جمالهما شافع
يستعينان به على الاقتناص ، ولكنهما يصونانه عن التبذل .

ومقاماته فيها ادب كثير ، وفيها احتيال كثير ، وفيها دناءة وخساسة ، وفيها حكم
ومواعظ . وتنقسم من حيث الاغراض الى مقامات ادبية ، تظهر براعة ابي زيد في
تصريف الكلام ، وتقليب نوادر البيان ، كالمقامة القطيعية^١ ، وفيها أحاج نحوية
القاها ابو زيد على جماعة ، فعجزوا عن حلها ، فابى ان يفسرها لهم الا بعد ان نال منهم
الخباء . والى فكاهية كالمقامة الواسطية ، وقد مر ذكرها . والى مجونية كالمقامة
الرحبية^٢ ، وفيها يسوق ابو زيد ولده الى الوالي متهماً اياه بانه فتك بابنه . فينتصر
الوالي للغلام ، ويدفع لابي زيد بعض دية المقتول ، على ان يجمع له الباقي في الغد . فما
دجا الليل الا شمر ابو زيد وفرخه للهرب ، تاركين الوالي على احرام من ذات اللهب .
والى دينية يقف فيها ابو زيد واعظاً مزهداً في الدنيا كالمقامة الصنعانية^٣ ، والى خلقية
اجتماعية كالمقامة الرازية^٤ ، وفيها يعظ ابو زيد الوالي الذي يغتر بمنصبه ، ولا يعتمد
بحقوق الناس .

وهذه الاغراض على اختلافها يقصد بها الى الكدية ، ووسائلها عند ابي زيد كثيرة ،

١ القطيعية : نسبة الى قطيعه الربيع وهي محلة ببغداد

٢ الرحبية : نسبة الى رحبة مالك بن طوق وهو بلد على الفرات .

٣ الصنعانية : نسبة الى صنعاء اليمن على غير قياس .

٤ الرازية : نسبة الى الري ، بلد بعراق العجم .

فمرة يطلبها بالتقوى والتنسك، فيخدع الناس، وينال سلبهم، حتى اذا خلا في مشواه عكف على الخمر والمجون. فكأن الحريري يمثل به جماعة من شيوخ الدين، يتخذون النفاق لهم شعاراً، وينصحون الناس، ولا ينتصحوون. ومرة يتلاحى وزوجته عند القاضي او الوالي ويتجادلان، وكلاهما فصيح لسن، فيعجب بهما الحكم ويصلح بينهما ويدفع لهما شيئاً من المال. وحينئذ يكون الخصام بينه وبين ولده. واكثر ما يمثل الولاة والقضاة اغبياء تجوز عليهم الحيل، او فساقاً يجورون عن الحق خضوعاً للجمال. و اخباره مع القضاة والولاة كثيرة متشابهة يكاد لا يختلف بعضها عن بعض.

واعظم وسيلة عنده للتكدي فصاحة لسانه، وسعة علمه. وربما عمد الى طرق في غاية الدناءة والخسة كأن يشحذ ثمن كفن لميت يدعيه. او يقطع الطرق ويسل الحيل. او يتعمى فتقوده امرأته الى المسجد ليصطاد الناس باحاييله. فالكدية عند ابي زيد ملازمة له في جميع مقاماته، لا تفارقه ولا يفارقها.

ولكن لابي زيد نهاية حسنة ليس لابي الفتح مثلها، فانه تاب توبة نصوحاً في المقامة الاخيرة، واقلع عن الاحتيال والفسق، وتنسك وفارق راويته فراقاً لالقاء بعده. والحريري في مقاماته اكثر تعلقاً بالخواضر من بديع الزمان، فما يكاد يخرج الى البادية الا في واحدة منها او اثنتين. ومقاماته في الغالب اطول من مقامات استاذه بيد ان طولها لا يعود على اتساع الفن القصصي فيها، وانما على اجتماع خبرين في مقامة واحدة. او على فيض الالفاظ، وكثرة المترادفات، ومعاقبة الجمل على المعاني. او على الاكثار من الشعر، وفيه القصائد التي يشرح بها ابوزيد احواله، ويقص اخباره.

انشأوه

لحريري لغة متينة، قصيرة الجمل يقطعها تقطيعاً موسيقياً، فما تتعدى جملة الكلمات او الثلاث. وقلما زادت فبلغت الخمس او الست. وهو في انشائه بادي الصنعة ظاهر التكلف، يعتمد الغريب، ويسرف في استعماله. ويفرط في اصطناع المجاز والتزيين، حتى تجفو عبارته ويقل ماؤها، ويعسر مساعها. فقد اولع بالسجع فلم يقتصر على التزامه في فواصل الجمل، وانما تعمّله في اجزائها، وجاء به متوازياً او

مرصعاً كقوله: «وهو يطبعُ الاسجاعُ بجواهر لفظه، ويقرعُ الاسماعُ بزواجر وعظه». وقد يعدد الاسجاع على قافية واحدة، ويتورط معها في تكلف الاستعارة، وتقليب الالفاظ على المعنى الواحد لتمام له القوافي.

ويفتنُ في الجنس على انواعه من تلم وناقص: «وترغبُ عن هادٍ تستهديه، الى زادٍ تستهديه. وفي الوجد مقيك، فما قيلك؟... لما اقتعدتُ غاربَ الاغتراب^١، وأنا تني المتربةُ عن الأتراب^٢».

وكثيراً ما يأتي بالجناس المتكافئ: «او يعطفُ عليك مفسرك، يومَ يَضُكُ مفسرك». وربما حلتى سجعاته بثلاث متجانسة: «فلما استأذنته في المراح^٣، الى المراح^٤، على كاهل المراح^٥».

ولطالما ترحل في تحذلقه اذ يطلب السجع او الجنس، فيزور عنه، وما يتأتى له الا بشق النفس، وتظهر عليه البرودة والغثاثة كقوله: «واستعنتُ بقاطبة الكتاب، فكلُّ منهم قطبٌ وتاب». فقد جرَّ قاطبةً من اجل الجنس والسجع، وهي لا تستعمل الا منصوبة على الحال، ووضع فعل تاب في غير موضعه، فبدأ نافراً متقللاً. ومن قبائحه في المسجوع ان يفصل بين العامل والمعمول كقوله: «أو لحالك دان، عبدُ المدان^٦».

وشغفُ الحريوي بهذه المحسنات وغيرها من انواع البديع اللفظي والمعنوي، حمله على ان يجعلها من اغراض مقاماته. فانشأ مقامات لا غاية منها الا اظهار براعته في هذه

١ الغارب : مقدم ظهر الدابة ، استعاره للاغتراب .

٢ المتربة : الفقر .

٣ المراح : الروح .

٤ المراح : المأوى .

٥ المراح : شدة الفرح والنشاط .

٦ عبد المدان : رجل في الجاهلية يضرب به المثل في العز والشرف .

الاشياء ، وحلّاهَا بِاشعار ورسائل فيها العواطل والحوالي ، والرُّقُط والاختِاف . وفيها التوريات والاحاجي والالغاز . فتعقد بها انشاؤه ، وكثر غموضه . ففني بشرحها وتفسيرها ، وتحليل معجماتها ومعانيها . فمن العواطل قوله من قصيدة :

أَعْدِدْ لِحُبَّادِكَ حَدَّ السِّلَاحِ ، وَأُورِدِ الْآمِلَ وَرَدَ السَّحَاحِ
ومن الحوالي :

فَتَنَّتْنِي ، فَجَنَّتْنِي تَجَنِّي ، بَتَجَنَّ يَفَنُّ غِبَّ تَجَنَّ^١
ومن رُقطه قوله من رسالة :

« أَخْلَاقُ سَيِّدِنَا تُحِبُّ ، وَبِعَقْوَتِهِ يُلَبُّ^٢ ، وَقُرْبُهُ تُحَفُّ ، وَنَائِيُهُ تَلَفُّ^٣ . »
ومن اخيافه :

« الْكُرْمُ ، ثَبَّتَ اللَّهُ جَيْشَ سَعُودِكَ ، يَزِينُ . وَاللُّؤْمُ ، غَضَّ الدَّهْرُ جَفْنَ حَسُودِكَ ، يَشِينُ^٤ »
ومن تورياته والغازه قوله من قصيدة كلها على هذا النمط :

وَكَاتِبِينَ وَمَا خَطَّتْ أَنَا مِلَهُمْ^٥ حَرَفًا ، وَلَا قَرَأُوا مَا خُطَّ فِي الْكِتَابِ^٦
ومن احاجيه ومعجماته :

يَا مَنْ بَدَأَ بَيَانُهُ ، عَنْ فَضْلِهِ مُيْتَنَا^٧
مَاذَا مِثَالُ قَوْلِهِمْ : حِمَارُ وَحْشٍ رَيْنَا^٨ ؟
وقوله يحاجي في مسائل فقهية :

« أَيْسْتَبَاحُ مَاءِ الضَّرِيرِ ، قَالَ : نَعَمْ ، وَيُجْتَنَّبُ مَاءُ الْبَصِيرِ^٩ . »

وله غير ذلك اعاجيب كثيرة منها الالفاظ التي تكتب بالصاد والسين ، كالصرط

١ تجني : اسم امرأة . بتجن : بنيه ودلال . يفنن : يتنوع .

٢ بعقوته : بفنائته . يلَبُّ : من اللَّبَّ بالمكان اقام .

٣ الكتاتين : اي الخرازين . يقال : كتب السقاء والمزادة اذا خرزهما .

٤ حمار وحش رينا : يمثله فرأزين ، فان الفراء حمار الوخش ، وزين مجهول زان ، والفرازين اذا أخذت لفظه واحدة كانت جمع فرزان وهي الملكة من حجارة الشطرنج .

٥ الضرير : الاعمى والمتبادر الى الذهن ان الشرع يجيز ان يفتصب ماء يملكه الاعمى ، ولا يجيز ذلك في ماء البصير . اما الضرير هنا فمناه : حُرْف الوادي . والبصير : الكلب . وماؤه : بوله .

والصقر ، ومنها الشعر الذي لا يستحيل بالانعكاس ؟

أُسْ أَرْمَلًا إِذَا عَرَا ، وَارَعَ إِذَا أَلْمَرَ أَسَا^١

ومنها اشياء أخر يطول بنا الامر لو عمدنا الى ذكرها . وان في ما اوردها كافياً للدلالة على صنعة الحريري ، وامعانه في طلب المحسنات البديعية حتى جعل لها المقام الاعلى في انشائه ، فنبا به عن الطبع ، ولم يسلم مطالعه من السأم والضجر .

ويكثر الحريري في مقاماته من الامثال ، فقد اورد منها طائفة جميلة ، ومن الاشار وكلها من نظمه الا اربعة ابيات ذكرها على سبيل الاستشهاد .

وانشاؤه على الاجمال لا تنحط بلاغته ، اذا جردته من الرموز والاحاجي والالغاز .

مترنه

قال فيه ابن خلكان : « كان احدائة عصره ، رزق الخطوة التامة في عمل المقامات واشتملت على شيء كثير من كلام العرب ، في لغاتها وامثالها ، ورموز اسرار كلامها . ومن عرفها حق معرفتها ، استدلل بها على فضل هذا الرجل ، وكثرة اطلاعه ، وغزارة مادته . » اهـ . وقال الزمخشري :

أَقْسِمُ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ ، وَمَشْعَرِ الْحَجِّ وَمِيقَاتِهِ^٢
أَنَّ الْحَرِيرِيَّ حَرِيٌّ بِأَنَّ تَكْتُبَ بِالتَّبْرِ مَقَامَاتِهِ^٣
مُعْجِزَةٌ تُعْجِزُ كُلَّ أَوْرَى ، وَلَوْ سَرَوْا فِي ضَوْءِ مَشْكَاتِهِ^٤

ومترلة الحريري لم تقم على جمال القصص في مقاماته ، والتفنن في اغراضها . وانما قامت على انشائها المنعق ، وما فيها من رموز لغوية ، واحاج بيانية . فالحريري لم يحفل

١ أُسْ : أعطى من أس يؤوس اوساً : ارملاً : فقيراً نافداً الزاد . عرا : اتى طالباً .
وارع : واحفظ . أسا : اي أساء .

٢ المشعر : موضع مناسك الحج وعلاماته .

٣ التبر : الذهب .

٤ المشكاة : كل كوة غير نافذة ، يشير الى الآية القرآنية . « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . » اي كوة فيها مصباح وقوله : ولو سروا في ضوء مشكاته : اي لو اهتمدوا بجدية ، واقتفوا معالمة .

بالفن القصصي فيعمد الى ترقية بل قصر همته على التصرف في الالفاظ ، وضروب
المحسنات والالغاز . فجاءت اقاصيصه متشابهة المواضيع ، محدودة الخيال ، ولكنها
حافلة بكل عجيب من انواع البيان والبديع ، وكل غريب من كلام العرب ومذاهبهم .
وكان التصنع في الانشاء هو الطراز الاعلى يومذاك ، ففتن بانشائه اهل زمانه ،
ومن جاء بعدهم ، فاتخذوا مقاماته عنواناً للكمال ، لا يلتفتون الى غير الصناعة اللغوية
فيها . واليها اشار ابن خلكان في كلامه ، والزخشي في شعره .
وكثر بعد الحريري وضاع المقامات ، واشهر من اصطنعها في المتقدمين الزخشي
والسيوطي ، وفي المتأخرين الشيخ ناصيف اليازجي ، وكلهم اتخذ الحريري استاذاً له
يحتذي على مثاله .

العلوم

العلوم : اللغة . التاريخ . الجغرافية . الفلسفة .

ظل الاشتغال باللغة على نحو وازدياد ، وتكاثر الكتب المصنفة ، ولا سيما
كتب النحو والبيان . واشتهر من اصحاب اللغة طائفة كبيرة منهم ابو زكريا التهريزي
وله ملخص اعواب القرآن ، وشرح المعاني ، والوافي في العروض . ومنهم الحريري
وقد تقدم ذكر تأليفه . ومنهم الجرجاني وله اسرار البلاغة في المعاني والبيان . ودلائل
الاعجاز في علم المعاني ، والعوامل المائة . ومنهم الزخشي وله اساس البلاغة في اللغة
والمفصل في النحو . ومنهم السكاكي وله مفتاح العلوم في الصرف والاشتقاق والنحو
والمعاني والبيان والعروض . ومنهم الصغاني وله مجمع البحرين في اللغة . ومنهم ابن
الحاجب وله الكافية في النحو . ومنهم ضياء الدين ابن الاثير وله المثل السائر في علم
البيان والصناعة اللفظية والمعنوية ، وسنعود اليه في كلامنا على الادب والادباء .
وكذلك التاريخ كان له حظ حسن ، فقد وضعت فيه الكتب العديدة لتعدد

الممالك . واشهر المؤرخين عماد الدين الاصفهاني ، وله كتب في فتوح صلاح الدين
واخبار السلاجقة . وشهاب الدين ابو شامة وله الروضتين في اخبار صلاح الدين ونور
الدين وحروب الصليبيين . والسمعاني وله كتاب الانساب . والقفطي وله معجم تاريخي
للفلاسفة والاطباء والطبيعيين والرياضيين ، وله انباء النجاة ، واخبار مصر . وابن
عساكر الدمشقي وله تاريخ دمشق . وعز الدين ابن الاثير وله كتاب الكامل في
التاريخ العام ، ويعرف بتاريخ ابن الاثير .

واما الجغرافية فقد كان تقدمها في الاندلس ، ولم يخل الشرق من رجال اشتغلوا
بها وبالتاريخ معاً امثال ياقوت الحموي وله معجم البلدان وهو كتاب جغرافي كبير
باسماء البلاد . وامثال ابي الفرج الجوزي وله كتب كثيرة في التاريخ والجغرافية .
واما الفلسفة فقد ذوت في الشرق بعد ان نبغ الغزالي واصلاها واصحابها حرباً
حامية في كتابه تهافت الفلاسفة . ولولم تتداركها الاندلس لاندثرت معالمها عند العرب .

الادب والادباء

لم تتبدل طرق النقد واساليبه ، وانما توسع الادباء في علم البيان ، وحددوا اصوله
وفروعه ، وعنوا بتحسين نظم الانشاء ، وضبطها ، كما فعلوا في الشعر من قبل . وكان
الفضل في ذلك للجرجاني فان كتابه اسرار البلاغة حقيق بان يدعى مفتاح علم البيان ،
وركن صناعة الانشاء . ثم جاء بعده جماعة من الادباء ، فنهضوا بهذا الفن ، ورفعوا
مناره ، فأتسع نطاق النقد ، وشمل النثر والكتاب ، فاصابهم منه قسط وافر بعد ان
كاد يكون مقصوراً على الشعر والشعراء . وضيء الدين ابن الاثير في مقدمة من لهم
اليد البيضاء على صناعة النقد وعلم البيان .

ابن الاثير

١١٦٢ — ١٢٣٩ م و ٥٥٨ — ٦٣٧ هـ

- حياته : نشأته . اتصاله بالايوبيين . صفاته و اخلاقه . استاذوه و علومه .
 اثره : المثل السائر . الوشي المرقوم . المعاني المخترعة . رسائل .
 ميزته : المثل السائر - اغراضه . البحث في علم البلاغة والنقد الادبي . مقدمة
 ومقالتان . المقدمة . موضوع علم البيان . المقالة الاولى : الصناعة
 اللفظية . المقالة الثانية : الصناعة المعنوية . انشاؤه . منزلته .

حياته

هو نصر الله بن محمد الشيباني، كنيته ابو الفتح، ولقبه ضياء الدين، ويعرف بابن
 الاثير الجزري منسوباً الى جزيرة ابن عمر^١ وفيها ولد ونشأ. وانتقل به والده الى
 الموصل، فحصل فيها العلوم حتى اذا اكتملت آتته، قصد صلاح الدين الايوبي في دمشق
 سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) فجعله في خدمته، فلبث بضعة اشهر. ثم صار الى خدمة
 ولده الملك الافضل نور الدين، فاستوزره هذا. ولما توفي والده استقل بمملكة دمشق،
 واستقل ضياء الدين بالوزارة، وردت اليه امور الناس.

ثم ان الملك الافضل جرت له وقائع مع اخيه العزيز صاحب مصر، فاتفق العزيز
 وعمه الملك العادل على غزو دمشق واستنقاذها من يد نور الدين. وتأتى لهما الامر سنة
 ٥٩٢ هـ (١١٩٥ م) فاستوليا عليها واعطيا الملك الافضل صرخداً^٢ بدلاً منها.
 فصار اليها، واقام بها. وكان ابن الاثير قد اساء السياسة في اهل دمشق، فنقموا عليه،

١ جزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل تحيط بها دجلة الا من ناحية واحدة شبه الهلال .
 قال ياقوت : « ان اول من عمرها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي . » وقال ابن خلكان :
 « قيل انها منسوبة الى يوسف بن عمر الثقفي امير العراقيين ، ثم ظفرت بالصواب في ذلك ، وهو
 ان رجلاً من اهل برقيع من اعمال الموصل ، بناها واسمها عبد العزيز بن عمر فاضيعت اليه . »
 ٢ صرخد : بلدة في جبل الدروز فيها قلعة قديمة .

فلما زال ملكه هموا به، فوضعه الخاجب محاسن بن عجم في صندوق، واخرجه من دمشق خفية، فمضى الى سيده في صرخد .

ثم توفي العزيز صاحب مصر سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) وخلفه ابنه المنصور وهو في الثامنة، فاستدعى رجال الدولة عمه نور الدين من صرخد ليكون له وصياً، وعنه نائباً، فحضر وتبعه ابن الاثير . وفي المثل السائر ان ضياء الدين جاء مصر سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م)

ونشبت الحروب بين نور الدين وعمه الملك العادل صاحب دمشق، فقصد الملك العادل مصر سنة ٥٩٦ هـ، واخرج الملك الافضل منها . ولم يجرؤ ابن الاثير ان يخرج من مصر الامستخفياً، لان جماعة كانوا يقصدون قتله لما لقوا من عنته واستبداده . وذهب الملك الافضل الى سُميساط^١ ولم يسمح له عمه بغيرها، وعاد ضياء الدين الى خدمته . ثم فارقه سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) واتصل بخدمة اخيه الملك الظاهر صاحب حلب . فلم يطل مقامه عنده، ولا انتظم امره، وخرج مغاضباً . وعاد الى الموصل . فلم يستقم حاله، فورد اربل^٢ ثم تركها الى سنجار^٣، ثم رجع الى الموصل، واتخذها دار اقامة، وكتب فيها لصاحبها ناصر الدين محمود بن الملك القاهر، من ملوك الدولة الزنكية^٤، وبقي في خدمته حتى مات . وكانت وفاته في بغداد، وذلك ان ناصر الدين بعث اليها في مهمة، فمضى بها نخبه، ودفن فيها بمقابر قریش . وخلف ولداً اسمه محمد، ذكره ابن خلكان، ونعته بالنباهة، واثني على ادبه في المنظوم والمثثور . وضياء الدين هو احد الاخوة الثلاثة عز الدين المؤرخ المشهور صاحب الكامل، ومجد الدين صاحب النهاية في غريب الحديث والاثار .

١ سُميساط : قلعة في بر الشام على الفرات .

٢ اربل : مدينة كبيرة قرب الموصل من جهتها الشرقية .

٣ سنجار : مدينة في العراق العجمي .

٤ الدولة الزنكية : فرع من الدولة السلجوقية، مؤسسها عماد الدين زنكي، وكان من موالي ملك شاه السلجوقي، امتد سلطانها على الجزيرة والشام، وحكمت من سنة ٥٢١ - ٦٥٧ هـ (١١٢٧ - ١٢٥٨ م) .

صفاته واهله

عرف ابن الاثير بكبريائه واستبداده، فكرهه الناس، ونذروا دمه غير مرة
وكان كثير الاعجاب بنفسه حتى الغرور، لا يرى خيراً الا فيما يقول ويفعل، وقلماي
خيراً فيما يقول غيره ويفعل. فكثرت اذيته في العلماء والادباء الذين تقدموه او
عاصروه، ووقع بهم وازدراهم، وحقر آراءهم، ورواهم باقبح النعوت. فانقبض عنه
رجال العلم، ومقتوه، وطعنوا عليه، وعنفوه.

استاذوه وعلومه

درس ابن الاثير في الموصل، فحفظ القرآن، وكثيراً من الاحاديث النبوية، وطرفاً
صالحاً من النحو واللغة والبيان، وشيئاً غير يسير من الاشعار. ولم يعرف احداً من
استاذيه، الا انه يجهرنا في المثل السائر انه وقف من الشعر على كل ديوان مجموع،
وانفذ شطراً من العمر في المحفوظ والمسموع، فالفاه مجراً لا يوقف على ساحله.
فاقتصر منه على ما تكثر فوائده، واكتفى بشعر ابي تمام والبحري والمتني، فهؤلاء
الثلاثة هم عنده لات الشعر وعزاه ومناثه. فروى لهم اكثر مما روى لغيرهم، واستفاد
من فصاحة اقوالهم، وبلاغة معانيهم.

اماره

لضياء الدين مصنفات حسنة اشهرها المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر،
وسنتولى تحليله ونقده. ثم كتاب الوشي المرقوم في حل المنظوم، جعله في مقدمة
وثلاثة فصول، الاول في حل الشعر، والثاني في حل آيات القرآن، والثالث في حل
الاحاديث النبوية. وله كتاب المعاني المخترة في صناعة الانشاء. ومجموعة رسائل
اورد منها شيئاً في المثل السائر.

ميراثه

قامت شهرة ابن الاثير على كتاب المثل السائر وهو خير مصنفاته، واجمعها لميراثه
فنكتفي به لظهار خصائصه الادبية، وما له من طرق فيها واساليب.

هذا الكتاب يتضمن البحث في علم البلاغة ، والنقد لصناعة الكاتب والشاعر ، وقد بناه صاحبه على مقدمة ومقالتين . فالمقدمة تشتمل على اصول علم البيان ، والمقالتان تشتملان على فروعه . والمقدمة تتضمن عشرة فصول ، يتكلم فيها على موضوع علم البيان ، وما ينبغي له من الادوات . ثم يبحث في الحكم على المعاني ومعرفة اساليبها في التفسير والتأويل ، والترجيح بينها . ثم في جوامع الكلم ، والحقيقة والمجاز والفصاحة والبلاغة ، واركان الكتابة ، وطريق تعلمها .

والمقالة الاولى تبحث في الصناعة اللفظية ، وهي على قسمين الاول في اللفظة المفردة ، والثاني في الالفاظ المركبة ، وجعل صناعة تأليفها على ثمانية انواع كالسجع والتجنيس والترصيع والمعاظلة وسواها .

والمقالة الثانية تبحث في الصناعة المعنوية ، وهي ايضاً على قسمين الاول في الكلام على المعاني مجملًا ، والثاني في الكلام عليها مفصلاً . والقسم الاول على ضربين احدهما في ما يبتدعه المؤلف من غير ان يقتدي فيه بمن سبقه . والثاني في ما يحتذي فيه على مثال سابق ومنهج مطروق . والقسم الثاني بناه على ثلاثين نوعاً كالتشبيه والاستعارة والتجويد ، والتقديم والتأخير ، والايجاز ، والاطناب ، والكناية ، والسرقات الشعرية وغيرها .

ويتخلل هذه الابحاث شعر ورسائل ، وآيات واحاديث ، يبنى عليها كلامه ، او يستشهد بها على صحة اقواله . وربما عمد الى الموازنة بين شاعرين كما وازن بين البحتري والمتنبي في وصفها الاسد . وكثيراً ما يورد من رسائله ، ويجعلها مثلاً للبلاغة في النوع الذي يتكلم عليه ، ويعني بتحليل معانيها ، وتنبيه القارى على النظر اليها .

وكأين عرض لا قوال غيره من الكتاب فطعن عليها ، وازدراها كما فعل بالحريري وابن نباتة الخطيب . فانه عاب سجعها من اجل تكرير المعنى بالفاصلتين المنردوجتين . وعاب مثل ذلك على اية المترسلين كابن العميد والصابي والصاحب بن عباد .

وعرض للشعراء ، فادرك عليهم ما عاب من اقوالهم ، واستهزأ بن يتعصب
لبعضهم حتى لا يرى له عيباً فعله بالمتنبى وابي العلاء . فانه اورد هذا البيت لابي
الطيب :

فَلَا يُزِمُّ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ حَالٌ ، وَلَا يُحِلُّ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ يُزِمُّ

وقال : « فلفظة حال نافرة عن موضعها ، وكانت له مندوحة لو استعمل عوضاً
عنها كلمة ناقض . وجعل لا ينقض موضع لا يحل » اه . ثم قال : « وبلغني عن
ابي العلاء بن سليمان المعري انه كان يتعصب لابي الطيب حتى انه كان يسميه الشاعو
ويسمي غيره من الشعراء باسمه . وكان يقول : « ليس في شعره لفظة يمكن ان يقوم
عنها ما هو في معناها ، فيجبي حسناً مثلها . » فياليت شعري اما وقف على هذا البيت
المشار اليه ؟ لكن الهوى ، كما يقال ، اعمى ، وكان ابو العلاء اعمى العين خلقة ، واعماها
عصبية ، فاجتمع له العمى من جهتين . » اه .

وفي كلامه على علم البلاغة لا ينفك يذكر اقوال من تقدمه من علماء البيان ،
ويظهر خطأها ، وضعف مدلولها ، وقصر نظرهم فيها . ثم يذكر اقواله ، ويدل بها ،
ويباهي انه استنبطها ، وفتحت له كنوزها ، ولم يسبق اليها . واذا سبقه احد الى رأي
يريد ان يتبناه ، لا يكذب ان يجد فيه عوجاً ، ليكون له الفضل في تقويمه . ومثل
هذه الاشياء كثيرة في المثل السائر ، وهي تصور ادق تصوير عجرفة صاحبه ، وشدة
غروره .

على انه لا بد لنا ان ننصف ابن الاثير فنقول : ان الجحاث في البيان ، واستنباطاته
لاحكامه ، تدل على علم صحيح ، وذكا عجيب ، وقوة استنتاج . ولكن حب المعارضة
كان يدفعه الى الافراط في المخالفة ، فما يأمن الزلل بعض الاحيان ، مثال ذلك :
فان قيل : « انك قلت ان الفصيح من الالفاظ هو الظاهر البين ، اي المفهوم .
ونرى من آيات القرآن ما لا يفهم ما تضمنه من المعنى الا باستنباط وتفسير . وتلك
الآيات فصيحة لا محالة ، وهذا بخلاف ما ذكرته . » قلت : لان الآيات التي تستنبط
وتحتاج الى تفسير ليس شيء منها الا ومفردات الفاظه كلها ظاهرة واضحة ، وانما
التفسير يقع في غموض المعنى من جهة التركيب لا من جهة الفاظه المفردة ، لان معنى

المفردة يتداخل في التركيب، ويصير له هيئة تخصه. وهذا ليس قدحاً في فصاحة تلك
 الالفاظ، لانها اذا اعتبرت لفظة لفظة، وجدت كلها فصيحة اي واضحة ظاهرة. « اه
 فهذا القول بين الضعف، لان الغريب في القرآن موجود، وقد صنف فيه الكتب
 منذ القرون الاسلامية الاولى، يوم كان الناس يتخاطبون باللغة الفصحى، ولا يضيقون
 ذرعاً بالالفاظ الغريبة. فاني لابن الاثير ان ينكره، وهو في عصر ضعفت لغة ابنائه،
 وفشت بينهم اللهجات العامية. وهبه كان له من العلم بكلام العرب ما يجعل الفاظ
 القرآن كلها بيئة مفهومة عنده، أفينبغي له ان ينفي الفصاحة عن الغريب، وهو اضافي
 بين عصر وعصر، وشخص وآخر؟ وماذا يضير فصاحته اذا لطف لفظه، وحسن وقعه،
 وسهل مساعه كغريب القرآن .

انشاؤه

يختلف انشاء ضياء الدين في المثل السائر عنه في رسائله، فبينما هو في الرسائل
 يلتزم السجع والمحسنات البديعية، اذا به في المثل السائر يتعد عنها كل البعد، فاقتر
 بسجع او وشي الاعرضاً. فانشاؤه فيه، ظاهر الطبعية، سهل العبارة، واضح الاسلوب،
 بريء من التعقيد والاعراب، غالب عليه الاسهاب. فكان صاحبه استاذ يعني بشرح
 درسه، وايضاحه، وتعليه، ليجعله مفهوماً، قريباً من الاذهان .

ويمتاز انشاؤه في صبغة رياضية بيّنة، يكثر فيها التقسيم الفيشاعوري المتشعب .
 وكثيراً ما يعتمد الى الادلة المنطقية لتأييد آرائه . وغلب عليه الجدل، فاما يورد
 اقوال غيره ثم يقول : « فاقول في الجواب . » ويرد عليها . واما يلقي السؤال على
 نفسه، ويجيب عليه .

وشخصية ابن الاثير ظاهرة كل الظهور في انشائه، تصطدم معها كيف سرت .
 فتراه دائماً يحدثك عن نفسه، وينبه خاطرك الى آرائه، ويدل عليك بصحة علمه وقوة
 استنباطه ويملاً رأسك بكثرة دعاويه، وينفرك بلووم طبعه وكبريائه، حتى لتحسبه
 وهو يتكلم على ابتداعاته، نبياً يوحى اليه : « وهداني الله لابتداع اشياء، لم تكن
 قبلي مبتدعة، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون اقوالها تابعة، وانما هي متبعة .
 ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لي عن اسرارها، واطفرتني بكنوز جواهرها

اذ لم يظفر غيري باحجارها . « اه .

وانشاؤه على سهولته ووضوحه وحسن انسجامة لا يعد في الطراز العالي ، ولا يجري به مع كبار الكتاب المتقدمين ، وربما وقعت له على اشياء لا تخلو من الضعف كقوله : « وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر . » ووجه الكلام ان يكون التوكيد بعد المؤكد . على أن هذه الهنات قليلة عنده لا تكاد تذكر .

مصرته

قال ابن خلكان : « ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله ، وتحقيق نبذه كتابه الذي سماه المثل السائر ، في ادب الكاتب والشاعر ، جمع فيه فاعى ، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة الا ذكره . » اه .

ولا جرم ، ان المثل السائر من عيون الكتب التي صُنفت في علم البلاغة ، وقد نبذ فيه صاحبه باتساق افكاره ، وقوة استنباطه ، وحسن منطقته وتعليله ، على جراءة في النقد والجدل ، ولو لم يشنها الصلف لكانت محبة . وقد يستحسن من العلماء الاعتداد بالنفس ، ولكن أن يخرج بهم الى الغرور والكبر ، غير محمود ، بل هو ممقوت . وهذا ما اصاب ضياء الدين ، فان الناس كرهوه ، والعلماء حملوا عليه ، وانتقدوه . وكان في جملة ناقديه ومسفهي اقواله ابن ابي الحديد المدائني .

ولكن من العدل ان نعترف بفضل ابن الاثير فانه في مقدمة من اوضح معالم البلاغة ، واحكام الكلام على فنون الانشاء ، ورتب فصوله وانواعه ، وبين اصوله وفروعه ، ودقق في جمال اللفظ المفرد والمركب وحلّى النقد الادبي بجراءة لا تعرف هواده ولا مداراة ، ورفع بنيانه على قوة المنطق وبراعة التعليل .

الى هنا انتهت بنا الاعصر العباسية بما فيها من ادب زاخر ، وعلوم زاهرة . وان في ابحاث هذا الكتاب على اجترائه باشخاص معدودين ، لصوراً جليلة لاطوار الشعر والنثر وما بلغا اليه من نهضة وارتفاع ثم التواء . وقد حقّ للاعصر العباسية ان تحمل وحدها مشعل حضارة الاسلام .

المفهرست

العصر العباسي الاول - لمحة تاريخية	٢١٢	✓ الجاحظ	٢١٢
الشعراء المولدون - ميزة الشعر	١٧	علوم اللغة	٢٣٣
بشار بن برد	٣١	العلوم الدخيلة	٢٣٣
✓ ابو نواس	٥٠	الادب والادباء	٢٣٦
✓ ابو تمام	٧٦	العصر العباسي الثالث - لمحة تاريخية	٢٣٨
دعبل	٩٢	الشعراء المولدون - ميزة الشعر	٢٤٥
الكتاب المولدون - ميزة النثر	١٠٤	✓ المتنبي	٢٥١
✓ ابن المقفع	١١٢	✓ ابو فراس	٢٩٥
علوم اللغة	١٣٠	الكتاب المولدون - ميزة النثر	٣٠٧
الخليل	١٣٤	✓ بديع الزمان	٣١٠
العلوم الدخيلة	١٣٨	• القصص	٣٢٩
العلوم الدينية	١٤٥	العلوم	٣٣٢
• الادب والرواة	١٥٩	الادب والادباء	٣٣٣
ابو عبيدة	١٥٩	✓ ابو الفرج الاصبهاني	٣٣٤
الاصمعي	١٥٩	العصر العباسي الرابع - لمحة تاريخية	٣٤٠
محمد بن سلام	١٥٩	الشعراء المولدون - ميزة الشعر	٣٤٤
ابو زيد القرشي	١٦٩	الكتاب المولدون - ميزة النثر	٣٤٦
العصر العباسي الثاني - لمحة تاريخية	١٦٩	✓ الحويري	٣٤٧
الشعراء المولدون - ميزة الشعر	١٦٩	العلوم	٣٥٦
✓ البحري	١٦٩	الادب والادباء	٣٥٧
✓ ابن الرومي	١٦٩	✓ ابن الاثير	٣٥٨
• الكتاب المولدون - ميزة النثر	١٦٩		

۱۹۴۷ - ۱ - ۱

مطابع صادر ريجاني : بيروت

A.U.B. LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00353574

